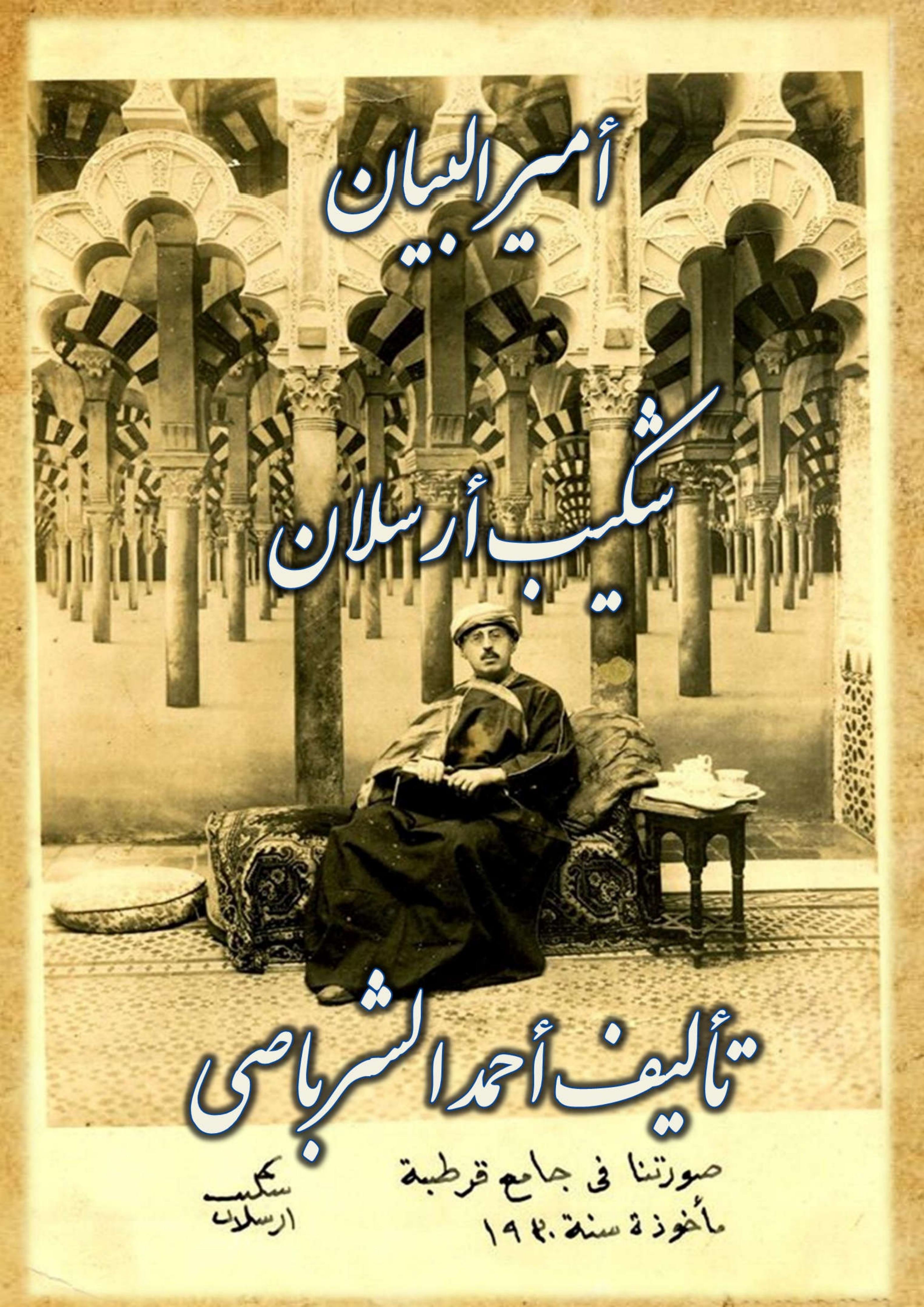

أمير البيان
شكيب أرسلان
تأليف أحمد الشرباصي
صورتنا فى جامع قرطبة
مأخوذة سنة ١٩٣٠
شكيب
ارسلان

أمير البيان

شكيب أرسلان

تأليف

أحمد الشرباصي

هدية
لأخي الجليل
الأستاذ أحمد محب الشرباصي
مع أطيب التحيات
أحمد الشرباصي
أول أكتوبر ١٩٦٣

الجزء الأول

١٣٨٣ – ١٩٦٣

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

الطبعة الأولى

١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم محمد وآله ، وصحبه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير :

« رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرِ » .

بين يدى البحث

هذا الكتاب كان موضوعاً لرسالة تقدمت بها إلى معهد الدراسات العربية العالية ، لنيل درجة « الماجستير » فى الدراسات الأدبية واللغوية .

وقد نوقشت هذه الرسالة مساء يوم الثلاثاء ١٢ من شعبان ١٣٨٢ هـ الموافق ٨ من يناير ١٩٦٣ م ، فى جلسة علنية بالمعهد حضرها جمهور حاشد ، وكانت لجنة المناقشة مكونة من الأستاذ محمد خلف الله أحمد وكيل جامعة عين شمس ، والدكتور إسحق موسى الحسينى رئيس قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية العالية ، وبعد مناقشة ممدودة قررت اللجنة منح صاحب الرسالة شهادة « الماجستير » بدرجة « ممتاز » ، وأن يقوم المعهد بطبع هذه الرسالة « تقديراً لها من ناحية ، وتعميما للفائدة منها من ناحية أخرى » .

وجاء فى قرار اللجنة ما يلى :

« تبين أن مقدم الرسالة :

أولا : أحاط بموضوعه أوسع إحاطة ، وأعطاه حقه كاملا من العناية والاستقصاء والتثبت من جزئياته المطبوعة والمخطوطة .

ثانياً : أنه رحل فى طلب مادة الرسالة إلى عدد من البلدان العربية فى سبيل إتمامها ، وقابل عدداً من الأشخاص ليأخذ منهم العلم مشافهة ، اقتداءً بالسلف الصالح .

ثالثاً : أنه بعد أن جمع المادة من مصادرها نظّمها ، وبوّبها ، وغربلها ، وعرضها عرضاً علمياً جاياً حسب أصول النقد الحديث .

رابعاً : أنه وصل إلى نتائج لها قيمتها فى تاريخ العصر من ناحية ، وفى حياة عَلَم من أعلام النهضة الأدبية والقومية من ناحية أخرى .

خامساً : أنه عرض موضوعه بأسلوب متين العبارة دقيقها .

سادساً : أنه كان موفقاً فى تلخيصه ودفاعه عن آرائه ، بقدر ما كان موفقاً فى إعداد الرسالة » .

* * *

وكان مما قاله الأستاذ محمد خلف الله أحمد فى أثناء المناقشة :

« أشكر لفضيلة الزميل أبى (ى) الأستاذ الشرباصى هذا العرض الجميل لرسالته الذى أرجو أن يتخذ منه طلبة العلم نموذجاً لما ينبغى أن يكون عليه تلخيص الرسائل العلمية ، ولما ينبغى أن يكون عليه البيان العربى القوى السمح ، وليس هذا بكثير على الشيخ الشرباصى .

والرسالة التى ناقشها رسالة مكتملة النمو ، تحققت فيها صفات الرسائل العلمية الكاملة ، من سلامة القصد ، وسلامة المنهج ، وسلامة البناء ؛ وقد توافرت لصاحبها أدوات النجاح ، من تمرس بالبحث والنقاش ، وفهم واع لمراحل النهضة العربية ، وأحداثها السياسية ، وتياراتها الثقافية والروحية ؛ توافرت لصاحبها هذه الأدوات جميعها ، ولو أردنا دليلا غير هذه الرسالة لكان أن نلتمسه فى كتب أخرجها صاحب الرسالة تقارب عدد الماضى من سنى حياته المديدة إن شاء الله .

والرسالة — بهذا — جديرة بأن نهنئ بها صاحبها ، والأستاذ الصديق العالم الذى أشرف على إعدادها ، والمعهد الذى يهيىء لمثيلاتها بيئة علمية تعين على الدرس الجاد ، وتوجه إلى الخصب الصالح من موضوعات البحث .

وأنا سعيد بما أتاحه لى المعهد من مشاركة فى مناقشة هذه الرسالة ، وفى تقد المجهود المثمر الذى بذله صاحبها قراءة وجمعاً ، وفحصاً ونقداً ، واستقصاء للمعلومات من مختلف مصادرها كما سمعنا فى التلخيص ، ما بين أشخاص ، وكتب ، وصحف ومخطوطات .

ومن الحق أيها السيد الأخ الباحث أن تقول : إن هذه الرسالة إلى جوار ماذكرت مما بذلت فيها من جهود ، كان اختيار موضوعها موفقاً ملهماً ؛ فشكيب أرسلان الذى جعلته موضوعاً لبحثك كان إماماً من أئمة العصر الذى عشناه ، وعشت أنت بعض حلقاته ، وشهدنا تطوره . وكان أديباً ناقداً ، عنى بأن يؤرخ لنفسه ولنسبه وحياته ، وتتلمذ على كثيرين ، واتصل بكثير من الأساتذة والمصاحبين الأدباء ، وكان بينه وبينهم تراسل ونقاش — كما بينت — وبهذا أتاح شكيب الأديب للشرباصى الباحث أن يجمع شتات هذه المادة ، ويسلط عليها منظاره الكاشف ، ويُحكم رباط حلقاتها ، ويخرج من دراسته الجادة المتأنية بنتائج ذات بال ؛ تضيف جديداً إلى دراساتنا الأدبية المعاصرة .

وإذا كان شكيب قد أتعبك ؛ فلا شك أنك قد أتعبتنا ، والله يشهد أنك قد أمتعتنا . أتعبتنا فى تتبع هذا المجهود الضخم ، وفى تقصيه ، ولكنك أمتعتنا ، وأنا أشهد أننى قد أفدت من صحبة هذا البحث ، ومن تتبعه ، كما سأبيّن بعد قليل .

وأنا أشعر أننا هنا فى جلسة علمية خاصة ، وليست مناسبة عادية من مناسبات نقاش الرسائل ، وأرجو أن نفيد جميعاً من هذه الجلسة ، وأن يفيد منها أبناؤنا طلاب العلم .

ولست أنسى أن أقول إن المادة التى تقدمها لنا الرسالة ممتازة وفوق الممتازة ، والله يديم النفع بصاحبها » .

* * *

وكان مما قاله الدكتور إسحق موسى الحسينى فى أثناء المناقشة :

« هذه الرسالة هى الأولى فى موضوعها فى هذا المعهد ، وأعتقد أنها الأولى فى سائر الكليات والبلدان العربية فى هذا الموضوع كذلك ، فهى رسالة بكر .

إننى أثنى على رسالتك هذه ، وأثنى عليك ثناء لا حد له ، لثلاثة أسباب :

الأول : أنك وأنت فى العقد الخامس من عمرك ، وقد ألفت فوق الثلاثين كتاباً ، ومع ما قدمت من خدمة للعلم والأدب والشباب ؛ قد حرصت على أن تقتدى بالسلف الصالح الذين رأوا أن طلب العلم من المهد إلى اللحد ، وهذا أمر يجب أن نذكره دائماً ، لأن كثيراً من الناس يتكبرون على العلم ، ويظنون أنهم قد أنهوا العلم ، وأن العلم فى جيوبهم ، مع أن العلم لا ساحل له ، ويجب أن نطلب العلم من المهد إلى اللحد ، اقتداء بالسلف الصالح من ناحية ، والتزاما للاتجاه العلمى الصحيح فى هذا الزمن من ناحية أخرى .

هذه الميزة التى نلاحظها فيك ممتازة .

والأمر الثانى الذى لاحظته وأنا أشرف على هذه الرسالة : أنك أظهرت روحا علمية عظيمة ؛ فقد كنت رحب الصدر ، تتقبل النقد ، وتشارك فى المناقشة ، وتدافع حيناً ، وتقبل حيناً ، وترضى عن النقد بروح عظيمة جداً ، وحبذا وجود هذا الروح فيك وفى غيرك من الباحثين .

والأمر الثالث: أن الرسالة فى نفسها رسالة ممتازة حقاً ، لقد استقصيتَ الموضوع من أوله إلى آخره ؛ ولم تترك ناحية دون أن تجلوها أتم جلاء ، سافرت إلى مواطن شكيب ، واجتمعت بأسرته ، ونقبت فى كتبه ومخطوطاته ، وتتبعت الصحف والمجلات ، واعتبرتها مصدراً رئيسياً فى الموضوع ، مع أن كثيراً من الناس يهملون هذا المصدر .

فأنت فى الواقع لم تترك شاردة ولا واردة ، وكنت فى كل هذا منصفاً ، تعطى الأمير ماله ، وتنقد ما يستحق النقد ؛ وهذه أيضاً ميزة عظيمة ، ومن حقك أن أهنئك بهذه الرسالة ، وأعتبرها بحق من أعظم الرسائل التى جاءت إلى هذا المعهد »

* * *

وفيما يلى الكلمة التى قدمتُ بها الرسالة عند بدء المناقشة :

بسم الله الرحمن الرحيم :

حينما افتتح معهد الدراسات العربية العالية أبوابه فى أواخر عام ١٩٥٣ م كنت ضمن المجموعة الأولى من طلابه ، وانتسبت إلى قسم الدراسات الأدبية واللغوية فيه ، ولم أجد أى غضاضة فى أن أكون صباحا مدرساً فى الأزهر الشريف ، وأن أكون بعد الظهر طالباً فى المعهد ، فطلب العلم شرف لكل إنسان ، ووقت الطلب يمتد من المهد إلى اللحد كما علمنا الإسلام العظيم .

ومازلت أذكر حفلا جامعاً أقيم لافتتاح هذا المعهد ، فى السابع من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٣ م ألقى فيه الأستاذ الكبير ساطع الحصرى العميد الأول لهذا المعهد المحاضرة الافتتاحية ، وأبان فيها الغاية من إنشائه ، وهى باختصار : نشر الثقافة العربية ، وتنشيط الوعى القومى فى العالم العربى ، مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية ، وبث الإيمان بمستقبلها .

هناك — إذن — أمور أربعة ، هى : الثقافة العربية ، والقومية العربية ، والوحدة العربية ، والإيمان بمستقبل الأمة العربية ؛ وقد عاش أمير البيان شكيب أرسلان لهذه الأمور الأربعة ، فوق خدماته للاسلام والمسلمين ، فهو مترهب فى خدمة الثقافة العربية ، يطلبها ويعرضها ، ويدافع عنها ويزيد فيها ؛ وهو مؤمن بالقومية ، ومن قوله : « كل رجل يتمسك بعوائد ومميزات قومه فاعلم أن فى روحه شمما حمله على ذلك » . ويقول : « إنه خير للمرء أن يكون راعى ضأن فى عز قومه من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلاء » .

وهو مؤمن بالوحدة العربية ، ولذلك يقول : « إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض فى ذلك اللئام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ،

وإن هذه الوحدة آتية لاريب فيها » . ويقول مصوراً إيمانه بمستقبل الأمة العربية

« إن العرب الذين فى العالم لا يقدر أن يبتلعهم أحد ، والمستقبل هو لهم » .

ومن العجيب أن الأستاذ المصرى عُنى فى محاضرته الافتتاحية برد كثير من الكلمات الأوربية فى ميادين الصناعة والزراعة والفلك إلى أصولها العربية ليدلل بذلك على عمق تأثير الأمة العربية فى الحضارة الغربية .

وقد كان شكيب مولعاً بتتبع هذه الألفاظ وردها إلى أصولها ؛ وقد ذكرت طائفة من شواهد هذا الولوع عند تحدثى عن لغويات الأمير شكيب .

بل الأعجب من ذلك أن هذا المعهد أنشأته جامعة الدول العربية ، وشكيب أرسلان كان أول من دعا إلى إنشاء « جامعة عربية » ، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة . ويقول عن هذه الجامعة إنها « نكتة المحيا (أى نقطته) ، ونشيد آمالنا فى هذه الدنيا » .

وإنى لعربى مسلم أزهرى ، أعتز بالعروبة ، وأومن بالإسلام ، كما أومن بوجوب توثيق العلاقات بين العروبة والإسلام ، وشكيب من القلائل الذين بذلوا جهوداً واضحة فى مجال هـذا التوثيق ، حتى إنه ليرى غيرته على عروبته جزءاً من عقيدته . وهو القائل عن طرابلس الغرب بمناسبة حربها مع إيطالية سنة ١٩١١ :

ترى النفس ديناً وقفةً فى صفوفها   قضاءً عن الأرحام بعضَ ديونها

فما الشام ، والنيل السعيد ، ودجلة   سواها ، لدى أفراحها وشجونها

ووالله لا أعطى القيادَ لظالم   ولما أرد بالنفس حوضَ منونها

إذا بات إخوانى ببرقة مهداً   فكيف تنام العين ملء جفونها ؟

أوليست هذه كلها مسوغات لمثلى كى يؤثر شكيب أرسلان بالبحث والحديث فيختاره موضوعاً لرسالة يقدمها فى الدراسات الأدبية واللغوية ؟ ... وكذلك كان ولكن شكيب أرسلان شخصية « متعِبة متعَبة » ! . إنه رجل متعب لمطالعه

وباحثه والكاتب عنه ، فقد طال عمره وكثر عمله ، وظل يكتب أكثر من ستين عاماً ، وكان كالغيث الماطل المدرار في كتابته ، حتى تصعب ملاحقته ومطالعته ، فقد ألف ونشر عشرات من الآثار والمؤلفات ، وكتب الآلاف من المقالات والبيانات والرسائل ، وتفرقت هذه الآثار : ما بين كتاب ومجلة وجريدة وقرطاس وصندوق مغلق ؛ كما تفرقت ما بين الشرق والغرب ، فكتاب يطبع في لبنان ، وثان في مصر ، وثالث في سورية ، ورابع في أميركة ، ومجلة تطبع في سويسرة ، وهلم جرا . وهذه مقالاته تتفرق في مجلات تصدر في بلاد العروبة ، ومجلات في بلاد الإسلام ، ومجلات في أوربة ، ومجلات في أميركة . إلخ .

وهو رجل متعب . أتعبه طول الكتابة والغربة والمناضلة والارتحال ، لقد أتعبه طول الكتابة حتى أصيبت يده بما يشبه الشلل ، فأصبح عاجزاً عن الكتابة ، واحتاج إلى الإملاء على سواه ، وأتعبه طول الغربة ، فقد ظل ربع قرن بعيداً عن وطنه لبنان ، ومرت عليه سنوات وهو ممنوع — بحكم الاستعمارين الإنجليزي والفرنسي — من دخول أي قطر عربي ، سوى الحجاز الذي يضم البلدين الشريفين مكة والمدينة .

وأتعبه طول الارتحال ، فهو لم يترك قطراً عربياً دون أن يرحل إليه ، ورحل إلى أغلب بلاد العالم الإسلامي ، كما رحل إلى بلاد أوربة وأميركة .

وأتعبه طول النضال ، فقد ناضل من أجل لبنان ، وناضل من أجل بلاد الشام ، وناضل من أجل العروبة والعرب ، وناضل من أجل الإسلام والمسلمين ، وناضل أعداءه مدافعاً عن نفسه ، مفنداً لافتراءاتهم عليه ، وأتعبته المواقف المختلفة العصيبة القاسية التي مرت به ، وكان من الصعب عليه أن يجمع أزمّتها في يده على النحو الذي يريد ويهوى ، وبين هذه المواقف ما بينها من تعارض أحياناً ، ومن تناقض أحياناً أخرى ، وأتعبته سهام التجريح والافتراء والتطاول عليه من حساده وأعدائه ، ولقي بسبب ذلك ما لقي من أحزان وأشجان .

وقد تعبتُ من شكيب حيناً ، وتعبت له أحياناً ؛ فقد كان لزاماً عليَّ أن أتجرد عند بحثه ، حتى أكون موضوعياً فى الدراسة ، ولكنى كنت قد أعجبت به منذ عهد بعيد ، حين طالعته وأنا فتى بلغته العربية الفخمة ، وروحه الإسلامية البادية ، فكان لا بد لى أن أتخلص من الطوق الذهبى لسحر هذا الإعجاب وأظن أنى قد فعلت ، وأنا على ثقة من أننى قد تعبت حتى تخلصت .

وشرعت أقف لشكيب ؛ آخذ منه وأرد عليه ؛ ثم خشيت أمراً آخر وهو أن يكون حرصى على نقده — لأظهر بمظهر المتجرد فى دراسته — سبباً فى ظلمه أو هضمه ، فعدت أتعب نفسى لأحلها ما استطعت على شرعة الإنصاف والعدل

ومضيت أقرأ لشكيب وأقرأ عنه ، وجمعت كل ما استطعت من مصادر ومراجع ، وفى طليعتها كتب شكيب وآثاره ، وعكفت على المجلات والصحف التى أكثر الكتابة فيها ، مثل مجلة المجمع العلمى العربى ، والفتح ، والشورى ، والمشرق ، والشباب ، والعلم ، وغيرها ، ولجأت إلى أصدقائه فى مصر ولبنان وسورية ، فاستمعت إليهم ، وأفدت منهم ، ولقيت زوجة شكيب أكثر من مرة ،فى القاهرة ، وفى بيروت، كما لقيت أولاد شكيب ، وهم : غالب ومى وناظمة .

ورحلت إلى بيت شكيب الذى وُلد فيه بالشويفات بلبنان ، وفيه قابلت شقيقه الأمير حسن أرسلان ، وحادثته طويلا عن أخيه وتراثه وأسرته ، ولمست من الرجل — مع الأسف — انصرافاً عن الموضوع ، وعن العناية بنشر تراث أخيه ؛ فهنالك صناديق كثيرة تحوى آثاراً ومخطوطات لشكيب ، والطريق إلى فتحها مسدود . ووقفت على قبر شكيب معتبراً متذكراً فوق ربوة من ربوات « الشويفات » .

وكنت قد نظَّمت من قبل حفلا كبيراً لذكرى شكيب فى المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة فى ١٣ ديسمبر ١٩٥٤ م تحدثت فيه ، وتحدث فيه

المرحوم محمد على علوبة ، والحاج أمين الحسينى ، والأستاذ علال الفاسى ، والدكتور عفيف عبد الصمد ، والأستاذ أبو السعود الجهنى ، وهـذا يدل على قديم عنايتى بأمير البيان وكاتب الإسـلام . وعشت مع شكيب أغاديه وأراوحه ، ورزقت فى أثناء ذلك بنتاً فسميتها (مى) على اسم بنت شكيب ، ومرت سنوات والموضوع على مرأى منى ، غير بعيد عن يدى ، ولا أزعم أنى كنت متفرغاً له ، أو عا كفاً عليه خلال تلك المدة ، ولـكنى كنت أنقطع عنه حيناً أو أحياناً ، ثم أفزع إليه ، وتشغلنى شواغل الحياة أو المجتمع ، ثم أجد فرصة بين توالى الشواغل فأقبل عليه .

وكبر موضوع شكيب أمامى وضخم ، إذ تهيأت أمامى مادة ضخمة لأبواب كثيرة يمكن أن أكتبها عن شكيب : فشكيب والقومية العربية ، وشكيب والعالم الإسلامى ، وشكيب وآراؤه فى الحياة ، وصفات شكيب ، وأخلاق شكيب ، وعيوب شكيب : هذه وأمثالها أبواب لها بين يدىَّ مادة كبيرة ، ولـكن الرسالة مقدمة إلى قسم الدراسات الأدبية واللغوية ، فينبغى أن تدور فى هذا الفلك ، ولذلك اكتفيت فيها بالحديث عن عصر شكيب ، وحياته ، ونثره ، وشعره ، وآرائه فى النثر والشعر ، وجهوده اللغوية ، وكتبه وآثاره ، معتزماً أن أجعل ما بقى لدى من مواد عن شكيب أساساً لبحث آخر عن حياته وشخصيته .

وقد جعلت الرسالة فى سبعة أبواب وخاتمة ، ولها ملحقان ، وتحدثت فى الباب الأول عن عصر شكيب ، وهو عصر طويل عريض ، ممتلىء بالأحداث الجليلة والوقائع الخطيرة ، وكان لا بد لى فى هذا الباب من كبح جماح القلم ، حتى لا يتأثر باستطالة العصر واستعراضه ، فقمت بواجب التصفية والانتخاب ، حتى أقتصر قدر الطاقة على الأحداث المتصلة بحياة شكيب أو أدبه من واقع هذا العصر ، فى الجهات الثلاث : السياسية والاجتماعية والأدبية .

وفى الباب الثانى تحدثت عن حياة شكيب ؛ وهذه الحياة بتفاصيلها ووقائعها

تحتاج عند الاستقصاء إلى رسالة ، فقد كانت حياته متحركة نامية عامرة بالقول والعمل والنشاط ، حتى يحق له أن يتمثل بقول شوقى :

يومى بأيام ، لكثرة ما مشت فيه الحياة ، وليلتى بليالى !

وقد عنيت فى هذا الباب بصفة خاصة بالأحداث والوقائع والمؤثرات التى كانت فى حياة شكيب ، ولها اتصال مباشر أو غير مباشر بأدبه وكتبه ، وأكاد أزعم لنفسى أنى فى هذا الباب قد أعطيت صورة متكاملة الملامح لحياة شكيب وهى صورة غير مسبوقة بوصفها الذى ذكرته فيما أحسب .

وفى الباب الثالث تحدثت عن شكيب الناثر ، وحققت مصادر ثقافته ، حددت الذين أثروا فى شكيب من معاصريه أمثال : عبد الله البستانى ، وسعيد الشرتونى ، ومحمد عبده ، وجمال الدين الأفغانى ؛ ومن سابقيه أمثال : الجاحظ وابن المقفع ، والخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى ، وأبو إسحق الصابى ، والمقرى وابن خلدون .

ودرست السجع فى كتابة شكيب ، والدواعى التى حرضته عليه ، وكيف تخفف منه منتقلا إلى الترسل ، وكيف عاد فتردد بين السجع والترسل فى بعض الأحيان ، ودرست ظاهرة استعانة شكيب بالجملة القرآنية فى أدبه ، وظاهرة « الجلجلة » فى عبارته أحيانا ، وبينت طريقته فى التأليف ، وما لها من مناقب ومثالب . ثم تحدثت عن اللقب الذى ذاع وشاع ، وعرف به شكيب ، وهو لقب « أمير البيان » .

كما أبنت الوشائج التى تربط أدب شكيب بحياته وأحداث عصره ، وذكرت ما لهذا الارتباط بين الكتابة ووقائع الحياة من محاسن ومساوىء عند شكيب .

وفى الباب الرابع تحدثت عن شكيب الشاعر ، فذكرت مقومات شاعريته والذين أثروا فى هذه الشاعرية ، وفصلت القول عن دواوينه ، وعنيت بالحديث عن

النسخة المهمة التى حصلت عليها من ديوان شكيب الأول « باكورة » ، وعليها تعليقات وتصحيحات وزيادات وحذف بخط شكيب نفسه ، وأبنت الدوافع التى دفعت إلى هذا التغيير الذى حدث فى شعره وقام به شكيب .

وتحدثت عن أغراض شعره من المديح ، والرثاء ، والوصف ، ومحاولة الملحمة ، وأبنت ما ناله من توفيق فى هذه الأغراض ، وما أصابه فيها من إخفاق ، وبحثت تقليده للسابقين فى المعنى واللفظ ، وتقليده لمعاصريه أحيانا . كما تحدثت عن ظاهرة « التكسب الأدبى » بالشعر عند شكيب ، ولعل هذا المعنى لم يعرض له متحدث عن شكيب من قبل .

وأما الباب الخامس وهو بعنوان (شكيب الناقد) فقد جعلته فى فصلين . الفصل الأول عن آراء شكيب فى الشعر ، والفصل الآخر عن آرائه فى النثر ، وفى الفصل الأول بحثت موقفه من قضية القديم والجديد ، ومن موضوع الشعر الجاهلى ، وأظهرت ما يعرض لأحكامه أحيانا من تعميم أو اضطراب . وأوضحت كيف قدم رجلا وأخر أخرى فى تحديد «أمير الشعراء» فى رأيه ، ورددت عليه قوله : إن حافظ هو إمام النثر غير مدافع .

وفى الفصل الآخر من هذا الباب تحدثت عن رأيه فى القديم والجديد ، وفى مكانة الأدب ، وأدوات الأديب ، وأظهرت عيوبه فى المناقشة .

وأما الباب السادس فقد جعلته عن (شكيب اللغوى) ، وأثبت أن شكيب كان من الرواد فى حركة البعث اللغوى ، وأنه بكر إلى العناية باللغة ، وأولع بالمساجلات اللغوية مع أعلام عصره ، مثل إبراهيم اليازجى ، والسيد رشيد رضا ، وأحمد شوقى ، ومى زيادة ، وبذل جهوداً مشكورة فى تعريب الأعلام ، ووضع المصطلحات ، ورد العامى إلى الفصيح ، مما كان مقدمة من المقدمات لجهود المجامع اللغوية فيما بعد .

وشرحت ظاهرة عجيبة عند شكيب اللغوى ، وهى جمعه الحفاظ الظاهر على اللغة والمنافحة عنها ، إلى الدعوة للتوسع فيها وتطعيمها بالمولد والمعرب وما لم يرد فى المعاجم مما استعمله كبار الأدباء والشعراء وأهل الصناعات والحرف .

ولم أنس أن أنص على طائفة من أخطاء شكيب اللغوية ، ويخيل إلى أن هذا باب ضخم من أبواب الرسالة ، لعل له قيمة .

وأما الباب السابع فقد جعلته عن كتب شكيب وآثاره ، وهو باب طويل عريض، قسمته إلى ثلاثة فصول : الفصل الأول عن مطبوعات شكيب ومنشوراته ، والفصل الثانى عن مخطوطاته الكاملة أو الناقصة ، والفصل الثالث عن كتب شرع فيها ، أو نوى وضعها ، أو اقترحها عليه مقترحون . واستطعت أن أتحدث فى هذا الباب عن أكثر من أربعين كتابا ما بين مطبوع ، ومخطوط ، ومنوى ، أو مقترح .

وإذا عرفنا أن الذين تحدثوا من قبلى عن كتب شكيب لم يبلغوا بها العشرين عدا ، ظهر مبلغ الجهد الذى بذلته فى استقصاء هذه الآثار وإحصائها ، مع وصفها ، وتحليلها ، والتعليق عليها كلما أمكن ذلك . وأبنت الدوافع التى دفعت إلى تأليفها ، وتأثرها بهذه الدوافع .

ويخيل إلى أن هذا الإحصاء يصلح ليكون معوانا للذين يفكرون يوماً فى نشر مؤلفات شكيب وآثاره المختلفة .

وقد أشرت فى هذا الباب إلى الجهد المضنى الذى بذلته فى سبيل الحصول على ترجمة شكيب لحياته بقلمه ، وأبنت كيف رحلت من أجل ذلك إلى القدس ، وكيف استعنت خلال مدة متطاولة بالأستاذ عبد العزيز حسين سفير الكويت بالقاهرة الآن ، والشيخ عبد الله غوشة رئيس الهيئة الإسلامية بالقدس ، والشيخ عبد الحميد السائح رئيس محكمة الاستئناف بالقدس ، والأستاذ عارف العارف

المؤرخ القدسى ، والأستاذ روكس بن العزيزى الأديب الأردنى ، والأستاذين محمود يوسف حبية وصالح الخيسى المدرسين بمدارس القدس سنة ١٩٥٥ م .

ولقد قمت بإحصاء شامل لكل الكتابات التى كتبها شكيب ، وكل ما كُتب عنه فى مجلات : الشورى ، والشباب ، والعلم المصرى ، والمشرق ، والزهراء ، وتكوَّن من ذلك عندى قوائم طويلة فيها مئات المقالات ، وهى بين يدى الآن ، وخشيت أن أثبتها فى الرسالة فتثقل بها ، ولن نعدم الانتفاع بها فى مجال آخر .

وعقب الباب السابع تحدثت عن مكانة شكيب فى التاريخ ، وعما صنعت الأيام بآرائه وجهوده ، وكيف تحقق الكثير مما دعا إليه ، وحالت حوائل دون تحقق القليل منه ، ثم لخصت نتائج البحث ، حيث ذكرت قرابة عشرين نتيجة .

هذا وقد ألحقت بالرسالة ذيلين لها ، أما أحدهما فمجموعة شعرية تضم أكثر من عشرين قصيدة ومقطوعة لشكيب لم تنشر فى ديوانيه ، وقيمة هذه المجموعة تبدو فى أنها خطوة لاستكمال تراث شكيب الشعرى ، وهى تعين على استكمال عناصر الحكم على هذا التراث ، وقد استشهدت بالكثير من هذه القصائد فى مواطن متفرقة من الرسالة .

وأما الملحق الآخر فهو مجموعة من رسائل خطية لشكيب أرسلها إلى صديقه وأخيه السيد محمد رشيد رضا خلال عشرين عاما تقريبا ؛ وقد وفقنى الله تعالى إلى جمع ما يقرب من مائة وثلاثين رسالة من هذه الرسائل ، وتم لى جمعها خلال سنتين بفضل الله تعالى ، ثم بمعاونة الأخ الأستاذ المعتصم رضا ، وما زلت أواصل البحث لاستكمالها . وقد كان بودى لو وضعت كل هذه الرسائل فى هذا الملحق ؛ لأنها ذات قيمة أدبية وتاريخية وقومية ولغوية ، ولكنها أوسع نطاقا من طاقة الملحق ، ومن طاقة الرسالة أيضا .

ولذلك اكتفيت مضطراً بخمس وخمسين رسالة منها ، واخترت الرسائل التي يعرض فيها حديث أدبي أو لغوي بين شكيب ورشيد ، وهذه الرسائل تلقي ضوء على شخصية شكيب الأدبية واللغوية بجوار الأضواء الأخرى التي تلقيها ؛ وقد استشهدت بهذه الرسائل في مواطن مختلفة من الرسالة ، مما يجعل هذه المجموعة وثيقة الصلة بالرسالة . وأرجو أن تتيسر لي دراسة هذه الرسائل مجتمعة مجال آخر .

أما بعد ، فإني أشكر لأستاذي الدكتور إسحق موسى الحسيني إشرافه على الرسالة ، وتوجيهاته التي أرشدت فيها ، وسددت الخطوات على طريقها ، كما أشكر لأستاذنا محمد خلف الله أحمد وكيل جامعة عين شمس مشاركته في مناقشة الرسالة وأشكر معهد الدراسات العربية العالية ، لما هيأ من أسباب الدراسة من جهة ولتقبله هذه الرسالة من جهة أخرى .

وأشكر أسرة المرحوم أمير البيان شكيب أرسلان ممثلة في شريكة حياته العظيمة ، كما أشكر أسرة المرحوم السيد محمد رشيد رضا ممثلة في نجله الأستاذ المعتصم رضا الذي أمدني برسائل شكيب إلى والده ، وأذن لي بطبعها ونشرها مع الرسالة .

هذا موضوعي ، وذاك منهجي ، وذلك جهدي ، لا أزعم أني بلغت به الكمال ، ولكني على ثقة من أنني بذلت طاقتي ، وأخلصت لعملي ، وعلى المرء أن يسعى ، وعلى الله إتمام المقاصد ، وشكراً لكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أحمد الشرباصي

فاتحة البحث[1]

لماذا اخترت « شكيب أرسلان » موضوعا لهذا البحث ؟ .

لقد نشأتُ فى بيئة عربية مسلمة ، وتعلمت فى الأزهر الشريف ، ثم اشتغلت فيه مدرساً ، وحاولت أن يكون لى — بجوار التدريس — نصيبٌ ما فى الدعوة إلى الإسلام ، مع الاعتزاز بالعربية والعروبة .

وتطلعت بخاطرى إلى « شكيب أرسلان » فإذا هو « أمير البيان » ، وإذا هو يقضى عمرَه الطويلَ المباركَ فى خدمة الإسلام والعروبة ، ويخرج على الناس بكتب قيِّمة فيها عن المسلمين دفاع ، ولقضايا العروبة تأييد ، فوق ما يتجلى فيها من بيان مُشْرق ، يوجز حيناً فلا يقصِّر ، ويسهب أحياناً فلا تبعد عنه الإجادة ، فوق ما تتحلى به من عناية بلغة القرآن وأدب العرب .

وإذا بى أتذكر أنى كنت منذ أيفعت كلما قرأت اسم شكيب ، أو سمعت به ، أو قرأت له ، أحببته وأقبلت عليه وتغنيت به ، وقرنت اسمه إلى أسماء طائفة كريمة من الأعلام الروّاد فى تاريخنا العربى والإسلامى القريب ، أحبهم وأعجب بهم ، منهم جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، وأحمد تيمور ، ومصطفى صادق الرافعى ، وأحمد شوقى ، وعبد العزيز جاويش ... إلخ .

وأحسست كأن بينى وبين شكيب ما يشبه النسبَ لأكثر من سبب ، وإن كان أميراً وأنا من عامة الشعب الذى يحيا بلا ألقاب ، وكان أميراً للبيان وأنا مازلت على طريق الطلب للأدب .

---

(١) كان هذا الفصل فى أصل الرسالة أوسع من ذلك ، ولكنى اختصرته ، إذ تكفلت كلمتى السابقة فى تقديم الرسالة ببيان كثير من مسائل هذا الفصل .

وحدثتنى النفس بأن شكيب أرسلان موضوع ملائم لمثلى حين يكتب بحثاً فى مجال الدراسات الأدبيـة واللغوية ، فإن عصره حافل بالأحداث السياسية والاجتماعية والأدبية ، وإن عروبته مع غيرته على العرب مما يرضينى فى باب قوميتى وعروبتى ، وكتاباته عن الإسلام مع مدافعته عن المسلمين مما يرضينى فى باب يقينى وعقيدتى ، وكتبه وآثاره التى تنقلت بين التأليف والتحقيق والتعليق ، وتنوعت مابين نثر وشعر ، وتعددت صورُها وألوانها : من تقليد ومتابعة ، إلى صنعة بارعة ، إلى تحرر واسترسال ، كافيةٌ لتهيئة مادة أدبيـة يجول فيهـا قلم الباحث بالدراسة والتمحيص .

* * *

وحينما اخترت الموضوعَ وسجلته فى عام ١٩٥٥ م لم تكن هناك أى دراسة عن شكيب ، اللهم إلا مجموعة كلمات الرثاء والتأبين المسماة « ذكرى الأمير شكيب أرسلان » ، فكان هذا دافعاً آخر يدفعنى إلى إيثار شكيب بالبحث ، لأجعل له نصيبَه من الترجمة والدراسة الأدبية .

ومضيت فى طريق أجمع مصادرى ، وأقرأ وأدرس وأكتب ، وفى سنة ١٩٥٨م ألقى الدكتور سامى الدهان فى معهد الدراسات العربية بضعَ محاضرات عن شكيب ، ذاكراً أنها ليست دراسة بقدر ما هى تعريف ، ولما كان يعرف اشتغالى بشكيب فقد تفضل وأهدانى نسخة من محاضراته حين تزاملنا فى مؤتمر الأدباء العرب بالكويت ، فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٥٨ م .

وبعد أن قطعتُ فى بحثى أشواطاً عاد الدكتور إلى محاضراته فبسطها وأوسع القول فيها [١] ، ونشرها كطبعة ثانية [٢] ، ومع التقدير لعمله والاستفادة منه أقرر

---

(١) كتاب الأمير شكيب أرسلان ، ص ٩ و ١٠١ .
(٢) المرجع السابق ، هامش ص ٩٥ .

أن له طريقته ولى منهجى ، وأن بين العملين فروقاً كثيرة ، فقد عُنيت بالنواحى الأدبية واللغوية أكثر من غيرها ، وهناك موضوعات بحثها ولم يبحثها الدكتور الدهان مثل : « الجملة القرآنية فى أدب شكيب » ، و « جلجلة العبارة عنده » ، و «لقب أمير البيان» ، و «الباكورة بين طبعتين» ، و «التكسب الأدبى بالشعر» ، و « مساجلاته اللغوية » و « مخطوطات شكيب وكتبه المقترحة » و « رسائل شكيب إلى رشيد رضا » . . . إلخ .

وكانت الصعوبة فى المصادر والمراجع التى استنبأتُها أو أخذت عنها أن الكثير منها مجلات وصحف ظلت سنواتٍ طويلةً تصدر ، وقدأقول مثلا إن مجلة « المنار » كانت من المصادر ، وهى مجلة ظلت تصدر قرابة خمسة وثلاثين عاماً ، فصار لها خمسة وثلاثون مجلداً كبيراً .

وهناك مجلة « المجمع العلمى العربى » التى استنبأت منها ما يقرب من خمسة وعشرين مجلداً ، ومجلة « الرسالة » التى ظلت تصدر نحو عشرين عاماً ، ومجلة « الفتح » التى ظلت تصدر سبعة عشر عاماً ، وهلم جرا .

وهذه المراجع تختلف المادة المطلوبة منها للبحث ، فقد تكون سلسلةَ مقالات ، أو مقالا ، أو تعليقاً وجيزاً ، أو خبراً صغيراً ، فهى — والحالة هذه — بحاجةٍ إلى صبر وجلد .

وهناك كتب شكيب ومقالاته ورسائله ، وهى كالمحيط الوسيع الذى يتفرع ويتشعب ، ويضرب بروافدَ له بعيدةِ المدى فى مختلف الأنحاء ، مما يعسر معه بل يتعذر على طاقة الباحث أن تلم شتاتَه ، وتحيطَ بأطرافه ، وتبلغ غاية العلم به .

وهناك أسرة شكيب وأصدقاؤه ومعارفه الذى سعيت إليهم ، وحادثتهم ونقلت عنهم ، وهناك بلدة شكيب « الشويفات » بلبنان التى رحلت إليها وإلى غيرها من أجل شكيب .

وبعد أن أنفقت وقتاً فسيحاً فى مسامرة المصادر والمراجع ، وفى جمع المعلومات ومواد البحث ، شرعت قلمى لأكتب عن شكيب . ولكنى لن أكتب عنه كمحب له أو معجب به ، بل سأكتب عنه باحثاً ناقداً .

ولا أكتم أنى كنت مفتوناً بشكيب ، أقرأ له منذ صدر الشباب فأشم فى أدبه عبيرَ الإسلام وروحَ العروبة ، فأنتشى وأتطلب المزيد ، ولا ريب فى أن إعجابى هذا كان مصدر تعب لى وأنا أقدم على إعداد هذا البحث ، إذ كان لا بد لى قبل البدء فيه من التخلص من ذلك الطوق الجميل الوثيق الذى لفه شكيب بأدبه العربى الإسلامى حول عنق مبكراً ، فتركنى معجباً به مفتوناً بكتابته .

وكنت بحاجة إلى جهد غير قليل لأستطيع التخلصَ من تأثير هذا الإعجاب ، حتى أمضيَ مع شكيب دارساً ناقداً متجرداً ، لا مطالعاً معجباً بروحه الإسلامية والعربية ، وقد واجهت معاناةَ هذا التخلص ، وأغلب الظن عندى أنى استطعت التخلص من ذلك الطوق ، فدرست شكيب بروح الباحث المحايد ، لا بروح المحب المعجب ، فحكمت له وحكمت عليه ، وأخذت منه ورددت إليه ، وأيدته أحياناً ، وفندت[1] له بعض أعمال حيناً .

ومضيت فى طريقى حَذِراً قدرَ طاقتى ، وبين الخوف من سحر الإعجاب ، والخشية من حب التزيد فى الانتقاد ، خُيِّل إلىَّ أننى قد نقَّلت خطواتى على طريق البحث طالباً الحقيقة ما استطعتُ إليها سبيلا ، وأرجو أن أكون قد بلغت ما أريد .

* * *

ولقد كان الموضوع فى نفسى وتصورى — عند البداية — أكبر بكثير مما صار إليه ، فقد هيأت بين يدىَّ أولا مادةً ضخمة لكتابة مبسوطة فسيحة الأرجاء

(١) فنده تفنيدا : خطأ رأيه . ويلاحظ أنى رجعت فى المعانى اللغوية إلى لسان العرب ، والقاموس المحيط ، وأساس البلاغة ، وقد أنص على المرجع إذا اقتضى الحال ، وقد أتركه اتكالا على وجود المعنى فى هذه المراجع .

مختلفة الأنحاء ، وكنت أريد أن أتحدث عن شكيب من كل جهة ، وأن أقول عنه كل شيء أعرفه .

ولكن هاتفاً هتف بي ، وكان لا بد لي من الإصغاء إليه ، إذ ذكّرني بأن الموضوع بحث في مجال الدراسات الأدبية واللغوية ، فينبغي اقتصاره على هذا المجال ما أمكن ذلك .

* * *

وحينما تحدثت عن حياة شكيب في تركيز من جهة ، وشمول من جهة أخرى ، أعطيت — فيما أظن — صورةً متكاملة للملامح لحياته ، وعُنيت بتجلية مراحلها الثلاث البارزة وهي :

المرحلة الأولى من سنة ١٨٦٩ م إلى سنة ١٨٩٠ ، وهي مرحلة النشأة وتعلم القراءة والكتابة ومبادىء العلوم في مدرسة الأمريكين ، ومدرسة الحكمة ، والمدرسة السلطانية .

وهي المرحلة التي التقى فيها بالشيخ محمد عبده المنفيّ إلى بيروت ، وتلقى عنه وتأثر به ، ثم ختم شكيب هذه المرحلة بترك الدراسة المنتظمة في المدارس ، وسافر إلى مصر سنة ١٨٩٠ م حيث التقى فيها بمن التقى من العلماء والأدباء ، فاتسع نطاق تعلمه ، وصار يطلب العلم والثقافة حراً من أفواه الرجال ومن صفحات الكتب ، كما أخذ ينشىء وينشر .

والمرحلة الثانية من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩١٨ ، وهي المرحلة التي تعرف فيها بكبار العلماء والأدباء وتأثر بهم ، من أمثال محمد عبده ، ورشيد رضا ، وعلي يوسف ، ويعقوب صروف ، وفيها رحل إلى « الآستانة » ، ولقي جمال الدين الأفغاني ، وازداد وعيه الإسلامي ، وشعوره بواجبه نحو الإسلام والمسلمين ، كما ازداد حبه للدولة العثمانية وذودُه عنها ، لإيمانه بأنها دولة الخلافة والإسلام .

والمرحلة الثالثة من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٤٦ ، وهى مرحلة خصبة ، هاجر فيها شكيب من وطنه ، وأقام فى أوربة ، وارتحل إلى بلاد كثيرة ، ودافع عن قضايا العروبة والإسلام ، وألف أكثر كتبه ، وخط مئات المقالات والبحوث والبيانات والرسائل ، وأخذ ينادى بالوحدة العربية ، مع بقائه على غيرته على الإسلام ودفاعاً عن أهله ، وهكذا ظل حتى لحق بربه تعالى .

ومضيت فى الرسالة متحدثاً عن نثر شكيب وشعره ، وآرائه فى الشعر والنثر ، وجهوده اللغوية ، وكتبه وآثاره .

ثم ختمت البحث بكلمة عن شكيب فى ذمة التاريخ ، وأخرى عن نتائج البحث .

وجعلت للرسالة ذيلين : الأول مجموعة من رسائل شكيب إلى السيد رشيد رضا ، والثانى مجموعة من قصائده ومقطوعاته الشعرية لم تنشر فى ديوانه .

وأظن أنى بهذا المجهود استطعت أن أجلىَ النواحى الأدبية واللغوية من شخصية شكيب ، وإذا كان جمال الدين الأفغانى قد قال لشكيب : « أنا أهنىء أرضَ الإسلام التى أنبتتك »[١] ، فقد يحق لنا بعد أن نتعرف إلى الجوانب الأدبية واللغوية فى حياة شكيب أن نقول له أيضاً :

« ونحن نهنىء أرضَ العروبة التى أخرجتك » ! .

والله ولىّ التوفيق ؟

أبو حازم

أحمد الشربينى جمعة الشرباصى

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ٢ ص ٢٩٨ .

البَابُ الأوَّلُ

عصر شكيب

— عصر حافل

— الحالة السياسية

— الحالة العلمية والأدبية

— الحالة الاجتماعية

عصر شكيب

عصر حافل :

عاش شكيب أرسلان أكثر من ثلاثة أرباع قرن ، لأنه وُلد فى أواخر سنة ١٨٦٩م ، وتوفى فى أواخر عام ١٩٤٦ ، ولم تكن هذه الأعوام التى دنت من الثمانين أعواماً هادئة فى دنيا الأفراد والجماعات ، بل كانت حافلةً بجلائل الأحداث فى الشرق والغرب بصفة عامة ، وفى العالم العربى بصفة خاصة . وفى بلاد الشام موطنِ شكيب بصفة أخص .

فما أكثر الأحداثَ التى وقعت حينئذ ، وتأثرت بها لبنان وسورية وما جاورهما من بلاد العروبة والإسلام ، فهناك أحداث الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى ، والشقاق بين الترك والعرب ، والتنازع بين الطوائف والأديان ، وتغلغل النفوذ الأجنبى ، وانبثاق التيارات الفكرية الغربية ، ويقظة القومية العربية ، وقيام الحرب العالمية الأولى ، والاختلاف بين مفكرى الأمة العربية فى المنازع والمشارب ، وقيام الثورة العربية فى الحجاز ، وتمزيق العالم العربى وتوزيعه بين إنجلترة وفرنسة ، ومآسى الاحتلال والانتداب والوصاية والحماية ، والثورات التى قامت فى بلاد العروبة ، وقيام الحرب العالمية الثانية ، وتقلص الاحتلال عن بلاد العرب شيئاً فشيئا ، واستقلال سورية ولبنان ، وغير ذلك من الأحداث .

إنها مجموعة ضخمة من الأحداث التى تضم فى جنباتها كثيراً من الوقائع الفرعية التى لا يتسع لسردها المجال ، وقد أثَّرت هذه الأحداث فى الحياة السياسية ، والقومية ، والعلمية ، والأدبية ، والاجتماعية .

ولا عجب فإن هذه الفترة الطويلة التى عاشها شكيب قد شغلت الربعَ الأخير من القرن التاسع عشر الذى أثر تأثيراً بليغاً فى حياة المجموعة البشرية ، بسبب ما بدا

فيه من كشوف علمية ، ونهضة صناعية ، ومذاهب اقتصادية ، وتيارات سياسية . ومحاولات استعمارية .

كما شغلت هذه الفترةُ النصفَ الأول من القرن العشرين ، وفى هـذا النصف قامت حربان عالميتان مُفزعتان ، نكبتا البشريةَ فى الكثير من أبنائها ، والضخم من جهودها ، والواسع من تعميرها ، وفى هذا النصف أيضاً زالت دول وقامت دول ، وتحررت شعوب ، واستقلت بلاد ، واتصل حبل الكشوف العلميـة ، وتوالت خطواتُ التقدم الصناعى والعلمى والاجتماعى ، وجدّت فى دنيا السياسة مذاهبُ وتيارات .

وإذا كان أمير الشعراء شوقى قد قال فى « مصرع كليوباترة » على لسان الملكة التى انتحرت ولما تزل غضةَ الإهاب ، موفورة الشباب :

يومى بأيامٍ لكثرة ما مشت فيه الحيـاة ، وليلتى بليال

فإن من حق الأمير شكيب الذى عاش ما يقرب من الثمانين عاماً أن يقول : إن عامى بأعوام وأعوام ، فكيف وقد عشتُ هذا العمرَ الطويل بين جلائل الأحداث وعظائم الأمور ؟ .

والأمير نفسه يذكر هذا فى كتاباته ورسائله أكثر من مرة[1] .

وليس من غرضى أن أفصّل القولَ عن أحداث هذا العصر فى الشرق والغرب ، وإنما يكفى التعرضُ للأحداث التى وقعت فى موطن شكيب : لبنان وسورية[2] ، أو على مقربة من هذا الموطن ، وللأحداث التى لها صلة أو أثر فيه ، مما يكون لشكيب به علاقة ، أو يكون له أثر فى حياته وأعماله ، ولعل هـذا التعرض يعطينا صورةً واضحة للحياة السياسية والأدبية والاجتماعية ، ولعل هذه الصورة تعاوننا فى المضى مع شكيب فى حياته ، نتعرف إليه خلالها ناثراً وشاعراً ، وباحثاً ومفكراً .

---

(١) انظر مثلا كتاب النهضة العربية ، ص ٩ .

(٢) كان شكيب لا يفرق بينهما إلا فى التسمية تقريبا ، فهو يعتبرهما معا وطنه الأول .

الحالة السياسية :

لقد شهد الأمير شكيب تطورَ العالم العربي خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصفِ الأول من القرن العشرين ، وشاهد الأحداثَ الجسام التي مرّت بأمته ، وفهم الدسائسَ والمؤامرات التي تُحاكُ لها ، وكان على مقربة من مركز الخلافة في « اسطنبول » ، وتحققت له صلات ومعرفة برجال الحكم العثماني ، وفاضت كتاباته بالحديث عن كل ذلك[1] .

وإذا كنا نستطيع أن نلاحظ بسهولة أن أهمَّ تحولٍ في حياة شكيب هو انتقاله من النزعة العثمانية الإسلامية التي أخلص لها ما يقرب من ثلثي حياته ، إلى النزعة العربية الإسلامية التي عَمِلَ لها بقيةَ حياته ، ونستطيع أن نقرِّر أن نهاية الحرب العالمية الأولى كانت بدايةً لآخر المراحل في عثمانيته ، وأن ماحدث عقبها من تمزيق للبلاد العربية وتوزيع لها بين الحلفاء ، كان سبباً جوهرياً في اتجاهه العربي القومي — كان من حقنا أن نشير إلى صلة الدولة العثمانية بالبلاد العربية .

لقد استولت الدولة العثمانية على الشام في القرن السادس عشر ، وساسته مع بقية البلاد العربية التي سيطرت عليها سياسةً متعصبة ، فشددت على الأقليات ، وحرمتها الكثيرَ من حقوقها[2] ، وانتقل استعمال الشدة من الأقليات إلى الجميع ، حتى قال بعض الباحثين : « ظلت مصر وبلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك ، وهي في ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعاني مرارةَ الظلم وقسوة البغي ، قلِّب ما شئت من أسفار التاريخ ، فلن ترى إلا صفحاتٍ سوداء قاتمة ، تنبعث منها روائحُ الاستبداد والبطش ، وستسمع صراخَ المظلومين يُصمّ الآذان ، وتلمح دماء الفلاحين في كل صقْع تسيل تحت سياط الجُباة ، وتتمثل لك بلاد العروبة تخنقها

(١) محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، الصفحة الأولى .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢ .

يد غاشمة ، أصابها : الفقر ، والمرض ، والجهل ، والذلة ، والانحلال »[١] .

ومع ما قد نلحظه فى هذا التعبير من عنصر المبالغة فى التصوير ، لا نستطيع أن ننكر سلسلة المظالم التى حاقت بالعالم العربى عن طريق الحكم العثمانى ، وفى الفترة الأخيرة منه بوجه خاص ، لأن السلطنة العثمانية « لم تجد صعوبة فى قيادة هذه البلاد وتصريف أمورها ، لأن أهلها يخضعون للدولة خضوعاً اختيارياً مبنياً على العقيدة والدين ، فالسلطنة دولة إسلامية ، زعيمها هو خليفة المسلمين ، وهى تدافع عن بيضة الإسلام »[٢] .

ولكن تفاقم الخطب ، وتكاثر الشر ، وتضاؤل الخير ، وطول الأمد ، جعل هذا الخضوع الاختيارى يتزلزل فيخف سلطانه على أهليه . وزاد الطين بلة أن الدولة العثمانية بما ارتكبته من اضطهاد للأقليات فى بلاد العرب فتحت الباب للتدخل الأوربى تحت التستر بدعوى إنصاف المسيحيين ، وبقصد قضاء مآربهم الأخرى فى الحقيقة والواقع .

وأسس هؤلاء الأجانب مدارس أجنبية فى البلاد العربية ، لتدريس اللغات الأجنبية مع العلوم الأخرى ، ومن العجيب أن هذه المدارس كانت تعنى — فيما تعنى به — باللغة العربية ، أكثر من عناية المدارس التركية بهذه اللغة ، مع أنها لغة القرآن عماد الإسلام الذى تستند الدولة العثمانية فى حكمها إلى اسمه واسم الخلافة الإسلامية المنتسبة إليه . ولا شك أن هذه المدارس كانت فى باطنها ركيزة لهؤلاء الأجانب ، وعاملا من عوامل زعزعة الثقة بالدولة العثمانية فى البلاد العربية .

---

(١) كتاب فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ٩ .

(٢) محاضرات فى نشوء القومية العربية ، ص ١٠٨ . والبيضة : حوزة كل شىء ، وساحة القوم .

ولم يقف نشاط الأجانب عند إنشاء هذه المدارس ، بل منهم من حرّض أبناء البلاد العربية على الاستخفاف بالدولة العثمانية ، أو الثورة عليها ، فهذه روسية تساعد هذه البلاد ، وهذه انجلترة وفرنسة تتآسيان [١] .

واستغلت أوربة ظروفاً مختلفة لتقصّ أطرافَ الدولة العثمانية الواسعة ، فاستولت فرنسة على تونس ، وإيطالية على طرابلس الغرب ، وانجلترة على مصر ، وأخذت كلُّ دولة من هذه الدول تبث الشقاقَ في البلد الذي احتلته ، وتغري أبناءه بالوعود الخلاَّبة المعسولة ، وتحاول في الوقت نفسه فصمَ العُرَى بينه وبين الدولة العثمانية .

وأما فيما يتعلق بلبنان — مسقط رأس شكيب — فإن الشيخ محمد [٢] عبده يقول عنه حوالي سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٦ م ، أي قبيل انتهاء القرن التاسع عشر بنحو أربع عشرة سنة :

« فلبنان يتنازع النفوذَ فيه دولتا فرنسة وانجلترة ، وليس بخافٍ ما تأتي به هذه المسابقةُ السياسية ، بعد ما ظهرت آثارُ مثلها في بلاد أخر ، والدولة (يقصد العثمانية) أعزها الله — مع أن البلاد بلادُها — ليس لها من يروِّج سياستَها ، ويؤيد كلمتها ، وأمرُها يتبع ميلَ المتصرف ، إن صدق في خدمتها كان لها ، وإلا صار إلى غيرها ، والمتصرف شخص يعزل ويولَّى ، وأهلُ البلاد هم القوة الراسخة ، وبهم تؤزر السلطة فيهم [٣] » .

ومصر ذات ارتباط بالشام منذ أقدم العصور ، ولسنا بحاجة هنا إلى مراجعة هذه العصور ، إذ حسبنا عصر شكيب وما ارتبط به من قرب .

ففي مطلع القرن التاسع عشر غزا نابليون بونابرت مصرَ بحملته المشهورة ،

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٥ .

(٢) جريت هنا على عدم إعراب الأعلام .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، ج ٢ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ من تقرير للشيخ في إصلاح سورية .

ثم حاصر « عكا » ولم يقدر على احتلالها ، وكانت الحملة الفرنسية على مصر والشام أشبهَ بيــد تقرع الباب ، وتُشعر الشرقَ العربى أن الغرب المستعمر لن يتركه ناعماً فى خدره .

وفى سنة ١٨٣١ م قام إبراهيم باشا بحملة على الشام ، واستطاع أن يوحِّد مصر والشام ، وكانت هذه أولَ محاولة فى العصر الحديث لتوحيد البلاد العربية ، ولـكن هذه المحاولة انهارت سنة ١٨٤٠ م ، وانسحب الجيش المصرى من الشام ؛ وعادت الشام إلى حكم العثمانيين ، إلى أن كانت سنة ١٨٦٠ م وحدثت الحوادث الطائفية المؤسفة ، وتدخل نابليون الثالث ، وظفر لبنان بعد هذا باستقلاله الذاتى داخل إطار الدولة العثمانية [١] .

وفى سنة ١٨٧٦ م تولى السلطان عبد الحميد الخلافة العثمانيةَ ، بعد مقتل عمـه السلطان عبد العزيز ، وأعلن السلطان عبد الحميـــد دستورَه الأول تحت ضغط الأحرار من العثمانيين ، وولى « مدحت باشا » منصبَ « الصدارة العظمى » ، وكانت ميول مدحت باشا دستوريةً ، وفيها محبـــة للحرية ، ولـكن السلطان عبد الحميد عاد فوقف العملَ بالدستور ، وفضَّ البرلمـان ، وأبعد مدحت باشا .

وظل عبد الحميد يحكم حكما استبدادياً مدة طويلة ، زادت على الثلاثين عاماً ، ثم عاد تحت ضغط الرأى العام فنشر الدستور مجدَّداً بعد اثنتين وثلاثين سنة من وأده [٢] ، وكان نشره فى ٢٤ تموز (يوليه) سنة ١٩٠٨ م .

وكان يوم إعلان الدستور العثمانى يوماً عظيما فى تاريخ السلطنة العثمانية ، وأُقيمت من أجله حفلات ، وأُلقيت خطب ، ونُظِمت قصائد ، وتجلت مظاهر الفرح بين الأتراك والعرب ، وبين المسلمين والمسيحيين .

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ، ص ٦ و ٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧ و ٨ .

وقد نظم شكيب فى هذا الدستور قصيدةً ملأها مديحاً وثناء فى منح الدستور ، وفى « الإمام الخليفة » الذى وهبه ، وفى بنى عثمان ، وحسبنا أنه بدأها بقوله :

ألا يا بنى عثمان حسبكمُ بُشرى لقد جاد ربُّ العرش بالنعمة الكبرى

ويصف الخليفةَ بأنه « ظل الله » ، ويشير إلى عناية الله فى مجىء الدستور ويقول :

وألهمَ مولانا الخليفة ظلَّهُ قياما على الدستور فى الدولة الغرَّا

تداركها رمقاً بإكسير ناظرٍ إذا مال نحو الترب صيَّرهُ تِبرا

فنلتم بنُعْماه حياةً جديدةً غدت بنفوسٍ عند غيركمُ تُشرَى

وبعد أن يطيل التغنِّىَ بأمة عثمان وأمجادها يقول :

وفدُّوا أميرَ المؤمنين بأنفسٍ كفَتْها إلى عثمان نسبتُها فخراً .. إلخ

كما أنه صاغ فى الدستور قصيدة أخرى فُقدت منه ، ولكنه تذكر أربعة أبيات فيها نشرها بديوانه [1] .

* * *

وعقب إعلان الدستور العثمانى أخذ بعضُ الأتراك يهمسون بالدعوة « الطورانية » ، وكلمة « طوران » تطلق على البلاد الشاسعة التى يقطنها الأتراك وأقارب الأتراك من المغول والتتار وغيرهما ، وكلمة « الطورانية » تفيد معنى النزعة القومية عند الأتراك[2] .

وأخذ بعض الأتراك يبدى رغبةً شديدة فى تتريك الدولة ، بجعل اللغة التركية

---

(١) ديوان الأمير شكيب ، ص ١٠٢ و ١٠٣ .
(٢) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٥٢ .

هى اللغة الرسمية ، وتنقيتها من الألفاظ العربية ، والاعتزاز بعظماء الأتراك بدل عظماء العرب ، وأسرفت جريدتا « طنين » و « إقدام » فى توسيع هوة الخلاف بين العرب والترك بحملاتهما على العرب ، مما جعل العرب يفكرون فى الرد على ذلك بتأليف جمعياتهم العربية ما بين سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٣ [1] .

وفى سنة ١٩٠٩ — أى بعد ثلثى عام تقريباً من صدور الدستور — حدثت فتنة الرجعية ، إذ حاول السلطان عبد الحميد — بعد اضطراره إلى إصدار الدستور — أن يلغى الدستور مرة أخرى ، واستعان فى ذلك بالأحزاب الرجعية .

فى ٣١ آذار (مارس) سنة ١٩٠٩ أحاطت قوات من الجنود الرجعيين بمجلس النواب العثمانى ، وطالبت بإغلاقه ووقف الدستور ، ولكن الضباط الأحرار — وعلى رأسهم محمود شوكت [2] — زحفوا على القسطنطينية وثبتوا دعائم الدستور ، وخلعوا السلطان عبد الحميد فى ٢٧ نيسان (إبريل) ، وأرسلوه سجيناً إلى بلدة « سالونيك » ، وبايعوا أخاه « محمد رشاد » خليفة وسلطاناً دستورياً على البلاد العثمانية [3] .

كانت الدعوة إلى « الطورانية » و « تتريك الدولة » ، ومحاولة القضاء على الدستور وهو ما زال وليداً ، من الأسباب التى جعلت كثيراً من العرب يفكرون فى أمرهم ، وفى وضعهم داخل الدولة ، وأغلب الظن أن شكوكاً ساورت نفوسهم ، وأن خشية سيطرت عليها من المستقبل المبهم ، وجاءت أسباب أخر زادت المشكلة تعقيداً .

لقد كان من عيوب الحكم العثمانى أنه أثار التعصب بين المسلمين والمسيحيين وكانت هذه الإثارة أحد الأسباب التى أدت إلى حوادث مؤسفة بين الفريقين

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ، ص ٢٧ .

(٢) الأتراك يكتبون (شوكت) وأمثالها بالتاء المفتوحة .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

كالواقعة التى وقعت بين النصارى والدروز سنة ١٨٤١ فى لبنان ، بسبب التنافس على الحكم . وكالواقعة التى وقعت بين الفريقين سنة ١٨٦٠ ، وسقط فيها كثير من القتلى . ولا ننسى ما لأصابع الأجانب ومكائدهم من نصيب فى إحداث هذه الفتن ، وتدخلت فرنسة بجيشها ، لولا أن الدولة العثمانية أخذت مثيرى الفتنة بالشدة ، فتراجعت فرنسة نزولا على رغبة النمسة وانكلترة اللتين خافتا من تغلغل نفوذ فرنسة فى هذه المنطقة[١] .

وفسر بعضُ الباحثين هذه الإثارة بأنها سياسة مقصودة من الدولة العثمانية ، فقال : « لم يكن من مصلحة طَغَمَة الاستبداد فى الحكومة الغابرة (قبل إعلان الدستور) أن يؤلفوا بين القلوب ، إذ كانوا يعتقدون لجهلهم أن وفاق الأمة يدك معاقلَ صولتهم[٢] » .

وما كادت بشرى إعلان الدستور تسرى حتى تعانقَ المسلمون والمسيحيون فى الطرقات ، وصار رؤساء الدين من المسلمين والمسيحيين يتعانقون ، « وهناك تآخى الفريقان ، وتحاب القبيلان ، وعلموا أن العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة » كما قال مصطفى الغلايينى[٣] :

حتى قال بعض الشعراء :

تعانق الشيخ والقسيسُ ، واصطحبا   من بعد ما افترقا ضدين ، واختصما
تآخيا فى حِمَى الدستور ، واتحدا   ورفرفت رايةُ التوحيد بينهما[٤]

* * *

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٤ .
(٢) كتاب عبرة وذكرى ، ص ١٠١ .
(٢) عبرة وذكرى ، ص ١٠١ .

ولكن بعد خلع عبد الحميد ، وتثبيت الدستور ، ومبايعة « رشاد » ، والانتهاء من نشوة الفرحة ، تطلع الناس فرأوا الفساد ما زال باقيا ، إذ لم يكن من السهل لدولة قضت قرنين من الزمان وهى تحتضر ، أن تنهض وترق فى سنة أو سنتين ، كما أن ولاة الأمر لم يُعنوا بتحقيق الإصلاح بعد أن استقروا فى مناصبهم ، ولذلك شاعت الحسرة والتشاؤم بين الناس ، حتى يصور ذلك الشاعر فارس الخورى بقوله من قصيدة عنوانها « أيتها العدالة » :

فبين الناس جور واعتداء ... عزيز القوم يعبث بالذليل

وسوق الزور رائجة ، وفيها ... يباع الحق بالثمن القليل

لقد حلفوا اليمين وأحرجوها ... على الإخلاص والحزم الأصيل

ألا سرعان ما حنثوا وماتوا ... وعادوا للخيانة والحئول

ومدوا للرشا كفّاً خبيثا ... وباعوا بالنضار دم القتيل (١)

وبدأت الشكوى من الحكم العثمانى تتحرك وتسرى فى البلاد العربية ، بأن أخذ بعض المفكرين العرب يصفون سوء الأحوال فى البلاد العربية ، ويقارنون بين الولايات العربية التابعة للخلافة وبين سائر الولايات العثمانية ، وكانوا يخرجون من هذه المقارنة بأن حقوق العرب مهضومة فى السلطنة العثمانية .

وكان هؤلاء المفكرون ينقسمون من جهة آرائهم إلى جماعات :

١ — جماعة تتمنى قيام خلافة عربية تعيد الحق إلى نصابه .

٢ — وجماعة تطالب الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات جدية فى البلاد العربية

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة في بلاد الشام، ص ٣٤و ٣٥، وأحرج اليمين: ضيقها يقال: حلف فلان بالمحرجات أي الأيمان التي تضيق مجال الحالف، وماتوا: كذبوا، و الرُّشا جمع رشوة، وهي ما يعطيه الإنسان للحاكم ليحكم له.

٣ — وجماعة تشترك مع الأحرار الأتراك فى الدعوة إلى إصلاحات عامة تشمل جميع البلاد العثمانية على حد سواء .

٤ — وجماعة تطالب بمراعاة حقوق العرب فى مختلف شئون الدولة[١] .

• • •

وينبغى أن نلاحظ أنه فى الفترة الواقعة بين خلع السلطان عبد الحميد وإعلان الحرب العالمية الأولى كانت الدولة العثمانية فى موقف حرج ، وكانت فى وضع دولى وعسكرى لا تُحْسَد عليه ، ففى سنة ١٩٠٨ انتزعت النمسة مقاطعتى « البوسنة » و « الهرسك » من جسم الدولة العثمانية ، وفى سنة ١٩١١ بدأت حرب طرابلس الغرب بين العثمانيين والإيطاليين ، وهى الحرب التى اشترك فيها الأمير شكيب ، وكانت نتيجة هذه الحرب استيلاء إيطالية على هذا القطر العربى .

وبين سنتى ١٩١٢و١٩١٣ نشبت الحرب البلقانية ، واتحد فيها الصرب والبلغار واليونان ضد الدولة العثمانية ، وانتهزوا فرصة انشغالها بحرب طرابلس ، واستخلصوا الممتلكات البلقانية من يدها ، كما فقدت الدولة جزيرة « كريت[٢] » .

كل هذه الأحداث وسواها نالت من قوة الدولة وهيبتها ، وعاونت على تعجيل الشيخوخة والضعف إليها .

فإذا ما نظرنا إلى العلاقة بين الدولة العثمانية والعرب وجدنا أنه لم تكن هناك — حتى أواخر القرن التاسع عشر — حركة جدية فى البلاد العربية للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسى منظم[٣] .

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٦٤ .

(٢) شعراء الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ، ص ٤٦ .

(٣) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ، ج ١ ص ١١ .

بل ظلت النزعة العثمانية بارزة فى المجتمع العربى وفى الأدب العربى إلى أوائل الحرب العالمية الأولى ، « ففى أوائل العهد الدستورى — كما يقول الأستاذ أنيس المقدسى — كان الشعر العربى فى سورية ومصر والعراق مجلى لألوان من الوطنية غير واضحة الحدود ، ولكن كما أن ألوان الطيف إذا مُزجت معاً كونت شيئاً واحداً هو النور ، كذلك تلك الألوان العاطفية من دينية أو قومية مرجعها واحد هو الإحساس الحاد بكرامة شرقية لم يعهدها الشرقيون أو العرب منهم قبل ذلك العهد .

وقد كان لنشوة الدستور يد فى تعميم ذلك الإحساس ، وإلباسه أحيانا لباسَ الجامعة العثمانية ، وكانت تلك النشوة على أشدها فى السنة الأولى من إعلان الدستور أيامَ كان الناس لا يزالون يطفرون فرحا بزوال الاستبداد ، وينظرون إلى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار ، ثم أخذت بالتراخى تدريجا .

على أن النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة فى الأدب العربى إلى أوائل الحرب العالمية ، ومما يزكى ذلك ما نظمه الشعراء سنة ١٩١٣ فى حادثة الطيارَين التركيين « فتحى ، وصادق » ، وهما أول طيارين شرقيين ظهرا فى سماء الشرق العربى ، فلما وصلا سورية ولبنان قابلهما الأدب العربى بهبة وطنية هزت أعصابَ الناس ، وأثارت نخوتهم الشرقية ، أو قل العثمانية كقول الشيخ مصطفى الغلايينى من قصيدة حماسية :

خيمتما فوق الرءوس فأشرقت ... منا الوجوهُ ، وأزهرت أنوارُها

وفتحت يا «فتحى» القلوبَ بزمرة ... أحيا مواتَ رجائنا تذكارُها

ونزعت منا اليأسَ وهو بلية ... شنعاء عمّت قومَنا أضرارُها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى فى أقوال أكثر الشعراء لذلك العهد .

ثم طار الطياران يقصدان مصر ، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما ، فسقطا قرب

« طبرية » . وكان لمصرعهما رنةُ أسفٍ عمت جميعَ الأقطار العربية ، وقد جماهما الشعر العربى مثالَ الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب ، وفى ذلك يقول إلياس فياض :

« فتحى » أطلَّ من السماء مكذِّبا ... من قال إنا أمــة لن نُقدما

من قال إن الشرق شعب خامل ... لا يستطيع مع الشعوب تقدُّما

اليوم قــد جددتما لشبابه ... عهداً ينسِّى عهـــده المتصرما

أهرقتما للعــلم أفضلَ مهجةٍ ... كانت تراق على المظالم قبلما

هذا هو الدرس المفيد ، وهذه ... عظةُ الزمان فهل لنا أن نعلما

من ليس يعرف أن يموت مكرَّما ... هيهات يعرف أن يعيش مكرما

ويتجلى شعور المصريين يومئذ فى قول شاعرهم حافظ إبراهيم من قصيدة :

أختَ الكوا كب ما رما ... كِ وأنت راميةُ النسورِ

ماذا دهاكِ وفوق ظهرِكِ مربضُ الأسد المصور؟

ومنها قوله مخاطباً فتحى :

حاولتَ أن تَرِدَ « المجرةَ » ، والورودُ من العسير

فوردت يا « فتحى » الحِمَام ، وأنت منقطع النظير

وهويت من كبد السماء ، وهكذا مَهوَى البدور

إن كان أعياكَ الصعودُ بذلك الجسد الطهور

فاسبح بروحك وحدَها ، واصعد إلى المَلِكِ الكبير

ومثلها قصيدة لعبد المطلب مطلعها : (وقفت لك الدنيا فسيرى) ، وقصيدة شوقى : (انظر إلى الأقمار كيف تزول) . وعلى هذا النمط كثير من الشعر الوطنى فى بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة ، وسواها من حواضر العالم العربى .

وإذا قيل : كيف ذلك والعرب يومئذ كانوا قد بدأوا يستنكرون سياسة الاتحاديين الأتراك ، ويتشوقون إلى حياة قومية وكيان مستقل . بدليل ما نراه من جمعياتهم السياسية فى مصر وغير مصر ؟ . قلنا إن تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية مايُشيع فى جميع الأنحاء مبادئها ، أو مايجمع القلوبَ على نصرتها ، فظل السواد الأعظم من أبناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية ، لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة العثمانية .

ثم إن الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية ، ويخيل إلينا من دراسة عواطف الناس فى ذلك الحين أن الزعماء الذين كانوا يعملون فى سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من هذا الأمر ، ولو راجعت الرسائلَ التى كان يتبادلها سراً أمثال عبدالحميد الزهراوى ، ومختار بيهم ، ومحمد المحمصانى ، وسليم الجزائرى ، ورشيد رضا ، وإخوانهم من أعضاء المؤتمر العربى ، أو الجمعية الإصلاحية ، لوجدت ما يزكِّى قولنا إن الإصلاح الذى كانوا ينشدونه لم يكن يراد به أولا القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار ، ولو عرفت تركية يومئذ كيف تستغل شعورَ الناس لألَّفت من الكتلتين التركية والعربية جامعةً عزيزة الجانب صادقة الوطنية ، لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الأسباب المعجلة لنجاح الدعايات الأوروبية فى الشرق العربى ، ثم لإشعال الثورة العربية فى أثناء الحرب الكبرى سنة ١٩١٦ [١] » .

وعلى الرغم من بقاء النزعة العثمانية ظاهرة فى المجتمع العربى والأدب العربى إلى هذا الوقت ، كانت هناك أصوات تتردد لإيقاظ القومية ، ولإثارة العرب ضد الترك

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ — ٥٧ .

مثل إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٩٠٦ . فقد أخذ فى شبابه ينظم القصائدَ الهادفة إلى تلك الإثارة ، مثل قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى السيل حتى غاصت الركبُ

فيم التعلل بالآمال تخدعكم ... وأنتم بين راحات القنا سَلَب ؟

كم تُظلمون ولستم تشتكون ، وكم ... تُستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ويقول فيها مخاطباً العرب أيضاً :

ألستم من سَطَوا فى الأرض واقتحموا ... شرقاً وغرباً ، وعزّوا أينما ذهبوا ؟

فما لكم ويحكم أصبحتم هَمَلاً ... ووجهُ عزّكم بالهُون مُنتقِبُ

لا دولة لكم يشتد أزركمُ ... بها ، ولا ناصر للخطب ينتدب

أقداركم فى عيون الترك نازلة ... وحقكم بين أيدى الترك مغتصَب

وكان هناك صوت عبد الرحمن الكواكبي صاحب « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » ، فقد دعا إلى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية ، وأطال التمجيد فى العرب [١] .

وكان هناك صوت نجيب عازورى الذى أصدر كتابه « يقظة الأمة العربية » سنة ١٩٠٥ ؛ وصوت نجيب الحداد الذى ردد قوله :

آن الأوان لأن أخاطر بالدَّمِ ... من لم يخاطر بالدِّما لم يسلمِ

أجزيرةَ العرب التى أحببتُها ... كم من أكفٍّ قد رمتكِ بأسهم

لعبت أكفُّ الترك فيك فغادروا ... فى كل قطٍ فيك نهراً من دم

قتلوا رجالَكِ واستذلوا من بقى ... فبقيت صرعى لليدين والفم

---

(١) انظر كتاب وسائل تقدم المسلمين ، ص ١٢٣ — ١٢٧ .

ومن مظاهر اليقظة القومية العربية المبكرة التى ازدادت مع الأيام والأحداث قوة وتأثيراً، إنشاء الكثير من الجمعيات التى تعمل لأهداف عربية، مثل جمعية حفظ حقوق الملة العربية التى تألفت سنة ١٨٨١، والجمعية العربية المؤلفة من شباب العرب والأتراك بباريس سنة ١٨٩٥، وجمعية الإخاء العربى التى تأسست بالآستانة سنة ١٩٠٨ لإعلاء شأن الأمة العربية، والمنتدى العربى بالآستانة سنة ١٩٠٩ ليكون مثابة للشبان العرب، وجمعية الفتاة بالآستانة التى كانت للعرب مثل جمعية الاتحاد والترقى للأتراك، وجمعية العهد التى تأسست بالآستانة سنة ١٩١٣ للعمل على الاستقلال الداخلى لبلاد العرب.

ومن هذه الجمعيات ما تألف فى مصر، مثل الجمعية القحطانية سنة ١٩٠٩، وكانت جمعية سرية لتوحيد صفوف الأمة العربية، والجامعة العربية سنة ١٩١٠ لتحقيق الاتحاد الحلفى بين أمراء الجزيرة العربية، وحزب اللامركزية سنة ١٩١٢ لبيان حسنات الإدارة اللامركزية فى السلطنة العثمانية.

ومن هذه الجمعيات ما تألف فى بيروت، مثل الجمعية الإصلاحية سنة ١٩١٢، وهى تشبه حزب اللامركزية السابق؛ ومن هذه الجمعيات ما تألف فى باريس مثل المؤتمر العربى العام الذى عُقد فى حزيران (يونيه) ١٩١٣ وضم وفوداً عربية كثيرة (١).

ومضت الأيام تباعاً والروابط العثمانية العربية تتعرض للضعف والوهن يوماً بعد يوم، ووقعت من حكام الأتراك سلسلة من الأخطاء زادت الجفوة بين الفريقين حدة، حتى كتب السيد رشيد رضا فى يناير سنة ١٩١٠ مقالا طويلا عنوانه: «العرب والترك»، وأخذ فى هذا المقال يعدد هفوات الأتراك وأخطاءهم نحو

---

(١) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث، ج ١ ص ٩٤ تلخيصا عن كتاب الثورة العربية ج ١ ص ٧ — ٤٩.

العرب ، ومنها أن الترك بدأوا يفاخرون العربَ فى بعض ما يكتبون ، وأهملوا تقدير المجاهدين فى سبيل الدستور من أحرار العرب ، وأسرفوا فى عزل أبناء العرب من الوظائف ، وجعلوا المرافعات فى محاكم الولايات العربية بالتركية مع جهل الناس لها ، وجعلوا اللغة العربية فى المدارس الإعدادية اختيارية كاللغتين الأرمنية والرومية ، ونقصوا عددَ الأعضاء العرب فى مجلس الأعيان ، وفرقوا بين التركى والعربى فى المعاملة ، إلى غير ذلك من الأسباب [١] .

ولا يمكننا أن نتجاهل أن الأيادى الاستعمارية كانت حريصة على فصم الروابط القائمة بين العرب والترك ، لا حباً فى العرب ، ولا حرصاً على استقلالهم ، ولكن طمعاً فى تمزيق السلطنة العثمانية الواسعة الرحاب ، وتطلعا إلى احتلال البلاد العربية ، وهذا ما تحقق مع شديد الأسى ، وما حذَّر منه شكيب مراتٍ قبل أن يقع : والأستاذ المقدسى يقرر أن هذه الأيادى الاستعمارية « كانت ترمى إلى تفكيك عرى الدولة العثمانية ، وفصل الأقطار العربية لأغراض استعمارية ، ولا نشك أنها سعت فى تنشيط الجمعيات وحمايتها ، إذ رأت فيها أو فى بعضها ما قد يوصلها إلى هدفها المنشود [٢] » .

* * *

واشتعلت نار الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، حينما كانت العلاقات التركية العربية تجتاز مرحلة انتقال محفوف بالحيرة والتردد [٣] . وانحازت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانية تحارب معها الحلفاء ، وعينت تركية القائد أحمد جمال باشا قائد الفيلق الرابع من الجيش العثمانى والياً على سورية ولبنان وفلسطين والحجاز ، فبغى وطغى ، وألجم الألسنةَ ، وأرهب الناس ، وحملهم على النفاق وترديد المدائح ،

---

(١) مجلة المنار ، المجلد الثانى عشر ، مقال (العرب والترك) . ص ٩١٣ — ٩١٩ .
(٢) الاتجاهات الأدبية ، ج ١ ص ٩٥ .

وكان يمثل النزعة الطورانية بأقصى صورها وتعصبها ، وهو من جماعة « الأتحاد والترقى » .

وكانت تركية قد أعلنت الأحكامَ العرفية ، وقيدت الحريات بقيود ضيقة ، عاونت على زيادة كراهية العرب للترك ، وزاد الطين بلة أن جمال باشا استغل إلغاء تركية للامتيازات الأجنبية ، وعمـد إلى تفتيش دور القنصليات المعادية فى بلاد العرب ، ومنها دار القنصلية الفرنسية فى بيروت . وكان ذلك سنة ١٩١٦ ، وهناك عثروا على وثائق سرية كشفت عن وجوه من نشاط الجمعيات العربية ، والكثير من زعمائها وأعضائها ، فسارعوا بالقبض على من وجدوه من هؤلاء بإشراف جمال باشا ، وتمكن فريق من الأحرار المطلوبين من الفرار إلى أوربة أو مصر .

ووُجّهت إلى هؤلاء الأعضاء والزعماء تهمةُ الخروج على الدولة ، وأحيلت أوراقهم إلى « الديوان الحربى » ، وحوكموا فى بلدة « عاليه » بلبنان محاكمة صورية ، وحُكم بالموت شنقاً على ثلاثين من الأحرار ، كما صدر الحكم غيابياً بالموت شنقاً على نحو ستين ، وعوقب آخرون بالنفى أو السجن .

ونُفّذ حكم الشنق الباغى فى بيروت ودمشق صباح اليوم السادس من أيار (مايو) سنة ١٩١٦ [١] .

وكان هذا الشنق آخر خنجر تحمّله صبرُ العرب من جمال باشا الذى اكتسب من وراء جرائمه تلك لقبَ « السفاح » ، فكانت بعده ثورةُ العرب .

ولكى نتبين مدى الإرهاب الذى بثه فى سورية ولبنان نطالع رسالة كتبها شكيب فى ١١ أبريل سنة ١٩١٦ إلى صديقه الأستاذ على الغاياتى ، يذكر فيها من ذكريات جمال باشا السفاح أنه كان يغار من أنور القائد العثمانى ، وأن أنور لما

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة فى الشام ، ص ٥٣ . والاتجاهات الأدبية ج ١ ص ١٠٧ .

زار لبنان أثنى عليه شكيب ، فغضب جمال ، فاضطر شكيب — وهو أمير من بنى أرسلان — أن يرضيه ، فنوّه به فى بعض خطبه بعبارات ثناء ، ويعلل شكيب ذلك بأنه كان يقصد إرضاء جمال خوفاً على الجماعة الذين كانوا موقوفين فى « عاليه » وكانوا نحو سبعين ، وهم الذين شنق جمال منهم طائفة ، كما يذكر شكيب أنه أثنى على جمال لينقذ أخاه « عادل » الذى كان متهوراً ، والذى طعن على جمال باشا فى مجلس النواب العثمانى .

ويذكر شكيب فى الرسالة أيضاً أن جمال باشا منعه سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ من الخروج من لبنان ، ومن السفر إلى الآستانة ، مع أنه كان عضواً فى مجلس « المبعوثان » ، ولكن شكيب فى أواخر سنة ١٩١٦ خرج مع أسرته إلى استنبول وأقام بها دون استئذان (١) ، وكأنه « فر بجلده » كما تقول العامة .

فإذا كان هذا حال الأمير شكيب أرسلان ، فما يكون حال سواد الشعب حينئذ ؟ .

ويذهب أكثر من باحث إلى أن مأساة الشنق كانت سبباً فى تعجيل الشريف حسين بن على أمير مكة الذى كان يفاوض الحلفاء سراً — بإعلان الثورة ضد الأتراك ، ودخول العرب فى صف الحلفاء فى شهر حزيران (يونيه) ١٩١٦ ، أى بعد شهر من تعليق الشهداء على المشانق (٢) . ونستطيع أن نقول إن المأساة كانت أقوى تمهيد لإعلان تلك الثورة .

ويقول الأستاذ ساطع الحصرى : « وقد استمر جمال باشا فى هذه الأعمال الإرهابية ، دون أن يلتفت لا إلى الملاحظات التى أبداها بعض رجال الدولة ، ولا إلى النصائح التى أسداها الشريف حسين .

---

(١) مجلة منبر الشرق ، عدد ٣٠ يناير ١٩٥٣ ، وعدد ٦ فبراير ١٩٥٣ — مقالات (ركن الذكريات) لعلى الغاياتى .

(٢) شهداء الحماسة والعروبة فى الشام ، ص ٥٤ .

من المؤكد أن الشريف حسين ـــ الذى كان عندئذ أمير مكة المكرمة ـــ أوفد إلى جمال باشا ابنه فيصل ـــ الذى كان عندئذ نائباً عن الحجاز فى مجلس المبعوثان العثمانى ـــ ليلتمس منه الكفّ عن سياسة الإرهاب والإعدام ، ولكن جمال باشا لم يعبأ بذلك أبداً »[1] .

ومعنى هذا أنه قد أعذر من أنذر ، ولم يبق إلا الثورة ! . .

وقد أعلن الشريف حسين الثورة ضد تركية فى الثانى من حزيران (يونيه) سنة ١٩١٦ ، بعد أن لم يبق مزيد من الكراهية بين الترك والعرب ، وبعد أن استطاع الحلفاء وفى طليعتهم بريطانية جذبَ الحسين إلى صفهم بوعود خلابة ، خلاصتها أنهم سيجعلونه ملكا للعرب إذا انتهت الحرب بنصرهم ، فأعلن الاشتراك فى الحرب إلى جانب الحلفاء ، وأصدر منشوراً بذلك ذاكراً فيه أسباب ثورته ، ومنها اضطهاد الترك للغة العربية ، وقتلهم نوابغ النهضة القومية ، وما قاموا به فى البلاد العربية من نفى وأسر ومصادرة ، وغير ذلك من الأعمال المنكرة .

ورفض شكيب الاشتراكَ فى الثورة وعارضها ، وجعل يردد أن هذه الثورة ستكون وبالاً على قومه ، وأن الاستمرار فيها انخداع بالمستعمرين الذين يضمرون للترك والعرب على السواء النيةَ السوداء ! .

وكان موقف شكيب حينئذ عصيباً لا يُحسد عليه ، فقد كان ضدَّ التيار العام ، وخارجاً على رأى الأكثرية ، وبادياً فى صورة من يريد أن يكون عثمانياً أكثر من بنى عثمان ! . وإن تكن الأحداث قد جرت بعد ذلك بتحقيق ما توعد به وحذَّر منه ! .

واشترك فى الثورة سوريون وعراقيون ، لأن الحسين أعلن أنها « عربية

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ٢١٢ .

تشمل كل عربي » . وقد حاول الأتراك بطبيعة الحال القضاء على الثورة ، وتشويهها وتجريح رجالها ، ولكنها استمرت برغم العوائق والصوائق .

وفي ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨ دخل الجيش العربي دمشق دخول الظافرين بقيادة الأمير فيصل بن الحسين ، بعد أن انسحبت الجيوش التركية من البلاد العربية ، وفي ٢٣ من الشهر نفسه احتفل العرب برفع العلم العربي في المكان الذي شُنق فيه الشهداء بدمشق سنة ١٩١٦ .

ووضعت الحرب أوزارها عقب ذلك بأيام قليلة ، وتطلع العرب إلى تحقيق الوعود التي مناهم بها الحلفاء ، فلم يجدوا منها شيئا ، بل وجدوا جيوش الحلفاء تحتل ديارهم ، وشاعت الأنباء عن معاهدة « سايكس — بيكو » القاضية باقتسام الحلفاء أرضَ العرب ، وذهب الأمير فيصل باسم والده واسم العرب إلى مؤتمرات الصلح ليطالب بحقوق بلاده ، ولكنه لم يبلغ مراداً ، فقد رحل في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٨ لتمثيل الحجاز في مؤتمر الصلح ، وما كاد يفاتح فرنسة حتى صارحه الفرنسيون بالعداوة ، وأخذوا يحذرون بريطانية من الوقوع في « حبائل الوحدة العربية » التي تعد خطراً على مصالح انجلترة وفرنسة .

ورحل فيصل بعد ذلك في أيلول (سبتمبر) ١٩١٩ إلى انجلترة ، فوجدها قد تأثرت بتحريض فرنسة فتضامنت معها ، وردت فيصل رداً غير جميل ، ووصلت بعثة « كراين » الأمريكية سورية لتستطلع رأي أهلها باسم مبادىء الرئيس ويلسون في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ ، فقابلتها مظاهرات السوريين منادية بالاستقلال .

واجتمع المؤتمر السوري عقب ذلك، وقرر عدم السماح للجيش الفرنسي بالتوغل في أرض سورية ، وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩ أصدر المؤتمر قراراً بجعل

الخدمة العسكرية إجبارية فى سورية ، وفى ٨ آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ أعلن المؤتمر استقلال سورية ، ونادى بالأمير فيصل ملكا دستوريا عليها[١] .

ولكن عرش فيصل لم يدم فى سورية طويلا ، ففى الرابع والعشرين من شهر تموز (يوليه) ١٩٢٠ تقدمت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال « غورو » لاحتلال دمشق ، تنفيذاً لاتفاق الحلفاء الذى يقضى بتطبيق نظام « الانتداب » على بلاد الشام ، بعد تقسيمها قسمين ، فالجزء الشمالى يكون للفرنسيين ، والجزء الجنوبى يكون للانجليز .

ووقفت فى وجه القوات الفرنسية قواتٌ عربية قليلة العدد والسلاح ، وفى هضاب « ميسلون » على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا من دمشق إلى جهة الغرب نشب القتال بين الجانبين ، وانتصرت القوات الفرنسية لضخامة عددها وكثرة سلاحها ، وسقط يوسف العظمة قائد الجيش العربى ، ووزير الدفاع فى الحكومة العربية ، شهيداً فى المعركة ، ودخل الفرنسيون دمشق ، وأرغموا فيصل وصحبه على مغادرتها[٢] ، فترك فيصل العرش مرغماً ، واحتُفل بعد ذلك بالمناداة به ملكا على العراق فى ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٢١ بعد استفتاء شعبى .

* * *

ولم يقف الاستعمار عند تقسيم الشام إلى قسمين : شمال وجنوب ، بل نشاهد مع الأسف أنه خلال الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٠ والأشهر الأوائل من سنة ١٩٢١ قد أُنشئت خمس دويلات داخل الدولة العربية السورية التى لفظت أنفاسها بعد يوم « ميسلون » ، وهذه الدويلات هى : دولة حلب فى أقصى الشمال ،

---

(١) شعر العروبة والحماسة فى الشام ، ص ٦٧ و ٦٨ ومحاضرات عن سورية من الاحتلال حتى الجلاء ، ص ٥ و ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٢ . ومحاضرات عن سورية من الاحتلال حتى الجلاء ، ص ٣ .

ودولة شرق الأردن في أقصى الجنوب ، ودولة جبل الدروز ، ودولة دمشق ، ودولة العلويين ، وكانت دولة شرق الأردن وليدة الانتداب البريطاني ، وأما بقية الدول فكانت وليدة الانتداب الفرنسي[١] .

ومن ناحية أخرى نرى أن ابن سعود أتم في سنة ١٩٢١ سيطرته على نجد ، وقضى على إمارة آل الرشيد ، واستولى على القسم الشمالي من « العسير » تمهيداً لإتمام السيطرة عليه في سنة ١٩٢٦ والقضاء على إمارة السيد على الإدريسي .

وفي نهاية سنة ١٩٢٥ استولى ابن سعود على الحجاز الذي كان يحكمه الحسين ابن علي ، وكانت قد دارت حرب بين القوات السعودية الوهابية والقوات الحجازية الحسينية ، وبعد أشهر قليلة من بدء الحركات الحربية بين الفريقين اضطر الملك الحسين بن علي إلى التنازل عن عرشه لنجله الأكبر « علي » فاستعصم بجدة ، ولكنه لم يستطع الدفاع طويلا ، فاضطر إلى مغادرة الحجاز ، والالتجاء إلى العراق حيث كان أخوه فيصل الأول[٢] .

وقد استطاع ابن سعود بعد ذلك إدخال « العسير » كلها تحت سيطرته سنة ١٩٣٠ ، وقد أدى هذا الاستيلاء إلى نشوء مشكلات عديدة وأزمات شديدة بين ابن سعود والإمام يحيى ملك اليمن ، لأن البلاد المعروفة باسم « العسير » كانت متاخمة لليمن ، فكان من الطبيعي أن يقلق جانبُ الإمام لدخول هذه البلاد تحت حكم السعوديين ، فتنفصل بذلك عن اليمن بصورة نهائية ، كما حدثت بين الملكين خلافات حول تحديد حدود مملكتيهما[٣] . وقد أدت هذه الخلافات إلى حدوث حرب بينهما سنة ١٩٣٤ ، ولكن هذه الحرب لم تستمر طويلا ، إذ عُقد صلح بين الملكين عن طريق وفد عربي كان الأمير شكيب أرسلان عضواً بارزاً فيه .

* * *

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨ و ٢٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦ .
(٣) العروبة أولا ، ص ٣٧ و ٤٠ .

وبعد يوم ميسلون (٨ آذار ١٩٢٠) قضت سورية خمس سنوات تجاهد ، فالمحتل يقسم الدولة إلى دويلات ، وينشر فيها الخوف والرعب ، ويحتال ليخمد ثوراتها ويفرق صفوفها ، ولكن الشعب العربي في بلاد الشام أعلن ثورته على الفرنسيين سنة ١٩٢٥ ، واستمرت الثورة سنتين ، وسقط فيها آلاف الشهداء بعد أن ضربوا أمثلة للبطولة .

ودمر الفرنسيون بعض أحياء دمشق بالمدافع فى آيار (مايو) ١٩٢٥ فى عهد المندوب السامى الفرنسى الجنرال (ساراى) .

وعاد الشعب إلى الثورة فى تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٩ فى عهد المندوب السامى (دى جوفنيل) ، ولكن فرنسة استطاعت أن تخمد الثورة مرة أخرى .

وفى سنة ١٩٣٧ دُعِيَ الوطنيون لتأليف وزارة تتولى مفاوضة الفرنسيين ، وكان من نتيجة ذلك أن عُقدت معاهدة بين الطرفين ، ولكن الفرنسيين نقضوها عام ١٩٣٩ .

وقامت الحرب العالمية الثانية فملأت الدنيا وشغلت الناس . وفى سنة ١٩٤٣ طالب السوريون بالحرية التى وعدهم بها الحلفاء ، وجاء شكرى القوتلى إلى الحكم بعد إجراء انتخابات .

ولكن فرنسة فى ٢٩ آيار (مايو) ١٩٤٥ ضربت المدن السورية بالقنابل ، وكان الجيش الفرنسى ما زال فى البلاد بحكم المعاهدة ، وثارت سورية ، وكانت النتيجة أن جلا الفرنسيون عن سورية بلا قيد ولا شرط فى ١٧ نيسان (إبريل) سنة ١٩٤٥[١] .

• • •

---

(١) الوحدة فى الشرق ، ص ١٠٢ .

هذا ما يتعلق بسورية ، وأما ما يتعلق بلبنان ففى سنة ١٩٢٦ وضع نظام جمهورى للبنان ، ولكن هذا النظام وقف العمل به سنة ١٩٣٢ ، وفى سنة ١٩٣٤ تكون مجلس نيابى محدود ، وفى نوفمبر سنة ١٩٣٦ عقدت معاهدة لبنانية فرنسية ، تمنح لبنان استقلالا فى مدى ثلاث سنوات ، ولكن مجلس النواب الفرنسى لم يقر هذه المعاهدة .

وفى سنة ١٩٤١ وعدت فرنسةُ لبنان بالحرية والاستقلال عقب تذمر بين أبناء لبنان ، وفى أول يناير سنة ١٩٤٧ تم جلاء الفرنسيين نهائيا عن لبنان (١) .

إن فرنسة خلال سنوات الاحتلال لم تدخر وسعاً فى إخماد روح القومية العربية فى سورية ولبنان ، ونشر النعرة الطائفيـة والإقليمية ، ولكن كانت هناك عوامل أقوى لبث الروح القومية ، منها تطور وسائل المواصلات ، واصطياف العرب فى لبنان ، وانتشار الصحافة والإذاعة والأدب والتمثيل ، وهـذه وسائل يسميها الأستاذ ساطع الحصرى « عوامل غير قصدية » ، ويضيف إليها « عوامل قصدية » فيقول :

« قام جماعة من القوميين يؤلفون الأشعار والأناشيد ، ويلقون الخطب والمحاضرات ، وينشرون الكتب والمقالات ، لبث الفكرة القوميـة ، وإيقاظ الشعور القومى ، ولمحاربة النزعات الإقليمية مباشرة .

وفضلا عن ذلك أخذ القوميون يؤلفون الجمعيات ، ويؤسسون النوادى ، لتوسيع نطاق هذه الأعمال ، وزيادة تأثيرها فى الناس .

كما أن بعض الحكومات أخـذت على عاتقها مهمة نشر فكرة القومية العربية مباشرة ، فأدخلت فى مناهج مدارسها المختلفة الأبحاث التى تخدم الغاية المذكورة صراحة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

إن هذه الأعمال والمساعي كانت في بادىء الأمر تنحصر داخل كل دولة على حدة ، إلا أنها صارت بعدئذ تجمع رجالا من دول مختلفة يعملون في جمعيات دائمة ، أو مؤتمرات موقوتة .

وفي الأخير صارت الدول العربية نفسها تشترك في أمثال هذه الأعمال والمساعي .

وفي هذا الطور من القضية العربية أخذت مصر تلعب دوراً هاماً جداً »[١] .

ومما ينبغي تذكره أن مشاورات بدأت في صيف ١٩٤٣ لإنشاء « الجامعة العربية » ، بعد أن أعلن المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية أن بريطانية لا تمانع في قيام البلاد العربية بما يجمعها ويزيد من تعاونها لما بينها من صلات وروابط . وانتهت المشاورات بإصدار ميثاق جامعة الدول العربية في ٢٣ آذار (مارس) سنة ١٩٤٥ [٢] . وقد شهد شكيب ميلادَ الجامعة بالغبطة، وتمنى أن تكون مرحلة بارزة في إعزاز شأن العرب ، كما فرح كثيراً قبيل ذلك باستقلال وطنه العزيز .

* * *

الحالة العلمية والأدبية :

أما من ناحية العلوم والآداب فقد كانت البلاد العربية خلال القرن التاسع عشر منصرفةً عن العلم والأدب ، لقلة المدارس ، وندرة الكتب ، وعدم انتشار الطباعة العربية ، وفي مصر مثلا لم يكن يوجد تقريباً غير الأزهر الشريف ، وكانت سوقُ الشعر والأدب كاسدة ، ولكن الطباعة أخذت تنتشر ، والمدارس أخذت تنشأ ، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت حالة الآداب « كحالة الحَدَث

---

(١) محاضرات في نشوء الفكرة القومية ، ص ٢٢٥ و ٢٣٠ .
(٢) الوحدة في الشرق ، ص ١٦ .

الذى يدخل فى شبابه ، ويشعر بقوته ، فيحول أفكاره إلى عالم العلم ، ومنتدى الآداب [١] » .

ثم أخذت الصحف فى الظهور ، وتكونت جمعيات علمية ، وزاد عدد المدارس شيئاً فشيئاً .

ويرى شكيب أن غزو إبراهيم باشا الذى انكفأ إلى مصر سنة ١٨٤٠ كان سبباً فى إثارة الانتباه الفكرى ونزعة التجدد فى سورية . يقول : « وجدَ السوريون — لا سيما أهل الساحل منهم — ينشدون أسباب المدنية الفرنجية ، لما رأوا فيها من القوة والرفاهية ، وأنس المرسلون الأميركيون هذا الاستعدادَ فى أهل سورية فأسسوا فى بيروت كليتهم الشهيرة التى كانت النبراس الأول الذى استضاءت به سورية ، ولا يزال هذا النبراس يزهر فى آفاق الشرق إلى يومنا هذا . ورأت أمم أخرى (كالفرنسيين والألمان والطليان والروس) أن أرض سورية قابلة جداً لبذور المعارف ، فبثوا فيها المدارس والكتاتيب ، وكل ذلك كان يبدأ فى بيروت ثغر الشام البسام ، فبى بيروت والحق يقال ابترغ زرع العلم العصرى ، وأخرج شطأه ، ثم انبث فى جميع الشامات ، ثم فيما جاورها ، واستغلظ واستوى على سوقه ، يعجب حتى الزراع الأوربيين أنفسهم [٢] » .

ويرى شكيب أن النهضة — وإن كانت قد بدأت قبيل منتصف القرن التاسع عشر — لم تسر سيراً حثيثاً إلا من بداية الربع الأخير من ذلك القرن تقريباً ، ولذلك يقول سنة ١٩٣٧ : « على أن النهضة الشرقية العربية — وإن كان قد ذرَّ قرنُها منذ قرن فأكثر — لم تسر هذا السير الحثيث إلا فى الخمسين سنة الأخيرة التى شهدها كاتب هذه الأحرف بجميع صفحاتها ، وذلك لأنى بدأت بالكتابة

---

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، ج ١ ص ٦٩ و ٧٠ .

(٢) النهضة العربية ، ص ٨ . وابترغ الربيع : جاء أوله (القاموس) . وشطأ الزرع : ما ينبت حواليه (أساس البلاغة) .

فى الصحف ، وبمرافقة الحركة العلمية فى سيرها ، منذ ٥٢ سنة متوالية ، فلى الحق إذاً بأن أدَّعى معرفةَ تاريخ هذه النهضة ، وما دخلت فيــه من التطورات على قدر ما يستطيع خادم أمين للعلم ، زاول عمله فى مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة ، دون أن يتخلف يوماً واحداً [1] » .

ومن ناحية الصحافة والطباعة نجد أنه فى المدة الواقعة بين سنتى ١٨٦٠و١٨٨٠ — وهى عشرون عاما — وُجدت فى بيروت عدة جرائد ومجلات مثل : « حديقة الأخبار ، والجنة ، والجنينة ، والجنان ، والبشير ، والنحلة ، والنجاح ، والنشرة الأسبوعية ، وثمرات الفنون » .

ووُجدت أيضاً عدةُ مطابع تطبع الـكتب العربية ، بعد أن كان طبعها محصوراً فى مطبعة بولاق بالقاهرة[2] .

ونلاحظ أن هذه الصحف والمجلات كانت فى لبنان، على حين لم يوجد فى سورية حتى سنة ١٨٨٠ سوى جريدة رسمية للولاية باسم « سورية » . وبعد ذلك بزمن طويل أصــدر مصطفى واصف جريدة « الشام » ، وأصــدر محمد كرد على جريدة « المقتبس » ، وكانت لحلب جريدة رسميــة باسم « الفرات » نصفها تركى والآخر عربى .

ويقول الأستاذ عمر الدسوقى : « سبق السوريون فى بلادهم بإصــدار صحف سياسية ، وصدرت مرآة الأحوال بحلب سنة ١٨٥٥ ، وإن لم تُعمَّر أكثر من عام واحد ، ثم صدرت حديقة الأخبار ببيروت سنة ١٨٥٨ ، وظلت تصدر حتى سنة ١٩٠٩ ، وكانت يوماً ما لسانَ الحـكومة الرسمى، ثم خَطَت الصحافة خُــطوةً أوسعَ فى سبيل الرقى بصدور «الجوائب» لصاحبها أحمدفارس الشدياق بالآستانةسنة ١٨٦٠،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ .

وقد طلعت على الناس بأسلوب جديد فى الكتابة ، وافتن صاحبها فى تحريرها وتخير موضوعاتها »[1] .

وفى سنة ١٨٨٤ نظم أحدُ الشعراء أسماء الجرائد اللبنانية فى بيتىْ شعرٍ قال فيهما :

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها   بلسان مصباح التقدم قائل

ظل المعارف وارف فى أرض بيرو   ت ، ورهط الفضل فيها قائل

وبعد هـذا أنشأ على بك ناصر الدين مجلة « الصفاء » التى صارت بعد ذلك جريدة سياسية ، وفى هذه المجلة نُشرت لشكيب أولُ مقالة صدرت من قلمه ، وذلك فى سنة ١٨٨٥[2] .

وبعد إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ كثر إصـدار الصحف والمجلات فى الشام ، لأن الدولة العثمانية أعلنت حريةَ الصحافة بعد عهود مراقبةٍ شديدة ، كانت فيها إدارة المعارف بالآستانة تنشىء القوانين الصارمة لتقييد حرية المَطبوعات ، « ولم تزل تضايقها شيئاً بعد شىء ، حتى بلغت فى ضغطها حدًّا لا يكاد يتصوره غير الذين قاسوا مَضَـضَهَ ، ولعل ذلك الضنك الذى بلغ بالروح التراقىَ كان من أقوى أسباب الانقلاب الأخير »[3] .

ولـكن إعلان حرية الصحافة فتح متنفساً واسعاً للأقلام والآراء ، وإن كان هذا لم يدم طويلا بسبب النكسة الدستورية التى أعادت الأقلام إلى السكوت إلا قليلا . « فلما نشبت الحرب الـكبرى كان يُنشر فى سورية وفلسطين ثمانون جريدة موزعة

---

(١) فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ٦٣ .

(٢) النهضة العربية ، ص ١٥ .

(٣) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، ج ٢ ص ٦٣ . والشيخ رشيد رضا يذكر أن من أسباب هجرته إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٧ م رغبته فى إصدار صحيفة إصلاحية فى مصر ، وأنه لا يستطيع إصدارها حرة فى بيروت بسبب طغيان الاستبداد الحميدى . انظر كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٢٨ .

بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس ، وكانت تظهر فى هذه البلاد مجلات شهرية وأسبوعية لاتقل عن بضع عشرة مجلة ، ولا نجد لزوماً لسرد أسماء جميع هذه الجرائد وهذه المجلات ، وهذا أول دليل على سرعة الرقى العلمى فى سورية ، وليس فى الكلام أفصح من الأرقام ، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء ، ووفرة عدد القراء دليل على صدق عمل المدارس »[١] .

وكذلك تضاعف عدد المطابع مرتين وثلاثاً ، وكانت تطبع الكتبَ والصحف .

وأما عن المدارس فى الشام فقد كانت فى أول الأمر قليلةَ العدد والنفقة والأساتذة ، ولكن المسيحيين نشطوا فى تأسيس مدارس الإرساليات والمدارس الطائفية ، وكانت هذه المدارس تعلمُ العربية وتعنى بها ، وكانت المدارس الرسمية تعلم التركية وآدابها ، على حين جعلت اللغةَ العربية فيها ثانوية ، وكانوا يدرسون القرآن الكريم بلا عناية ، وكان من نتيجة ذلك أن انصرف الكثيرون عن المدارس الرسمية إلى المدارس الخاصة .

وأنشأ المرسلون الأمريكيون كليتهم فى بيروت ، وتبعهم الفرنسيس والألمان والطليان والروس ، فبثوا الكتاتيب والمدارس ، مما كان أثره واسعاً ، ومما اضطر الدولةَ العثمانية إلى فتح المكاتب الرشدية والإعدادية فى سورية[٢] .

وكانت الإرساليات البروتستانتية والكاثوليكية تتنافس فى إنشاء المدارس ببلاد الشام ، « ويُرْوَى أن الدكتور فانديك رئيس مبشرى الأميركان وأقدم أساتذة الجامعة الأمريكية ببيروت عند تأسيسها — كان يقول : أنا ذاهب إلى فتح مدرستين فى القرية الفلانية : وإذا قيل له إن هذه القرية لاتتحمل مدرستين ، قال :

---

(١) النهضة العربية ، ص ١٦ .

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٦ و ٧ .

أنا سأفتح مدرسة واحدة فقط ، ولكنى متأكد من أن اليسوعيين سيأتون من ورائى بعد مدة وجيزة ليفتحوا هناك مدرسة ثانية »[١] .

وقد أنشئت بدمشق مدرسة التجهيز والمعلمين سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٢ م ، وفى سنة ١٣٢١ هـ — ١٩٠٠ م أنشئت مدرسة طبية بدمشق . وأنشئت فى لبنان مدرسة « عين ورقة » سنة ١٧٨٩ ، ومدرسة الكلية الإنجليزية الأمريكية للبنات سنة ١٨٦١[٢] .

وكانت أول مدرسة داخلية فى بيروت هى المدرسة الوطنية ، لمؤسسها المعلم بطرس البستانى ، ثم أخذت الطوائف تؤسس مدارس داخلية لها فى بيروت ، فالروم الكاثوليك أسسوا مدرسة البطريركية ، والموارنة مدرسة الحكمة ، واليهود المدرسة الإسرائيلية ، واليسوعيون الكلية اليسوعية لمناظرة الكلية الأمريكية ، والمسلمون مدرسة السلطانية ، وأسست فرنسة فى « كسروان » مدرسة « عينطورة » ثم أسس أساقفة الموارنة مدارس لطائفتهم فى بلاد مختلفة من لبنان ، وأسس الأمير ملحم أرسلان مدرسةً لطائفة الدروز فى قرية « عبيه » سنة ١٨٦٢[٣] .

ولا شك أنه كان لانتشار المدارس أثر قوى فى بث التعليم وإشاعة الثقافة وإنعاش الحياة الأدبية .

وأما الشعر فحسبنا هنا أن نسمع شكيب يتحدث عنه سنة ١٩٣٧ ، فيقول :

« لم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذى نجده فى يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية فى الأدب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل . وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضُرب به المثل لتفرده ، وخلوّ

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٦٨ .

(٢) فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ١٠٠ .

الجو من حوله ، والحال أنه لو نشرته اليوم من قبره ، وعرضته فى الجمع لوجدت أمثاله يعدون بالعشرات . وإن كانت لا تزال له طلاوة ، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف المبقريين ، وإنما تجعله فى صفوف المجيدين ، وقد كنا فى سورية لا نعرف شاعراً أحسن من نصيف اليازجى اللبنانى الذى نبغ فى بيروت ، وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق ، وهو لو وُجد فى زماننا هذا لما كان إلا واحداً من جماعة .

وكان فى بيروت من الشعراء المجيدين عمر الأنسى البيروتى ، يقرأ الإنسانُ شعرَه بلذة ، وكان قبل الأنسى واليازجى أمين الجندى وبطرس كرامة ، كلاهما من حمص ، ولهما قصائد كسبا بها شهرةً لا تزال لهما إلى اليوم ، ولو أنهما عاشا فى هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما وعلو طبقتهما .

وقد سأل الأمير بشير الشهابى أمير لبنان فى وقته الشيخَ أمين الجندى عن المعلم بطرس كرامة قائلا له : ما نسبة المعلم بطرس إليك فى الشعر ؟ . فأجابه : نسبة الثعلب إلى الأسد . ولم يكن هذا الجواب صحيحاً ، لأن لبطرس كرامة من الشعر — لا سيما فى الغزل والنسيب — ما لا يقل رونقاً عن شعر الجندى .

وكان فى بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة ، اشتهرت أسماؤهم فى بلادنا ، مثل عبد الباقى العمرى وصالح التميمى وعبد الحميد الموصلى وعبد الغفار الأخرس ، وكان أكثرهم شهرةً عبد الباقى العمرى وعبد الحميد الموصلى هنا ، بسبب مراسلتهما مع نصيف اليازجى ، كما أن شهرة صالح التميمى كانت بسبب المناقشة التى وقعت بينه وبين بطرس كرامة .

وهذه الطبقة — وإن كانت تعد من الطبقة العالية فى الأدب — فإن الذين جاءوا بعدها قد ردوها إلى الوراء ، فبعد أن كانت من المجلِّين صارت من المصلين ،

اللهم إلا إذا حسبنا الشاعر الأرزى الذى لا يلز هؤلاء فى قَرْنِهِ ، ومن قبله ابن معتوق الذى كان يضارع الشعراء الأولين »[١] .

* * *

وكانت دمشق — فى شباب شكيب — تشهد حلقات أدبية يدور فيها البحث حول العربية وفحول شعرائها وأدبائها ، وكان اللبنانيون الأدباء يفدون إليها وعلى رأسهم شكيب ، ليفيدوا من هذه الحلقات علماً وأدبا ونظرة واسعة إلى السياسة العربية .

وكذلك كانت مصر ميداناً لجياد القرائح السورية — كما يعبر شكيب نفسه — فالذين تخرجوا فى بيروت ظهروا وسار ذكرهم فى مصر ، وخرّجت معاهدُ مصر كثيراً من أبناء سورية فى العلوم الدينية وغيرها ، فكان القطران يتعاونان ، واختلط أبناؤهما ، إذ انتقل كثير من السوريين إلى مصر ، وأقاموا بها طويلا ، أو ترددوا عليها مراراً[٢] .

وإذا كان الشام قد زامل مصر وسابقها فى مجالات الأدب والشعر والصحافة والطباعة ، فإن صاحب كتاب « فى الأدب الحديث » يلاحظ أن اتجاه نهضة مصر كان علمياً أكثر منه أدبياً ، بينما كان اتجاه نهضة الشام أدبياً أكثر منه علمياً . يقول : « على أن النهضة السورية اتجهت وجهةً أدبية من أول أمرها ، بخلاف النهضة المصرية ، وقد وقفنا على الدوافع التى حولت نهضة مصر إلى وجهة علمية ، أما الأسباب التى جعلت نهضة سورية أدبية ، فهى أن المبشرين كانوا حملةَ مشاعلِ تلك النهضة فى أول الأمر ، وكان همهم نشر التعاليم الدينية طبقاً للمذاهب المسيحية

---

(١) النهضة العربية ، ص ٣٣ و ٣٤ . ولا يلز فى قرنه : لا يلصق به ولا يشدمعه . والقرن : الحبل المفتول من لحاء الشجر .

الغربية ، وقد عُنوا بترجمة التوراة ، وظل الجـدل الدينى مسيطراً على الصحافة السورية ومجالس الأدب ثمة ردَحاً طويلا من الزمن ، ولعل هذا يعلل لنا سبق السوريين فى الصحافة وإتقانهم لإخراجها وتبويبها ، وقد ظهرت ثمرة هذا الميل الأدبى عند السوريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر [1] » .

* * *

وأما من جهة اللغة فقد كانت التركية هى اللغة الرسمية فى الدولة العثمانية ومن بينها البلاد العربية ، وكانت المعاملات الرسمية فى المحاكم وفى جميع دوائر الدولة تجرى باللغة التركية ، كما كان التعليم فى جميع المدارس الرسمية يجرى باللغة المذكورة .

ولا شك أن هذا التتريك اللغوى قد سبب الكثير من المضايقات والمتاعب ، إذ كان العرب محرومين من مدارس خاصة بهم ، فكان لابد لهم من دخول المدارس التركية ، واللغة العربية فيها ضئيلة المقدار مهينة القدر ، وكان من نتائج ذلك الوضع ظاهرةٌ لافتة للنظر وهى أن إجادة تعليم اللغة العربية صارت من خصائص المدارس المسيحية ، كما كانت المدارس الأجنبية أكثرَ اهتماما باللغة العربية من المدارس الرسمية بوجه عام [2] .

وحينما انعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس سنة ١٩١٣ كان القرار الخامس من قراراته هو : « اللغة العربية يجب أن تكون معتبرةً فى مجلس النواب العثمانى ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كونَ اللغة العربية لغةً رسمية فى الولايات العربية » . ولما حاولت الدولة التفاهم مع زعماء المؤتمر ، وعقدوا لذلك اتفاقية بين الطرفين كانت أول مادة فى الاتفاقية ما يلى : « يكون التعليم الابتدائى والإعدادى

---

(١) فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ٥٦ .

(٢) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٨٢ و ١٨٣ .

(أى الثانوى) باللغة العربية فى جميع البلاد العربية ، كما يكون التعليم العالى أيضاً بلغة الأكثرية ، وإنما يكون تعليم اللغة العثمانية إجبارياً فى المدارس الإعدادية[١] » .

الحالة الاجتماعية :

وأما عن الحالة الاجتماعية فإن الدكتور سامى الدهان يصورها فى المرحلة الأولى من عصر شكيب ، وهى ما بين سنتى ١٨٦٩ ، ١٩٢٠ بقوله :

« وأما الحالة الاجتماعية فكانت فى وضع لا يشرِّف الدولة العثمانية من حيث التخلف الحضارى ، وجمود العقل التركى ، وانتشار الارتزاق غير المشروع . وفشو الرشوة ، وتضييق الرقابة الخانقة على العرب ، والجاسوسية الحادة المنحطة ، وأصبحت مؤهلات التوظيف فى دوائر الحكومة هى المهارة فى التجسس والتذلل والكذب والرياء ، ولم تعد العفة والاستقامة من أسباب التقدير والإكبار .

وكانت نفقات العاصمة المركزية تبتلع مواردَ الدولة ، وشبكة الجاسوسية تكلف مبالغَ طائلة ، لذلك كان على ولاة الأطراف أن يستعيدوا المبالغَ التى صرفوها فى الوصول إلى مراتبهم ، وأن يرسلوا من أموال هذه الولايات ما يسد عجزَ العاصمة فى دفع رواتب العاصمة قبل كل عمل ، وكانت الخزائن المحلية للولايات تعجز عن رواتب الموظفين فى أوقاتها ، وكثيراً ما كانت تتراكم عدداً من الشهور[٢] » .

وفى هذا الجو الخانق الفاسد المؤلم عاش شكيب أكثر من نصف عمره ، وتأثر به من غير شك ، ولكن الحرب العالمية الأولى كانت فيصلا بين عهدين ، فبانتهائها انتهت الظلال السُّودُ للعهد السابق ، وبدأت فى البلاد العربية حركات ونهضات وثورات فى مجالات السياسة والأدب والاجتماع ، وواصل العرب كفاحهم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٢ و ٢٠٣ .

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٥ و ٦ .

فى سبيل الحرية ، وظهرت تيارات الوطنية والاستقلال ، وتوالت الثورات ما بين ارتفاع وانخفاض[1] ، وكان لكل هذا أثره فى الحياة الاجتماعية ، وقامت الحرب العالمية الثانية ، ثم انتهت والعرب مثابرون على طلب حريتهم ، يسقط منهم من يسقط من الشهداء .

ثم جاء الفجر ، وأقبلت طلائع النور ، واستقلت سورية ولبنان ، واستقلت من بعدهما بلاد عربية أخرى ، وما زال شكيب وثيقَ الارتباط بقضايا بلاده ، يسهر ليله لها ، ويقوم نهاره عليها ، ويدافع من أجلها ، ويكتب فى نصرتها ، وكان فى غربته يأمل أملا واحداً هو أن يدخل وطنه وليس فيه عَلَمٌ لدولة أجنبية ، وقد حققت له الأقدارُ أمنيته ، فعاد إلى لبنان فى أواخر سنة ١٩٤٦ ، ليختتم حياته الطويلة بالأيام القليلة التى قضاها قبل رحيله من هذه الدنيا .

(١) المرجع السابق ، ص ٨ و ٩

الباب الثانى

حياة شكيب

— نسب شكيب
— طائفة شكيب
— والدا شكيب
— نشأته وتعليمه
— الذين أثروا فيه
— وظائف وأعمال ورحلات
— فى الحرب العالمية الأولى
— رحيله إلى أوربة
— رحلات أخرى
— أحواله المالية والصحية
— العودة إلى الوطن
— زوجته وأولاده

حياة شكيب

نسب شكيب :

« الشوف » مقاطعة من مقاطعات لبنان ، وفى هذه المقاطعة توجد بلدة « الشويفات » ، وهى تبعد عن « بيروت » قرابة عشرة أميال ، وهى فوق ربوة قريبة من البحر ، ويقول عنها شكيب سنة ١٩٣٥ إنها « قصبة كبيرة ، أهلها نحو من سبعة آلاف نسمة ، بناها الأمير مسعود الأرسلانى ، ومن ذلك الوقت — أى من ألف ومائة وتسع وستين سنة بالحساب العربى — هى مركز العائلة الأرسلانية بدون انقطاع ، وهى مسقط رأس محرر هذه السطور عُفِىَ عنه »[١] .

فى هذه البلدة عاشت أسرة شكيب أرسلان ، وعاش أجداده من آل أرسلان .

ونسبه هو : شكيب بن حمود بن حسن بن يونس بن فخر الدين بن حيدر ابن سليمان بن فخر الدين بن يحيى بن مذحج بن محمد بن أحمد بن خليل بن مفرج ابن يحيى . . . .

ويستمر هذا النسب حتى ينتهى إلى الأمير أرسلان المتوفى سنة إحدى وسبعين ومئة للهجرة ، والذى ينتهى نسبه إلى الأمير المنذر الملقّب بالتنوخى ، المتوفى سنة ثمان وسبعين (٧٨)[٢] .

فمن آل أرسلان هؤلاء ؟ .

---

(١) كتاب محاسن المساعى . هامش ص ١٠١ .

(٢) روض الشقيق فى الجزل الرقيق ، ص ١٤٥ وما بعدها . وقد اعتمدت فى الحديث عن نسب شكيب وأجداده على سجل النسب الذى جعله شكيب ملحقا لديوان أخيه ، وذكر فيه تراجم الشهود الذين شهدوا على هذا النسب .

إن كلمة « أرسلان » لفظة تركية معناها (الأسد)، وكذلك معناها فى الفارسية ، وهذه اللفظة من جملة الـكلمات التى انتقلت إلى العربية من قديم الزمن ، وسموا بها أعلاماً [١] .

ويقول عبد الله باشا فكرى عن الأمير شكيب كما جاء فى ديوان شكيب :

كَمِىٌّ من سُلالة أرسلان ذؤابة قومه الأسد الهزبر

ويقول شارح الديوان تعليقاً على البيت : « يشير إلى معنى أرسلان ، وهو الأسد ، وهى لفظة صار يسمى بها العرب مثل العجم [٢] » .

وآل أرسلان ينتسبون إلى التنوخيين الذين هاجروا من اليمن إلى العراق ، و « آل أرسلان » من أعرق بيوتات الإمارة فى العرب، وأعتقها نجاراً ، وأزكاها مغرساً . وفى هذا البيت المعرق فى الشرف يستقر معدن من أكرم معادن الحسب الصميم والنسب الأصيل ، ترتقى أرومته إلى الملك المنذر بن الملك النعمان الشهير بأبى قابوس ممدوح النابغة الذبيانى .

وتاريخ هذا البيت مزدانٌ كله طول مئات السنين بالمفاخر الأثيلة التى يتألق منها جانب كبير من ثروة تاريخ العرب والإسلام فى غربى سورية [٣] .

نجد هذه الأسرة (الأمير عون) هو شهيد موقعة (أجنادين) التى حدثت فى فتوح الشام فى السنة الثالثة عشرة ، بعد أن حضر مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لنجدة أبى عبيدة بن الجراح .

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٤٧ . وهم ينطقونها (أرسلان) و (رسلان) فيرفعون الألف للتخفيف ، انظر كتاب روض الشقيق ، هامش ص ١٤٦ . وفى المجلد الخامس من مجلة الزهراء سنة ١٣٤٦ هـ مقالة عن (آل أرسلان) للأستاذ عجاج نويهض ، ومقال عن (نسب الأسرة الأرسلانية) بقلم الأمير شكيب .

(٢) ديوان شكيب ، ص ١٩ .

(٣) روض الشقيق ، ص ١٢ من مقال الأستاذ محب الدين الخطيب ، نقلا عن مجلة الزهراء .

والأمير أرسلان بن مالك المنذرى هو الذى حارب صنائع الروم ومردتهم فى لبنان ، وهزمهم بأمر من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، ونزلوا فى جبل الدروز ، وأقاموا فيه .

يذكر الأمير شكيب فى ذلك مايلى نقلا عن إسحاق النميرى : « وكان قدومهم بأمر أمير المؤمنين المنصور الخليفة العباسى رحمه الله ، وكانوا قد قابلوه بدمشق لما قدم إليها ، وتوطنوا جبال بلدتنا هذه (أى بيروت) ، وكان أول نزولهم بحصن وادى تيم الله بن ثعلبة[١] ، ثم بالمغيثة [٢] ، ثم اعتزلوا المضارب وتفرقوا فى البلاد »[٣] .

وفى الحروب الصليبية اشترك آل أرسلان فى مقاومة العدوان الصليبى ، وأبلوا بلاء حسناً ، ثم عاونوا دولة الخلافة فى فتوحها الإسلامية ، كفتح قبرص .

وكان من أبناء هذه الأسرة حكام ، وأمراء ، ومجاهدون ، وقادة ، وعلماء ، وأدباء ، حتى قيل فيهم :

أمراء هذا البيت أمراء سيف وقلم ، وحملة عِلْم وعَلَم [٤] .

وقد ورث الأمير شكيب عن بيت الإمارة الذى نشأ فيه ما توارثه رجاله من خصال أهمها الشجاعة والكرم ، والذود عن حياض الدين والوطن ، والجمع بين العروبة والإسلام ، وتجلت فيه هذه الخصال ، واستطاع بماله ولسانه وقلمه وعلمه وفضله أن يكون « مضربَ المثل بالنفس الخطيرة والهمة التى لا تغالَب » ، وبات بنفسه قلعة من أحصن قلاع العالم الإسلامى ، وغدا مجرد ذكر اسمه فى كل قطر من أقطار

---

(١) ذكر شكيب روايات أخرى تفيد أنهم نزلوا بحصن أبى الجيش من وادى التيم .

(٢) هى — كما يقول شكيب — مكان فى سطح الجبل قبل الوصول إلى عين صوفر للسائر من دمشق إلى بيروت .

(٣) روض الشقيق ، هامش ص ٢٣٤ .

(٤) روض الشقيق ، ص ١٢ — ١٦ ، من مقال لمحب الدين الخطيب .

العالم الإسلامى رمزاً إلى ذلك النوع من الجهاد الذى خلص وصفاً لوجه الله والملة والوطن »[1].

ويخبرنا شكيب فيما يتحدث به عن نسب أسرته أنه من (الأشراف) وأنه من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فينقل عن إثبات من إثباتات الأنساب أن سلسلة نسبه « تنتهى إلى الملك المنذر بن الملك النعمان بن الملك المنذر بن الملك المنذر ابن ماء السماء اللخمى » . ويقول عقب ذلك : « وقد تناسلوا من الفاطميات، وتشرفوا بذلك عن الأمهات من ذرية سيد الكائنات » . ثم يقول : « وعلى هذا الإثبات شهود عدة »[2].

وكان شكيب يفخر بهذا النسب — وإن حاول ستر هذا الفخر أحياناً — مثلاً يقول :

« والمعتمد بن عباد ينتمى إلى المنذر بن ماء السماء اللخمى . وفى ذلك يقول أحد الشعراء :

من بنى منذر ، وذاك انتساب زاد فى فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالى والمعالى قليلة الأولاد »

ثم يعلق على ذلك بقوله : « وإلى هذه الشجرة أيضاً ينتسب محرر هذا الكتاب ومن بنى لخم أقوام كثيرون فى الغرب والشرق ، ولا سيا بصعيد مصر »[3].

وفى موطن ثان يقول : « ونحن قوم لا نَدَّعِى بما ليس فينا ، ولا نتزيد بأكثر مما عندنا »[4].

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق ، هامش ص ١٤٧ .
(٣) رواية آخر بنى سراج ، ص ٩٤ .
(٤) روض الشقيق ، ص ٨ .

وهو يعنى بالحديث الطويل المسهب عن ترجمة أسرته وبيان نسبها وذكر تاريخها ومفاخرها ، ويستشهد لذلك بالكثير من الإثباتات والسجلات والشهادات والمراجع ، ثم يحاول تسويغ فخره وتعليل عنايته بنسب أسرته ، فيقول إنه لم يقصد « افتخاراً ولا ابتهاراً ، ولكنها شنشنة العرب المركوزة فى فطرتهم ، لا يبغون عنها حولاً ، وهى المحافظة على أنسابهم ، والبحث عن أصولهم ، والتنقيب عن ماضيهم ، ولم ينفرد بذلك العرب ، بل هو عند غيرهم من الأمم ، وإن كانوا هم فيه أبعد مدى وأزهر منتدى[1] » .

ويظهر أن شكيب كان يلح هذا الإلحاح فى حديثه عن تنوخيته ومنذريته ولخميته ونسبته إلى آل البيت ، ليؤكد أنه عربى من صميم العرب ، وأنه من سلالة أجداد عرب يضربون فى أعماق العروبة إلى مدى بعيد ، ولينفى عن نفسه وأسرته ماقد يلقيه لقبُ « أرسلان » من ظلٍّ التركية عليه ، لأنه لقب مشهور لدى الأتراك ، والسجل الذى اعتمد عليه شكيب فى سلسلة نسبه ومفاخر أسرته بحاجة إلى بحث يحدد قيمتَه ، وليس هذا البحث مما يتسع له نطاقُ دراستنا هنا .

* * *

طائفة شكيب :

وشكيب من طائفة « الدروز » بلبنان ، فمن أولئك الدروز ؟ .

يقول الإمام الشيخ محمد عبده فى اللائحة التى وضعها لإصلاح سورية ، وقدمها إلى والى بيروت حوالى سنة ١٣٠٤ هـ :

« أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة ، أكثرُها عدداً وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ، ويليها طائفة الدروز ، ويوجد نزر يسير من أهل السنة ، وعدد قليل من الشيعة ، وعائلات من سائر الطوائف المسيحية » .

(١) المرجع السابق ، ص ١١ .

ثم يقول : « والدروز كانوا قبل سنة ١٨٦٠ م من أقوى أنصار الدولة (العثمانية) وأشد الطوائف تعلقاً بها ، ولهم صفات فى الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد فى الرفعة على مقام الموارنة فى الجبل ، ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان ، عندما صار النظام قاضياً بأن متصرفه يكون كاثوليكياً ، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين ، وأصبحت قوى البأس لا توصلهم إلى المناصب كما كانت فى سابق العهد ، واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقى لهم ، أو ينالوا شيئاً مما يخولهم النظام نيله ، فانحطت بذلك أحوالهم .

وقد كانوا ولا يزالون فئتين : جنبلاطية ويزبكية ، فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترة ، وأخص علائقهم مع قنصل الإنجليز ، واليزبكيون — وهم أقرب الفئتين إلى الدولة — مالوا إلى المشرب الفرنساوى ، وكرعوا منه حتى عموا ، غير أن الحكومة الإنكليزية لم تأل جهداً فى استمالتهم أيضاً [١] » .

وهناك من يقول إن الدروز أصلهم فارسى [٢] ولهم تعاليم ومبادىء أصلها من الفارسية ، ومن يقول إن أصلهم من الصابيين [٣] ، وهناك من يقول إنهم أتباع أبى محمد الدرزى الذى والى الحاكم بأمر الله [٤] ، وذكر بعض الباحثين أن هذه الطائفة لها عقائد سرية ، وآراء تخالف تعاليم الإسلام [٥] ، ولكن شكيب يقول إنها من الفرق الإسلامية ، وأهلها يقيمون شعائر المسلمين ، ويصعب إخراجهم من الإسلام ، ولنا الظاهر ، والله يتولى السرائر [٦] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٥٢٤ و ٥٢٥ .

(٢) الدكتور فيليب حتى ، مجلة الهلال عدد مارس ١٩٣٠ ، ص ٦٢٦ .

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ١١ ص ٤٥٥ من مقال اشكيب بعنوان (النقد التاريخى) .

(٤) صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٨ — طبعة المطبعة الأميرية ١٩١٨ م .

(٥) دائرة معارف القرن العشرين لوجدى ، المجلد الرابع ، ص ٢٦ وما بعدها . مطبعة دائرة المعارف ١٩٢٤ .

(٦) جريدة الشورى ، عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

ثم يقول : « والدروز كانوا قبل سنة ١٨٦٠ م من أقوى أنصار الدولة (العثمانية) وأشد الطوائف تعلقاً بها ، ولهم صفات فى الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد فى الرفعة على مقام الموارنة فى الجبل ، ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان ، عندما صار النظام قاضياً بأن متصرفه يكون كاثوليكياً ، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين ، وأصبحت قوى البأس لا توصلهم إلى المناصب كما كانت فى سابق العهد ، واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقى لهم ، أو ينالوا شيئاً مما يخولهم النظام نيله ، فانحطت بذلك أحوالهم .

وقد كانوا ولا يزالون فئتين : جنبلاطية ويزبكية ، فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترة ، وأخص علائقهم مع قنصل الإنجليز ، واليزبكيون — وهم أقرب الفئتين إلى الدولة — مالوا إلى المشرب الفرنساوى ، وكرعوا منه حتى عموا ، غير أن الحكومة الإنكليزية لم تأل جهداً فى استمالتهم أيضاً [١] » .

وهناك من يقول إن الدروز أصلهم فارسى [٢] ولهم تعاليم ومبادىء أصلها من الفارسية ، ومن يقول إن أصلهم من الصليبيين [٣] ، وهناك من يقول إنهم أتباع أبى محمد الدرزى الذى والى الحاكم بأمر الله [٤] ، وذكر بعض الباحثين أن هذه الطائفة لها عقائد سرية ، وآراء تخالف تعاليم الإسلام [٥] ، ولكن شكيب يقول إنها من الفرق الإسلامية ، وأهلها يقيمون شعائر المسلمين ، ويصعب إخراجهم من الإسلام ، ولنا الظاهر ، والله يتولى السرائر [٦] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٥٢٤ و ٥٢٥ .
(٢) الدكتور فيليب حتى ، مجلة الهلال عدد مارس ١٩٣٠ ، ص ٦٢٦ .
(٣) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ١١ ص ٤٥٥ من مقال اشكيب بعنوان (النقد التاريخى) .
(٤) صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٨ — طبعة المطبعة الأميرية ١٩١٨ م .
(٥) دائرة معارف القرن العشرين لوجدى ، المجلد الرابع ، ص ٢٦ وما بعدها . مطبعة دائرة المعارف ١٩٢٤ .
(٦) جريدة الشورى ، عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

ويقول شكيب فى تسمية الدروز : « وإنما سموا الدروز نسبة إلى نشتكين الدرزى العجمى ، أحد دعاة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى ، وهم يكرهون هذا الاسم ، ولكنه غلب عليهم بالرغم منهم ، والحق أن نحلتهم إسماعيلية فاطمية »[١].

وكما تتعدد الأقوال والآراء فى الحكم على عقيدة الدروز وأصلهم ، تتعدد أيضاً فى وصفهم ، فشوقى يقول فيهم :

وما كان الدروز قبيلَ شرٍّ ... وإن أخذوا بما لم يستحقوا

ولكن ذادةٌ ، وقُراةُ ضيفٍ ... كينبوع الصَّفَا خشنوا وَرَقُّوا

لهم جبل أشمُّ له شِعَافٌ ... موارد فى السحاب الجُون بُلْقُ[٢]

لكل لبوءة ولكل شبل ... نضال دون غايته ورشق

كأن من السموأل فيه شيئاً ... فكل جهاته شرف وخُلُق !

ويعلق شكيب على ذلك بقوله : « قال شوقى هذه الأبيات ، وأحسن ما فيها أنه قال قولا لم ينكره أحد عليه ، لأن الإجماع واقع على اتصاف بنى معروف[٣] بهذه الخلال التى عرفها شوقى فيهم : إما من التاريخ ، وإما فى أثناء قدماته إلى الشام ، وإما من الاثنين معاً »[٤].

وأما الشيخ محمد عبده فيقول فى تقريره : « الدروز قوم خلو من العلوم بالمرة ، سُذَّج كأنهم فى بدايات البداوة ، ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ، ولا يُخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر ؛ وإنما يُخاف على أبنائهم من ذلك ، وعلى كبارهم من الانقياد السياسى إلى دولة الإنكليز[٥] » .

---

(١) كتاب عروة الاتحاد ، ص ٢٨ .

(٢) الشعاف : أعالى الجبل . والجون : الأسود والأبيض (ضد) وبلق : بيض .

(٣) سأل سائل عن سبب تسمية الدروز ببنى معروف ، فأجابت مجلة الهلال قائلة : « عرفوا بهذا اللقب منذ القديم لمحض اشتهارهم بإسداء المعروف ، أى الجميل » . مجلة الهلال ، أكتوبر ١٩١٠ ، ص ٦٥ .

(٤) كتاب « شوقى » ، ص ٢٥٨ .

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٥٢٥ .

وأما القلقشندى فقد قال عن القدماء منهم إنهم أشد كفراً ونفاقاً من « النصيرية » ، وإنهم « أبعد من كل خير ، وأقرب إلى كل شر »[1] .

ولكن الأمير شكيب كان سنياً ، وإن انتسب سياسياً وإدارياً إلى الدروز ، وكان يتعبد على طريقة السنيين ، فهو يصلى ويصوم ويحج كما يفعل جمهور المسلمين ، وقد أكدت لى زوجته هذه الحقيقة ، وقالت : إن الدروز يحرمون الزواج من سنية ، ولكن زوجى تزوجنى وأنا سنية مسلمة .

وقد تسبب هذا الوضع فى متاعب لشكيب ، فمن الدروز مَن لا يرونه درزياً كاملا ، ومن السنيين من لا يرونه سنياً كاملا ، فضاع جانب من حقه بين هؤلاء وهؤلاء .

* * *

والد شكيب :

وُلد شكيب فى بيت أسرته العتيق الموجود فى حارة الأمراء ببلدة « الشويفات » وهى محلة آل أرسلان ، وكانت ولادته يوم الاثنين ، أول ليلة من رمضان سنة ست وثمانين ومائتين بعد الألف (١٢٨٦ هـ) الموافق للخامس والعشرين من ديسمبر سنة تسع وستين وثمانمائة بعد الألف (١٨٦٩ م)[2] .

ويقول الأمير شكيب فى ذلك — وهو يداعب الأستاذ إسعاف النشاشيبى — : « وفى الحقيقة أنى مولود سنة ١٢٨٦ فى أول ليلة من رمضان ، وهذا مقيد بخط والدى ، إن شئت نطبعه لك بالزنكوغرافيا ، أو نصوره بالفتوغرافيا[3] » .

وسماه أهله باسم « شكيب » ، ومعنى الاسم بالفارسية هو « الصابر » ،

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٨ .
(٢) ذكرى الأمير شكيب ، ص ١٢ .
(٣) جريدة الشورى ، ٢٥ يونيه ١٩٣٠ .

إذ يقول شيخ العروبة أحمد زكى باشا : « إن إخواننا الفرس يعبرون فى لسانهم عن الصابر بأنه : شكيب[١] » .

وقد ولد شكيب لأب له مكانته ومنزلته ، فهو الأمير « حمود » المتوفى فى الشويفات سنة خمس وثلاثمائة بعد الألف عن ثمان وخمسين سنة ، ودفن فى الشويفات بالقبة المعروفة ، « وكان عاقلا كريماً جسوراً ، ذا همة ومروءة ومعرفة ، وعين ثلاث مرات مديراً لناحية الغرب الأسفل ، وقرأ العربية على المرحوم الشيخ الإمام محيي الدين بن عمر اليافى ، وتعلم التركية ، وكان يحسن الإنشاء ، ويقرض الشعر »[٢] . ويقول عنه شكيب : « وكان والدى رحمه الله يحب لغة قومه ، وله مشاركة فى النحو والصرف والأدب ، وله نظم لا بأس به[٣] » .

ولما مات « حمود » سنة ١٨٨٧ م رثاه الشيخ سعيد الشرتونى بقصيدة مطلعها :

عصفت ببيت المجد نكباء الردى ... فلها بياض « الغرب » أصبح أسودا[٤]

* * *

وأما والدة شكيب فسيدة شركسية جليلة عاشت أكثر من مئة سنة ، وكان لها تأثير بليغ فى نفس شكيب ، وكان يحبها حباً جما ، ويترجم عن هذا الحب فى كثير من المناسبات ، ويعبر عنها غالباً بقوله : « سيدتى الوالدة » . وهو يحدثنا أنه بعد هجرته إلى أوربة فى سبيل قضايا العروبة والإسلام حاول أن يقابل والدته فى فلسطين ، ولكن الإنجليز حالوا دون ذلك[٥] . وأراد أن يحمل أمه على الهجرة

---

(١) المرجع السابق ، ١٠ مايو ١٩٢٨ . وفى القاموس : الشكب بالضم : العطاء والجزاء .
(٢) روض الشقيق ، ص ١٤٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٠ ، والغرب هو المقاطعة الأرسلانية فى لبنان . والنكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين ، أو بين الصبا والشمال .
(٥) مجلة الفتح ، عدد ٦ فبراير ١٩٣٠ .

معه إلى جنيف فأبت، لأنها لا تريد أن تسكن إلا بلاداً إسلامية، وقد أشار شكيب إلى ذلك فى رسالة منه للسيد رشيد رضا بتاريخ ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣ م.

وحينما سافر شكيب إلى الحج سنة ١٣٤٧هـ — ١٩٢٨ م عمل ترتيباته لكى تحضر أمه مع ولدَىْ عمه أمين مصطفى أرسلان وشقيقه إلى السويس، لكى يراها وهو فى طريقه إلى الحج، وقد كان.

وحينما عاد من غربته إلى بيروت فى يونيه ١٩٣٧ استقبله عدد كبير من أبناء الشام، وساروا به فى موكب مزدحم، وكانت والدته قد جاءت فى ذلك اليوم لترى ابنها، ونزلت بدار الأمير أمين، فلما مر الموكب من هناك توقف عن السير، ونزل الأمير فدخل الدار، وقبَّل يدى والدته، فلثمته ودعت له، ثم عاد إلى موكبه الذى واصل سيره»[1].

وبسبب حنينه إلى أمه وحبه لها وتقديره لمكانتها سكن فى أول هجرته بلدةَ «مرسين» بتركية، على القرب من الحدود السورية، ليكون قريباً من أمه، فيَهُون عليها السفر إليه، فيتمكن من مشاهدتها، يقول: «وهكذا كان، فقد أقمت بمرسين سنة ونصف سنة، ولا سبب لاختيارى السكنى فى تلك البلدة إلا هذا السبب»[2].

هذه شواهد ناطقة على منزلة هذه الأم ومكانتها وأثرها فى نفس شكيب. ولعل مرد هذا — فوق ما للأمومة من مكانة — أن والدة شكيب كانت سيدة جليلة فاضلة.

* * *

---

(١) مجلة الشباب، عدد ٢٣ يونيه ١٩٣٧.

(٢) روض الشقيق، ص ٢٦. ويقول شكيب بعد ذلك: «ورجعت إلى سويسرة بعد أن رويت غليلى من مشاهدة السيدة الوالدة، إذ كنت أخشى أن يوافى أحدنا الأجل قبل لقاء الآخر».

نشأته وتعليمه :

بلغ شكيب الخامسة وبجواره أخوه نسيب المولود قبل شكيب بسنة ونصف السنة ، فهما لقرب السن من السن كأنهما توأمان[١] ، وهنا ندب لهما والدهما رجلا يعلمهما القراءة والكتابة فى الشويفات ، هو الشيخ مرعى شاهين سلمان ـ الذى صار فيما بعد شيخاً لقصبة الشويفات ـ فكان أول من تعلما عليه « ألف باء » ، ولما صعدت الأسرة للاصطياف فى « عين عنوب » ندب لهما والدهما معلماً ثانياً ، هو أحمد أفندى فيصل الذى أقرأهما القرآن الكريم ، حتى حفظا جانباً منه .

ورجعت الأسرة إلى « الشويفات » فدخل شكيب مع أخيه مدرسة الأمريكان فى حارة العمروسية بالشويفات ، حيث قضى مدة درس فيها مبادئ الجغرافية والحساب والإنجليزية .

وفى سنة ١٢٩٦ هـ — ١٨٧٩ م ـ أى وهو فى العاشرة من عمره تقريباً ـ دخل مدرسة الحكمة فى بيروت ، لمؤسسها المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة الطائفة المارونية ؛ وكانت مدرسة مشهورة بإتقان اللغة العربية ، فظل بها إلى سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٧ م حيث تلقى خلال هذه السنوات الثمانى دروسَ العربية على الشيخ عبد الله البستانى ، والفرنسية على المعلم شاكر عون ، والتركية على عبد السلام بك التركى[٢] .

وقد تأثر شكيب هذه الفترة بالبستانى أكثر من غيره ، وظهر للشيخ نبوغُ تلميذه ومواهبه ، فذكر أنه أحسن تلاميذه وأقربهم إليه ، ولا عجب ، فقد أخذ شكيب ينظم الشعر ، ويكتب المقالات ، ويبدى أفكاراً عربية وإسلامية قوية . ومن شعره وهو فى الرابعة عشرة أنه كتب تحت أول صورة أُخذت له هذين البيتين :

---

(١) روض الشقيق ، ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨ .

ونفسك فابدأ بتصويرها بما أنت من خالد فاعلُ
وإلا مضى الجسم مع رسمه ولا يخلد الزائلَ الزائلُ[1]

كما أنه يذكر أن على بك ناصر الدين أنشأ مجلة اسمها « الصفاء » ، صارت فيما بعد جريدة سياسية ، وخدمت العلم والأدب ، وكان لشكيب فيها أول مقالة صدرت من قلمه ، وذلك في سنة ١٨٨٥ م[2] .

وحينما زار الشيخ محمد عبده مدرسةَ الحكمة ، وقدَّموا إليه التلميذ شكيب قال له الشيخ : « إني أعرف اسمك ، وستكون من أعظم الشعراء[3] » . وكان لهذا القول في نفسه أثر ، كما كان لصلة شكيب بالشيخ منذ ذلك العهد خير وثمر .

وشكيب يذكر لنا لمحاتٍ عن توثق علاقته بالشيخ ، فيقول إن الشيخ نُفِيَ بعد ثورة عرابي إلى بيروت سنة ١٨٨٣ مع جماعة ، وكان شكيب يحصِّل العلم حينئذ في الحكمة ، وفي سنة ١٨٨٥ قرأ خبرا عن مجلة « العروة الوثقى » ، وكان مع زملائه في المدرسة مغرمين بأخبار الكتاب والشعراء : « فكنا نرى الدنيا كلها نظما ونثرا ، وكان كل ما خرج عن الإنشاء والشعر والأدب لا نكاد نُقيم له وزنا » .

وزار الشيخ سعيد الشرتوني صاحبُ معجم « أقرب الموارد » مدرسةَ الحكمة ، فسأله شكيب عن الشيخ محمد عبده فقال له : هذا الرجل إذا تكلم يخرج النور من فيه . فازداد شوقُ شكيب إلى الإمام ، وفي أواخر سنة ١٨٨٦ رأى شكيب الإمام لأول مرة في احتفال بمدرسة الحكمة ، ثم تكرر اللقاء بعد أن قدمه الشيخ عبد القادر القباني إلى الإمام ، وظهر أن الإمام يعرف اسم شكيب من قصائده التي ينشرها ، ويقرر شكيب أن الإمام قال له : « أنت ستكون من أحسن الشعراء » .

وصار شكيب يزور الشيخ ، ويتردد عليه للسمر والسماع ، وتعرَّف الإمام

---

(١) الباكورة ، ص ٩٣ . والديوان ، ص ٢٠١ .

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٢ .

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ١٥ ، ص ٤٢٣ ، سنة ١٩٣٧ .

والد شكيب ، وزاره فى منزله بالجبل ، وقدّره كثيراً ، وقال عنه : إنه أعقل من رأيت من أمراء الجبل[1] .

وستزداد صلة شكيب بالإمام على مر الأيام كما سنرى .

وكان شكيب مبرّزا مع أخيه على أقرانهما ، فكانا يتبادلان مقامى الأول والثانى بين التلاميذ[2] .

وفى سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٧ م دخل شكيب مع أخيه المدرسة السلطانية ، حيث أقاما بها سنةً يتعلمان التركية والفقه . يقول شكيب عن أيامه فى هذه المدرسة : « وحضرنا مجلةَ الأحكام العدلية على المرحوم الشيخ محمد عبده ، وكنا نلازم المرحوم فى مجالسه الخاصة ، لاسيما أنه كانت انعقدت بينه وبين المرحوم والدى صداقة أكيدة ، فكنا نزوره فى منزله ببيروت ، وكان يزورنا فى بيتنا بالجبل »[3] .

وفى موطن آخر يذكر لنا شكيب أنه تلقى فى المدرسة على يدى الشيخ التوحيدَ والفقه ، وأنه أكثر من التردد عليه ، حتى يقول شكيب : « ونظرا لكثرة ترددى عليه أقول إنى أعلم من هذا الأمر مالا يعلمه غيرى ، فطالما لقيت بمجلس الأستاذ أصنافَ الملل والنحل ، وهى تفهم منه ، وهو يفهم منها[4] » .

وفى سنه ١٨٨٩ م ذهب شكيب إلى دمشق ، وكان فى التاسعة عشرة من عمره ، فحضر مجلسَ مفتى الشام العلامة الشيخ محمد المنينى ، وجرى ذكرُ الشيخ محمد عبده فى المجلس فأثنى عليه مفتى الشام كثيراً[5] .

وفى سنة ١٨٩٠ م كانت أول قدمة له إلى مصر ، فمكث شَيْعَ[6] شهرٍ فى

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٣٩٩ و ٤٠٠ . من مقال لشكيب عن الإمام .

(٢) روض الشقيق ، ص ١٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩ و ٢٠ .

(٤) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٤٠١ و ٤٠٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٠٤ .

(٦) الشيع : المقدار (القاموس) وقد استعمل شكيب الكلمة فاستعملناها متابعة له .

الإسكندرية ، ثم قدم القاهرة فكان أكثر اجتماعه — كما أخبر عن نفسه — بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وبرهطه المعهودين : سعد زغلول ، وأخيه فتحى ، والشيوخ على الليثى ، وعبد الكريم سلمان ، وعلى يوسف صاحب (المؤيد) ، وإبراهيم اللقانى ، وحفنى ناصف ، والسيد أحمد محمود ، والسيد إبراهيم الوكيل ، وأحمد زكى باشا الذى هو خاتمة من أتذكره من رجال تلك الحلقة رحمهم الله أجمع ، وكانت اجتماعاتنا متواصلة ، وأسمارنا متطاولة ، ومذاكراتنا للقاصى والدانى شاملة»[١].

ويحدثنا شكيب بأنه ذهب فى ذلك الوقت إلى زيارة الشيخ على يوسف فى مطبعة جريدته المؤيد ، فرآه جالساً يعالج تحرير مقالة فى دخول العام الهجرى الجديد حينئذ ، وهو لا يعرف كيف يصوغها ، وصار فى تعب زائد مع مقالته ، وهو يكتب ويشطب ، ويمحو ويثبت ، فقال شكيب : لو قلت كذا وكذا . فأجابه الشيخ : « بالله عليك تكتب أنت هذه الإفتتاحية » . وفعل شكيب ، ونشرت المقالة[٢] .

وفى هذه الزيارة بدأ اتصاله بجريدة الأهرام ، فأخذ يراسلها ويكتب فيها باسمه أو بتوقيع رمزى ، كما بدأت صلته بجريدة المؤيد[٣] .

وفى أواخر سنة ١٨٩٠ م سافر إلى الآستانة ، وهناك تعرف بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وأعجب به ، وتلقى عنه ، واستقى من مناهله ، وعرف منه الكثير من أمراض العالم الإسلامى ، كما أحس عن طريقه بالمهمة التى يجب أن ينهض بها فى هذا العالم .

وفى سنة ١٨٩٢ ذهب إلى فرنسة من الآستانة ، سائحاً ومستشفياً من مرض طرأ عليه ، وهناك تعرف بالشاعر أحمد شوقى ، وأعجب به وسمع منه[٤] ،

---

(١) كتاب « شوقى » ص ٤ .

(٢) النهضة العربية ، ص ١٧ و ١٨ .

(٣) كتاب « شوقى » ص ٧ . وذكرى الأمير شكيب ، ص ١٠ .

(٤) كتاب « شوقى » ، ص ١٠ .

، ورأى الغرب بعيني محمد عبده وجمال الدين ، ونظر إليه نظرة خاصة ، فتفتحت أمامه كذلك آفاق جديدة غريبة ، وعاد بعدها إلى بيروت ، وتعرف إلى السيد رشيد رضا ، واتصل به فازداد وثوقاً في ثقافته ومبادئه وغاياته ، وظلت هذه الصلة منبعاً لكثير من آرائه حتى قضى الشيخ رشيد رضا »[1] .

• • •

الذين أثروا فيه :

وهنا نقف وقفةً لنتعرف إلى الذين أثّروا في شكيب فكرياً وأدبياً ، ثم لنتعرف إلى العوامل التي كونت شخصيته ، فإن شكيب الآن قد جاوز الثلاثين من عمره ، فاكتمل شبابُه ، واستوى عوده ، وبرزت شخصيته .

لا نستطيع أن نلحظ تأثيراً كبيراً في شكيب لمعلمه القراءةَ والكتابة الشيخ مرعي شاهين سلمان ، ولا لمقرئه القرآن ، أسعد أفندي فيصل ، فقد كان شكيب حينئذ على أبواب التكون الحسي والفكري .

ولكن نلحظ الشيخ عبد الله البستاني أستاذَ شكيب في مدرسة الحكمة ، فهو الذي فتقَ لسانَ الفتى بالعربية ، وحببها إليه ، وحرضه على تطلبها والشغف بها والعكوف على معجماتها ، حتى يذكر الشيخ رشيد رضا أن شكيب كان في المرحلة الأولى من طلبه العلم يستعين بكتاب (لسان العرب) ، ويراجعه حين الاشتباه[2] .

ولقد كان البستاني شديدَ الإعجاب بشكيب ، كثيرَ الثناء عليه ، حتى روى الشيخ خليل تقي الدين أنه سأل البستاني قبل وفاته بيومين : أي تلاميذك أحب إليك ؟. فأجابه : أحبُّ تلاميذي إليَّ الأميرُ شكيب أرسلان[3] .

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٣ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٦٠٤ .

(٣) مناهل الأدب العربي — رقم ٢٨ عن شكيب أرسلان .

وهناك الشيخ محمد عبده الذى نفث فى صدر شكيب روحَ البحث فى تعاليم الإسلام ، مع العناية بلغة القرآن الكريم ، والاطلاع على مختلف الملل والنحل .

وهناك السيد جمال الدين الأفغانى الذى بث فى قلب شكيب حافزَ العناية بشئون العالم الإسلامى ، والبحث فى آلام الأمة الإسلامية وآمالها .

وهناك السيد رشيد رضا الذى أثر فى شكيب وتأثر بشكيب أيضاً ، وكان تأثير السيد رشيد يدور حول قضيتين كبيرتين تلاقتا فى أفهام طائفة من الكتاب والمصلحين — ومنهم رشيد وشكيب — وهما القضية العربية والقضية الإسلامية ، وكان أول لقاء لشكيب مع رشيد سنة ١٨٩٥ م .

وهناك الشاعر أحمد شوقى الذى أُعجب به شكيب ، وتسامر معه ، وسمع منه وأسمعه ، وباحثه وعارضه ، وكان شوقى أيضاً رجلا يقول فى العروبة كما يكثر القولَ فى الإسلام .

وهناك رجال أثروا فى شكيب وهم فى عالم البقاء ، بما خلَّفوا من آثار طالعها شكيب ، وأدمن النظرَ فيها وتأثر بها ، ومنهم ابن المقفع ، وأبو إسحاق الصابى ، وابن خلدون ، والمقَّرى صاحب (نفح الطيب) ؛ وقد يكون الحديث عن تأثر شكيب بهؤلاء مقام آخر .

* * *

وأما العوامل التى كونت شخصية شكيب فيرى الأستاذ روفائيل بطى أنها تتركز فى ثلاث عوامل :

١ — أرومة شكيب الكريمة ذات الحسب الباذخ .

٢ — السجايا العربية القوية فى تنوخيتها ومنذريتها ، بحيث فاقت فى العشيرة ، وغنمت مفاخر بنى معروف منذ حلت لبنان .

٣ — توثب قومه وتحفز ملته ، فمرقه لبناني نابض بالحيوية المتقدمة، وملته دعت إلى العمل خلال هذه الأعمال الطويلة في خدمة العرب والمسلمين[١] .

وظائف وأعمال ورحلات :

وفي سنة ١٩٠٠ أقيم معرض باريس ، وحاول شكيب أن يسافر إليه فلم يستطع ، لأن الاستبداد الحميدي في ذلك الوقت جعل السياحة إلى الخارج بإذن ، وكان هذا الإذن متعذراً بالنسبة إلى شكيب[٢] .

وفي سنة ١٩٠٨ عُيِّن في وظيفة « قائمقام » لقضاء الشوف ، وظل في هذه الوظيفة مدة يصرّف شئونها بحزم وعزم ، وعدالة وكرامة ، فلم يقبل لنفسه أن يكون ظلاً للعثمانيين ، ولا أن ينفذ الجائر من أحكامهم وأوامرهم ، ولا أن يميز بين أتباع عقيدة وأتباع عقيدة أخرى من بني قومه ، ولذلك اختلف مع السياسة العثمانية المحلية ، وأدى به ذلك إلى الاستقالة من منصبه .

وفي سنة ١٩١١ قامت الحرب الطرابلسية بين طرابلس الغرب (ليبية) وإيطالية ، فسارع شكيب إلى الاشتراك فيها مع المجاهدين من العرب والمسلمين ، ورافق شكيب في هذه الحرب القوادَ الأتراك ومنهم أنور باشا ، وكان شكيب مخلصاً للدولة العثمانية ، يراها دولة الخلافة الإسلامية ، فالتعاون معها تعاون على خدمة الإسلام والمسلمين ، فجعل يثير العزائم ويستنهض الهمم[٣] .

وقد عهدت إليه آنذاك جمعية الهلال الأحمر المصري في قيادة ستمائة جمل تحمل أرزاقاً للمجاهدين في برقة ، فقام بالمهمة خير قيام ، وظل في موطن الجهاد ثمانية أشهر تقريبـاً[٤] .

---

(١) مجلة الكتاب (مصر) عدد فبراير ١٩٤٧ — من مقال بعنوان (شكيب أرسلان) البطل .
(٢) كتاب « شوقي » ، ص ١٤٥ .
(٣) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٤ .
(٤) مجلة الكتاب ، عدد فبراير ١٩٤٧ .

وانتخب شكيب نائباً عن « حوران »[1] فى البرلمان العثمانى بالآستانة « مجلس المبعوثان » الذى بدأ سنة ١٩٠٩ .

وفى سنة ١٩١٢ سافر شكيب من برقة إلى الآستانة ، إذ عيّنوه مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصرى ، فنهض بواجبه نهوضاً إسلامياً متحمساً ، ثم سافر سنة ١٩١٤ إلى المدينة المنورة لإنشاء مدرسة فيها .

* * *

وهكذا نجد أن السياسة أخذت تستبد بوقت شكيب ونشاطه ، حتى زاحمت الأدبَ والبحث ، وحتى قال أحد الباحثين عن شكيب فى ذلك الوقت : « جال جولةً رفعته إلى رتبة المشاهير ، ثم شغلته السياسة عن متابعة التحبير[2] » .

ثم شغلته السياسة إلى حد كبير ، فهو يشغل مناصبَ لها صلتها بالسياسة ، ويرحل رحلاته فى سبيل قضايا قومه ودينه ، ويتصل بكبار المسئولين السياسيين فى لبنان وفى الآستانة ، وهو يتدخل فى السياسة اللبنانية والسياسة العثمانية ، فيجنى ثمراً من هذا التدخل حيناً ، ويكتسب منه جمْراً حيناً آخر ، ويصيبه ما يصيبه من سوء الظن به أحياناً ، ومن التقدير لجهوده أحياناً أخرى ، وذلك لتعدد الأهواء والمشارب ، ولصعوبة التوفيق بين أمر الحاكم ورغبة المحكوم ، ولسريان التفرق والتمزق حينذاك فى كيان المجتمعيْن العربى والإسلامى اللذين تعلق شكيب بخدمتهما والعمل من أجلهما .

ولكن الطابع البارز عليه حتى الآن هو تأييده للسياسة العثمانية[3] ، وجهوده

---

(١) حوران سهل من سهول الشام عاصمته درعا « أذرعات » .

(٢) مجلة سركيس — السنة الخامسة — الجزء ١٥ — ص ٤٣٤ — مايو ١٩٩١ — مقال (حملة الأقلام) حليم إبراهيم دموس .

(٣) فى سنة ١٩١٢ كانت جريدة (المؤيد) تنشر مقالات شكيب ، وتكتب تحت عناوينها هذه العبارة : « لسعادة الكاتب العثمانى الكبير » . انظر رسائل الرافعى ص ٤ .

فى سبيل الخلافة ، ودفاعه عن الإسلام والمسلمين : وسيظل حبه لدولة الخلافة رَدَحاً طويلا من الزمان ، حتى نراه يتوسع فى مدح دولة الخلافة بمثل قوله فى ديوانه :

أحبكم حبَّ من يدرى مواقفكم فى خدمة الدين والإسلام من حِقَبِ

أحبكم حب من يسعى لطيتـــه فى طاعة العقل ، لا فى طاعة الغضب

مهما يكن من هنات بيننا ، فلنا معكم على الدهر عهد غير منقضب

كفى الشهادة فيما بيننــــا نسبا إن لم تكن جمعتنا وحدةُ النسب

مجدى بعثمان حامى ملتى ، وأنا لم أنس قحطان أصلى فى الورى وأبى!

ولكن شكيب كان — قبل أن تشغله السياسة — قد وثّق علاقَته بكثير من الشعراء والأدباء وتأثر أدبياً بهذه العلاقة ، وشعرُه يدل على ذلك ، فهو حين يطبع ديوانه الأول « باكورة » سنة ١٨٨٢ م — وهو ابن سبع عشرة سنة — يهدى نسخة منه إلى الشاعر المصرى عبد الله باشا فكرى ، ويجعل عبارةَ الإهداء شعراً ، ويطالع فكرى الديوانَ ، ويبعث إلى شكيب بقصيدة يقول منها عن شكيب :

تعلق قلبهُ من عهد مهدٍ بكسب المجد مجتنباً لخُسْرِ

وأُولع بالمعـــالى والمعانى ونظم الشعر ، لالطِلّاب وفر (١)

وفى سنة ١٨٩٥ تقريباً يبعث شكيب بقصيدة إلى الشاعر إسماعيل باشا صبرى — وكان حينئذ محافظاً للاسكندرية — وفيها يقول فى مدح صبرى :

ورعى بأرضـك سيداً أضحت به الإسكندرية ثغرَكَ الضحا كا

شهم لعمرى ، ما أفضت بلاغة عنه قصرت عن المدى إدرا كا (٢)

---

(١) ديوان الأمير ، ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١ .

وحينما كان شكيب حول العشرين من عمره أخذ يعقد علاقات بينه وبين كبار الشعراء والأدباء ، فهو يتلمس الاتصال بالبارودى ، فيستشهد فى كتاباته أكثر من مرة بشعر البارودى على غير معرفة سابقة ، والبارودى فى منفاه بسيلان ، ومثل هذا الاستشهاد يرضيه ويعجبه فى غربته ، وما كاد البارودى يبعث إلى شكيب بمقطوعة شعرية يشكر له فيها التنويه باسمه حتى أجابه شكيب بقصيدة يمدحه فيها ، ويرتجى بها توثيق العلاقة بينهما .

وفى سنة ١٩٠٢ يرسل شكيب إلى البارودى قصيدة من طبرية ، وفى السنة ذاتها يعزيه فى ابنته بقصيدة ، فيرد عليه البارودى بقصيدة يقول فيها عن شكيب :

ألمعى له بداهـــة رأى تدرك الغيب من وراء لثام
وقريض كما وَشَت نسماتٌ بضمـــير الأزهار إثر الغمام
هـــزنى شعرُه فأيقظ منى فكرةً كان حظها فى المنام (١)

ولا شك أن مثل هذه المراسلات الشعرية كان لها أثرها فى نفس شكيب وتفجير ينبوع الطموح الأدبى فى صدره .

وشكيب يمدح جمعاً من الشعراء والأدباء ، أمثال أحمد شوقى . وحافظ إبراهيم . وخليل مطران . وعبد الحميد الرافعى ، وعبد الله البستانى ، وقصائده فى هؤلاء تدل على علاقته بهم .

وكذلك رثى شكيب جمعاً من رجال العلم والأدب مثل : أحمد فارس الشدياق ، وإبراهيم اليازجى ، وعبد العزيز جاويش ، وأحمد تيمور ، وعبد السلام بفونه ، وغيرهم ، وهذا يدل على ارتباطه بهم وتأثره بهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٥ — ١٧

في الحرب العالمية الأولى :

ثم قامت الحرب العالميـــة الأولى بين تركية والحلفاء عام ١٩١٤ ، فأخذ شكيب يحرّض على الوقوف في صف العثمانيين ، والدفاع عن الخلافة ودولتها ، وعن الإسلام وجيشه ، وجعل يهاجم الحلفاء ، ويصفهم بأنهم أعـــداء العرب والمسلمين معاً ، وأنهم إذا كانوا يتظاهرون بتحرير البلاد العربية من الاستعمار ، فهم في الحقيقة والواقع يريدون إضعاف الدولة العثمانية أولا ، حتى إذا قضوا عليها وعلى سلطانها ، وسلخوا البلاد العربية منها ، عادوا ليحتلوا هذه البلاد العربية ، ويقتسموها فيما بينهم .

ولقد شارك شكيب بنفسه في بعض أعمال الحرب في صف الدولة العثمانية ، فهو مثلا يقول : « ولقد أقمت بقصبة معان شَيْعَ[1] شهر في أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٥ م إذ كنت ذاهباً ومعى ١٢٠ مجاهداً من جماعتي إلى حرب الترعة منضما إلى الجيش العثماني الحجازي الذي كان يقوده وهيب باشا ، وسرنا من معان هبوطاً مستمراً إلى قلعة النخل في صحراء التيه ، ولقد قطعت في تلك الرحلة جانباً من جبال الشراة ، وعرفت أي جبال هي[2] » .

وأخذت هوةُ الخلاف تتسع بين العرب والعثمانيين ؛ بسبب مظالم الحكم العثماني من جهة ، وتطلع العرب إلى الحرية والاستقلال من جهة ثانية ، ومكر الحلفاء ووعودهم الخلابة من جهة ثالثة ، وأخذت مسافة البعد بين العرب والحلفاء تضيق بقدر ما تتسع مسافة الخلاف بين العرب وتركية .

وأدرك شكيب أن الحلفاء يخادعون العرب ، وكان ما زال يثق بالعثمانيين ، ويحرص على دولة الخلافة ، ويطمع في مجد الإسلام على يديها ، ولذلك عارض الثوارَ

---

(١) شيع (بفتح فسكون) : أي مقدار .

(٢) جريدة منبر الشرق ، عدد ٣٠ مارس ١٩٥٣

من العرب ، وأخذ يحذِّرهم العواقبَ ، ولا عجب فهو الذى ألقى قبل الحرب العامة الأولى بسنة قصيدةً فى الآستانة ، وفى آخرها يحذر من استنامة أمته للأجنبى الدخيل . ومن أخطار الشقاق بين العرب والترك ، فيقول فى ختامها :

فيها وطنى لا تترك الحزمَ لحظة بعصرٍ أُحيطت بالزحام مناهله
وكنْ يقظاً ، لا تستنم لمكيدةٍ ولا لكلام يشبه الحقَّ باطله
وكيد على الأتراك قيل مصوَّب ولكن لصيد الأمتين حبائله
تذكَّرْ قديمَ الأمر تعلمْ حديثه فكلُّ أخير قد نَمَتْه أوائله[1]
إذا غالت الجُلَّى[2] أخاك فإنه لقد غالك الأمر الذى هو غائله
فليست بغير الاتحاد وسيلة لمن عاف أن تُغْشَى عليه منازله
وليس لنا غير الهلال مظلة ينال لديها العزَّ من هو آمله
ولو لم يفدنا عبرة خطب غيرنا لهانَ ، ولكن عندنا من نسائله
سيعلم قومى أننى لا أغشهم ومهما استطال الليلُ فالصبحُ واصله

وقد نشر شكيب القصيدة كاملة فى ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٥ م وعلَّق على البيت الأخير بقوله : « نعم ، وقد انتهى الليل ، وجاء الصبح ، وظهر أننا ما غششنا قومنا ، وإنما حذرناهم من أن ينخدعوا[3] » .

ولعله كان قد عَلِمَ بنوايا الحلفاء فى تقسيم البلاد العربية ، ولذلك يتحدث عن عدم اشتراكه فى الثورة العربية ، وأنه عرف أن البلاد العربية ستكون نهباً مقسما عقب الحرب بين انكلترة وفرنسة ، ثم يقول :

« وهذه المسائل سبقت لى عنها كتابات مطبوعة قبل الحرب وفى أثناء

(١) نمته : عزته .
(٢) الجلى : الأمر العظيم .
(٣) الديوان ، ص ١١٢ .

الحرب ، قد أعاد بعضهم نشر شيء منها منذ سنوات ، وهو كتاب مفتوح كنت نشرته أيام الحرب موجهاً إلى أحد الأشراف قائلا فيه : ماذا تصنعون ؟ أتقاتلون العرب بالعرب ، وتسفكون دماء العرب بأيدى العرب ، لأجل أن تكون سورية لفرنسة ، والعراق لانكلترة ، وفلسطين لليهود[١] » ؟ .

والواقع أن شكيب على الرغم من وقوفه بجانب العثمانيين ، ومعارضته للثورة العربية فى تلك الفترة ، قام بجهود كثيرة لبلاده وأبناء وطنه ، وهذا هو الأستاذ رفائيل بطى يقول : « ولا نكران فى أن شكيب أرسلان تعاون مع قائد الجيش العثمانى الذى لُقِّب بالسفاح ، بعد اضطهاده لأحرار العرب ، وكتب فى جريدة (الشرق) التى أسسها القائد للدفاع عن سياسته ، ولكن المنصفين من رجال العرب أكدوا مراراً باللسان والقلم — بعد أن انقشعت غياهب الحرب العظمى الأولى ، وبمناسبات كثيرة فى حياة الفقيد الجليل وبعد وفاته — بأنه كان واسطة خير لكثيرين ، ودريئةَ شر عن كثيرين فى تلك الأيام الحالكة[٢] » .

ويذكر بطى أن الأمير سعى فى إنقاذ كثير من المنفيين إلى الأناضول من أعيان سورية والجبل ، وخفّف من كارثة المجاعة فى لبنان ، وحمل الدولة على توزيع المال على فقراء اللبنانيين ، وكانت له يد طولى فى المحافظة على امتيازات لبنان التى استفاد منها الأهلون كثيراً فى تلك الأيام الحرجة ، وأقنع أنور باشا بالموافقة على دخول مراكب أمريكية تنقل خمسة عشر ألف طن دقيق إلى لبنان ، إلا أن الحلفاء رفضوا هذا ، خشيةَ ذهاب الدقيق إلى ألمانية ، فبقيت المئون فى الإسكندرية ، وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩١٧[٣] .

---

(١) جريدة الشورى — ١٠ ابريل ١٩٢٩ .
(٢) مجلة الكتاب — فبراير ١٩٤٧ . ص٥٦٩ .
(٣) المصدر السابق . وذكرى الأمير ، ص ٣٢٩ .

رحيله إلى أوربة :

وجعل شكيب يبذل النصح للعثمانيين رجاء أن يرعووا أو يعتدلوا ، ويحاول أن يقرب مسافة الخلف بينهم وبين قومه ، ولكن الخرق كان قد اتسع على الراقع . وأسرف الحكام العثمانيون فى سياستهم الخرقاء التى يقودها الاستبداد والغرور ، حتى جعلوا العرب يزدادون إعراضاً عنهم وبغضاً لهم ، وميلاً إلى الحلفاء وتعاوناً معهم .

وانتهت الحرب بهزيمة العثمانيين هزيمة كاسرة ، وأدركت العربَ نشوة مؤقتة لاعتقادهم أن يوم الفوز فى قضيتهم على الأبواب ، وبدا لشكيب أن سياسته التى كان يتبعها قد باءت بالإخفاق ، وأنه لم يبق له مقام بين قومه الذين خالفهم فى الرأى ، وعارضهم فى الخطة ، وانتهى الجانب الذى يؤيده إلى الهزيمة ، فقرر الرحيل .

وغادر لبنان إلى تركية ، وأقام فى بلدة (مرسين) القريبة من الحدود السورية ، وقد صرح شكيب أكثر من مرة بأنه أقام فى (مرسين) ليسهل عليه رؤية أمه التى يحبها ويجلها ويطفئ عليه حنينهُ إليها . ولكننا نستطيع أن نضيف إلى ذلك سبباً آخر وهو أن (مرسين) بلدة تركية ، والنزعة العثمانية لم تغادر صدرَ شكيب بعد .

وكثرت الآراء والأقوال فى بيان السبب الذى دعا الأمير إلى ترك وطنه ، فقائل يقول إن الأمير لم يترك سوريةَ باختياره ، بل إن السلطات الفرنسية التى احتلت البلاد هى التى نفته ، وقائل يقول إن حكماً صدر بالإعدام على شكيب فى فرنسة ، فخاف تنفيذ الحكم ففر ، ويعلق شكيب على هذه الأقوال بقوله :

« وكلامهم يناقض بعضهُ بعضاً ، فبينما نراهم يقولون إننا فررنا من سورية على أثر الحكم علينا بإعدام الحياة فى المحاكم الأفرنسية ، إذا بهم يعترفون بأننا لم نبرح سورية إلا من تلقاء أنفسنا ، وهذا هو الواقع ، فإننا أبينا أن نسكن سورية ما دام الحكم فيها للأجنبى »[١] .

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ١٢ إبريل ١٩٣٨ ، وانظر أيضاً عدد ٢ فبراير سنة ١٩٣٨ ففيه حديث عن سبب خروج شكيب من سورية .

ومهما يكن من أمر فلم يكن هناك مفر من خروج شكيب بعد ما صارت الأمور إلى ما صارت إليه ، فسياسته لم تنجح ، والعثمانيون قد انكسروا ، والقوم من حوله يخالفونه في الرأي ، وهم في موقف النصر كما يعتقدون ، وعداوة شكيب لفرنسة واضحة ، وهي اليوم حاكمة البلد المسيطرة عليه ، ولو بقي شكيب لما أمن المتاعب والمخاطر ، ولما استطاع أن ينال حريته في الحركة والكلام والكتابة ، وهو رجل لا يطيق السكونَ أو الهدوء ، وإذن فلا مفر من الرحيل[1] .

ومكث شكيب غير بعيد من سورية ، وشاهدَ فيصل الأول وهو يجلس على عرشها ملكاً عربياً ، ترنو إليه الأبصار وملؤها الأمل والرجاء ، ففرح شكيب لهذا ، وتمنى المزيد من الخير لقومه وبلاده ، ثم رأى أن تركية قد تبدلت فيها الأحوال فالكماليون قد ألغوا الخلافة ، وأداروا ظهرهم للاسلام والمسلمين ، وللعرب بطبيعة الحال ، فلم يبق مجال أمام شكيب لكي يفكر في التوفيق بين العرب ودولة الخلافة ، فقد انتهت دولة الخلافة ، وبدت البغضاء للعرب من أفواه حكام الترك أكثر من ذي قبل ، فراجع شكيب نفسه ، وكيَّف موقفه تكييفاً جديداً ، وأخذ يدعو إلى الوحدة العربية ، بعد أن كان يعمل لتحقيق الوحدة الإسلامية ، وكان أول من دعا إلى إنشاء جامعة عربية[2] .

يقول شكيب : « إننا منذ انتهاء الحرب العامة توجهت همتنا إلى إيجاد الوحدة العربية » .

ويحكى أن الملك فيصل الأول قال له : « أشهد أنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحدة عملية »[3] .

ويقول شكيب أيضاً : « ولما وضعت الحرب أوزارها ، وتبين الرشد من الغيّ ،

(١) انظر روض الشقيق ، ص ٢٤ .
(٢) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٤٥ من كلمة خبيب جاماني .
(٣) ذكرى الأمير ، ص ٣٢٨ . وكتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٦١ .

وعرف العرب أن الإنجليز غدروا بهم ازداد الملك فيصل اعتقاداً بى ، وعرف أنى من أول الأمر لم أعارض تلك الحركة إلا خوفاً على العرب أنفسهم ، وحرصاً على الجامعة الإسلامية »[١] .

ويروى الدكتور رنيف أبو اللمع أن الأمير قال له بعد قليل من انتهاء الحرب العالمية الأولى : « العرب أمة كاملة ، أى أن لها جميع العناصر التى يقتضيها كيان الأمم من الوجهة السياسية والاجتماعية ، فلها عرق واحد ، ولسان واحد ، وأكثرية دين واحد ، وتاريخ واحد ، كما أن لها مصالح واحدة ، ومنافع واحدة ، وآمالا واحدة .

ولكن الذى فت فى عضد هذه الأمة وأضعفها وأفقرها وأقصاها عن السير فى موكب المدنية والرقى هو تفكك حلقاتها واستعمار الأجنبى لها ، فأنا جندى من جنودها له ثلاثة أهداف جلية واضحة تمام الوضوح ، الأول هو الاتحاد ، والثانى هو التحرر ، والثالث هو السير فى موكب النهضة والعلم والبحث »[٢] .

* * *

وبعد فترة سافر شكيب إلى برلين واشترى فيها بيتاً رخيص الثمن ، خلال سقوط النقد الألمانى ، وكان يعتزم الإقامة فى برلين ، ويقول شكيب عن هذا البيت من رسالة خطية له بين يدى بعث بها إلى السيد رشيد بتاريخ ٢ ذى الحجة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م : « كنت اشتريت بيتاً فى برلين أيام ذلك الرخص ، وهو وكالة فيها ٢٠ منزلا ، أى عشرون عائلة ، كل عائلة فى سكن من ٤ إلى ٦ غرف ، والآن يساوى ٢٠٠٠ جنيه ، وربما يأتى وقت يساوى فيه ١٠ آلاف جنيه ، ودخله السنوى الآن ٧٠٠٠ مارك ذهب ، كلها تذهب رسوماً ، لكننا نأمل المستقبل » .

وفى هذه الرسالة يذكر أنه فى أزمة مالية شديدة لكثرة النفقة والتبعات

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٠٠ .

(٢) ذكرى الأمير ، ص ٤٤٢ .

وقلة الموارد ، وما تحتاج إليه رحلاته من أموال مع كثرة هذه الرحلات ، حتى يقول في الرسالة عن نفسه : « هو من قطار إلى قطار ، لا يستقر في شرق ولا في غرب » .

ورحب بإقامته القوم هناك لسابق صلته بهم قبل الحرب ، فقد رافق الأمبراطور غليوم في أثناء زيارته لسورية ، وكانت له صداقات مع عدد من القواد الألمان ، وكان ينتصر لألمانية في أثناء الحرب بمقتضى أنها في صف العثمانيين . ومن قبل زار شكيب قبر الشاعر الألماني المشهور «غوته» ومدحه ببعض شعره ، حيث قال :

مذ قيل هذا بيت غوتة زرته ... إذ كان للشعراء كعبة قاصد

هو سيد الشعراء عند قبيله ... منه بجيد الدهر عقد فرائد

طأطأت رأسي قربحتي في بابه ... ولكم رأت عتباته من ساجد

إن لم يكن من أمتي وعشيرتي ... فالناس في الآداب أمة واحد

« أو فاتنا نسب يؤلف بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالد » ! [1]

* * *

وفي سنة ١٩٢١ م حضر شكيب المؤتمر السوري الفلسطيني الذي اجتمع بقاعة مبنى البلدية بقسم (بلانباليه) بجنيف من ٢٥ أغسطس إلى ٢١ سبتمبر ١٩٢١ ، وكان رئيسه ميشيل لطف الله ، ونائب الرئيس السيد رشيد رضا ، وسكرتيره العام شكيب أرسلان ، وقد طالب المؤتمر باستقلال سورية ولبنان وفلسطين ، والاعتراف بحقها في الاتحاد ، وإعلان إلغاء الانتداب حالا ، وقد تحدثت عن هذا المؤتمر جريدة (منبر الشرق) لصاحبها على الغاياتي في عدد ١٣ مارس سنة ١٩٥٣ ..

وفي سنة ١٩٢٥ طالبه أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني

---

(١) أناتول فرانس في مباذله ، هامش ص ٢٥٨ و ٢٠٩ . والبيت الأخير جاء على طريقة التضمين ، لأنه لأبي تمام ، وأصله : « أو يفترق نسب ... » وفي رواية أخرى : « أو نفترق نسباً . . . . إلخ

التى تألفت بالقاهرة سنة ١٩٢٢ بأن يكون ضمن الوفد العربى الذى يدافع عن قضايا العرب أمام جمعية الأمم بجنيف فى سويسرة ، فاستجاب لذلك ، وانتقل من برلين إلى جنيف .

ويبدو أن هذا الانتقال لم يأخذ شكله النهائى إلا فى ربيع سنة ١٩٢٦ ، وأن أسرته ظلت فى (مرسين) إلى هذا التاريخ ثم لحقت به بعد ذلك ، كما جاء فى جريدة « الشورى » حينذاك [١] .

ويقول شكيب عن مهمته لدى جمعيـة الأمم : « وقمت بواجبى مصحوباً بالوثائق اللازمة ، ولـكننى رأيت أنه لا يمكننى القيام بمهمتى هذه ، إلا بالإقامة الدائمة بسويسرة ، فعند ذلك استقدمت عائلتى من مرسين ، وألقيت عصا التسيار فى هذه البلاد [٢] » .

ويظهر أن الأمير كان يتردد على سويسرة فى رحلاته قبل التاريخ السابق ، لأن الأستاذ على الغاياتى يقول إن الأمير حضر إلى سويسرة لأول مرة ونزل فى لوزان فى أبريل سنة ١٩١٩م [٣] . وشكيب نفسه يذكر لنا أنه تقابل مع السيد رشيد رضا فى جنيف سنة ١٩٢١ ، وأنه كان مقيما بها حينئذ [٤] .

واتخذ شكيب لنفسه بيتاً قريباً من بحيرة (ليمان) ، وهو « بيت متواضع الأثاث ، قليل الغرف والصالات ، ففيه صالة للاستقبال ، وغرفة للمكتبة ، وغرفتان للعائلة لا غير » [٥] .

---

(١) جريدة الشورى — عدد ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٦ حيث تقول إنها علمت أن الأمير سيقطن سويسرة ، وأن أسرته ستلحق به .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣٣٩ .

(٣) جريدة منبر الشرق ، عدد يناير ١٩٥٣ .

(٤) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٥٠ . وانظر أيضاً ص ١٥٨ ففيها ما يفيد أنه كان مقيما بجنيف حينئذ .

(٥) مجلة الفتح ، عدد ٩ ربيع الثانى ١٣٥١ ، مقال (شكيب أرسلان) لمحمد المكى الناصرى .

وفى هـذا المنزل المتواضع ظل شكيب ربع قرن يدافع عن بلاده ودينه ، ويطالب بحقوق العرب والمسلمين ، ويكتب ويؤلف ، ويبحث ويراسل ، وقد يرحل عنه إلى إيطالية أو ألمانية أو انجلترة أو أمريكة أو غيرها ، ثم يعود إليـه ليواصل كفاحه من أجل العرب والمسلمين على مقربة من جمعيـة الأمم ، تحت اسم (الوفد السورى الفلسطينى) الذى اشترك فيه طائفة من رجال العرب أمثال : ميشيل لطف الله ، ورشيد رضا ، وتوفيق اليازجى ، ورياض الصلح ، ونجيب شقير ، وسليمان كنعان ، ومنهم من استمر حيناً قصيراً وانصرف إلى شئون أخرى ، ومنهم من استمر حيناً أطول ثم انصرف ، ولم يصبر على مزاملة الأمير فى جهاده سوى إحسان الجابرى الذى اختلف معه كثيراً ومع ذلك ظل معه [1] .

وكانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بالقاهرة أشبهَ بالمسيطرة على الوفد السورى الفلسطينى بجنيف ، وفى طليعته شكيب . وحدثت خلافات بين اللجنة والوفد ، وحاول ميشيل لطف الله رئيس اللجنة أن يزحزح شكيب عن قيادته الفعلية للوفد ، وذلك بإخراجه منه ، ولـكنه لم يفلح لمثابرة شكيب من جهة ، ولمعاونة السيد رشيد رضا له من جهة أخرى [2] .

وقد انتهز أعداء العروبة والإسلام فرصة الخلاف المتكرر بين اللجنة والوفد ، وبين شكيب وميشيل ، فأخذت تزعم أن شكيب لا يمثل السوريين ، بل لا يمثل الدروز أنفسهم ، فأرسل سلطان باشا الأطرش زعيم الدروز التوكيلَ التالى إلى شكيب بتاريخ ١٥ آب سنة ١٩٢٥ م ونصه :

« عطوفة الأمير شكيب أرسلان الأفخم

باسم عموم سكان جبل الدروز الذين اعتدت عليهم السلطة الفرنسوية بالضغط والاستبداد وضرب الطيارات ، وأنـكرت حقوقهم التى كانت اعترفت بها قبلاً ،

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ص ١٥٨ .

(٢) هناك حديث واسع عن هذه الناحية فى الرسائل المتبادلة بين شكيب ورشيد .

قد وكلنا عطوفتكم بمخابرة جمعية الأمم التى هى مسئولة عن أعمال الدولة المنتدبة فى سورية . وتفهيمهم أننا حملنا السلاح ، ودافعنا عن أطفالنا وعيالنا مضطرين ، بعد أن استعملنا كل الوسائل السلمية الأدبية لرفع ظلم الفرنساويين ، وأن توضحوا لجمعية الأمم أنها أيضاً مسئولة عن دمائنا المسفوكة ظلماً ، وكذلك أن تعلنوا أن الله نصرنا على الظالمين .

وعطوفتكم أدرى بالأحوال التى أدت إلى ثورات كبيرة فى سورية ، وتحقيقة رغائب السوريين عامة ، ونحن منهم واقبلوا فى الختام فائق الاحترام » (١) .

وكان شكيب يتنقل بين سويسرة وألمانية وغيرهما ، وفى سنة ١٩٢٥ أقيمت له عدة حفلات تكريمية فى ألمانية ، فهذه حفلة أقامتها الجالية السورية والطلبة العرب بألمانية . وهذه ثانية أقامها الحزب الوطنى الألمانى ، وثالثة أقامتها جمعية الشعائر الإسلامية ببرلين ، ورابعة أقامتها الجمعية العربية ؛ وفى كل حفلة منها يسمع شكيب الكثير فى مدحه وتقريظه نثراً وشعراً ، وكذلك يقول الكثيرَ عن قضايا العرب وحاضر العالم الإسلامى .

وفى نهاية سنة ١٩٢٧ وبداية سنة ١٩٢٨ دب الشقاق بين شكيب وبعض أعضاء الوفد السورى الفلسطينى ، وقرر شكيب ومعه رياض الصلح تركَ الوفد ، وتضاربت الأقوال فى سبب ذلك ، وعللت جريدة الشورى القرار بطريقتها فقالت : « قد يكون الأمير وزميله سئما ، أو اعتراهما القرف ، ليس من صعوبة الجهاد السياسى مع الغاصبين ، بل من سفاهة أغرار السياسة ، وتلون صغار الأحلام الذين تركوا مجاهدةَ الغاصب ، وولوا وجوههم شطر سب المخلصين للبلاد » (٢) .

وروى أن السبب فى الخلاف هو أن « المسيو جوفنيال » المفوض السامى

(١) جريدة الشورى ، عدد ٢٢ أكتوبر ١٩٢٥ .
(٢) جريدة الشورى ، عدد ٢٩ ديسمبر ١٩٢٧ .

الفرنسي في سورية زمن الاحتلال استدعى الأمير إلى باريس للتفاوض معه في القضية السورية سنة ١٩٢٨ ، واستجاب شكيب للدعوة . وتقدم إلى المفوض بلائحة ، فغضب من ذلك ميشيل لطف الله رئيس الوفد السوري الفلسطيني . ورأى أن في هذا التصرف من شكيب افتئاتاً على حق رياسته للوفد ؛ فحدث الشقاق بينه وبين شكيب ، ووجد لطف الله وأنصارُه في لائحة شكيب ما يصلح لإلهاب شعور الجمهور ضد شكيب ، إذ فيها ما يلي :

١ — استخدام السوريين لأموال فرنسة في الاستثمار إذا احتاجوا إلى أموال .

٢ — جميع قروضِ سورية تكون من فرنسة إذا احتاجت سورية إلى قروض .

٣ — مدربو الجيش السوري يكونون من فرنسة .

٤ — تعليم اللغة الفرنسية يكون عاماً إلزامياً في سورية .

٥ — تعقد محالفة بين سورية وفرنسة لمدة ثلاثين سنة .

٦ — تتبادل الدولتان الإعانة بالجنود في حالة الحرب . . . إلخ [١] .

وقد يرضى بهذه الأمور أصحابُ التدرج في نيل الحقوق ، ولكن الشعوب لاترضى بهذا ، ولذلك سببت اللائحة لشكيب قدراً من المتاعب ، وهو نفسه يقول : « لذلك منذ وصلت لائحتي إلى اللجنة التنفيذية توجهت عليها الاعتراضات ، بعضها من أناس وطنيين مخلصين ، كانوا يظنون أن المبالغة في التشديد أجدر بالمصلحة الوطنية وأدنى إلى النجاح ، وبعضها من أناس متعنتين ليس لهم مرمى إلا الانتقاد بأي وجه كان ، وهم لطف الله وجماعته » [٢] .

* * *

---

(١) المرجع السابق ، عدد ٢١ يونيه ١٩٢٨ .
(٢) المرجع السابق ، عدد ٢٨ يونية ١٩٢٨ .

رحلات أخرى :

وفى شتاء سنة ١٩٢٧ دُعى شكيب من عرب المهجر فى أمريكة الشمالية إلى زيارتهم فى موطنهم ، ليرأس المؤتمر الذى عقدوه فى بلدة « ديترويت » فلبى الدعوة ، ووصل نيويورك يوم ٤ يناير سنة ١٩٢٧ ، وأقيم له كثير من حفلات التكريم التى قيل فيها الكثير عن شخصه وجهوده ، كما قال فيها الكثير عن العروبة والإسلام ، وهناك هاجمته بعض الصحف التى يصدرها اللبنانيون ، ووصفته بأنه الرجل الثانى بعد جمال باشا السفاح القائد التركى الذى قتل عدداً من أحرار العرب بلبنان خلال الحرب العالمية الأولى ، وقد رد عليها شكيب مفنداً التهمة فى سلسلة مقالات نشرتها جريدة (مرآة الغرب) أعاد فيها كثيراً من أقواله التى نشرها قبل هذه السلسلة بثلاث سنوات فى مجلة (البيان)[١] .

وفى نوفمبر سنة ١٩٢٧ دعى شكيب من روسية لزيارتها بمناسبة الاحتفال بمرور عشر سنوات على تأسيس الدولة الحمراء ، فتردد فى قبول الدعوة خوفاً من القيل والقال ، ولكنهم ألحوا فقبل ، وخصصوا له عربةً فى القطار ، واستقبلوه استقبالا حماسياً ، وشاهد العرض العسكرى الروسى فى موسكو ، وعاد فكتب مشيداً « بنظافة الجند ، وحسن شارتهم ، ورشاقة حركتهم ، واتحادهم » .

وتساءل : لماذا لا يعقد العرب صلات رسمية مع روسية ؟ . وقال إن الكراهية كانت بين العرب والروس بسبب الدولة العثمانية ، وقد انفصل العرب عن تركية : « ولما لم يبق للعرب علاقة بتركية فليس بيننا وبين الروس إلا المودة والصفاء والسلام »[٢] .

* * *

(١) المرجع السابق ، عدد ٢٦ مايو ١٩٢٧ .
(٢) المرجع السابق ، عدد أول ديسمبر ١٩٢٧ وعدد ٨ ديسمبر ١٩٢٧ .

وفى سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م حج شكيب بيت الله الحرام بدعوة من الملك عبد العزيز آل سعود ، حيث تقابلا وتحادثا ، وأعجب الملك بالأمير ، وكتب شكيب عن رحلته إلى الحجاز كتابه « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » الذى ذكر فيه أنه شعر حينما وصل (جدة) أنه عربى حر فى بلاد عربية حرة ، لأن الاستعمار ضاربٌ أطنابه فى بلاد العرب ، سوى مملكتى ابن سعود ويحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن[١] .

وأصيب شكيب فى أثناء الرحلة بتحرك مرض الصدر عليه ، وهو المرض الذى أصابه من قبل فى أوربة[٢] . فقضى بسبب ذلك مدة فى مدينة الطائف ، وعاد من حجه إلى مصر يوم ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٩[٣] ، ولقى أمه فى مدينة السويس حيث قضى أربعة أيام ، ثم عاد إلى سويسرة .

وفى ربيع سنة ١٩٣٠ كتب شكيب يصور جهوده ومتاعبه فيقول :

« نحن هنا فى ديار غربة ، وجميع أشغالنا نقوم بها بأنفسنا ، إذ ما معين ولا مساعد ، ونكتب بخط بناننا ألفاً وخمسمائة صفحة فى كل شهر ، إذ ليس عندنا كاتب سر ولا حافظ أوراق ، ولدينا أشغال كثيرة مدهشة ، تتعلق بمهمتنا السياسية التى هى قضية سورية وقضية فلسطين وغيرهما من القضايا العربية .

وعلينا أن نقرأ الصحف اليومية ، وكثيراً من المجلات والكتب ، وأن نراقب حركة العلم والسياسة ، وحق العلم أن يُطاب من المهد إلى اللحد ، ولقد بلغنا سن الستين ، وأصبحنا مضطرين لمداراة صحتنا ، وتجدنا نغسل أعيننا بمغلى البابونج مرتين وثلاثاً كل يوم بدون فتور ، تسكيناً للحريق الذى يصيبها من فرط الكتابة والمطالعة »[٤] .

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ١٠ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٨٢ .

(٣) جريدة الشورى ، عدد ٢٠ سبتمبر ١٩٢٩ .

(٤) جريدة الشورى ، عدد ٣٠ أبريل ١٩٣٠ . من مقال لشكيب عنوانه « لطفا وعطفا » .

وفى صيف سنة ١٩٣٠ قام شكيب برحلته إلى الأندلس (أسبانية) مارًا بفرنسة ، دارساً الأماكن التى فتحها العرب فى تلك البلاد ، وقد بدأ رحلته يوم ١٨ يونيه سنة ١٩٣٠[1] من لوزان إلى باريس ، ثم زار جامع قرطبة ، وأخذت له صورة وهو جالس داخل المسجد ، وقد نشرت هذه الصورة فى أول كتاب «ذكرى الأمير شكيب أرسلان» . وزار بقية المشاهد العربية هناك .

ورجع شكيب من رحلته فى وسط سبتمبر سنة ١٩٣٠[2] ، وكتب عن هذه الرحلة كتابه « تاريخ غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط » حيث تحدث فيه عن أمجاد العرب وفتوحاتهم فى هذه البلاد ، وعما خلفوه فيها من آيات الحضارة والمدنية .

وفى هذه السنة بدأ يصدر مجلته « الأمة العربية » باللغة الفرنسية ، ليدافع بها عن قضايا العرب باللسان الفرنسى ، وجعل يسجل فيها جهود العرب ومحاولاتهم للتحرر والاستقلال ، ويحرض قومه على الكفاح والنضال . وينوه بثوارهم ، ويشيد بأبطالهم ، غير مبال بغضب المستعمرين عليه من إنجليز وفرنسيس .

* * *

وفى سنة ١٩٣٤ م وقعت حرب بين ابن سعود ملك الحجاز والإمام يحيى ملك اليمن ، وقرر المؤتمر الإسلامى بالقدس أن يؤلف وفداً يسعى بالصلح بين الدولتين العربيتين المسلمتين المتحاربتين ، وكان فى هذا الوفد الحاج أمين الحسينى ، وهاشم الأتاسى ، ومحمد على علوبة ، وشكيب .

وكتب لهذا الوفد التوفيق ، فوقفت الحرب بين البلدين المتجاورين الشقيقين ،

---

(١) تاريخ غزوات العرب . ص ١٠ .
(٢) الشورى ، عدد أول أكتوبر ١٩٣٠ م .

وعقدت بينهما معاهدة الصلح[١] . وفى أثناء عودته حاول أن ينزل مصر ، فلم يستطع ، إذ منعت السلطات زيارته لها ولو لأيام محدودة . فعاد إلى أوربة ليواصل جهاده من أجل العروبة والإسلام ، بعد أن زار الحجاز فى عودته ومكث به مدة .

وفى سنة ١٩٣٤ أيضاً التقى شكيب ومعه إحسان الجابرى بزعيم إيطاليـة موسولينى ، وتباحثا معه فى موضوع القضية الطرابلسية ، ويقول شكيب فى هذا المجال :

« ونحن ما تفاهمنا مع موسولينى إلا بعد أن رأينا أنه لم يبق سبيل إلى المقاومة بالسلاح ، وأن بقاء الحالة على ما كانت عليه آيل إلى انقراض الإسلام من القطر الطرابلسى ، فرجحنا طريقةَ المسالمة ، على شرط إعادة المشرَّدين من العرب ، وإرجاع الأوقاف والأراضى المضبوطة ، والعفو عن المحكوم عليهم والمسجونين بسبب الجهاد السابق ، وإشراك الأهالى فى إدارة البلاد ، ومنع الدعاية الدينية المسيحية بين المسلمين ، وتسهيل رجوع المهاجرين إلى أوطانهم ، وغير ذلك مما شرحناه فى الصحف مراراً » .

ثم يذكر شكيب أن مسالمة العدو لأجل مصلحة الإسلام أمر جائز ، والنبى صلى الله عليه وسلم صالح المشركين فى الحديبية ، وكذلك ولاة المسلمين يصالحون الأعداء إذا تبينت لهم المصلحة فى الصلح[٢] .

وقد أطال شكيب خلال رسائله ومقالاته الدفاعَ عن اتفاقه مع موسولينى ، مؤكداً أنه نفعٌ للإسلام والمسلمين ، بينما أخذ الكثيرون ينقدون الأمير أو يهاجمونه بسبب هذا الاتفاق .

* * *

---

(١) مجلة الكتاب ، عدد فبراير ١٩٤٧ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٧٤٥ و ٧٤٦

وعاد شكيب ليكتب ويبحث ويقدم المذكرات والاحتجاجات ويذيع النداءات إلى جمعية الأمم ورجال الدول وغيرهم ، حتى إنه يخبرنا أنه فى سنة ١٩٣٦ جمع ما كتبه من هذا القبيل منذ قدم أوربة حتى هذه السنة ، فوجد ذلك يقع فى خمسة عشر إلى عشرين مجلداً ، وأنه يتعذر عليه طبعه لكثرة نفقته ، فقرر إهداءه إلى نظارة الخارجية السورية[1] . فكيف بما كتبه قبل ذلك ، وما كتبه بعد ذلك ، وقد عاش بعد هذا التاريخ عشر سنوات ؟ . وكيف وهو يخبرنا بأنه لا يضيِّع دقيقة واحدة من وقته ، وأنه يتلقى أكثر من ألفى مكتوب فى دور السنة ، وينشر من التآليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفاً .[2]

ويقول شكيب فى رسالة منه إلى الأستاذ محمد القاسى :

« يوم عيد رأس السنة عملنا أنا وكاتبى حسابَ ما صدر عن قلمى من المكتوبات سنة ١٩٣٥ من أول يناير إلى ٣١ ديسمبر ، نقلا عن دفتر قيود المكاتيب : يبلغ عدد المكاتيب الخصوصية ١٧٨١ ، وعدد المقالات ١٧٦ ، وقصيدتين ومقطوعة ، وعدا ذلك حررت كتاباً عن شوقى ٣٥٠ صفحة ، وحواشى ابن خلدون ٥٦٠ صفحة ، وطبعت (روض الشقيق) ديوان أخى ، وذيلته بتفسير ، وأودعته ترجمة أخى ، ونسب العائلة ملخصاً ، لأن الأصل أطول مما قرأتموه فى روض الشقيق . . . وفى سنة ١٩٣٥ كتبت قسما غير قليل من الجزء الأول من كتاب الأندلس ، لكنى سأجعل ذلك عند تمام هذا الجزء من محصول سنة ١٩٣٦ إن شاء الله . وفى سنة ١٩٣٥ مثلت ديوانى للطبع ، وعلقت عليه تفسير بعض ألفاظ ، وقريباً يتم طبعه وأهديكه ، وكتاب ليفى بروفنسال نشرته فى هذه السنة ». فأنت ترى أن همتى همة شباب لا همة شيوخ »[3] .

* * *

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .
(٣) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٣٣٨ .

وفى سنة ١٩٣٥ ارتكب صحفى من فلسطين جريمة افتراء على الأمير ، بأن زور عليه كتاباً باسمه موجهاً منه إلى الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين ، ونشره فى مجلة « الجامعة الإسلامية » ، ويتضمن هذا الكتاب المزور أن الأمير قد تواطأ مع الحاج أمين الحسينى على الدعاية لإيطاليا والسير فى ركابها . فى مقابل مال يأخذانه منها .

وعلى الرغم من الفرق الواضح بين أسلوب الكتاب وأسلوب شكيب ، وعلى الرغم مما فى الكتاب من ركاكة تعبير وسوء تفكير وأخطاء فى النحو ، فإن الأمير خشى أثر نشره بين الناس ، فهب يدافع عن نفسه ، فراسل زملاءه مكذباً ، وأرسل كلمات إلى الصحف والمجلات يفند فيها هذا الافتراء ، وكتب يقول إنه لم يقم بدعاية لإيطالية ، ولم يذع شيئاً يؤيدها ، بل بالعكس قد سبق له أن هاجم إيطالية بسبب ترحيلها العرب من منطقة « الجبل الأخضر » ، وقرر مقاضاة الجريدة لتظهر الحقيقة كاملة [١] .

وقد حدثنى الحاج أمين الحسينى — وكان الأستاذ منيف الحسينى حاضراً — فذكر أن هذا الخطاب المزور قد قام بتزويره فخرى النشاشيبى المتهم بالتعاون مع الاستعمار البريطانى ، وشريف الشنطى المتهم بالتوسط فى بيع الأراضى الفلسطينية لليهود ، وعيسى العيسى صاحب جريدة فلسطين حينئذ ، وأنه اختير للنشر يوم الجمعة ، يوم موسم خروج النبى موسى ، وهو موسم مشهود مجموع له الناس ، ونشروا الخطاب المزور فى مجلة « الجامعة الإسلامية » لصاحبها سليمان التاجى الفاروقى ، وكانت تصدر فى يافا .

وقد تولت مجلة « الجامعة العربية » لمحررها الأستاذ منيف الحسينى تفنيد التهمة ، ونشرت صورة الكتاب المزور وصورة كتاب حقيقى بخط شكيب ، وقارنت المجلة بين الخطين ، وأبانت التزوير .

---

(١) انظر « مجلة الفتح » ، عدد ٢٩ من المحرم ١٣٥٤ وعدد ٦ صفر سنة ١٣٥٤ .

والواقع أن هـذا الخطاب المزور قد أقلق شكيب ، وحرمه النوم والراحة والاستقرار ، ولعل هذا يتضح بجلاء من رسالة خطية بعث بها إلى السيد رشيد رضا بتاريخ ٨ صفر ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م ، وفيها يقول :

« عسى أن يكون الناس اطمأنوا من جهة تزوير الكتاب الذى نشره ذلك الأحمق المنافق ، لأنه ليست الحماقة فقط هى التى حملته على نشر هـذا التزوير ، بل طمعه فى مال اليهود ، فنَشَره وهو يضمر أنه إذا انطلى على الناس فيكون قد قضى غرضه : أكل المال ، وشفى صدره من رجل كان يحسده فى الباطن ، ويتودد إليه فى الظاهر ، كما هو شأن الكثيرين : وإذا عرف الناس حقيقةَ التزويرة تراجع إلى الوراء ، وقال : إنه انطلى عليه .

وقد بدأ يتراجع منذ اليوم ، ويقول : لسنا أنبياء ، وقد أتونا بهذه الوثيقة فصدقناها ، وإذا ثبت أنها تزوير ننشر أيضاً ثبوت تزويرها .

فتأمل فى هذا النفاق ، والحق أنهم أقدموا على تزوير نَدَرَ نظيرُه فى تاريخ العرب ، لا أقول إنه لم يقع أصلا ، ولكنى أقول إنه ندر جداً ، والآن صرت أقدر أن أخبرك بأنه لولا لطف الله بى لكان قُضِىَ علىَّ من شدة الألم ، فإنى لما رأيت هذا الكتاب المزور ، وكنت أعلم كثرة حسادى وأعدائى ، وأعلم أيضاً غباوة الناس ، وأنهم إذا رأوا خطاً يشبه خطى أسرعوا بالتصديق ، وأعلم أنه إذا انتشر هذا الزور شرقاً وغرباً قال أكثر الناس عنى : هذا رجل منافق ، بقى يدعى خدمةَ الإسلام خمسين سنة ، فإذا به خادم لدولة أجنبية على أمته .

ولا يكثر على الحساد من جهة ، وعلى الأغبياء من جهة أخرى ، أن يقولوا ذلك ، فقد كوفىء من هو خير منى فى الإسلام بما هو شر من التزوير ، أو إن لم يكن شراً منه فبمثله .

ثم عند ما تأملت ذلك ، وتأملت فيما بلغ إليه العرب من قلة الدين كدت

أصعق ؛ ويجوز أن تكون حصلت لى سكتة دماغية أو قلبية ؛ وأن أموت فيحرم أولادى الصغار والدم . وأهم من هذا أن أموت قبل أن يتيسر لى البرهان عن براءتى ، ونشر البيانات اللازمة لإثبات تزوير الكتاب المنسوب إلىّ ، فكنت أموت حينئذ موتاً أدبياً وبدنياً معاً .

لكن الله المحيط بكل شىء لم يرد أن أكون مظلوماً بعد نصح خمسين سنة وبلايا كثيرة ، فما مضت عشية أو ضحاها حتى ابتدأ الناس يعرفون التزويرة ، وجاء تكذيبى الأول بالبرقيات ، فاطمأن أكثر الناس . ولعل المقالات قد انتشرت الآن فازدادوا اطمئناناً ، فإنى كتبت أربع مقالات إلى (الجهاد) قد تبلغ سبعين صفحة ، وكتبت ٣٠ صفحة إلى (الكوكب) ، وكتبت ٣٠ صفحة إلى (الجزيرة) فى الشام ، ومثلها إلى (القبَس) ، وكتبت نحواً من ٦٠ صفحة إلى (الجامعة العربية) ، هذا عدا ما كتبته من المكاتيب الخصوصية المسهبة إلى كل الأقطار ؛ بحيث إذا قدرت ما حبرته فى ١٥ يوماً — أى مذ رأيت الكتاب المزور — يبلغ خمسمائة إلى ستمائة بالأقل . ولا زالت صحتى كما كانت ، ونشاطى كما كان ، لأن معرفتى براءة نفسى جعلتنى فى هذه الحملات أسداً عادياً وسيفاً ماضياً . سألتك فى الكتاب الأخير أن تخبرنى عن أسعد داغر هل يقول : إن هذا الكتاب مزوَّر أم لا ؟ فقد جاءنى من فلسطين أنه كان من المجتهدين فى إثبات صحة الكتاب »[1] ! .

ولما كتب السيد رشيد إلى الأمير شكيب يأخذ عليه مبالغتَه فى كشف تزوير هذا الكتاب ، رد عليه الأمير برسالة خطية تاريخها ١٢ صفر ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م وفيها يقول :

---

(١) ذكر السيد رشيد رضا فى رسالة منه لشكيب أنه سأل أسعد داغر عن هذه ، فأجاب داغر بأنه لا شك فى أن الكتاب مزور . انظر كتاب السيد رشيد رضا ص ٧٨٢ . وفى هذا المرجع جاء أن الشخص المزور هو « ف . ن » وقال شكيب فى التعليق إن الأسم موجود ، ولكنه قتصر على أول حرف من اسم الشخص وأول حرف من اسم عائلته .

• قضية الكتاب المزوّر تقولون إن الناس كلهم عرفوا تزويره ، وإنني بالغت في الدفاع عن نفسي . فهل ترى من باب حب الجدل إذا قلت لك إنه في أول الأمر كان أكثر الناس مصدقين أن هذا المكتوب هو مني . ثم الخطأ وقع من أخينا الجابري ، فبدلا من أن يبرق لي نهار صدور المكتوب المزور — أي ١٨ إبريل — أبرق لي برقية مبهمة . معناها أن أنتظر الجرائد ، أي أنتظر ستة أيام حتى تصل جرائد فلسطين إلى جنيف ، كل هذا حتى لا يدفع أجرة برقية مطولة قد تكون جنيهين مثلا .

فمضت ستة أيام وأنا لا أعلم بشيء ، والناس لو كانوا من ثاني يوم قرأوا تلغرافاتي لكانوا بالأقل سكتوا وانتظروا مقالاتي ، ولكنهم لبثوا من ١٨ إبريل إلى ٢٥ لا يعلمون شيئاً من جوابي ، فرسخ في أذهان الكثيرين أن الكتاب صحيح ، لا سيما أن الدعاية اليهودية الأفرنسية — لأن اليهود والأفرنسيس شيء واحد اليوم — كانت ملأت الدنيا ، فكيف أسكت أولا أكتب إلى كل جهة ببراءة نفسي من فظاعة كهذه ؟ . . .

واستمر شكيب في رسالته على هـــذا النمط من شدة الانفعال والتأثر بهذا التزوير .

وكان هذا التزوير سبباً في تفكير شكيب في اعتزال الوفد السوري الفلسطيني ، والعكوف في بيته على القراءة والكتابة ، كما صرح بذلك في رسائله إلى رشيد ، كالرسالة المؤرخة بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ١٣٥٤ هـ ، والرسالة المؤرخة بتاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٣٥٤ هـ .

وفي سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م أرسل شكيب أسرته المكونة من زوجته وبنتيه « مي » و « ناظمة » وابنه « غالب » إلى لبنان للاصطياف هناك ، وبعد قليل عاد غالب وحده إلى والده ، ولكن الولد أحس بالشوق إلى أختيه ، فقال له أبوه شكيب :

« إنى أشد منك عذاباً فى فراقهن ، لكنى لا أريد أن يخرجن أفرنجيات . فلو ربيتهن فى جنيف لخرجن بدون لغة عربية ، وبدون عقيدة إسلامية ، ومن يسود ممكناً إعادتهن إلى الحجاب متى ذهبن إلى الوطن . والحاصل أريد تربية بناتى على أسلوب عائلاتنا الأصلى ، لا على الأسلوب الذى لا يجدن غيره فى جنيف » . وقال لولده أيضاً :

« أنا يجوز ألا أرى وطنى ، ولكن إذا توفانى الله فى أوربة فلابد لكم أن تعودوا إلى الوطن حالا . فأنتم لا تقدرون على معيشة أوربة ، فكيف تعودون إلى الوطن وأنتم متفرنجون ؟ . هذا لن يكون[١] » .

* * *

وفى سنة ١٩٣٥ أيضاً رأس الأمير شكيب المؤتمر الإسلامى الأوربى ، الذى انعقد لمدة أربعة أيام ابتداء من ١٢ سبتمبر بفندق فيكتوريا بجنيف ، واشترك فيه سبعون عضواً وفدوا من الشرق والغرب ، واعتبر هذا المؤتمر فرعاً للمؤتمر الإسلامى المنعقد بالقدس فى ديسمبر سنة ١٩٣١ ، وكوّن المؤتمر لجنة دائمة كانت مهمتها إحكامَ الروابط بين مسلمى أوربة ، وتسهيل الأعمال الخيرية ، والمحافظة على المصالح الإسلامية ، واطلاع غير المسلمين على تعاليم الإسلام الصحيحة ، وتوثيق العلاقات بين الشرق والغرب ، وإذاعة النشرات ، وعقد الاجتماعات ، وإلقاء المحاضرات ، وتنمية العلاقات الاقتصادية بين تجار المسلمين فى أوربة وتجار المسلمين فى الأقطار الإسلامية .

ومما يذكر أن المؤتمر فى جلسة يوم الجمعة ١٣ سبتمبر وقف الجلسةَ ليتاح للحاضرين صلاةُ الجمعة ، وقد ألقى الأمير شكيب خطبة الجمعة فى الفندق وأمَّ المصلين[٢] .

* * *

---

(١) ذكرى الأمير شكيب ، ص ١٤٢ .

(٢) منبر الشرق ، عدد ٢٧ مارس ١٩٥٣ .

وفى سنة ١٩٣٧ سمح الانتداب الفرنسى فى سورية ولبنان لشكيب بزيارة بلاده ، فوصلها فى ٣ يونيه سنة ١٩٣٧ ومعه زميله إحسان الجابرى ، واستقبلا استقبالا حماسياً قوياً ، ورأى شكيب السيدة والدته ، وزار دمشق وخطب فيها أكثر من مرة ، مشيراً إلى مشكلة فلسطين وإلى معاهدة سورية مع فرنسة . وقد نشرت مجلة « الشباب » الكثير عن هذه الخطب (١) .

وكذلك زار حلب وخطب فيها وتحدث ، ولكنه وقف فى « الجامع الكبير » بها يخطب بعد أن طُلب منه ذلك ، فكان مما قاله : « إن المسلم يستمد استقلاله من القرآن ، وإن إيمان المسلم غير الكامل إنما هو إيمان ناقص ، ولا توجد الوطنية الصحيحة إلا فى قلب المؤمن العامر بالإيمان » .

وكان الرجل مرتجلا ، وكان يحرض المسلمين على كمال الإيمان ، ولكن أعداءه تلقفوا كلامه وحرفوه ، وأشاعوا أن الأمير يتهم غير المسلمين بأنهم لا وطنية عندهم ، ومعنى هذا أن المسيحيين فى نظر شكيب لا وطنية عندهم ، مع أن الأمير يحرص على وحدة قومه ، ويكره التعصب ، ولذلك حزن شكيب ، وأخذ يدافع عن نفسه ، ويفند التهمة المفتراة ، وأصدر فى ذلك بيانات مختلفة (٢) .

والواقع أن الرجل قد لاقى من أعدائه وحساده والحاقدين عليه والمنافسين له والناقدين له متاعب جمة أضاعت عليه الكثيرَ من وقته ، ونغصت عليه حياته فى أوقات كثيرة ، وكان من الممكن له — ومن الخير لأمته ولغته — أن ينفق هذه الأوقاتَ فى البحث والكتابة ! .

وقد أرادت الحكومة السورية أن تعبِّر عن تقديرها لمكانة شكيب العلمية وجهوده فى سبيل وطنه ولغته ، وخدماته للعلم والبحث ، فاختارته رئيساً للمجمع

---

(١) مجلة الشباب ، الأعداد ٩ و ١٦ و ٢٣ يونيه ١٩٣٧ م .

(٢) انظر المرجع السابق ، أعداد شهرى يوليه وأغسطس ١٩٣٧ م .

العلمى العربى ، ولا شك أن هذا منصب يُرضى الأمير ويعجبه من الناحية الأدبية ، لأنه يعتز بالمجمع ذاته ، ويعتز بعضويته القديمة فيه ، ولذلك نراه يكتب لقب « عضو المجمع العلمى العربى » تحت اسمه على أغلفة الكثير من كتبه ، مثل كتاب تاريخ غزوات العرب ، وكتاب محاسن المساعى ، وكتابه عن السيد رشيد رضا ، وكتاب أناتول فرانس فى مباذله ، وكتاب الحلل السندسية .

ولكن فرنسة عادت بسرعة فتنكرت للمعاهدة التى عقدتها مع سورية سنة ١٩٣٦ ، فاعتذر شكيب عن عدم قبول الرياسة للمجمع ، إذ يجب أن يتفرغ للدفاع عن حرية بلاده الكاملة ، وترك بلادَه على الرغم منه ، وعاد إلى أوربة ليواصل كفاحه من أجل العروبة والإسلام .

• • •

وبمناسبة ذكر عضوية شكيب فى المجمع العلمى العربى ورياسته له نذكر أنه كان ثانى رئيس للجنة الجرمانية الأفغانية التى تألفت فى برلين سنة ١٩٢١ ، وذلك باعتبار أنه رئيس النادى الشرقى فى برلين حينئذ [١] ، وكذلك اختارته الجمعية الآسيوية الفرنسية عضواً فيها وهو فى صدر شبابه ، وانتخبه المؤتمر الإسلامى الكبير المنعقد فى مكة المكرمة أميناً عاماً لسره [٢] .

وكان شكيب يطوِّف ما يطوف فى رحاب الدنيا ، ويتنقل شرقاً وغرباً ، ولكنه كان ممنوعاً دخول مصر بسبب نفوذ الإنجليز فيها ، وسعى محمد محمود باشا لدى الملك فاروق فسمح له بزيارة مصر ، وجاء إليها فى أواخر فبراير سنة ١٩٣٩ م وقوبل بحماسة شديدة ، ولما سئل عن شعوره قال :

« لا جرم أنى جد ممرور بالإذن لى فى دخول مصر ، بعد مضى ٢٧ سنة

---

(١) مجلة الفتح ، عدد ٢٤ يناير ١٩٢٩ م .

(٢) مجلة الكتاب ، عدد فبراير ١٩٤٧ .

كنت فيها محروماً من ورودها ، وكان يعز علىّ هذا الحرمان الأليم من دخول مصر التى كتبت أول مقالة لى بمطالبة الإنجليز بالجلاء عنها تاريخها فى أغسطس ١٨٩٠ ، أى كنت أناضل عن استقلال هذا الوادى المقدس من ٤٩ سنة ، وما زالت حياتى منذ ذلك العهد البعيد سلسلة مجاهدات متصلة الحلقات غير محرومة — ولا فى يوم واحد — عن الشرق أجمع ، وبخاصة عن مصر التى هى كرسى الشرق ، إلى أن شاهدت بعينى تحقيقَ هذه الأمنية العظمى التى كنت أحلم بها ، وأنا لا أصدق كونى مدركها فى حياتى ، فإذا بى أحيا إلى أن أراها حقيقةً واقعة مبشرة بحقائق أخرى آخذ بعضها برقاب بعض فى إعادة شأن الشرق ، وتجديد مجد هذه الأمة ؛ أبلغها الله أقصى آمالها . . . » [1]

وفى يونيه سنة ١٩٣٩ قابل شكيب ملكَ مصر وأهدى إليه مؤلفاته [2] . وحدّث شكيب الملكَ عن الوحدة العربية كما حدث غيره ، وخطب وكتب فى ذلك ، ولما وجد شكيب فيما بعد أن مجلس النواب المصرى أثار فى مايو سنة ١٩٤٠ موضوعَ قضية فلسطين وسورية ، وطالب المجلسُ الحكومةَ بالتدخل لنصرة هذه القضية ، أبدى شكيب سرورَه بذلك ، واعتبره مقدمةً من مصر للدخول فى الحلف العربى [3] .

وكانت حكومة سورية قد أذنت لشكيب قبيل وصوله مصر بالعودة إلى سورية . ولكنه ما كاد يبلغ القاهرة فى سفرته هذه حتى سحبت الحكومة إذنها ، ولم يبلغ شكيب دياره [4] .

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ٨ مارس ١٩٣٩ .
(٢) جريدة العلم ، عدد ٧ يونيه ١٩٣٩ .
(٣) ذكرى الأمير ، ص ٢٢٩ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .

وفى يوم الخميس ١٣ يوليه ١٩٣٩ غادر شكيب مصر إلى سويسرة [١] ، بعد أن قضى فى مصر أكثر من أربعة أشهر .

وبعد زيارته هذه لمصر عادت حكومة سورية فدعته ليسافر إلى دمشق ، ويرأس المجمع العلمى العربى ، فرفض هذه الرياسة ذاكراً أنه قبل رياسة المجمع فى أول الأمر على أساس أن هناك معاهدة بين سورية وفرنسة ، ولكن فرنسة نكثت بعهدها ، وعادت تسلك مسلكها الاستعمارى فى سورية ، ولذلك هو يفضل العودة إلى سويسرة لاستئناف الجهاد .

• • •

عاد ليواصل كتابة مقالاته التى لا يتقاضى عليها أجراً ، إذ كان يكتبها مجاناً ، ما عدا خمسة آلاف صفحة من التآليف ، فإنه كان يبيعها لأصحاب المطابع ، ولكنه سوّد ثلاثين ألف صفحة من المقالات بلا أجر ، وكان فوق هذا يؤدى أجرة البريد من ماله .

ويذكر شكيب أن الأستاذ يعقوب صروف كتب إليه حوالى سنة ١٩٠٠ يقترح عليه أن يراسل (المقتطف) ، على أن يقدم له شيئاً من المال فى مقابل تعبه ، فأجابه شكيب : « إننى وجدت لك فلاناً وفلاناً » ، وعدّ له فريقاً من الأدباء هم مستعدون للمراسلة ، على أن يكون لهم بدل الصفحة كذا ، وقال : « فأما أنا فاست آخذ شيئاً على مراسلة المقتطف ، وإنما أخدم بذلك العلم » [٢] .

ولما نقلت صحيفة « كوكب الشرق » مقالا لشكيب كان منشوراً فى جريدة « الشورى » ، واعتبر الأستاذ حسين شفيق المصرى هذا العمل سرقة ، كتب شكيب يعارضه ، وقال إنه يتمنى مثلَ هذا العمل ، وإن لفاعله الفضل ؛ ثم يقول :

---

(١) جريدة العلم ، عدد ١٩ يوليه ١٩٣٩ .

(٢) عروة الاتحاد ، ص ٧ .

نحن نخربش بعض هذه المقالات قياما بواجب وطني نعتقد فرضا علينا القيام به.
فأي جريدة اختارت نشر ما نكتب فقد أوسعت دائرة النشر، وكأنها آزرت
على القيام بهذا الواجب الوطني أو الإنسان، وعليه يجب لها الشكر".

ونلاحظ أن الأمير كان يذيل أغلب مقالاته بتاريخ كتابتها، بجوار توقيعه،
ويظهر أنه كان يتعمد هذا لأنه يريد أن يحدد الظرفَ الذي كتب فيه المقال، حتى
يفهمه قارئه في ضوء هذا الظرف، لأن الأمور تتبدل، والأحداث تتوالى
وما تحسن كتابته في وقت تسوء كتابته في وقت آخر.

وقد يؤيد هذا الاستنتاج أن أغلب هذه المقالات المذيلة بالتاريخ هي من
المقالات السياسية أو الاجتماعية المتعلقة بأحداث وزمان ومكان وأشخاص
ونحو ذلك.

• • •

أحواله المالية والصحية :

ولم تكن أيام شكيب فى أوربة مريحة من الناحية المادية أو المعاشية ؛
والدكتور الطيب الناصر يذكر أن الأمير كان يتعرض لأزمات اقتصادية ، ومع
ذلك كان يتظاهر بالثراء إباء وشمماً ، وكان أحيانا لا يستطيع دفع ثمن القهوة حيث
يجلس ليتصفح صحف العالم فى سويسرة ، وكتب ذات يوم برقية يفند فيها مزاعم
زعمها « بيتان » السياسى الفرنسى بشأن سورية ولبنان ، ولم يجد ثمن إرسال البرقية.
وفى سنة ١٩٤٢ كتب إلى صديقه الحاج أمين الحسينى المقيم حينئذ بألمانية يرجوه
أن يتوسط لدى حكومة ألمانية حتى تسمح له ولو بنصف إيجار المنزل الذى يملكه
شكيب فى برلين لحاجته إلى المال [١].

---

(١) ذكرى الأمير شكيب، ص٤٨،و٤٩، والسبب في رجاء التوسط هو أن الألمان
كانوا حينئذ يحرمون إخراج النقود من بلادهم؛ ولذلك لم ينل شكيب ماركا واحدا، ومع ذلك
اتهمته إذاعة فرنسة بأن هتلر منحه لقب " ابن برلين "، وذلك لتحطيم سمعته في بلاده، انظر:
محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان، ص٢٣

وقد تحدث شكيب عن ضوائقه المالية أكثر من مرة فى رسائله إلى صديقه السيد رشيد رضا ، ففى رسالة مخطوطة بين يدىّ ، ليس بها تاريخ ، ولكن يظهر أنها كتبت عام ١٩٣١ أو ١٩٣٢ من جنيف ، يقول شكيب : « حالتى المعيشية أصبحت لا تطاق ، أنزلنا مصروفنا الشهرى من ٣٠٠٠ فرنك سويسرى — نحو ١٢٠ جنيهاً — إلى ألف فرنك ، وهذا غاية ما نقدر أن نقتصد ، وهذه الألف يجوز أن نحصل عليها فى الشهر ، لكنى مديون بسبعمائة جنيه ، والمطالبات علىّ مستمرة ، والباقى لى من المزرعة غير متحصل ، والبيت الذى لى ببرلين مرهون تحت ٦٥ ألف مارك ، ولكنه إذا طُرح للبيع لا يشريه أحد بأكثر من قيمة الرهن ، لأن الأزمة أنزلت أثمانَ الأملاك كثيراً .

ورطل الزيت كنا نبيعه من ٤ أو ٥ سنوات بعشرين قرشاً ، فنزل إلى سبعة قروش ، وكانت تأتينا إيرادات كلها نزلت ، ومساعدات كلها وقفت ، وأغلى بلاد أوربة اليوم سويسرة » .

ويقول فى الرسالة :إنه يود الرجوع إلى وطنه : سورية أو فلسطين ، لأن المعيشة فيهما أرخص بكثير ، ويقول إنه صار ابن ثنتين وستين سنة ، ويجب أن يفكر فى الموت وفى أولاده وفيما سيتركه لهم ، وإنه لو مات فإن أهل سورية لن يساعدوا أولاده وإن « التحمل والتجمل بلغا الأمد الأقصى ، وكل شىء بلغ الحد انتهى » ! .

وفى رسالة مخطوطة بين يدىّ بتاريخ ١١ رمضان ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م نجد الأمير على الرغم من فقره وكثرة مطالبه يرسل إلى صديقه السيد رشيد رضا بمائة جنيه ليطبع بها رشيد كتابه « التفسير المختصر » ويقول له : « طيه تحويل بمائة جنيه منى ، إن تيسر لك إعادتها لى فى يوم من الأيام فذاك ، وإن لم يتيسر فهى حلال زلال لك ، وإن لم أساعدك أنا فى لأواء كهذه فما فائدة الصداقة » ؟ .

ثم يقول شكيب واصفاً ظروفه المالية :

« ووالله الذى لا إله إلا هو ليس عندى فضلة ، بل علىَّ دَيْن ، والدَّين ٦٠ ألف مارك ، أى ثلاثة آلاف جنيه ذهب ، مرهون تحتها عندى بيت فى برلين ، كنا نرجو قبل الأزمة الحاضرة أن نبيعه بمقدار هذا الدَّين أو بأكثر قليلا ، فجاءت هذه الأزمة فسقطت أثمان البيوت ، فصار إذا بيع لا يأتى بالثلاثة الآلاف جنيه ، بل ينكسر علينا بالأقل ١٠ آلاف مارك ، أى ٦٠٠ جنيه . ولما اشتدت الأزمة ، وكان الرهن مستحقاً قام المرتهن بطلب دَينه ويلح وينذر .

وأنَّى لنا بالمجيء بثلاثمائة فضلا عن ثلاثة آلاف ؟ . فأسرعنا بالذهاب إلى برلين ، وبقينا ليالى لا ننام إلا غِرَاراً [1] ، أقسم بالله منها ليلة ما رقدت فيها ولا لحظة . إن بعت البيت — وأى بيت ؟ ٢١ مسكناً منها ثمانية كل واحد خمسة محلات ، و ٣ كل واحد ثلاثة محلات ، ودخله السنوى ١٤ ألف و ٤٠٠ مارك ندفع منها الضرائب والترميمات ؛ وفائض الـ ٦٥ ألف مارك ويبقى شيء — خسرنا مستقبله ، ولا تكفى خسارة البيت حتى ندفع ٥٠٠ جنيه لإكمال دفع الدَّيْن .

وإن حفظنا البيت فكيف نسكت الدائن المرتهن ، وبدل رهنه مستحق الدفع ؟ ثم الخمسمائة جنيه ، كيف أجدها بدون بيع زيتون فى الشويفات ، وأثمان الأملاك الآن نصف عما كانت ؟ فالأرق لم يكن بدون سبب .

ولكن الله فرَّج ، رضى المرتهن بأن يستمر على قبض الفوائد عن دينه بمعدل ٦ فى المائة ، وذلك من ريع البيت مثل ذى قبل ، ولكن بشرط أن نستهلك من رأس المال نحواً من ١٣ ألف مارك . والمارك الآن محصور فى ألمانيا لايخرج Blojié فيمكن شراء مائة مارك محصور بأربعين فرنكا سويسرياً ،

---

(١) الغرار : القليل من النوم .

فى هذه الجهة تكون الأزمة نفعتنا ، لأننا نقدر أن نشترى الثلاثة عشر ألف مارك بأكثر قليلا من ٥٠٠٠ فرنك سويسرى أى ٣٥٠ جنيهاً ، وهذه والحمد لله موجودة ، ولو وجدأكثر منها لفككنا البيت كله ، لأننا نكون وفينا الثلاثة آلاف جنيه ذهب بألف وثلاثمائة جنيه .

لكن أين هذا المبلغ ؟ . ولولا لطف الله الخفى لم توجد هذه الثلاثمائة والخمسون جنيها التى سندفع بها سدس الدَّين . وبعد دفع ربع الدَّين ينزل مجموع الفائض ، فيبقى لنا صافياً من ريع البيت نحو ألفى مارك — نعم مارك محصور ! — ونحن اليوم لا يهمنا إلا سكوت الدائن عن طلب كل رأس المال ، وقد فعل واكتفى بأخذ فوائد دينه وسدس رأس المال ، فهذه قضية سفرى إلى برلين » .

وهكذا مضى شكيب فى حياته ، يتعرض للدين وللضيق ولقبض اليد بسبب الحاجة ، وعاش مع أسرته عيشاً رقيقا متواضعا ، فى بيت متواضع ، « ومع ذلك كانت نفسه رفيعة أبيَّة ، تأبى الذل والضعة ، والمال الأجنبى ، وتتظاهر بالغنى والثراء » [١] .

* * *

وأخذت صحة شكيب تضعف ، فعيناه تتحرقان بسبب الإجهاد الموصول فى القراءة والكتابة والتنقيب والمراجعة ، ومرضُ الكلى يغاديه ويراوحه ، وتصلبُ الشرايين يزيده مرضاً على مرض ، والشيخوخة التى أقبلت بكلاكلها وزلازلها ، والشعور بدنوّ الأجل فى دار الغربة ، والإحساس بالتبعة نحو الأولاد الذين نشأوا فى ديار أوربية ، وهو يريدهم عرباً فى بيئة عربية . .

كل هذه البلايا زادته سقماً على سقم ، حتى اضطر إلى الاستعانة بكُتَّاب

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٢٣ .

يملى عليهم رسائله الإخوانية ومقالاته السياسية والعلمية ، وقد بدأت هذه الاستعانة وشكيب فى نحو السابعة والخمسين من عمره [(١)] .

وفى السنوات الأخيرة كانت الكتابة تصعب عليه بخط يده ، فاتخذ له كاتباً يعطيه فى الشهر عشرة جنيهات إنكليزية [(٢)] ، وهو الأستاذ محمود عبد الصمد (اللبنانى) [(٣)] وهو من أدباء منطقة الشوف .

كما ذكر لى الأستاذ محمد على الطاهر أن الأمير استعان أيضاً فى الكتابة بالدكتور سيد الجاحر من بلدة طما بصعيد مصر ، وكان يطلب العلم حينذاك فى جنيف ، لأن الطبيب منع شكيب الكتابة بسبب ضعف البصر وارتعاش اليد .

وقد أطلعنى الأستاذ أحمد محمد نعمان اليمنى على رسالة خطية من شكيب إليه بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م وفيها يقول له شكيب :

« أكون مسروراً يا ولدى إذا جئت لمعاونتى فى الكتابة ، نظراً لكثرة أشغالى ، واحتياجى إلى سكرتير ، وكون كاتب يدى فى هذه السنة تأخر فى لبنان ، فمتى وصلكم كتابى هذا فأزمعوا الرحلة ، وأقدموا علىَّ موفقين مسددين إن شاء الله ؛ وأنا هنا أؤدى لكم عشرة جنيهات فى الشهر ، وهى كافية لمصروفكم فى جنيف ، وقد كان فى نيتى الاستعانة بكم عند ما عزمت الذهاب إلى مصر ، لكن هذه العزيمة تأجلت الآن لأسباب ليس هنا موضعها ، فلم يبق إلا أن تحضروا إلى هنا ، والله يجمعنا بكم على أحسن حال » .

العودة إلى الوطن :

وانتهت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، وتقلص ظل فرنسة عن سورية ، وزال شبحها الاستعمارى السمج عن أرض الشام ، واستبد بشكيب الحنين

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) عروة الاتحاد ، ص ٧ .

(٣) ذكرت ذلك زوجة شكيب .

إلى وطنه ، والشوق إلى داره ، وتمنى لو طار إليها من أول يوم زال عنها فيه كابوس الاستعمار الفرنسي ، ولكنه كان مثقلا بالديون ، فجعل يحاول ليبرىء ذمته مما لزمها ، وفي أثناء ذلك أرسل أمتعته وأوراقه إلى لبنان ، وفي يوم ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٦ بلغ شكيب بيروت ، بعد أن مرّ على الإسكندرية يوم ٢٨ أكتوبر ، ومنعته السلطات المصرية النزول من الباخرة ، وكان معه أخوه الأمير عادل .

وعاد الغريب إلى داره بعد أكثر من ربع قرن قضاه بعيداً عن وطنه ، مجاهداً في سبيل عروبته وإسلامه ، مدافعاً عن قومه بقلمه ولسانه ، بالعربية والتركية والفرنسية ، وهي اللغات التي كان يتقنها شكيب مع معرفة للألمانية لم يبلغ فيها مراده [١] .

عاد الغريب فرأى قومه وداره وأسرته ، وحظي بلقاء أمه « السيدة الوالدة » ، وعمرها حينئذ قد زاد على المئة ، وسعد بمشاهدة وطنه حراً مستقلا طليقاً من أغلال الاحتلال والاستبداد ، واستقبله قومه بالتجلة والتكريم ، وأقيمت باسمه وعلى شرفه حفلات ومآدب واجتماعات ، واشترك في تكريمه الشعب والحكومة .

ولكن المرض يزيد ، فهذا شيء من النقرس في رِجْل شكيب يضاف إلى تصلب الشرايين ، والرمل في الكليتين ، ووهن الشيخوخة ... فلا تطول مقاومة شكيب لكل هذه الأوجاع أكثر مما طالت ، وقد زاد على الثمانين .

وقد أحس شكيب بدنو أجله قبل موته بأيام ، ويحدثنا الأستاذ عبد الله المشنوق أنه التقى بالأمير في دار آل الفندور ببيروت ، وكان الأمير مجهداً ، وقد ترك الفراش على الرغم من أمر الطبيب له بعدم مغادرته ، وسأله المشنوق عن

---

(١) ذكرى الأمير ، ص ٣٤٨ .

مذكراته ، وهل سجلها ، فأجابه الأمير بأنه ممنوع من الكتابة ، ويده لا تقوى على إمساك القلم لخطِّ كلمة واحدة .

فقال له : أنت تملى علىَّ وأنا أكتب .

فأجاب الأمير وهو يبتسم فى مرارة : وهل أقوى على الحديث وهو يتطلب جمع الأفكار وحصرها وتنسيقها ، وهذا ليس فى استطاعتى ؟ .

فقال المشنوق : « ولكن حرام أن يحرم العالم العربى وهو على عتبة نهضته الجديدة خلاصةَ تجاربكم واختباراتكم السياسية طوال ستين عاماً من الجهاد فى سبيل العروبة .

فصمت الأمير قليلا وتطلع إلى ما حوله ، وقال :

« إنى مريض ، وأشعر بدنو الأجل ، وأنا أحمد الله عزّ وجل الذى سهل لى أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذى أحببته ، وقاسيت من أجله التشريد والنفى والاضطهاد . أجل سأموت هنا قريرَ العين ناعم البال ، فتختلط رفاتى بتربة هذا الوطن ، بعد أن أتم الله نعمته علىَّ ، فشهدته سيداً حراً عزيزاً . أنا سعيد أن أُدفن فى تربة طاهرة لا ترفرف فوقها راية أجنبية ، وأنا سعيد أن ألاقى وجه ربى الكريم ، فأعيد هذه الأمانة إلى بارئها ، بعد أن تحققت أحلام طفولتى فى هذه الجامعة العربية حرسها الله ، وسأخبر رفاقى فى الجهاد بأن تضحياتهم لم تكن عبثاً » .

وتحدرت من عينى الأمير دمعتان ، ونهض واقفاً ، وجذب يد محدثه قائلا له : « لى وصية واحدة أود أن أوصى بها ، فهل تعدنى بأن تنقلها إلى العالم العربى بعد وفاتى » ؟ .

فأجابه : « لك العمر الطويل إن شاء الله » !

فقال شكيب : « لا ، بل تعدنى بنقل الوصية » .

فأجاب المشنوق : نعم .

وهنا طوقه شكيب بذراعيه المرتجفتين ، وقال بصوت كادت تخنقه العبرات :
« أوصيكم بفلسطين [١] » .

* * *

ويقص علينا الأمير عادل شقيق شكيب قصةَ أيامه الأخيرة ، فيقول : « إنه جاء معي من مرسيليا في أواخر تشرين الأول ، وهو متعب يستبطىء سير الباخرة شوقاً إلى الوطن ، فلما أقبلنا على بيروت ظهر عليه سرور شديد ، ثم توالى ورود الزائرين والمسلّمين شهراً كاملا ، فكان يستقبل المئــات منهم في كل يوم ، ويحادثهم ثم يرافقهم إلى الباب برغم التعب الظاهر عليه ، فلما طال الأمر نصحتُ له ونصح له الأطباء بالتزام الراحة فلم يقبل .

وكان يجيب : إن رؤيتي هذا الوطن حراً مستقلا ، وهذه الأمــة العربية متحدة هي ما كنت أصبو إليه وأعيش لأجله ، فلا يهمني بعد الآن طال عمري أم لم يطل ! .

وظل هــكذا يزار ويزار حتى اشتد عليه تصلب الشرايين ، وانتهى إلى حدوث نزيف في شرايين الدماغ ، على أثر إجهاد نفسه بالرد على رسائل كثيرة ، فلم يستطع الطبُّ الحيلولةَ دون قضاء الله الذي لا رادَّ له ، وكانت وصاته الأخيرة :
« لا تنسوا فلسطين [٢] » .

ويظهر أن المرض قد استبد به عقب وصوله بوقت قصير ، لأنه بعد عودته بيومين شعر بتعب في جسمه فلزم الفراش . وأحضر له شقيقه عادل ممرضةً تشرف عليه وهو في داره ببيروت ، ونصحته بأن لا يبدي حراكا في فراشه ، ولــكنه غافلها قبيل

---

(١) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٦٨ و ٦٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

مونه ونزل من السرير ، فلم يقو على الوقوف ، فهوى إلى الأرض ، وأسرعوا إليه وأعادوه إلى فراشه ، ولكنه أصيب بفالج نصفى توقف معه لسانه عن الكلام[١] .

وأصيب خلال ذلك بنوبة قلبية شديدة استمرت أربعة أيام متوالية ، وكان حوله والدته وشقيقه عادل ولفيف من الأطباء[٢] ، وظل شكيب هذه الأيام الأربعة فى شبه غيبوبة ، واستعصى الداء على الأطباء .

وعجزت يد البشر ، وأقبلت يد القدر ، فلفظ شكيب آخر أنفاسه ليلة الاثنين ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٦ هـ — ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦م[٣] .

مات ولم يترك خلفه — كما قالت لى السيدة زوجته — سوى كتبه وأوراقه ، وبعض زيتونات فى قطعة أرض ، وبيته فى برلين ، ونصيبه فى بيت أسرته المشترك بينه وبين إخوته .

واهتزت بيروت ومن حولها القرى والبلدان بموت شكيب ، فهؤلاء أمراء آل أرسلان يهرعون إلى جثمانه ليلقوا عليه نظرات الوداع ، وهؤلاء محبوه وعارفوه يسمون فوجاً بعد فوج معزين باكين ، وهذه أسلاك البرق ترتجف وهى تبث نبأ وفاته فى بلاد العروبة والإسلام .

وفى ضحى اليوم التالى (١٠ ديسمبر ١٩٤٦م) نُقل جثمان شكيب إلى الجامع العمرى ببيروت فى موكب حاشد ، وبعد أن صلوا عليه استأنف الموكب الضخم سيره إلى المتحف الوطنى ، تتقدمه فرق الجيش والدرك ووفود الهيئات والطلاب ، وفى صدر الموكب رئيس جمهورية لبنان الشيخ بشارة الخورى الذى ترقرق الدمع فى عينيه ، ولعله كان يذكر حينئذ أن الأمير الأرسلانى سعى فى إنقاذ والده «خليل الخورى» وإعادته

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨١ و ١٨٢ .
(٢) جريدة الأهرام ، ١٠ ديسمبر ١٩٤٦ .
(٣) ذكرى الأمير ، ص ٨٧ و ٨٨ و ٣٤٨ .

من منفاه فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقابل الشيخ بشارة الجبل بالجبل ، فسعى بعد ثلاثين عاماً من صنيع شكيب وبذل جهده ليعود الأمير إلى لبنان . وحضر وفد من وزراء سورية للتعزية باسم الدولة السورية وباسم السيد شكرى القوتلى .

وفى ساحة المتحف تقبل آل أرسلان العزاء ، وألقيت الخطب التأبينية ، ثم نقل الجثمان فى موكب عظيم إلى مسقط رأس شكيب « الشويفات » ، حيث قام مشايخ عقل الدروز بالصلاة عليه ، وأبنه ممثلو مناطق الجبل بحضور وفود من أقضية الشوف ، والمتن ، وكسروان ، والجنوب ، وجبل الدروز . ثم دفن شكيب فى مدفن خاص قرب مدافن أسرته غير بعيد من دارها [1] .

وأقيمت لتأبين شكيب حفلات كثيرة فى بلاد العروبة والإسلام ، ولعل أبرزها الحفلة التى أقيمت بالقاهرة فى دار الأوبرا يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول ١٣٦٦ هـ — ٧ فبراير ١٩٤٧ ، وأذيعت بالمذياع ، وخطب فيها الأساتذة : محمد على علوبة ، وعزيز عزت ، وتحسين العسكرى ، وسامى الخورى ، وإبراهيم دسوقى أباظة ، ومحمد أحمد ابن عبود ، ومحمد زين حسن ، وخليل مطران ، وعلى محمود طه .

ومن قصيدة خليل مطران فى « شكيب » هذه الأبيات المختارة :

لهفى على الخِدْن النبيل ، وعهده ... منذ التعارف كان فوق الذَّامِ [2]

لم أُلفه فى العيش إلا نابها ... يرنوا إلى الدنيا بطرف سام

ماذا بلوتُ من الشمائل حلوة ... فيه ، ومن صدق ورعى ذمام

ولىٌّ إمام المنشئين ، وكان فى ... تجديدِ شأن الضاد أىَّ إمام

فكأنها والعصر ليس بعصرها ... ردت عليه نضارة الأيام

ولى أخو الأفذاذ من شعرائها ... فى جاهليتها وفى الإسلام

---

(١) جريدة الأهرام — ١١ ديسمبر ١٩٤٦ .

(٢) الذام : (بتشديد الميم وبتخفيفها) : العيب (لسان العرب) .

جارى الفحولَ ولم يقصر عنهم في حلبة الإفصاح والإحكام
شتان بين الشاعر المطبوع فى إبداعه واللاقط النظام !

ومن قصيدة على محمود طه فيه هذه الأبيات المختارة :

يطوى الثمانين الوضاء مليئة بمواكب للذكريات ضخام
وجلائل للمأثرات موائل وجحافل للحادثات جسام
هيهات ، ما نالت على إرهاقها من قلبه ، فى نضرة ووسام
هيهات ، ما أوهت قواه ، ولا ثنت من خطوه عن غاية ومرام
هيهات ، ما شابت بمرٍّ مذاقها فيه حلاوةَ روحه البسام
طلق الجبين على ندىً شمائل كالفجر بين أشعة وغمام
يابن الإمارة ، نافضاً من إرثها يده لنصرة مبدأ وذمام
يأبى يراعك أن يفارق راحة خُلقت لرد تحية وسلام !

وقد جمع الأستاذ محمد على الطاهر ما قيل فى حفلات تأبين شكيب ، وما نشرته الصحف والمجلات للأدباء والشعراء وأصدقاء شكيب عنه وعن حياته ، وطبع ذلك فى كتاب « ذكرى الأمير شكيب أرسلان » فيما يزيد عن خمسمائة صفحة ، وفيه معلومات كثيرة تتعلق بشكيب وجهاده .

زوجة شكيب وأولاده

من عادة آل أرسلان — كما سمعتُ من زوجة شكيب — أن يتزوجوا من أسرتهم ، فإذا لم يتزوجوا منها تزوجوا من الشراكسة ، أو من أسرة الشهابي اللبنانية ، وشطر هذه الأسرة مسيحي ، وشطرها الآخر مسلم .

ولم يُرد شكيب أن يتزوج من أسرته ، بل طمحت نفسه إلى الزواج من فتاة شركسية ، فعرض تلك الرغبة على « متصرف الكرك » وهو في اسطنبول ، وكانت الآنسة « سليمى » — التي تزوجها شكيب — مقيمة مع والدها القفقاسي الأصل « الخاص بك حاتوغو » في بلدة « الصلت » بشرق الأردن ، ولما ماتت أم الفتاة رحل الوالد بابنته « سليمى » يريد العودة إلى قفقاسية ، وفي الطريق نزلا في اسطنبول ، وكانت للوالد صداقة بمتصرف الكرك السابق الذكر ، فتلاقيا معه على مائدة غداء ، حضرها شكيب ، وكان المتصرف يريد أن يُرِيَ شكيب الفتاةَ ليبدى فيها رأيه دون أن تعلم .

وأعجب شكيب بسليمى وكانت سنها حول العشرين ، وهو قد تجاوز الأربعين ، وخطبها ، وظلت مخطوبة له حيناً من الزمن ، ثم تزوج بها في بيروت سنة ١٩١٦ م بعد مأساة المشانق التي أقامها جمال باشا السفاح — كما ذكرت سليمى .

وقد أطلعتني السيدة زوجة شكيب [1] على جواز سفرها ، فإذا اسمها فيه

---

(١) قابلتها أول مرة في القاهرة ٣ أكتوبر ١٩٥٤م؛ فإذا هي سيدة في نحو الستين، وهي وسيمة برغم شيخوختها نحيلة شقراء، عسلية العينين، شعرها بين الأحمر والأبيض، دقيقة الأطراف، معبرة الملامح، تميل إلى الطول وقد أهدتني صورة لها مع ابنها غالب وهي في شبابها، وكتبت عليها العبارة التالية:

" هدية إلى الصديق العالم الشيخ أحمد الشرباصي، مع وافر التقدير: سلمى أرسلان حرم المرحوم الأمير شكيب أرسلان" وتاريخ الإهداء ١٨ نوفمبر ١٩٥٤م، والمعلومات المذكورة هنا منقولة عنها .

« السيدة سليمى بنت الخاص بك » ، وقالت لى إن اسمها فى الأصل هو « سلمية »
ولكن الأمير كان يناديها « سليمى » وغلب عليها الاسم الأخير .

والجواز المذكور صادر من المملكة العربية السعودية ، لأن السيدة الآن سعودية الجنسية ، وهو بتاريخ ٦ من المحرم ١٣٥٩ هـ — ١٤ فبراير ١٩٤٠م (من القنصلية السعودية بمصر) وهو جواز مزدوج « ملىء » بالتأشيرات الدالة على كثرة التنقلات .

وقد ذكرت لى السيدة الجليلة أنها ولدت فى قفقاسية فى جنوب روسية من أمراء الشراكسة ، من بيت « الخاص حانوغو » وتاريخ ميلادها حسب ما فى الجواز هو عام ١٣١٦ هـ — ١٨٩٨ م وكانت صغيرة حينما خرجت من قفقاسية مهاجرة مع أبيها إلى شرق الأردن ، وذلك بسبب تمسك والدها بإسلامه ، مما عرضه لاضطهاد الروس فى قفقاسية ، ونزلت مع والدها فى بلدة « الصلت » على مسافة من « عمان » .

وقد تزوجت سليمى بشكيب وهى — كما قالت — لا تعرف العربية ، وإنما كانت تعرف التركية فقط ، ولكنها تعلمت العربية من زوجها ، وكانت على وفاق مع زوجها فى أغلب الأحيان ، لأنه كان يحبها وكانت تحبه ، وقد أهدى إليها كتابا مخطوطا لم ينشر . وقد سألتها : ألم يقل فيك الأمير شعراً ؟ فقالت : لا . وقد تنقلت معه شرقا وغربا خلال جهاده الطويل .

وكان شكيب يحرص على شعورها ويترضاها ، وقد ذكرت لى من قبيل ذلك أنه لما سافر إلى الحجاز سنة ١٩٣٤ عرض عليه الملك عبد العزيز آل سعود أن يرسل إليه جارية فرفض قائلا : « إننى متزوج ، وأنا أحب زوجتى ، وفوق هذا فإن زوجتى تغضب علىَّ إذا عرفت » . ولما عاد شكيب قصَّ القصة على زوجته .

وقد رزق شكيب من زوجته أولا بابنه « غالب » — أو محمد غالب — ولذلك كان أصدقاء شكيب ومعارفه يقولون له : « أبو غالب » ، وقد ولد غالب بلبنان في بلدة « عاليه » قبل رحلة أبيه الطويلة إلى أوروبة ، ثم رزق بابنته « مي » التي ولدت في جنيف ، وقد تزوجت بالسياسي اللبناني المعروف كمال جنبلاط ، ثم رزق شكيب بابنته « ناظمة » ، وقد ولدت أيضاً في جنيف ، وظلت بعد وفاة أبيها في سويسرة إلى سنة ١٩٥٢ ، ثم عادت إلى لبنان ، وتغلب على الجميع الصبغة الأوربية في الحديث وفي التفكير .

وهذا ما كان يخشاه شكيب ، إذ كان يحرص الحرص كله على تربية أولاده تربية عربية إسلامية في اللغة والثقافة والعادات والتقاليد .

* * *

وكان لشكيب في سويسرة خادمة تسمى « خضرة » بنت خالد بجبوح ، وهي فتاة عربية من بلدة « النبك » بسورية ، وقد أخذها الأمير صغيرة ورباها وأحسن معاملتها ، وكانت تطهى له ألوانا من الطعام يحبها ومنها « الكبيبة » .

وفي يوم سفر الأمير إلى الحجاز من جنيف مساء ١٤ مايو ١٩٣٧ خرجت « خضرة » إلى المحطة لوداعه ، وكانت في نحو الثلاثين من عمرها ، وبينما كان القطار يجرب السير ظنت خضرة أنه قد بدأ رحلته ، وكانت بداخل القطار فسارعت بالنزول ، فزلقت قدمها فوقعت تحت القطار فماتت ، فحزن الأمير عليها حزنا شديدا ، وأجل سفره ، وفي اليوم التالي أقام لها مأتما كبيرا حضره العظماء . وقد رثاها شكيب بمقال طويل ظهر افتتاحية لمجلة الشباب ، وفيه يصور شكيب الحادث تصويراً مثيراً أخاذاً ، ويبين كيف عاشت خضرة معهم اثنين وعشرين عاماً ، وكيف لقيت مصيرعها ، وكيف صلى عليها ، وسار في جنازتها وزراء وسفراء

وجم غفير من الشرقيين والأوربيين ، وكيف كانت روحاً زكية طاهرة نقية ، أمينة مخلصة ، متقنة مدبرة ... إلخ[1].

* * *

هذه حياة شكيب ، في إيجاز ، إذ لو أراد كاتب أن يكتبها على وجه التفصيل لكتب أضعاف ما كتبت .

ونستطيع أن نقسم حياة شكيب إلى مرحلتين بارزتين : الأولى تبدأ من ميلاده سنة ١٨٦٩ وتنتهي بانتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ .

والمرحلة الأخرى تبدأ عقب انتهاء تلك الحرب . وتستمر إلى سنة ١٩٤٦ حيث كان أجل شكيب قد انتهى .

وإذا لاحظنا أن نهاية كل مرحلة من هاتين المرحلتين قد اقترنت بانتهاء حرب عالمية ، فإننا نستطيع أن نلاحظ أيضا أن كل مرحلة فيهما قد اقترنت عند شكيب بتحول واضح في حياته ونتيجة بارزة في طريقه . فالمرحلة الأولى انتهت بانتقاله من مجال عثماني إسلامي ، إلى مجال عربي إسلامي ، والمرحلة الأخرى انتهت بمشاهدته لبلاده حرة مستقلة ، وبانتهاء حياته الطويلة وانتقاله إلى الرفيق الأعلى .

وقد مرت حياته بمراحل ، فهو يبدأ صبياً يتعلم ، ثم يحاول الإسهام في الشعر والأدب لإظهار النفس وإثبات الذات ، فيكون من وراء ذلك ديوانه « الباكورة » ، ثم تسيطر عليه الفكرة الإسلامية مع النزعة العثمانية الممثلة للخلافة رسمياً ، وذلك بعد أن تأثر بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ثم تتضح هذه النزعة بتوسع خلال الحرب العالمية الأولى .

ولكنه بعد انتهاء الحرب ، وبعد تمزيق العالم العربي ، وبعد ضياع عرش الخلافة

---

(١) مجلة الشباب . عدد ٢٦ مايو ١٩٣٧ . مقال « خضراء الشهيدة » .

وبعد إلحاد الكماليين انقلب ضد الأتراك ، وأخذ فى شعره وكتابته يحاول التوفيق بين العروبة والإسلام .

ثم شغل نفسه بقضايا وطنه وقومه السياسية ، فجاهد فى سبيل سورية ولبنان وفلسطين وبقية البلاد العربية والإسلامية ، فكانت المذكرات ، والبيانات ، والنداءات ، والمقالات ، والبحوث ، والرحلات ، والمؤتمرات .

وبعد موت أخيه نسيب ، وإحساسه بالألم العميق لفقده ، تزيد عنايته بالعكوف على البحث والتأليف — وهو ما زال يعمل للجمع بين العروبة والإسلام — فتكون منه كتبه التاريخية والإسلامية المختلفة .

ويظل مناضلاً مكافحاً حتى يلحق بربه عز وجل .

الباب الثالث

شكيب الناثر

— كتابة شكيب

— رجال أثروا فى أسلوبه

— مصادر ثقافته

— السجع عند شكيب

— ترسل شكيب

— الجملة القرآنية

— جلجلة العبارة

— طريقته فى التأليف

— التكرار والإسهاب

— المعنى عند شكيب

— لقب أمير البيان

كتابة شكيب

وُلِد شكيب كما عرفنا سنة ١٨٦٩ م ومات سنة ١٩٤٦ ، فيكون قد عاش سبعة وسبعين عاما . وقد نشر أول مقال له فى جريدة « الصفاء » وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فيكون قد قضى ستين عاما وهو يكتب النثر ، وينظم الشعر ، ويؤلف الكتب ، ويسطر الرسائل ، ويدبج المقالات ، ويلقى الخطب .

وكان مع طول هذه المدة مكثارا ، حتى قال عنه خليل مطران : « ولو تفرغت طائفة من حملة الأقلام جمٍّ عديدها ، فياضة قرائحها ، فيما يشاء الله من مسائل السياسة والاجتماع والأدب ، ومباحث التاريخ والأخلاق ، لكتابة ما كتب من تلك الفصول والمقالات ، لتعذر عليها أن تأتى مجتمعة بما أتى به ذلك العَلَم المُفْرَد[١] » .

ولقد طرق شكيب فى كتابته كثيراً من الفنون والأغراض ، فكتب فى السياسة ، والأدب ، والتاريخ ، والفلسفة ، والاجتماع ، والنقد ، والاقتصاد ، والترجمة ، والشرح ، والتعليق ، والتحقيق ، علاوة على الشعر .

وكان شكيب نفسه يدرك ضخامةَ نتاجه الأدبى ، ويفاخر به أحيانا ، كأن يقول فى رسالة منه إلى أحمد حافظ عوض بتاريخ ٣ صفر سنة ١٣٥٦هـ — ١٩٣٧ م :

« وكيف لا أكون من أقدم الموقظين أو أقدمهم وأنا أكتب من ٥٢ سنة بدون انقطاع ، حتى إنه لو قرأ قارئ كتاباتى تلك ، وقرأ ما أكتبه اليوم ، ظن الذى يكتب اليوم هو شكيب أرسلان حفيد شكيب أرسلان الأول ، سماه أبوه على اسم جده ، والحال أنى حفيد نفسى »[٢] .

---

(١) ديوان شكيب أرسلان ، المقدمة ، ص (ح) .

(٢) مجلة الشباب ، عدد ١٢ مايو سنة ١٩٣٧ .

وقد بدأ شكيب ينظم الشعر ويلقيه وينشره قبل أن يجيد الكتابة النثرية ، بدليل أنه نظم الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره [1] ، بينما نشر أول مقالة وهو فى السادسة عشرة ، وقد نشر ديوانه الأول « با كورة » سنة ١٨٨٧ م متضمنا شعره الذى قاله بين سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٧ ، فبدأ بديوان منظوم ، ولم يبدأ بكتاب منثور .

ولكن الأمير الفتى تحول من الشعر إلى النثر ، بعد أن توسم مطالعو ديوانه « با كورة » أن ناظمه — كما يقول خليل مطران — « يرقى حثيثاً إلى مقام لا يرام بين شعراء العربية ، ولو ظل الأمير معنياً بذاك الفن الرفيع لصدّق فيه ما ظنوه كل الصدق ، غير أن شأناً آخر من الشئون الضخام صرفه وشيكا عن الهيام فى مسابح الخيال ، والضرب فى آفاقه الأنيقة ، إلى منازلة الحوادث والأيام فى معترك الحقيقة . ففى هذا المفترق الأول من السبل التى يواجه بها المرء مستقبلَه آثر الأمير الترسل ، ومضى فيه متدفقاً تدفقَ الينبوع الصافى ، مجلجلاً أحياناً جلجلة السيل الكثير الشعّاب » [2] .

وأعتقد أن تأثر شكيب بالإمام محمد عبده ، والاستماع منه ، والقراءة له ، والتطلع إلى احتذائه ، كان من أهم الأسباب التى حولت شكيب من الشعر إلى النثر ، إذ أن الشعر لا يتسع لبسط الآراء ، وتحليل الأفكار ، والإلحاح فى الدعوة إلى مبدأ أو عقيدة .

والإمام كان مفكراً ثائراً ، وكان إبانَ شبيبة شكيب علَماً يشار إليه بالبنان فى مجالَى الدين والسياسة ، فأفكاره الإسلامية المتطورة مبثوثة هنا وهناك ، ونصيبه فى الثورة العرابية الذى مضى به إلى النفى والغربة عقب إخفاق الثورة كان يزيد شخصيته تألقاً فى نظر الناس عامة ، وفى نظر شاب طموح

(١) ديوان الأمير شكيب ، ص ١٣١ .
(٢) ديوان الأمير شكيب ، المقدمة ، ص (د) .

كشكيب خاصة ، فلا عجب إذا ملأ الإمام على الأمير الشاب حياتهَ ، ولا عجب أن يتابعه شكيب ويشايعه فى فكرته وعبارته .

وكذلك كان من الأسباب تأثر شكيب بأفكار أستاذ الإمام : جمال الدين الأفغانى الذى كان ثائرا ، وكذلك تأثر شكيب بأساتذته الآخرين وأكثرهم ثائرون.

ومن يدرى ، لعل شكيب كان يداعبه الخيال حينذاك فيوحى إليه بأنه يستطيع أن يسلك سبيل الإمام محمدعبده ، أو سبيل جمال الدين الأفغانى ، فيصبح عَلماً يشار إليه بالبنان فى مجال الفكرة الإسلامية ، ويصبح زعيما من زعماء أمته فى البيان والتأليف والدعوة ، وهو يرى الفرق بين مكانة الشاعر المضَيَّعة على عهده إلا قليلا، ومكانة أمثال محمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى نفوس الناس ! .

ونحن فى الوقت نفسه نتذكر أن طموح شكيب دفعه إلى الاقتداء بشاعر عَلَم هو البارودى — والبارودى فى عصره قليل الأنداد — كما تطلع شكيب إلى التشبه بالأعلام من رجال الفكر والدعوة ، وها هو ذا يقول عن البارودى :

«فكنت أرى منتهى السعادة فى أن تكون لى معه مراسلة ، وأن أمتّ إليه بصلة، كما كنت أحن إلى مثل هذه العلاقة مع السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمدعبده ، بما أسمع عنهما وأقرأ لهما ، إلى أن ظفرت بذلك » . ثم يقول وقوله له قيمته ودلالته :

« وجميع الشبان المتأدبين كما لا يخفى لهم ولوع شديد بل هوس بتقليد كبار علماء عصرهم ، ووجْد مبرح للاتصال بهم والأخذ عنهم » .

بل يصرح شكيب بأنه احتال فى الاتصال بالبارودى عن طريق الاستشهاد بشعر البارودى فى مقالاته — مقالات شكيب — التى كان يكتبها للأهرام ، دون تصريح بالاسم أولا ، ثم بالتصريح به أخيرا ، مع تلقيب شكيب له بلقب « أمير الشعراء » [1] .

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ١٠٤ و ١٠٥ .

رجال أثروا فى أسلوبه

هناك رجال آخرون أثروا فى شكيب من جهة أسلوبه وتعبيره ، بعضهم كانوا من السابقين ، وبعضهم كانوا من المعاصرين لشكيب .

فمن السابقين أبو إسحاق الصابى صاحب الرسائل المشهورة ، وقد عكف شكيب على هذه الرسائل،وأدمن النظر فيها ، وحققها وعلق عليها ، ونشر منها جزءاً عام ١٨٩٨ ، وهو دون الثلاثين ، وقد تأثر شكيب بالصابى فى سجعه ، وتابعه فى أسلوبه وهو يكتب مقدمات كتبه .

ومنهم ابن المقفع الذى نشر شكيب له كتابه « الدرة اليتيمة » سنة ١٩١٠ ، وكان لهذه الرسالة أثر فى شكيب حينما ينطلق فى تعبيره من السجع ، لأنها خالية من السجع والتكلف ، وشكيب حين نشرها لم يمر بها مروراً سريعاً ، بل نظر فيها واستفاد منها ، وكيف لا وهو يقول عنها إنها « حرية بأن يتخذها الكاتب منتجع لُبِّه ، وحَمَاطة قلبه ، وأن يجعلها دستور إنشائه ، ومثال احتذائه »[1] .

ومنهم أبو بكر الخوارزمى الذى كان شكيب يستظهر رسائله . يذكر الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى فى مقال له بمجلة الرسالة عنوانه «فى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » أن الخوارزمى له رسالة عجيبة ، كتبها إلى جماعة الشيعة بنيسابور ، وفيها إشارات وأسماء كثيرة ، ثم يقول :

« أخبرنى العلامة الأستاذ أمير البيان الأمير شكيب أرسلان أنه كان ينوى شرحَ هذه الرسالة ، وقد ثناه عما نواه أن الشرح يشيِّع نارا[2] أشعلتها المذاهب

---

(١) الدرة اليتيمة ، المقدمة . والمنتجع فى الأصل : المنزل فى طلب الكلأ ، ويقصد هنا مراد لبه.وحماطة قلبه : حبته . وفى أساس البلاغة للزمخشرى : «ومن المجاز : أصبت حماطة قلبه ، أى حبته » ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) شيع النار : أضرمها . يقال : شيعت النار بالحطب . (أساس البلاغة) ج ١ ص ٥١٤ .

والمقالات، ويزيد (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) تفريقا ، ويظلم كبارا لم يكونوا ظالمين ، وكانوا خير مظاهرين لشائد هذا المجد ، والأمير شكيب يستظهر رسائل الخوارزمى كلها ، ذكر ذلك فى إحدى مقالاته فى جريدة (المؤيد) يوم سأله أحد الأدباء : كيف وصل فى الكتابة والأدب إلى هذه المرتبة العليا »[١] .

وقد تحدث شكيب عن رسالة الخوارزمى فى مقال كتبه بروما فى ٨ مارس سنة ١٩٢٦ ، ونشره الرافعى فى كتابه « تحت راية القرآن » ، فقال شكيب عنه : « والكتاب الذى كتبه أبو بكر الخوارزمى لشيعة نيسابور أشهر من (قفا نبك) ، وليس بكتاب خاص أو رسالة مكتومة ، بل هو خطاب لأهل بلدة كانت من أشهر البلاد ، وفيه من السب لمعاوية مافيه ، ومن النعوت لخلفاء بنى أمية وبنى العباس ، والخوض فى أعراضهم ، لا يرد فى أقذع الجرائد »[٢] .

* * *

ومنهم بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات ، ولقد أشار إلى ذلك شكيب نفسه حينما وازن بين الهمذانى والخوارزمى فقال :

« لا جدال فى أن البديع الهمذانى أعلى درجة فى الإنشاء من الحريرى ، على فحولة هذا وكونه من أئمة النثر العربى ؛ ومزية بديع الزمان على الحريرى هى عدم التكلف . وإن الفرق بين الاثنين هو كالفرق بين الكحل والتكحل . وإنى أرى مفيداً جداً تحفيظ طلبة الأدب من مقامات البديع ورسائله ، وقد كنت من عهد حداثتى كثيرَ المطالعة لرسائل بديع الزمان الهمذانى وأبى بكر الخوارزمى ، أتلو تلك الرسائل المرة بعد المرة ، إلى أن استظهرت كثيراً منها »[٣] .

* * *

---

(١) مجلة الرسالة ، السنة الرابعة عشرة ، عدد ٥ فبراير ١٩٤٦ .
(٢) تحت راية القرآن ، ص ١٠٢ .
(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ١٢٢ .

ومنهم ابن خلدون ، وقد أشار صديق شكيب السيد رشيد رضا إلى هذا أكثر من مرة ، فتارة يقول عن شكيب : « وله فى الكتابة السياسية والاجتماعية أسلوب خاص يشبه أسلوب الحكيم ابن خلدون »[١] .

وتارة يقول مخاطباً شكيب فى رسالة متحدثاً عن أدبه : « وإنما هو طور جديد ، وأسلوب طريف لفضل تليد ، جمعتَ به بين قلم ابن خلدون ومقول سحبان، تُملى بألسنة العرب والترك والفرنسيس والألمان »[٢] .

وشكيب نفسه يترجم عن تأثره بابن خلدون فى عبارة مبسوطة أوردها فى صدر تعليقاته على تاريخ ابن خلدون يقول فيها عن نفسه :

« ولقد كان لمحرر هذه السطور من أول ما بلغت سن الحلم ولوع خاص بمقدمة هذا العبقرى العظيم ، إلى أنى كنت أطالعها المرة بعد المرة ، وفى كل مرة أجد لها طلاوة لا تمَل ، وأكشف فيها أسراراً جديدة لم تكن انكشفت لى فى الأول ، وأشرف منها على آراء طريفة ومباحث لطيفة ، كنت أحاول عبثاً العثور عليها فى غير هذه المقدمة التى لا تخلق ديباجتها ، ولا تذهب بهجتها ، وكأنى استبرأت بطول الزمن الكتبَ العربية المعروفة ، فكنت أرجع فى النهاية إلى مقدمة ابن خلدون ، ولا أجد منيتى إلا فيها ، ولا أزال أستورى زناداً لا يلمع إلا من خلال ذلك الخاطر ، وأستسق غيثا لا يمطره غير ذلك العارض[٣] .

ولم يكن إعجابى بما فى كلام ابن خلدون من مبادىء سامية ، وأقوال سديدة ، وأنظار فريدة ، يعز وجودها فى كتب غيره من أساطين الحكمة ، بأقل من إعجابى ببلاغة عبارته ، ورصانة أسلوبه ، وجلالة تقريره ، حتى كأنه يخطب فوق منبر ، ويصول فى المواضيع صولة غضنفر ، فينزل بيانه من نفوس الأدباء — (الذين

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٩ .
(٣) استورى الزناد : أخرج ناره . العارض : السحاب المعترض فى الأفق .

يستمعون القول فيتبعون أحسنه) — المنزلة التي لا تعلوها منازل الأقمار في أعين السمّار ، فلو قرأ المتأدب مقدمة ابن خلدون متوخياً فيها مجردَ الانطباع على أسلوبها في الإنشاء العربي ، دون أن ينظر إلى ما فيها من فلسفة عالية ، وتحقيقات سنية ، وعلوم جمة ملخصة ، وحقائق ناصعة من أوضاع الوجود مستخلصة ، لكانت مقدمة ابن خلدون تكفيه عمدةً في الأدب ، وتغنيه عن غيرها من نفائس ما كتب العرب .

ولعل عشق أسلوبَ هذا الإمام في كتابة التاريخ ، وغرامي بطريقته في تعليل النوازل ، وتقرير طبائع العمران ، قد ترك أثراً في ملكتي بلغ من العمق أنه قلما كان يفارقني في طرق التعبير عن أفكاري ، والإفضاء بجلاجل نفسي وخوانس صدري [١] ، وإلى أن إماماً مثل السيد رشيد رضا رحمه الله حكم في المنار منذ خمس عشرة سنة بأن أسلوب كاتب هذه الأسطر كثير الشبه بأسلوب ابن خلدون .

أقول هذا وإن كان المشبه لا ينبغي أن يعطى جميع حكم المشبه به ، وكان مثلنا لا يجهل مكانه من ذلك المدى المتطاول .

ولقد أولعت بهذه المقدمة شاباً وكهلا وشيخاً ، وبقيت أنظر إليها نظرة المشتاق لا تخمد السنون من جذوة غرامي بمحاسنها [٢] » .

* * *

هؤلاء طائفة من السابقين الذين تأثر بهم شكيب في أسلوبه ، وأقول « طائفة » ولا أقول « جميع السابقين » . لأن صاحبنا قد أكثر القراءة في كتب ، وأدمن الرجوع إلى مراجع ، وهذه الكتب والمراجع لها أسلوبها ولغتها ، ولا شك أن

---

(١) جلاجل النفس : ما يتجلجل فيها ، أي يتحرك . وخوانس الصدر : الأمور التي يعزوها فتغيب فيه . (القاموس) .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول لشكيب . ص : (ن ، س) .

الأمير قد تأثر بها بطريق مباشر أو غير مباشر . وقد كان يكثر الرجوع إلى رحلة ابن جبير ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، والمخصص لابن سيده ، ونفح الطيب للمقرى ، وتاج العروس للزبيدى ، وغيرها .

* * *

وأما معاصرو شكيب الذين تأثر بهم فمنهم أستاذه الشيخ عبد الله البستانى الذى تلقى عليه دروس العربية فى مرحلة دراسته الأولى ، يقول الأستاذ مارون عبود :

« أما أنا فأرى أن الأمير متأثر بأستاذه الشيخ عبد الله البستانى ، والشيخ عبد الله كان معجما ناطقاً ، قلما فاتته شاردة أو واردة ، يقول الشعر كطرفة وعنترة »[1] .

* * *

ومنهم أحمد فارس الشدياق المتوفى سنة ١٨٨٧ ، وقد تأثر به شكيب فى كتابه « غزوات العرب » من ناحية العناية بالحديث عن الكتابات والحفريات والآثار . وقد نقل شكيب كثيراً من المعلومات عن الشدياق فيما يتعلق بمالطة ، نقلها من كتابه « الواسطة فى أحكام مالطة » . وروى منه الكلمات التى يلفظها أهل مالطة لعصره .

وقد تأثر بالشدياق أيضاً فى كتابه « الحلل السندسية » ، حينما يتشبه به فى الدفاع عن العرب وحضارتهم فى الغرب ، وتصوير ما كان لهم من مجد ، وبذلك يكشف لنا شكيب عن أثر الشدياق فى كتابته[2] .

ويقول مارون عبود عن شكيب : « وهو متأثر كشاب أول حياته الأدبية

---

(١) كتاب رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٤ . وانظر أيضا « الأمير شكيب أرسلان : حياته وآثاره » ص ١٩٤ .

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٧٢ و ١٤٩ .

بأحمد فارس الشدياق ، علم اللغة المفرد ، فلا تعجب إن رأيت فى الأمير نفحة جاهلية وثروة لغوية ، فشعره الأول — وخصوصا نقائضه [مساجلاته] مع البارودى — هو أصفى شعره وأنقاه ، مع أنه لم يكن اجتمع أشُدُّه .

أما ترسله وخصوصا فى كتابه (أناتول فرانس فى مباذله) ففيه شبه — لفظاً وسرداً — بأسلوب الشدياق الذى أثنى على الأمير حين ذكر رثاء له فقال عنه : « إمام اللغة ، وفارس ميدان الإنشاء ، الذى عرفته بآثاره ، وقطفت من نواره »[1] .

ولقد سئل شكيب نفسه عن أحب أديب إليه من المعاصرين فقال : أحمد فارس الشدياق[2] .

• • •

ومنهم الدكتور كرنيليوس فانديك[3] ، وقد أشار شكيب إلى أثر فانديك حينما تحدث عن ترجمته لكتاب العلامة الأمريكى (درابر) ، وهو كتاب « اختلاف العلم والدين » ، ووصف شكيب الكتاب وترجمته له وأثر فانديك فى توجيهه ، فيقول عن « درابر » :

« فقد كتب كتابا نادرَ المثال فى تاريخ الحركة الفكرية العالمية فى العالم . وما كان بإزائها من العقائد والأديان ، وما وقع من المصارعة بين المبدأ العلمى والمبدأ الدينى .

---

(١) كتاب رواد النهضة العربية ، ص ١١٤ .

(٢) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٩ . نقلا عن جريدة الأهرام فى ١١ ديسمبر ١٩٤٦ .

(٣) قال عنه خير الدين الزركلى فى « الأعلام » إنه طبيب عالم ، هولندى الأصل ، أميركى المولد والنشأة ، مستعرب ، ولد فى قرية من أعمال نيويورك ، وتعلم الطب والصيدلة بمدرسة جفرس فى فيلادلفيا ، وأرسله مجمع المرسلين الأمريكيين للتبشير الدينى فى سورية ، فقدم بيروت سنة ١٨٤٠ ، وحذق العربية كل الحذق ، وحفظ كثيرا من أشعارها وأمثالها ومفرداتها وتاريخها ، وأنشأ مع بطرس البستانى مدرسة فى عبية بلبنان ، وتولى التعليم فى الكلية الأميركية ببيروت ، وبعد من مؤسسيها ، واختلف مع بوست فى لغة التعليم بها ، فبوست يطالب بالإنجليزية وفانديك يطالب بالعربية ، وانتصر بوست فاستقال فنديك سنة ١٨٨٢ وتوفى فى بيروت . وقد ولد سنة ١٢٣٣ هـ — ١٨١٨ وتوفى سنة ١٣١٣ هـ — ١٨٩٥ م . الأعلام للزركلى ، ج ٦ ص ٧٧ .

وكنت اطلعت على هذا الكتاب ، إذ كنت فى الثامنة عشرة من العمر ، وأجمعت ترجمته إلى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلا عن نسخته الأفرنسية التى كان يسهل علىّ الترجمة عنها أكثر من النسخة الإنكليزية .

ثم إنى لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعت عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيذ العصر الدكتور فانديك ، الذى كان لى عليه تردد كثير ، وكان له نحوى ميل شديد ، وكنت ممن يستضىء بآرائه .

فالدكتور فانديك والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده — طيب الله ثراهما — هما اللذان صححا عزمى على ترجمة هذا الكتاب ، وباشرت ذلك ، وصرت آتى من الترجمة إلى الدكتور بكراس كراس ، وهو يطالعها ويراجعها ، ويصحح ما يراه محتاجاً إلى التصحيح .

وقد كان تصحيحه للألفاظ العلمية والاصطلاحات الفنية التى لم أكن لذلك العهد أركن إلى نفسى فيها ، ولا تزال تصحيحات الدكتور فانديك بخط يده على حواشى المخطوط ، وإن يسر الله طبعَ هذا الكتاب فسأطبع عبارات تصحيحه كما كتبها هو ، أى منذ ٤٣ سنة ، ولقد شهد لى الدكتور يومئذ بصحة الترجمة ، وقال لمن سأله عنى فيها هكذا : (جاء بالصنعة) » ! .

ثم قال شكيب :

« وإنى لناقل الآن بالحرف قول العلامة (درابر) من كتابه المذكور تحت عنوان (الفصل الرابع : فى تجدد العلوم فى الجنوب) مترجماً بقلمى القاصر منذ ثلاث وأربعين سنة ، مصححاً بقلم الدكتور العلامة الأشهر فانديك الأميركانى ، عفا الله عنه وجزاه خيراً » (١) .

ثم ساق شكيب ذلك الفصل الذى استغرق نحو أربع عشرة صفحة من صفحات كتاب « حاضر العالم الإسلامى » (٢) .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ١٤١ و ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، من ص ١٤٢ إلى ص ١٥٥ .

مصادر ثقافته

ذكرنا سابقاً تأثر شكيب بأستاذه عبد الله البستاني الذي كان « معجما ناطقاً ، قلما فاتته شاردة أو واردة » ، وأن الأمير كان يحفظ رسائل الخوارزمي كلها ، وهذا وذاك يبينان لنا أن احتذاء الماضين ومتابعة السابقين ، والاستعانة على ذلك بالحفظ والتحصيل ، من العوامل القوية الأثر في كتابة شكيب وأسلوبه .

وشكيب نفسه يصرح عن ذلك حين يقرر أن الملكة الأدبية تتكون للانسان من متابعة السابقين « بالاستكثار من حفظ تراكيبهم ، وتحدى أساليبهم ، ومحاكاة نغمتهم ، والاحتذاء على أمثلتهم ، حتى تتحصل للمعانى منهم ماسكة راسخة يصدر عنها فى إنشائه ، فلا يكون من شأنه أن يعلو ويسفل ، ويغلو ويبذل ، ولكنه يجرى على نمط متناسب ، ويفرغ فى قالب واحد [1] » .

ويمضى شكيب فى بيان رأيه فى أهمية الحفظ لمن يعانى صناعة الأدب ، فلا يقصر المطالبة بالحفظ على الشعر كما يفعل الكثيرون من المعلمين والمربين ، حينما ينصحون طلابهم أن يكثروا من حفظ الشعر ليجيدوا مادة الإنشاء ، لأنهم يستطيعون أن ينثروا البيت وينتفعوا بمعناه ، دون أن يتقيدوا بمبناه ، بل يطالب شكيب بحفظ النثر أيضاً ، فيقول :

« حفظ النثر كحفظ الشعر ضرورى لمن يعانى صناعة الأدب ، وإنه لا يعرف الطالب مفردات اللغة إلا من محفوظه ، وكلما حفظ عن ظهر القلب من النظم والنثر اتسعت لغته ، وانفسحت طرق التعبير أمامه ، وقد يتردد الأديب فى صحة لفظة ،

---

(١) الدرة اليتيمة ، المقدمة ، ص ٢ .

فيريد أن يراجع كتب اللغة ليبحث عنها ، فإذا تذكرها فيما يحفظ من كلام القار
استغنى عن المراجعة .

ومقامات الحريرى هى من المنثور الذى حفظه يساعد الأديب كثيراً على
حفظ مفردات اللغة »[١] .

ونستطيع أن نوافق على هذا الرأى إلى مدى محدود ، لأن الأديب
أو الكاتب لا بد له من ثروة لغوية ، تتمثل فى مفردات أو تراكيب خاصة باللغة
يستطيع عن طريقها أن يصوغ كلاماً متضمناً معانى ، ولكن هذا الحفظ يلزمه
ألا يطغى على ذهن الكاتب وذاكرته ، وإلا فسد أسلوبه ومعناه معاً بما ينثال
طوعاً أو كرهاً على كلامه من فيض المفردات الغريبة والكلمات المعجمية .

كما أننا نوافق على حفظ النثر إذا كان من معجز القول أو جوامع الكلم
أو نوابغ العبارات ، كآيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، وخطب الفحول ،
والكلمات السائرة لأمراء البيان فى عصور العربية المزهرة ، وينبغى هنا أيضاً
ألا ننسى الاحتياط ، بحيث يلزم أن يترك الحفظ فى ذهن صاحبه جانباً للتفكير
ومعالجة المعانى .

كيف تكونت ثقافة شكيب ؟ وما مصادر تلك الثقافة ؟ :

لقد تعلم شكيب العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية والألمانية ، وأجاد
الثلاث الأول ، وتوسط فى الإنجليزية ، وكان قليل الإجادة للألمانية ، ولا شك أنه
طالع فى هذه اللغات كلها ، واستفاد من مطالعاته فيها ، وكان لهذه المطالعات أثر
فى تكوين ثقافته .

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ١٢٢ .

لقد تعلم التركية بجوار العربية منذ الصغر ، وقويت عنده بسبب رحلاته إلى تركية ، ومصادقته لكثير من الأتراك ، وإقامته فى تركية حيناً من الزمن ، وتعلم الألمانية ، وترجم عنها كتاب (كيللر) الذى ألفه عن « غزوات العرب فى سويسرة » ، وساعده رحيله إلى ألمانية مراراً وإقامته فيها زمناً على معرفة هذه اللغة ، وتعلم الفرنسية وهو صغير فى مدارس بيروت ، وسافر إلى فرنسة مراراً وأقام بها أوقاتاً ، ثم أقام فى سويسرة نحو ربع قرن يتكلم ويقرأ ويكتب ويسمع بالفرنسية ، وترجم عن الفرنسية [١] .

ولكن أهم هذه اللغات هى اللغة العربية ، وقد تعلم شكيب فى المدرسة خلال المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وكان هذا التعلم تمهيداً لثقافته ، وفتحاً لأبواب المطالعة والبحث أمامه ، ولكنا لا نستطيع أن نقول إن المدرسة هى التى كوّنت ثقافته ، أو كانت عاملا أساسياً فى تكوينها ، وإنما نستطيع أن نقول إن الأمير كوّن ثقافته بمطالعاته وملاقاته كبارَ العلماء والأدباء والباحثين فى عصره والاستماع إليهم والأخذ منهم ، ومراسلته لكثير من هؤلاء الأعلام ، وعكوفه على كتب الأولين وبعض كتب المعاصرين ، يتناول الجم قضما وهضما وتفهماً وانتفاعاً ، ولذلك يقول أحد الباحثين عن شكيب : « على أن أكثر ما اكتسبه من العلوم واللغات إنما قرأه على نفسه ، واكتسبه بجده وذكائه » [٢] .

وقد استمعنا إلى شكيب منذ قليل وهو يحدثنا بأنه حفظ أكثر مقامات الهمذانى والحريرى ، وأنه عكف على مقدمة ابن خلدون يبدىء فيها ويعيد ؛ وكيف حقق رسائلَ الصابى ، والدرة اليتيمة لابن المقفع ، ورأينا كيف انتفع بما كتبه الشدياق ، وكيف أفاد من ملاقاته أو مراسلته لأمثال : محمد عبده ،

---

(١) الأمير شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

(٢) مجلة الأديب ، عدد كانون الثانى ١٩٤٧ . مقال (الأمير شكيب أرسلان) لأمين محمد أبوعز الدين .

وجمال الدين الأفغانى ، وعبد الله البستانى ، والدكتور فانديك ، وغيرهم ممن عاونوا على تكوين ثقافته الواسعة .

وقد بكر شكيب فى الاطلاع على الكتب الكبيرة والانتفاع بها والاغتراف منها ، كنفح الطيب وتاريخ ابن خلدون والنهاية لابن الأثير والطبقات لابن سعد ورحلة ابن جبير والمخصص ولسان العرب وتاج العروس ، وغير ذلك من كتب اللغة والدين والأدب والتاريخ .

وها هو ذا يتحدث مثلا عن الشريف عبد الرحمن العباسى ويقول :

« وله كتاب (معاهد التنصيص ، فى شرح شواهد التلخيص) وهو شهير ، وقرأته أول مرة فى استنبول منذ ٣٥ سنة[1] ، أعارنيه قبل أن أقتنيه الشريف عبد الإله باشا أمير مكة سابقاً رحمه الله ، فوجدت الشيخ محمد بن التلاميد الشنقيطى المعروف بالشنقيطى الكبير قد قرأ هذه النسخة ، وقرأت تعقيبات له على المؤلف »[2] .

ويقول شكيب فى مقال له بجريدة (المؤيد) :

« حفظت لعهد الحداثة شيئاً من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع ، كما أن جميع ما كتب ابن المقفع يصح أن يكون مثالا يحتذى ، سواء فى كليلة ودمنة ، أو فى أدبيه الصغير والكبير ، ثم قرأت رسائل بديع الزمان الهمذانى وأبى بكر الخوارزمى ، ثم صرت أستظهر منها الكثير بدون تكلف ، وفيها من رشاقة الأسلوب والخفة على الروح ما لا أجده إلا فى النادر مما كتبه العرب .

ونظرت فى كثير من كتب الجاحظ ، وهذه وحدها عمدة كافية فى هذا العلم ، وبلغة جازية فى إشباع مَن فهمها كل الفهم ، وطالعت الأغانى الذى من فاته الاطلاع عليه فقد فاته أكثر جمال اللسان ، وكان معذوراً فى ضيق الذراع وقصر الباع .

---

(١) يقول ذلك فى تعليقه على تاريخ ابن خلدون المطبوع سنة ١٩٣٦ ، فيكون قد قرأ معاهد التنصيص حوالى سنة ١٨٩١ .

(٢) ملحق الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون ، ص ١٨٤ . بحث « الترك » .

وسبق لى قبل رؤية الأغانى مطالعة العقد الفريد لابن عبد ربه ، وهو أنبه من أن أنبه عليه ، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ، وهو من أوسط ما ألف فى هـذا الفن ، ومعاهد التنصيص فى شواهد التلخيص ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب الذى قيل فيه : إن من لم يقرأه فليس بأديب .

ثم مقدمة ابن خلدون ، وقلم ابن خلدون لو نُشر لعجز عن وصف بلاغة نفسه ، والإحاطة بمدى علو طبقته ، وإشراب القلوب ما هناك من دقة معنى ، فى جلالة بناء ، ورصانة تركيب ، ولا أستوفى جميع ما طالعت »[١] .

وإذا كان جل اهتمام شكيب فى مطالعاته ومراجعاته كان منصرفاً إلى كتب السلف فى اللغة والأدب والتاريخ والاجتماع ، فليس معنى هذا أنه لم يكن يطالع فى زاد عصره الثقافى ، فإنه ليقرأ بأكثر من لغة ؛ وهو يترجم عن الفرنسية عن شاتو بريان رواية « آخر بنى سراج » وكتاب درابر « الاختلاف بين العلم والدين » وكتاب « رينو » عن غزوات العرب فى أوربة ، وكتاب جان جاك بروسون عن « أناتول فرانس فى مباذله » ويلخص كتاب نيقولا سيغور « محادثات مع أناتول فرانس » ، ويترجم كثيراً من البحوث والتعليقات فى كتبه وفى مقالاته .

ولا شك أن الترجمة تقتضى اطلاعاً ، ومراجعة ، وإعادة قراءة ، وتمعناً فى العبارة المترجمة ، وتدبراً لمعناها ، وفهما لمرماها ، واقتداراً على نقلها إلى مقابلها فى العربية ، وفى هذا كله ما فيه من توسيع دائرة الثقافة .

كما أن شكيب اشتغل منذ صدر شبابه بالسياسة وأمور الحياة والمجتمع ، وهذه شئون تستلزم الاطلاع على مصادر معاصرة كالصحف والمجلات والكتب السياسية ، وما اتصل بالسياسة والاجتماع من نشرات وبيانات وغيرها .

---

(١) رسائل الرافعى ، ص ٩ و ١٠ . وتاريخ المقال فى المؤيد هو ٩ فبراير ١٩١٢ م .

وهو قد أدلى بدلوه فى الشعر ، وكان يعجب بشعراء كثيرين فى الماضى وفى عصره، ولا بد أنه قرأهم ، وتدبر أقوالهم ، وحفظ من أشعارهم ، فكان هذا رافداً من روافد تكوين ثقافته .

وهو مغرم منذ حداثته باللغة ، ولذلك كان يسامر المعجمات والبحوث اللغوية، وهذه قد ألقت ظلالها وطابعها على ثقافة شكيب وكتابته .

وهو يحدثنا بأنه منذ حداثة سنه كان يقرأ الصحف ، ولما حدثت الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م بمصر كان هو ابن اثنتى عشرة سنة ، ومع ذلك كان يتتبع وقائعها . ويتحرق غيظاً « عند ضرب الإنكليز للاسكندرية ، ونزولهم وتقدمهم فى القطر المصرى »[١] .

ثم يذكر بعد ذلك أنه قرأ فى أخبار محاكمات الثورة نصّ يمينٍ من إنشاء الشيخ محمد عبده ، فرأى فيه أسلوباً عالياً غير الذى كان يعهده ، وأنه يميز العالى فى الإنشاء من النازل بمحض الشعور[٢] .

ويقول الأستاذ أمين محمد أبو عز الدين عن شكيب : « أخذ البلاغة رأساً عن القرآن الكريم ، وسهر مع الجاحظ وابن المقفع ، كما طالع ودرس فى فنون الأدب ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، ولعلى مصيب فى اعتقادى بأن هذه العوامل ، أو هذه المراجع التى ذكرتها ، وما شابهها لوناً وأسلوباً ، كانت — وربما ما زالت — تكوّن فى الكاتب ملكة البلاغة العربية .

إلا أن المعروف عن الأمير شكيب أنه قرأ كثيراً ، وأخذ عن كثير ، فمذهبه فى الكتابة كما ذكرت هو من صنع نفسه ، وهو ثمرة جهاد طويل ، ودرس شاق ، اختلطت فيه مذاهب ، وتداول عليه أدباء وأدباء من كُتّاب العرب الأولين »[٣] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٣٩٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) مجلة الأديب ، عدد كانون الثانى ١٩٤٧ .

فشكيب إذن فى ثقافته صنعُ مطالعاته ومراجعاته ، وصنع ما حرص عليه من تطلب المعرفة فى كتب قومه ولغات الناهضين من حوله ، وصنع ما حرص عليه من التقاط ما يستطيع التقاطه من معارف وأفكار من أفواه الأعلام فى عصره ، أو من رسائلهم ومساجلاتهم ، ولا ننسى هنا ما آتاه الله من استعداد فطرى وملكة واعية جعلته — كما أخبرنا — يميز وهو فتى غثَّ الأدب من سمينه بمحض الشعور .

السجع عند شكيب

لقد كان الغالب على النثر فى عصر شكيب هو المزاوجة بين الجمل ، وشيوع السجع ، واختيار الألفاظ والتراكيب القديمة ؛ وكان الناثرون يتشبهون غالباً بابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وابن العميد ، وكانوا يرون الفحولة في أن تكون الجملة قصيرة جامعة شاملة من جوامع الكلم ، كما كانت من قبل فى القرون السالفة[1].

فكيف كان نثر شكيب؟ . إنه كما سنرى جمل قصيرة متينة ، وسجع متكلف في أول الأمر وغير متكلف حين يتمرس بالبيان والبلاغة ، ومزاوجة بين العبارات ، وتحليق فى النثر كما كان يحلق فى الشعر ، وصور تزدحم فى الكلمات وتغص بها حتى لتضيق أحيانا[2] .

وشكيب قد اندفع إلى السجع بعدة دوافع ، منها أن عصره كان يشيع فيه السجع ، وكان أعلام الأدب فيه يسجعون ، والإنسان فى العادة ابن بيئته ، ومنها أنه شاعر ، فاذا انتقل من الشعر إلى النثر لم ينس موسيقى الشعر ، ولم ينس اتحاد القافية فى الأبيات ، ومنها أنه أدمن النظر فى مقامات الخوارزمى والهمذانى وحفظ أكثرها ، وهذه المقامات تقوم على السجع . ومنها تأثره بأبى إسحق الصابى ، لأن الصابى كان يأتى بالسجع فى كثير من الأحيان ، فهو مثلا يعزى أبا بكر بن قريعة عن ثور أبيض جلس للعزاء فيه تراقعا وتحامقا ، فبث الصابى السجع فى تعزيته . ويكتب الصابى عهدا يسميه « عهد التطفيل » على لسان طفيلى اسمه « عليكا » فيأتى فيه بسجع كثير ، وقد ذكر القلقشندى هذا العهد فى الجزء الرابع عشر من كتابه « صبح الأعشى »[3] .

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٣) النثر الفنى ، ج ١ ص ١٤١ وما بعدها . وانظر صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣٦٠ — ٣٦٥ .

ولقد قال البعض: إن سجع شكيب يشبه سجع الكهان [١]، وهذا غير مسلَّم، وقد يكون شكيب خانه التوفيق فى سجعه حيناً أو أحيانا، ولكن الأمر لم يبلغ به فيما نرى أن يكون سجعه كسجع الكهان، وإذا كنا نلاحظ أن سجعه متأثر بسجع المقامات، فمرجع ذلك كما ذكرنا إلى حفظه أغلب مقامات الحريرى والهمذانى، وإلى أنه يحب تقليد القدماء فى النثر الفنى، ليحشر فى زمرتهم عند التقدير الأدبى، ولأن السجع كان طاغياً على عصره.

وإذا كان شكيب قد حرص فى أول أمره على السجع وألح فيه كثيراً، فإنه حاول التخلصَ منه خلال حياته، وإن ظل برغم هذا يحن إلى النثر الفنى حتى السبعين من عمره، لحرصه على تقليد الفحول وأعلام البلغاء، حتى لا يقال إنه قد قصَّر عنهم.

إن أول كتاب ينشره شكيب هو ديوانه « باكورة » سنة ١٨٨٧ م. ويفتتحه بالسجع والجناس والتورية حيث يقول: « وبعد فقد جمعت بعض ما وقع لدىَّ من باكورة نظمى، وأنا فى رَوْق الشبيبة، ولدون الحداثة القشيبة، حديث العهد بهذه الصنعة، قريب الوِرْد لهذه الشِّرْعة [٢]، متطفل على ما ليس فى طوق قبل أن أشب عن الطوق، متطاول إلى ما هو فوق دون أن أضمن لنفسى الفَوْق، انتخبتها وليس من مقصدى نشر ديوان، ولا التلبس بحالة من هذا الشان، بل إجابة لطلب بعض الإخوان، كنت اعتذرت إليهم بأنها من عهد الطالب، وهزة الاقتبال والطرب، وتطفل الحدث على الأدب، بل عبث الوليد إذا شب.

فلما لم أر لعرضهم صداً، ولم أجــد من إجابتهم بُدّاً، اقتصرت على هذه

---

(١) مطالعات فى اللغة والأدب، ص ١٢٥.

(٢) روق الشبيبة: أولها. ولدون: أى لين. وليس فى القاموس ولا اللسان ولا الأساس: لدون، وإنما فيها: لدانة ولدونة، والورد: الإشراف على الماء وغيره. والشرعة: مورد الشاربة.

الأنموذجات ، وأحسبنى تطاولت جدا ، فإن صادفت من الإقبال محلاً ، ولاقت قبولا فذاك وإلا

فقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان مالا يلائمه »

وغير خاف ما فى هذه السطور من براعة فى الصياغة ، وصنعة فى السجع ؛ وفى المجانسة بين « طوق » بمعنى وسعى و « الطوق » بمعنى ما استدار حول الشىء ، وبين « فوق » بمعنى أعلى منى ، و « الفوق » بمعنى الفضل والسبق ؛ وفى التورية بكلمة « عبث الوليد » ؛ ولكننا مع هذا نحس بما فيها من تكلف ، وبما فى كلمة « الأنموذجات » من ثقل يمكن إزالته باستعمال كلمة « النماذج » ؛ وما فى قوله : « وأحسبنى تطاولت جداً » من عامية تعبير ، وما فى قوله : « فذاك وإلا » من قلق لتعلق الكلام بالبيت بعده .

وكما بدأ شكيب ديوانه بالسجع ختمه به فقال : « فهذا أثر مما سمح به الخاطر والعمر فى أول أطواره ، وجواد القريحة فى بدء مضماره ، وسمت به النفس على حالتها تلك والمرء مولع بآثاره ، والفتى كلف بأبكاره ، راجياً ممن تردّى برداء الأدب واستشعر بشعاره ، أن يتلقى الخلل بواسع حلمه ، ويتغمد الزلل بوارف ستاره . . . » إلخ .

ومن السهل أن نلاحظ هنا أن الجمل المسجوعة قد طالت نوعا ما عن شقيقاتها فى المقدمة .

* * *

وفى سنة ١٨٩٣ ينشر شكيب كتاب « الدرة اليتيمة » لابن المقفع ، فإذا به يقول فى المقدمة : « وبعد ، فقد رأينا إخواننا طلاب العربية أعظم ما كانوا عليها منذ أمد إقبالا ، وأشد ما عانوا فى تحرى فوائدها إيجافا وإيغالا (١) ، وأحث

---

(١) الإيجاف : ضرب من سير الإبل والخيل . والإيغال والإمعان .

بما وجدناه في سبيلها اجتهاداً ، وأبصر ما عهدناه في مظان تحصيلها ارتياداً ، رأينا الجمَّ الغفير منهم — والحق يقال — دائبا في إصلاح لغته ، وتثقيف ملَكته ، حريصاً على تقويم لسانه ، وإحكام بيانه ، متوخياً طرق الانطباع على بليغ الكلام ، منتهجاً خطط الوصول إلى الطبقة العالية من القول ، مما يجب أن يلتمس في كتب السلف ، وينشد في منشئات الأولين ، من أهل هذا اللسان ، السابقين في حلبة البيان ، بالاستكثار من حفظ تراكيبهم ، وتحرى أساليبهم ، ومحاكاة نفثتهم ، والاحتذاء على أمثلتهم ، حتى تتحصل للمعانى منهم ملكة راسخة يصدر عنها في إنشائه » .

* * *

وفي سنة ١٨٩٧ ينشر شكيب لأول مرة ترجمتَه لرواية (آخر بنى سراج[١])

وفي مقدمته لها يقول إنها تدور « على سياحة شاب تام الرجولية ، باهر الفروسية ، من بقايا آل سراج الغرناطيين ، من أكرم بيوتات العرب الباقين ، كانوا بالأندلس لعهد خلوها من الإسلام ، ونُبُوِّها عن حُمْر الأعلام ، هب من تونس حيث كان جالية الأندلس قد نزل أكثرهم سائحاً إلى وطنه القديم : متعللا بالعظام الرميم[٢] ، طائعاً هوى النفس في الذهاب أين ساقه التذكار والحنين ، هائماً على وجهه في تلك الأرض التي عمرها آباؤه مئين من السنين ، وبينما هو يجول في شوارع غرناطة مسكن أهله قبل الجلاء الأخير ، وثُمالة ما كان بقي في يد الإسلام من ذلك النعيم والملك الكبير ، كانت منه لفتة وقع فيها بصره على فتاة من سريات الأسبانيول فعلقت بقلبه ، ووقع نظره منها على مثله ، فتعاشقا وتوزعت القصة بين حبها وحبه ، وحال دون اقترانهما إعجاب كلٍّ بدينه وإخلاصه لربه ... » .

---

(١) في كتاب محاضرات عن الأمير شكيب (ص ٩٤) ما يفهم منه أن ترجمة هذه الرواية طبعت لأول مرة سنة ١٩٢٥ وهذا غير صحيح ، لأنها طبعت أول مرة في مطبعة جريدة الأهرام سنة ١٨٩٧ كما هو موجود على أول صفحة من الترجمة — ثم ظهرت في طبعة ثانية سنة ١٩٢٥ ، وإن كان قد بدىء في هذه الطبعة الثانية سنة ١٩٢٤ .

(٢) الرميم : البالي .

ونلاحظ معا أن وحدة السجع قد خفت، وأن قيوده قد لطفت، وأن الجمل قد طالت وتحورت، وابتعد فيها شكيب عن التقعر في مفرداته، ولا شك أننا نتوقع أن تكون هذه خطوة نحو الانطلاق والترسل تتبعها خطوات، فيتحرر شكيب من قيود السجع والمزاوجة والصبغ البديعي، ولكن: هل استجاب شكيب لما توقعناه ؟

لقد رأيناه بعد قليل ينشر رسائل الصابي (سنة ١٨٩٨م) ويقدم لها، فإذا هو لا يتقدم نحو الترسل خطوة ولا خطوات، بل يرجع إلى صميم السجع والمزاوجة الصنعة خطوة أو خطوات؛ فإذا هو يقول في المقدمة:

« وبعد ، فإن من أطرف ما تَطرف به أندية الأدب ، وينثل من كنائن[1] البلاغة فى خزائن العرب ، وينشر من بين صفائح الصحائف بعد أن طال ما طوى واحتجب ، المختارَ من رسائل الصابى المشهور المكنى بأبى إسحق ، رئيس كتاب الديوان ببغداد ، والذاهب صيته إلى بَرْك الغِماد[2] فى الآفاق ، إذ كان كلامه من أجلّ ما ألقحته أصلاب الأقلام ، وحملت به بطون الأوراق .

وإن كل من أصاب من الأدب ذَرْوًا[3] ، وعرف للقلم ريًا ، وللمداد جريًا ، ليصبو إلى بيان الصابى ، وينتشى بإنشائه العالى ، فهو ينظر فيه من خطط البلاغة ومراسمها ، ويشهد من محافل الفصاحة ومواسمها ، ما يعز الإتيان بمثل بدائعه على راغمها ، وتَخْفَر عذارَى خطبه دون خاطب كرائمها ، ويتلو من آيات كتاب الدواوين وخطباء النوادى ، ما تفسخ به جمال حداة المهارى ، ورعاة البوادى » .

أرأيت إلى توالى السجعات وتعددها ، وإلى كلمات : « الأدب ، والعرب ،

---

(١) يقال : نثل الكنانة : أى استخرج نبلها فنثرها . والكنانة : مايوضع فيها النبل .
(٢) برك الغماد : هو أقصى معمور الأرض (القاموس) .
(٣) ذروا : طرفا ، يقال : بلغنى عنه ذرو من القول ، أى طرف منه (الأساس) .

واحتجب » . وكلمات : « أبي إسحاق ، والآفاق ، والأوراق » . . وكلمات :
« سراحيها ، ومواسمها ، ورائمها ، وكرائمها ؟ . . . » .

أرأيت كيف تستولى الصياغةُ الفنية على همــة شكيب وبيانه ، فتحول بينه وبين الانطلاق في شرح الأغراض ، وبسط الأفكار ، وعرض المعانى ؟ .

ولو أن الأمير لم يجدْ من ينقده فى موضوع السجع لقلنا إنه يستجيب فى هذا لارتياح الناس ، ولـكن بعض الأدباء انتقدوه ، ومنهم الأستاذ محمد كردعلى كما سيأتى قريباً ، ومع ذلك يمضى الأمير مصراً على خطته وسجعته ، وما يكاد الأستاذ كردعلى يستعمل بعضَ السَجْع فى فاتحة مجلته (المقتبس) سنة ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م حتى يسارع شكيب بالتعريض به ، فيقول له فيما يقول : « وطالما نقمتَ علينا التسجيعَ ، وأقمت علينا من النكير بعـدد أنواع البديع ، وعددت سجع الحمام من قبيل لجع الحمام ، واعتبرت نفائس الجناس من وساوس الخناس (١) » .

ولا بد لنا من أن نلاحظ أن الأمير استخدم السجع فى نقـده للأستاذ كردعلى ! .

ويقول شكيب أيضاً فى حديثه الموجَّه للأستاذ كردعلى : إن السجع رَسْمى فى « المقدمات » .

ولذلك نرى سجعه يأتى عادة فى مقدماته للـكتب ، ثم ينطلق فى عبارة جزلة ، وقد يعود إليه ، ولـكن دون التزام .

فهو مثلا يفتتح كتابه « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الواحد الخلاق ، وسبحان الله وبحمده

---

(١) مجلة المقتبس ، سنة ١٣٢٤ هـ ، ص ١٦٨ .

فى المشى والإشراق ، ونشهد أن لا إله إلا الله شهادةَ الإخلاص التى نرجو بها الخلاص يوم التلاق ، وتهون بهـــا سكرات الموت إذا حشرجت الأنفس فى التراق .

ونشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله أشرف الخلق على الإطلاق ، المبعوث لإقامة الحق والعدل وإتمام مكارم الأخلاق ، بكتاب باهر الحجة ، وسنة واضحة المحجة ، وبراهين كالصبح فى الانفلاق ، والشمس فى الائتلاق .

صلى الله عليه وعلى آله الغطاريف ، وعلى أصحابه الصناديد ، وعلى أنصاره الـكرام العتاق ، الذين نشروا التوحيد المحض فى الآفاق ، وجمعوا كرم الأفعال إلى كرم الأعراق ، ما هبت نسائم الأسحار ، وتفتقت كمائم الأزهار ، وسجعت الوُرْق على الأوراق ، وسلم تسليما كثيراً [١] » .

ومع أن الـكتاب منشور سـنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م وقد سبقته كتب لشكيب وكتابات ، رأينا أنه التزم السجع فى المقدمة ، والتزم حرفاً واحداً فى اثنتى عشرة جملة ، ورأينا اقتدارَه اللغوى وهيامه بالسجع يظهران فى تتابع هذه الكلمات : « الخلاق ، الإشراق ، التلاق ، التراق ، الإطلاق ، الأخلاق ، الانفلاق ، الائتلاق ، العتاق ، الآفاق ، الأعراق ، الأوراق » ! .

ولـكنه ينطلق بعد هذه المقدمة مباشرة ليتحدث فى موضوعه بلغة سلسة دراجة فيقول : « وبعد فقد مضت علىَّ حِجَج كثيرة وأنا أهم بأداء فريضة الحج ، والعوائق تعوق ، والموانع من حول إلى حول تحول ، إلى أن يسَّر الله بلطفه وحسن توفيقه لى أداء هذا الفرض فى سنة ١٣٤٨ هـ ، أى منذ سنتين كاملتين ،

---

(١) التراق : أعالى الصدر . الغطاريف : جمع غطريف ، وهو السيد الشريف ، والسخى : السرى والشاب . والصناديد : جمع صنديد ، وهو السيد الشجاع ، أو الحليم ، أو الجواد ، أو الشريف ، والعتاق : جمع عتيق ، وهو الـكريم ، والنجيب ، والشريف . والمحض : الخالص . والورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة .

فكان قصدى إلى الحجاز من لوزان بسويسرة ، عن طريق نابولى بإيطالية ، إذ ركبت منها البحر على باخرة إنجليزية إلى بور سعيد ، حيث نزلت ، وفى اليوم التالى ذهبت إلى السويس ، ومنها أبحرت إلى الحجاز ، فى باخرة مكتظة بالحجاج ، فأحرمنا ولبَّينا من بحر رابغ ، ووصلنا إلى جدة من السويس فى اليوم الرابع ...» إلخ .

وفى سنة ١٩٢٦ يظهر كتاب «أناتول فرانس فى مباذله» الذى ترجمه شكيب عن الفرنسية ، ويقدم له بمقدمة يخف فيها السجع ، حيث يقول فى أولها :

«لم يعهد التاريخ دوراً من الأدوار خلص من علاقة الشرقيين بالغربيين ، وخلطة الغربيين بالشرقيين ، ونسخ كل فريق عن الآخر ، واقتباس هذا من ذاك ، أخذاً ورداً ، وجزراً ومداً ، حتى فى أعرق الأدوار فى القدم ، وأوغل الأطوار فى الظُّلَم .

وقد عم هذا التحاك جميعَ أحوال الحياة وأركان العمران ، من التجارة إلى السياسة إلى الصناعة إلى الثقافة ، فكما تناقلوا فيما بينهم البضائعَ والمتاجر ، فقد تناقلوا الحكم والخواطر ، وكما حمل بعضهم إلى بعض المهنَ والصناعات ، فقد حملوا الاختراعات والبراعات .

وكما تسلط منهم الأشجع على الأجبن ، والأشك [1] على الأعزل ، فقد تسلط الألحن على الألكن [2] ، والأعلم على الأجهل .

إذاً الأخذُ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان منذ طلعت الشمس ، وولى اليوم الأمس ، لم ينحصروا فى الأمور المادية ، والحوالات المالية ، والآثار اليدوية ، بل شملا الأمور المعنوية ، والمسائل العقلية ، والشئون الاجتماعية .

---

(١) أفعل تفضيل من شك . ورجل شاك السلاح وشاك فى السلاح ، أى لابس السلاح التام . والأعزل : من لا سلاح له .

(٢) الألحن : الأفطن والأفصح . والألكن : العى الثقيل اللسان .

وما ترقت فى سلم الاجتماع أمة فى شرق ولا فى غرب إلا كان الآخر عيالا عليها، جاداً فى محا كاتها، ومتحسراً على منافلتها، فقد أخذت يونانُ عن مصر، وأخذت بغداد عن يونان، وأخذت أوربة عن الأندلس، ثم أخذ الشرق فى جدته الأخيرة عن أوربة».

ثم يمضى إلى موضوعه دون سجع إلا نادراً، ويترجم بلا اصطناع محسنات بديعيـة.

وقد يخيل إلينا هنا أن الأمير قد بلغ مرحلة أخيرة للتخلص من سلطان السجع عليه، أو من حرصه على السجع فى مقدمات كتبه، ولكنه فى أواخر سنة ١٩٣٣ يطلع علينا بكتابه «تاريخ غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسـط»، فإذا هو يوغل فى السجع، وإذا هو لا يكتفى بالسجع فى صدر المقدمة كما فعل مثلا فى «الارتسامات اللطاف»، بل يشيع السجع فى المقـدمة من أولها إلى آخرها، فيقول فى صدرها:

«ربنا إليك نفزع من مداحض القدم، وبك نستعصم فيما يجرى به القلم، ونشهد أن لا إله إلا أنت وحـدك لا شريك لك بارىء النسم، ومفيض النعم، وباسط الوجود على العدم، شهادة نعدها للنجاة إذا اشتدت الغمم، ونتقى بها النار ذات الضرم، ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك سيد من دعا إلى توحيدك بين الأمم، وسلطان من طهر الأرض من عبادة الصنم، المنزَّل عليه كلامك الموصوف بالقدم، المبعوث بالآيات الباهرة والحِكَم، اللهم صل عليه وعلى آله لهاميم العرب ومعادن الكرم، وأصحابه حملة الكتاب وليوث الكتائب فى المزدحم، الذين أشرقت شموسهم فى الشرق والغرب فأماطت الظُّلْم وأنارت الظُّلَم، وسلم يارب كثيرا»[1].

---

(١) مداحض القدم: مزالقها. الضرم: الاشتعال. لها ميم جمع لهميم وهو السابق الجواد من الخيل والناس.

وإذا كنا قد وجدناه في مقدمة « الارتسامات اللطاف » يذكر اثنتى عشرة جملة مسجوعة ، وكل منها تنتهى بكلمة فى آخرها قاف ، فإننا نجده هنا يذكر أربع عشرة جملة مسجوعة ، وكل منها تنتهى بكلمة فى آخرها ميم ، وهذه الكلمات هى : « القدم ، القلم ، القسم ، النعم ، العدم ، الفم ، الضرم ، الأمم ، العلم ، القدم ، الحكم ، الكرم ، المزدحم ، الظلم » ! .

هذه ليست حلية لفظية ، ولا صبغة بديعية ، يحاول شكيب أن يزين بها كلامه ، ولكنها محاولة من شكيب لإظهار قدرته على السجع ، وعلى التزام حرف واحد ، وعلى حفظه لكثير من المفردات المماثلة فى حرفها الأخير .

ولا يكتفى شكيب بما قدم من سجع فى هذا الجزء المتقدم من مقدمة الكتاب ، بل يستمر فى سجعه إلى آخرها فيستغرق فيها ثلاث صفحات كبيرة بحروف صغيرة وسطور كثيرة فى كل منها .

وفى مقدمته لكتاب « محاسن المساعى فى مناقب الإمام أبى عمرو الأوزاعى » الذى نشره سنة ١٩٣٣ يذكر عشر جمل كل منها تنتهى بكلمة فى آخرها همزة وهاء ، وهى : « نعمائه ، أسمائه ، أنبيائه ، لوائه ، بنائه ، أوليائه ، سوائه ، آرائه ، أنحائه ، سمائه » ! .

ولكنه ما يكاد يتم هذه العشرة فى نحو سطور عشرة حتى ينطلق فى عبارته المترسلة بلا سجع .

فلم يكن شكيب إذن عبداً للسجع ، ولم تكن الصنعة البديعية غريزة فيه ، ولكنه فيما يبدو يريد أن يظهر براعته وقدرته ، ويريد أن يتشبه بالسابقين ليقرن بهم من جهة ، ويريد أن يقول للمتكلفين من كتّاب عصره إنه يستطيع أن يجاريهم وأن يسبقهم ، وهو بعد هذا يحسن مالا يحسنون . وهو أسلوب الترسل والانطلاق .

ولذلك نجده فى تقديمه لديوان أخيه نسيب « روض الشقيق » يبدأ بسجع ملتزم فى صفحة من المقدمة تقريبا ، ثم يخفف حدة الالتزام فى صفحتين تاليتين أو ثلاث ، ثم ينطلق مترسلا [١] .

ونجده فى مقدمة « الحلل السندسية » يطيل نَفَسه فى السجع حتى يستغرق صفحات وصفحات ، فى روعة تذكِّر بسجع شوقى فى « أسواق الذهب » [٢] .

ومما يستحق الالتفات أن الأمير لم يستعمل السجع فى مقدمة كتابه عن شوقى ، ولا فى مقدمة كتابه « لماذا تأخر المسلمون » ، ولا فى كتابه عن رشيد رضا . ولعل السبب فى ذلك هو أن الكتابين الأولين كانا فى الأصل مجموعة من المقالات نشرت فى الصحف ثم جمعت ، وأن كتابه عن رشيد فيه معنى الرثاء ، وموطن الرثاء لا يناسبه التفنن فى الصنع البديعى أو محسنات الألفاظ .

ومما يدلك على أن الأمير شكيب كان يتعمد هذا السجع أحياناً وبمقدار ، ليدلل على براعته وقدرته وتفننه ، أنه كان يستعمله أحياناً فى بعض المقالات الإخوانية وبعض رسائله إلى الأصدقاء ، وهو فى بعض الأحيان يلتزم السجع مدة طويلة ، وأحياناً أخرى يسارع بالانتقال منه إلى الترسل .

ها هو ذا يكتب فى جريدة الشورى مقالا بعنوان : « مداعبة صديق لصديقه » يخاطب فيه شيخ العروبة أحمد زكى باشا بمناسبة زيارته لصنعاء ، فيقول له مداعباً :

« دخلتَ صنعاء دخلة البطل ابن همام ، لا الحارث بن همام ، فلم تكن خالى الوفاض ، ولا بادى الأنفاض ، بل كنت ملآن الوطاب علما ووُجْدا — بضم الواو — فائض الجوانح إخلاصا ووَجْدا — بفتحها — ولم تفتك هناك ولا شك جواهرُ

---

(١) انظر الصفحات ٣ — ٨ .

(٢) انظر من صفحة ، إلى ص ١٢ ، ج ١ .

اللفظ ، ولا أجبرتك الحال على زواجر الوعظ ، فإن التمر لا يُهدَى إلى هَجَر ، وإن البحر لا يساجله مساجل بالدرر »[١] .

وبعد أن يقطع شوطاً فى سجعه وجناسه يقول مخاطبا زكى باشا :

« لا تعجب من هذه الجناسات ، فقد رأيتك يا أخى تلتزم الجناس ، وستصير فيه سيدَ الناس ، فنى مقالتك هذه[٢] : أهواء والهواء ، وحشاها وحواشيها ، والشقة والمشقة ، وتسنيم وتسنيم ، والزور ودير الزور ، وغير ذلك .

إلا أن جناسا هناك يخيفنى ، وسجعة فيها ما فيها ، تظهر آثار الحشى من حواشيها ، وذلك عند قولك : (جزيرة قفراء ، إلى أخرى مثلثة الخاء ، خلاء فى خواء فى ... والثالثة ليس فيها خفاء) فأنا كنت أقول : لعل الثالثة التى ليس فيها خفاء هى (خباء) ، فتكون الجملة : (خلاء فى خواء فى خباء) إلا أنى أرى من غرام سيدى بلزوم مالايلزم فى أسجاعه ، ومن عدم اكتفائه بالحرف الأخير حتى يلتزم أيضا ما قبله ، ومن كون الفاصلة الأولى آخرها (قفراء) ما رجح عندى أنه لا بد فى الفاصلة الثانية قبل الهمزة من راء[٣] » ! .

أرأيت القدرةَ على السجع ، وعلى التلاعب باللفظ ، وعلى استحضار المفردات المتشابهة ، والكلمات المتماثلة ؟ .

وفى رسالة لشكيب إلى أحد أصدقائه ، نراه يجمع بين السجع والترسل ليظهر قدرته على الاثنين ، فيقول :

---

(١) الوفاض : جمع وفضة ، وهى خريطة الراعى لزاده وأداته ، والجعبة من أدم . والإنفاض : المجاعة والحاجة (عن اللسان) . والوطاب : جمع وطب وهو سقاء اللبن . والوجاء بالضم : الخفى ، وبالفتح : الحب . وهجر : اسم لجميع بلاد البحرين ، والمثل يقول : كمبضع التمر إلى هجر . وهجر بلد باليمن ، وقرية كانت قرب مكة .

(٢) يشير إلى مقالة لزكى باشا منشورة فى الشورى ، عدد أكتوبر ١٩٢٦ .

(٣) جريدة الشورى ، عدد : نوفمبر ١٩٢٦ .

« إن منصبي مكتبي ، ورواتبي كتبي ، ووظائفي صحائفي ، وأدواتي دواتي ، وبضاعتي يراعتي ، وأعلاقي أوراقي ، وليس لي نية في غير ذلك ، وأسأل الله ألا يحوجني إلى قبول أي منصب ، وأما من جهة السياسة فزهادتي أيضا تامة ، ولست أتعرض إليها إلا في المسائل التي أجد وطني فيها بخطر ، أو أرى على قومي حيفا لا يحتمل ، وإلا فما أقل رغبتي فيها ، وأظن أننا استوفينا قسطنا على أكمل وجه » [1] .

أرأيت السجعات الدقيقة الأنيقة السريعة التي تتألف كل منها من لفظة ولفظة ، وما تضمنه بعضها فوق السجع من جناس غير تام ؟ ثم أرأيت كيف انتقل شكيب عقيب ذلك إلى أسلوب سهل واضح لا أثر فيه للصنعة أو القيود ؟ .. وكأنه جعل السجع في كلامه كالملح في طعامه ، على طريقة قول العرب : « من أخل أحمض » .

والعجيب أن شكيب ظل على السجع حتى أواخر أيامه ، فقد كتب مقدمة كتابه المخطوط « بيوتات العرب في لبنان » وأرخها بتاريخ ١٩ يوليه ١٩٤٦ [2] ، أي قبل وفاته بأقل من خمسة أشهر ، ومع ذلك أورد فيها قدراً من السجع ، فقال فيها :

« الحمد لله سياج النعمة ، ومخافة الله رأس الحكمة ، ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة نستفتح بها أبوابَ الرحمة ، ونلجأ إليها في كل بادرة وأزمة ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، كاشف الغُمّة ، وسراج الظلمة . صلى الله عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين الذين باتباع وصاياهم تمام العقل وكمال الشِّئْمة [3] » . ثم يترسل بعد ذلك في حديثه .

لعل الأمير أراد أن يقول لقرائه : إنه ما زال على عهدهم به ، وإن زاد على السبعين بسنوات وأقبل نحو الثمانين ، فما زال قادراً على أن يسجع ، وأن يصطنع الصِّيَغ البديعي ، وأن يورد سجعات متواليةً يختتمها بالكلمات التالية : « النعمة ، الحكمة ، الرحمة ، أزمة ، الغمة ، الظلمة ، الشئمة » ! .

(١) مجلة الشباب ، عدد ٣ مارس ١٩٣٧ . والأعلاق : النفائس .

(٢) جريدة منبر الشرق ، عدد ٨ إبريل ١٩٥٥ .

(٣) المرجع السابق . والشئمة (بكسر فسكون) : الطبيعة (القاموس) .

ولكننا نلاحظ هنا أن السجع خفيف لطيف، وشتان ما بينه وبين سجع شكيب في تقديمه كتاب «محاسن المساعى» مثلا، حيث يقول :

«الحمد لله على نعمائه، وسبحانه وتعالى بجميع أسمائه، والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه، النبيِّ العربيِّ الأميِّ الكاتب كلمة لا إله إلا الله فوق لوائه، جاعل العدل والإحسان والمحافظة على حقوق الإنسان أعظمَ قواعد شرعه، وأمتن أعمدة بنائه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأوليائه، وإخوته الأنبياء المرسلين الذين دعوا إلى الله وهدوا الخلق إلى سلوك سوائه، وعلى الأئمة المجتهدين والأئمة المجاهدين الذين أعلوا كلمة الحق هذا بفتوحاته وهذا بآرائه، ومنهم المترجَم فى هذا الكتاب الإمام أبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعى الذى كان من مفاخر الإسلام فى علمه وورعه واستقامة أنحائه، رضى الله عنه وأرضاه وأعلى درجاته فى غُرف سمائه»[1] .

السجع هنا متكلَّف، والجمل غير متناسبة فى قصرها وطولها، وكثير منها قد أرغم إرغاما على أن يتكون من شطرين غير متلائمين .

• • •

وحينما نشر شكيب ديوان أخيه «نسيب» كتب الأستاذ محمد كردعلى فى مجلة «الرسالة»[2] يعيب على شكيب سجعهُ وإطالته الكلامَ بهذا السجع، ويقترح عليه أن يحذف من مقدمته للديوان العبارةَ التالية التى يتكلم فيها عن شعر أخيه :

«لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار، ولا لديوانه حليةً أجمل من نشره فى الأقطار، وخير وصف للحسناء جلاؤها، والجواد عينه تغنى عن الفرار ولعمرى لو وصفته بأزهار الربيع وأنواع البديع، وشققت فى تحليته أصناف الأساجيع، وكان هو فى الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلا، ولا رفعته عن درجته

---

(١) محاسن المساعى، ص ٤ .

(٢) عدد ١٩ أغسطس عام ١٩٣٥ .

قليلا ولا كثيراً ؛ كما أنى لو قدمته للقراء فريدة معطالا ، لا يرن لها حِجْل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو فى نفسه دُرًّا نظيما ، وأمراً عظيما ، وديوانا تتأرج أرجاؤه نَدًّا ولطيما ، لما خفى أمره على ذوى الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه أحد ممن له عينان »[١] .

ويقترح عليه أن يضع بدلها العبارة الموجزة التالية : « لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو فى الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلا ، ولو قدمته إلى القراء فريدة معطالا ، وكان هو فى نفسه درًّا نظيما ، لما خفى أمره » .

ويقول الأستاذ كردعلى عقب اقتراحه : « أليس هذا الإيجاز أوقع فى النفس ، وأجمل فى أداء المعنى ، وأدعى إلى الإفهام من أسجاع تثقل على الطباع » ؟ .

وانتضى شكيب قلمه ليدافع عن نفسه وعمله فى صورة من يدافع عن السجع ، فقال فيما قال :

« أما السجع — وما أدراك ما السجع — فالكلام العربى ينقسم إلى مرسل ، ومسجع ، وموزون مقفى ، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه أكثر من غيره ، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعى الذى به أكثر تفاهم الناطقين بالضاد ، والموزون المقفى هو الشعر الذى لا رونق للغات بدونه ، والسجع وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع فى النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف أن كتاب الله قد نزل بهذه الطريقة ، وأن (نهج البلاغة) وكثيراً من كلام أفصح

(١) جلاء العروس : عرضها على بعلها . والفرار (بضم فتتح) : الكشف عن أسنان الدابة لمعرفة سنها ؛ وفى المثل : « عينه فراره » يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه ، ومنظره يغنى عن أن تفر أسنانه وتخبره . والفريدة المعطال : النفيسة بغير حلى عليها . والحجل : الخلخال . والند واللطيم : العنبر والمسك .

العرب هو من النوع المسجع ، ولا يقال فى بديع الزمان والخوارزمى والصاحب والصابى والقاضى الفاضل وأمثالهم إنهم لم يحسنوا القول .

فإن كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع إلا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغة العربية ، فلكل لغة خواص تمتاز هى بها ، وقد خلق الله الناس أذواقا مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، فالعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب »[١] .

وفى كلام شكيب مواطن نقف عندها ، فقد قال إن السجع له وقع فى النفوس لا جدال فيه ، ونقول إن هذا الوقع يكون إذا جاء السجع خفيفاً وفى مواطنه ، كما قال شكيب نفسه : « لا يحسن وقع السجعة إلا إذا جاءت فى محلها »[٢] . لكن إذا التزمه الإنسان وأطال فيه سبَّبَ المللَ والسأم ، وصار كالغراب الذى أراد تقليد الطاووس فلم يفلح ، ونسى طيرانَ الغراب ، فالسجع إذا طال لم ندر : أهو شعر فيجب أن يوزن ، أم هو خروج على سلاسة الكلام فيعد خللا ؟ .

وها هو ذا الدكتور زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى » يقرر أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية ، فهو فى أكثر اللغات يجرى باطراد فى الحِكَم والأمثال ، ثم يذكر الدكتور أمثلةً كثيرة من السجع فى عصور العربية المتتابعة ، ثم يتحدث عن السجع فى عناوين الكتب ويقول : « وقد سرى هذا الفن إلى عصرنا الحاضر ، مع ما أفرطنا فى الدعوة إلى ترك السجع ، فالأمير شكيب أرسلان كتاب حديث جداً نشره أولا فى جريدة الشورى اسمه : « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف »[٣] .

ولكن الدكتور يعود فيقول : « نحن نرى السجع قيداً يعطل حركةَ الفكر

---

(١) مجلة الرسالة ، عدد ٢٣ سبتمبر ١٩٣٥ .
(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ٢٤٠ .
(٣) النثر الفنى ، ج ١ ص ٦٤ وما بعدها .

والعقل فى كثير من الأحيان ، ونراه يبعد لغة العرب من أن تصير لغة مدنية تعبر عن جميع الشئون فى طلاقة وحرية ، بحيث لايصدها سجع ، ولايحدها ازدواج »[١].

و « شوق » صديق شكيب يذكر السجع فى كتابه « أسواق الذهب » فينوه به ، ويعده خلقاً من الشعر ، ثم ينقد الذين يعيبونه دون تفرقة منهم بين الجميل منه والقبيح ، فيقول :

« السجع شعر العربية الثانى ، وقواف مرنة ريضة خصت بها الفصحى ، يستريح إليها الشاعر المطبوع ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله ، ويسلو بها أحياناً عما يفوته من القدرة على صياغة الشعر . وكل موضع للشعر الرصين محل للسجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع ، فإنما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضعَ للشعر الرصين : من حكمة تخترع ، أو مثل يضرب ، أو وصف يساق ، وربما وشيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ورصعت به القصار من فقر البيان المحض ، وقد ظلم العربيةَ رجال قبحوا السجع وعدوه عيباً فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه : يوضع عنواناً لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشواً فى رسائل السياسة ، أو ثرثرة فى المقالات العلمية .

فيا نشء العربية ، إن لغتكم لسرية مثرية ، ولن يضيرها عائب ينكر حلاوةَ الفواصل فى الكتاب الكريم ، ولا سجعَ الحمام فى الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح[٢] » .

ومن قبل شوق ومبارك وشكيب قال عبد القاهر الجرجانى فى « أسرار البلاغة » :

« ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولاً وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .
(٢) أسواق الذهب ، ص ١١٥ .

وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من أن تجنّس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بمَرَضِ الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم »[١] .

وشكيب نفسه يعرّض بالسجع المتكلف فى بعض ما كتب ، كأن يقول : «عند ما سمى لسان الدين بن الخطيب أحد كتبه (الإحاطة فى أخبار غرناطة) لم يقصد إلا السجعة على حد قول من قال : أيها القاضى بقُمّ ، قد عزلناك فقُمْ ! وإلا فلا سبيل إلى شىء إسمه (إحاطة) عند الكلام على غرناطة »[٢] .

ويقول شكيب : إن القرآن الكريم جرى على طريقة السجع . وقد قال السلف : « لا يقال : فى القرآن أسجاع رعاية للأدب وتعظيما له ، إذ السجع فى الأصل هدير الحمام ونحوه . . . بل يقال للكلمة الأخيرة من الآية فاصلة »[٣] . وقد سبق منذ قليل فى عبارة لشوقى قوله : « حلاوة الفواصل فى القرآن الكريم » .

ويقول إن « نهج البلاغة » من النوع المسجوع ، ولعلّ هذا توسع فى الحكم ، فالسجع فى « نهج البلاغة » ليس صفة غالبة عليه ، وقد يكون أكثره فقرات قصيرة ، ولكنها ليست كلها ولا أكثرها مسجوعة .

ولكن الأمير يمضى فى اعتزازه برأيه وخطته ، فيدافع عن السجع من بعد

---

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٠ .

(٢) جريدة الشورى ، عدد ٢٧ أغسطس ١٩٣٠ — مقال (لا تمكن الإحاطة بأخبار غرناطة) .

(٣) شرح المختصر لسعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى ، ج ٢ ص ٢٠٨ . ولكن الدكتور زكى مبارك يرى أن السجع «موجود فى القرآن » ، ويقول : إن الباقلانى ينفى ورود السجع فى القرآن ، ويذكر الدكتور أنه نقض رأى الباقلانى من الأساس . انظر كتاب النثر الفنى ، ج ١ ص ٦٧ — ٨١ .

ذلك ومن قبل ذلك ، فهو حين رأى أن الدكتور زكى مبارك يشارك محمد كرد على الغمز بشأن السجع كتب يقول :

« إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخ كرد على وحده الذى بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحدُ الأصحاب أطلعنى على كتاب للدكتور زكى مبارك لمحت فيه كلاما يشبه أن يكون استصغارا للسجع ، أو استكبارا لإتيانه ، وهذا باب جديد عجيب إذا أردنا الآن أن ندخل فيه يطول الأمر .

فنكتفى بالقول إن السجع وُجد فى الجاهلية ، وجاءت منه أمثلة لأفصح فصحائها ، ثم جاء فى القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع ، وهو أبلغ الكلام العربى وغير العربى ، وجاء فى كلام الصحابة والمخضرمين ، ثم فى الطبقة التى تليهم ، ثم فى التى تليهم ، ثم فى التى تليهم ، إلى يومنا هذا .

ولم نعلم أحداً عاب السجعَ من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة إلى المقام الذى يستعمله فيه الكاتب ، أى أنه لما كان السجع تقيدا بفواصل — كما هو الشعر تقييد بقواف — فلم يكن مستحسنا فى المواطن التى يجب أن ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعانى على وجهها .

وأما فى المواطن التى هى أقرب إلى الشعر منها إلى المباحث العلمية الصرفة ، فليس السجع بالذى يُعدُّ سُبّةً على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة ، وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من أجل كونه طريقة قديمة ، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية ، فإن هذا يؤدى بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً ، فإن الشعر هو من قبيل السجع ، طريقة قديمة وزينة كلام تُتوخى فيها المحاسن اللفظية ، كما تتوخى المحاسن المعنوية ، ويراعى فيه الوزن والقافية ، وهو من قبيل الموسيقى ، والموسيقى هى أيضاً قديمة ، والطبيعة البشرية تألفها ، بل تحتاج إليها ، بل تهتف بها .

والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية ،
والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد أيضاً بقيود لها مواقع فى
النفوس ، وهى فى محلها مطربة مستعذبة ، ولا غبار عليها .

ولا يقدر أحد أن يقول إننى مُفْرط فى هذا المذهب ، لأنه ليس لأحد من
الكلام المرسل أكثر مما لى ، ولكنى لا أزال أرى السجع حليةَ الكلام العربى
عندما يكون فى محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ، ومثل الخطب التى تلقى على
الجماهير ، وأن العرب قد اصطلحوا على السجع فى أسماء الكتب ، ولم يخطئوا فى
ذلك ، لأن الكلام المسجع أعلق فى الذهن من غيره » (١) .

وقد يسرنا من هذا النص جزآن : الأول أن شكيب يقرر أن السجع غير
مستحسن فى المواطن التى يجب أن ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعانى
على وجهها .

والجزء الآخر هو تقريره أنه غير مُفْرط فى السجع ، وأن له من الكلام
المرسل ما ليس لغيره من ناحية الكثرة .

* * *

فإذا تركنا السجع إلى غيره من المحسنات البديعية وجدناها تأتى متناثرة
وخفيفة فى كتابة شكيب ، وأحيانا تكون جميلة مقبولة ، كقوله موريا : « والذى
يريده الإسلام إنما هو أن يعقل الإنسان ويتوكل ، وأن يدبر لنفسه بهداية عقله» .

ففى كلمة « يعقل » تورية لطيفة ، إذ تحتمل أحد معنيين : الأول تحكيم العقل
فى الأمور مع التوكل على الله ، والثانى : عقل الناقة ، أى ربطها ، والمراد الأخذ
بالأسباب مع التوكل ، وفيه إشارة إلى الحديث المشهور : « اعقلها وتوكل » .

---

(١) مجلة الرسالة ، عدد ٥ أغسطس ١٩٣٥ .

وأحيانا لا يوفق شكيب في هذه المحسنات، كقوله على سبيل الجناس:

" يا مَغْرِبِي، يا مُغْرىَ بي "(١)

فكلمة " مغربي " الأولى نسبة إلى " المغرب "، وكلمة " مغرى بي " مكونة من لفظين " مغرى " و " بي " أي؛ يا من أغراك بي أحد، وأنت ترى معي مبلغ التكلف، مع عدم اتساق الجناس من ناحية الحركات.

(١) رواية آخر بني سراج، ص ٤٥

ترسل شكيب

فيما عدا القدر السابق من حرص شكيب على السجع تراه يمضى فى كتابته مترسلاً ، متخففاً من أثقال الصنعة والصبغ البديعى ، كما ترى ذلك فى أكثر من كتاب ، كالارتسامات اللطاف ، وكتابه عن رشيد ، وكتابه عن شوق ، ولماذا تأخر المسلمون .

وفى تقديم خليل مطران لديوان شكيب ذكر أن الأمير بعد مرحلة تغنيه بشعره الذى نشر فى ديوانه الأول « باكورة » آثر الترسل « ومضى فيه متدفقاً تدفق الينبوع الصافى ، مجلجلاً أحياناً جلجلة السيل الكثير الشعاب » . ويستشهد مطران على ذلك بكتب شكيب القيّمة ، والرسائل المتنوعة ، والمقالات التى تنشرها المجلات الدورية والصحف اليومية فى السياسة والاجتماع والأدب والتاريخ والأخلاق .

ثم يقول : « تلك غاية لم يدركها غير هذا العبقرى فى الترسل ، ولو قد رامها فى الشعر لأدركها كما قدمت ، غير أنه إذا كان قد رضى لنفسه فى الشعر بأن يكون المُقِلّ المجيد ، فلا مشاحة فى أنه انفرد بين المترسلين بأنه المكثر المجيد » .

ويقول رشيد سليم الخورى فى أسلوب شكيب وترسله : « أقرأه فأشعر أنى فى حضرة جبار من جبابرة البلاغة ، تتقاذف أنامله الطود ، كما تتداول الحصاة ، ويمج قلمه الأنداء حيناً والأمواج حيناً ، وتتسارع المعانى من قريحته ، والمبانى من موسوعه ، متزاحمة على سن يراعه ، منقادة إليه ، لا يكد فيها ذهناً ، ولا يستحضر لفظاً ، ولا يعمل مهمازاً ، ولا يخشى عثاراً ، فهل يرسل الكلام على سجيته إرسالا عجيباً ، وقد ألبسته أفكاره لا قصيراً ولا فضفاضاً ، بل مفصّلاً أحسن تفصيل وأكمله، مع أنه لا يعانى فى ذلك قياساً ولا مراجعة [1] » .

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ٨ سبتمبر ١٩٣٧ .

ويقول عنه أيضا: " يأتيك بالصفحة تترقرق فيها الألفاظ كالغدير الصافي، فتخاله يخاطبك بلغة عامية، هي من الفصيح البارع الفصاحة، فلا تكاد تفرغ منها حتى يسبح بصرك في ظلال ممدودة، يسمو منها إلى سفح أو قمة أو خميلة هي قطعة موارة بالجمل البليغة، أو فقرة كأداء بالمفردات العويصة، أو شواهد شعرية زاهية بالحكم زاهرة بالأمثال، وهو في كل ذلك لا يرمي إلى إراحتك أو إلى إعناتك بل يضع الكلمة في موضعها، مخلوقة لمحلها، ومخلوق محلها لها، كما تنجذب الأشياء بطبيعتها إلى شكولها، وتلزم الكهارب مراكزها من نواتها "(١) .

وشتان ما بين القطع المسجوعة التي نقلناها من مقدمات كتب شكيب أو من رسائله، والقطعة التالية من كتابه (لماذا تأخر المسلمون)؛ فإن في هذه القطعة من السهولة والترسل بقدر ما في القطع المسجوعة من التزام للصبغ البديعي.

يقول شكيب:" ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم، فكما أن آفة الإسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئا، ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي ظنا منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار؛ فقد أضاع الإسلام جاحد وجامد .

أما الجامد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم من جميع مقوماتهم ومشخصاتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم، ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته، وهذا الميل إلى إنكار الإنسان لماضيه، واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين،

---

(١) المرجع السابق.

وأنه هو يريد أن يبرأ منهم ، لا يصدر إلا عن القَسْل [١] الخسيس ، الوضيع النفس ، أو عن الذى يشعر أنه فى وسط قومه دنىء الأصل ، فيسعى هو فى إنكار أصل أمته بأسرها ، لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ، ليس له نصيب من تلك الأصالة ، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التى جعلت فى كل أمة ميلا طبيعياً للاحتفاظ بمقوّماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك ، إلا ما ثبت ضرره [٢] » .

هذه عبارة سلسة سهلة مترابطة الجمل ، ليس فيها سجع ولا ازدواج ولا محسنات أخرى ، بل ليس فيها حرص على استعارة أو كناية ، فقد استوت الفكرة على ذهن شكيب وقلمه ، فأخذ يؤديها بأوضح عبارة وأيسرها ، وسائر كلمات العبارة معروفة مألوفة ، ليس فيها غريب ، أو نادر الاستعمال ، أو لافت للنظر من الناحية اللفظية ، إذا استثنينا كلمة « القَسْل » — وهو الرذل الذى لا مروءة له — كما يذكر القاموس — وكلمة « تفرنج » المنحوتة من « الإفرنج » ، والمصدر الصناعى « هويته » الدال على صفة الذات ! . . .

ولننظر إلى نموذج وجيز من كتاب آخر ، حيث يقول شكيب مثلاً فى « الارتسامات اللطاف » عن جمال الهواء فى « الطائف » :

« وأما طيب النسمة فإنك تحس فيها من الانتعاش وسعة التنفس ما لا تشعر به فى مكان . وقد كان أصابنى فى سويسرة زكام فى شُعَب الرئة لعلّ أصله من البرد ، فكان يضيق به نَفَسِى كثيراً ، لا سيما إذا استطال الشغل ، فما مضى علىَّ فى الطائف إلا قليل حتى ذهب هذا الزكام بتمامه ، وصار الهواء يجرى فى

---

(١) القسل : الرذل الذى لا مروءة له .

(٢) لماذا تأخر المسلمون ، ص ٧٧ و ٧٨ .

رئتى كأنه فى صحراء . ولما رجعتُ إلى أوربة قال لى الأطباء بعد المعاينة إنه يبق هناك أثر لشىء يقال له زكام فى شعب الرئة .

ولم يكن هذا بأول فضل الطائف علىَّ ، بل هواء الطائف هو الذى شفانى بإذن الله . بل الله هو الذى شفانى به من الضعف الذى كنت منه على شفا ، فلا عجب فيما رواه ابن عراق من أنهم كانوا يغبطون من يصيِّف بالطائف ، وفيما يروى عن معاوية بن أبى سفيان من قوله : أنعم الناس عيشاً من يقيظ بالطائف ، ويشتو بمكة ، ويربع بنجدة [١] » .

أيحتاج القارىء المتوسط الثقافة أن يتوقف أو يتلبث عند فهم جملة من جمل هذه العبارة المرسلة السهلة الواضحة ؟ .

وإذا كنا قد ذكرنا طائفةً من نماذج العبارات المسجوعة لشكيب فلا مانع أن نذكر نموذجاً آخر من أسلوبه المترسل ، وهو من كتابه « تاريخ غزوات العرب » حيث يقول عن آثار العرب فى وادى « فاليه » بسويسرة :

« قد تقدم فى هذا الكتاب بحسب الروايات المتفق عليها ، والتى يعدها المؤرخون من الحقائق التاريخية أن العرب أغاروا على هذا الوادى ، واستولوا على معبر سان برنار الكبير ، وتغلغلوا فى عدّة من شعاب الوادى وأقاموا بها ، وكانت لهم وقائع مع الأهلين ، ومن جملتها إحراقهم دير القديس موريس .

ومنذ جئنا إلى سويسرة ، وألقينا فيها عصا التسيار ، علمنا فى أثناء الحديث مع علماء البلاد ولاسيما الذين يعنون بالآثار التاريخية ، أنه يوجد فى ذلك الوادى قرى أصل أهلها من العرب ، أو فيها أناس من سلائل العرب اندمجوا مع سائر الأهالى ، وأنهم يعرفون من سحنائهم أنهم عرب ، فلما أجمعنا نشر هذا الكتاب ، وفيه كل

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ١٢٤ .

ما تعلق بموضوع إقامة العرب بفرنسة وسويسرة وإيطالية ، رأينا حَرِيًّا بنا — زيادة في التثبت ونصحاً بالبحث — أن نتوجه بنفسنا إلى هاتيك القرى التي يقال إن أهلها من أصل عربي ، ونتقب ما استطعنا عن هذه المسألة ، بمشافهة أهل الديار ، ومراجعة ما يمكن العثور عليه من الآثار »[1] .

أرأيت ؟ إنك لا تجد في العبارة من حلية أو زينة بديعية ، أو نكتة بلاغية ، سوى الكناية الواضحة في قوله : «وألقينا فيها عصا التسيار» ، وسوى السجعة الوحيدة التي وردت عفو الخاطر في آخر العبارة .

إن الأمير شكيب كاتب مترسل بارع ، وكما نراه حيناً يتعمد السجع مكثراً فيه ملتزماً له ، نراه في ترسله بعيداً عن السجع وغيره من المحسنات اللفظية .

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٧٦ .

الجملة القرآنية

لاحظتُ فى كتابات شكيب أنه يكثر الاقتباس من القرآن الكريم ، والاقتباس هو أن يضمّن الكاتب كلامَه شيئاً من القرآن ، لا على أن ذلك الشىء جزء من القرآن ، لأنه لو ذكره على أنه جزء من القرآن لم يكن اقتباساً ، وإنما يكون استشهاداً .

ولاحظت أن اقتباسه آية بأكملها ، أو جزءاً كبيراً من آية طويلة أو متوسطة الطول ، لا يحدث إلا نادراً ، ولكنه فى الغالب يأخذ من الآية لفظاً أو لفظين ، وقد يتصرف فى نص العبارة القرآنية حين يأخذها ويضمنها كلامه .

ولنضرب لذلك طائفة من الأمثلة ، ففى كتاب « الارتسامات اللطاف » وردت هذه العبارات :

« سبحان الله وبحمده فى العشىّ والإشراق — التى نرجو بها الخلاصَ يوم التلاق — فسارت بنا الباخرة رَهْواً — ويحفظ الأمنة علىّ وعلى غيرى — من لايرقب فى هذه الأمة إلاًّ ولا ذمة — فإنهم يتطوقون من هذا الحر عذاباً واصباً — قد بُدِّلت فيها الأرض غير الأرض — واعتصموا بحبل الثبات — حتى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج — يأكلون فى بطونهم ناراً ولا يخافون الله ولايشعرون — حتى نقول إنها خاوية على عروشها — والعارض الذى جاء الحجاج يومَ عرفة لم يكن ممْطِرَهم — فتسيل لها أودية بقَدَرِها — وما أوى من قفر ، وما آمنَ من خوف — وأخذ كل مافيها أخذَ عزيز مقتدر — والآبار مُعطَّلة والقصور غير مشيدة — لا يحمل إصراً على ضعيف — ولا يرهقون عُسْرا — الذين اتخذوا إلههم هواهم — ما كان فيها من نمارقَ مصفوفة ، وزرابىَّ مبثوثة — حتى عادت

كالعرجون القديم — وصارت أكثر البيوت خاوية على عروشها — وطوت تلك المسافات الطوال طى السجل للكتاب »[١] .

وفى كتاب « شوق أو صداقة أربعين سنة » نجد هذه العبارات :

« ولا أحسنا له ركزاً — يتزرون به فى هذا الموضوع بكرة وأصيلا — ولكنه خفض هناك فى عيشة راضية — ليفتحوا بيننا وبينه بالحق — إلا إذا شاء تحريف الكلم عن مواضعه — ولا يغنى صاحبه من الحجة شيئاً — فأنارت الطريق وحصحص الحق — وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل — ولم تغن النذر — ومردوا على النفاق — ويفتنونهم لا فى كل عام ، بل فى كل يوم مرة أو مرتين — التى بدلت الأرض غير الأرض — وتنحدر العبرات شفعاً ووترا — وكم من الله على الذين استضعفوا فى الأرض وجعلهم أئمة — وقدضاقت على الناس الأرض بما رحبت — كما آنسوا ناراً — وما كان العلم فى هذا المقام إلا ليزيدهم خبالاً »[٢] .

وفى رواية « آخر بنى سراج » التى ترجمها شكيب عن الفرنسية وردت هذه العبارات :

« متملا بالعظام الرميم من ذلك النعيم والملك الكبير — بلدة تؤتى أكلها رغداً — وجرت الفلك به بريح طيبة — ولا يحس فى الشوارع ركز — حوراء من قاصرات الطرف — منذ طلوع الشمس إلى أن تتوارى بالحجاب — تشيب من هولها الولدان — ولا يولون الأدبار — لم يكلم إنسيا — منظر يأخذ بالأبصار — وقضى الله أمراً كان مفعولا — على شفا جرف الحياة — أحفظ حبك إلى يوم يبعثون — أقلعت عن ضلالك القديم — كنت ظننت وبعض الظن إثم »[٣] .

---

(١) الابتسامات اللطاف ، ص ٢ و ٦ و ١٠ و ١١ و ٢١ و ٢٣ و ٢٤ و ٣٢ و ٣٥ و ٣٦ و ٥٠ و ٥٢ و ٥٤ و ٧٥ و ٨٢ و ٨٤ و ٩٨ و ١٤٠ و ٢٠٧ .

(٢) كتاب « شوق » ص ٤ و ٣٨ و ٤٨ و ٦٨ و ٧٠ و ٧٤ و ١٨٥ و ١٨٧ و ١٨٨ و ١٩٥ و ١٩٧ و ٢١١ و ٢٣٣ و ٢٥٤ و ٣٢٣ .

(٣) رواية آخر بنى سراج ، ص ٢ و ٥ و ٧ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٩ و ٢٠ و ٣١ و ٣٢ و ٤٠ .

وفى كتابه « لماذا تأخر المسلمون » نجد هذه التعابير :

« وقد أتى على العرب حين من الدهر — فالله غير مخلف وعده — انقلبوا بنعمة من الله وفازوا — وانقلبت بنعمة من الله وفضل لم يمسسها سوء — أو يحتال هذا تجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم — نرسل إليهم علماء ووعاظاً ليتفقهوا فى الدين — وصاروا إذا التقى الجمعان — لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة — يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً — ذهبت ريحهم — رغبوا عن أوامر كتابهم وشروا به ثمناً قليلاً — كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً — والله غالب على أمره »[1].

وهناك صفحات كثيرة فى هذا الكتاب ، فى كل منها استشهاد بأكثر من آية[2] ، وأغلب صفحات الكتاب لا تخلو واحدة منها من استشهاد بآية .

ولو راجعنا بقية كتب شكيب لوجدنا فيها اقتباساً كثيراً من القرآن الكريم ، وهذا يدلنا على أن شكيب كان يتابع « الجملة القرآنية » ويستهدى بها ، ويقتبس منها فى كلامه ، وقد دفعه إلى ذلك عدة دوافع ، منها حفظه الكثير من سور القرآن الكريم وهو صبى ، ومنها اتجاهه الإسلامى ونزعته الدينية منذ كان عثمانياً يتعصب للخلافة ويدافع عنها ، ويرى اعتزازه بالقرآن ونشره لآياته واهتداءه بجملته الإلهية المضيئة مما ينبغى للمسلم أن يلتفت إليه ويحرص عليه ، ومنها تأثره بالإمام الشيخ محمد عبده مفسر القرآن الكريم ، والذى يشهد له « تفسير المنار » المشهور بمجهوده الضخم فيه ، ومنها إحساسه بأن تضمين كلامه ألفاظاً أو آيات من كلام الله تعالى يزيد كلامه جمالاً وجلالاً ، لأنه كتاب الله الذى جعله الله أحسن الحديث وسيد الكلام .

---

(١) لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٢ و ١٤ و ١٨ و ٢٥ و ٥٢ و ٦٥ و ١٠٣ و ١١٦ و ١٢١ و ١٢٦ و ١٥٠ .

(٢) انظر مثلا الصفحات ١٤ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٩ و ٤٧ و ٤٨ و ٥٥ و ٦١ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠٣ .

ولهذه الأسباب وما ماثلها كان شكيب أيضاً يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية في المواطن المناسبة لها من مقالاته الاجتماعية والأدبية والسياسية ، حتى يدفعه ذلك أحياناً إلى أن يجعل عنوان مقالته آية أو جزء آية ، كما في مقاله الذى كتبه في ١٤ حزيران ١٩٤٠ م بمناسبة دخول الألمان باريس ، وجعل عنوانه : « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » ، واستشهد في هذا المقال السياسي من القرآن الكريم ست مرات ، فجاءت فيه هذه العبارات القرآنية :

« يؤيد بنصره من يشاء — وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمَّرناها تدميرا — كبرت كلمة تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كذباً — وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد — حتى إذا أخذنا مُترَفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون » .

ويختم المقال بقوله : « والله القاهر من فوق عباده[1] » ، وهذا اقتباس من الآية : « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » .

وفي كثير من الأحيان يختم شكيب مقالاته بآية من القرآن ، كما فعل في مقاله « حاشا لجمهرة العرب أن تكون مع الحلفاء » حيث اختتمه بقول الله تعالى : « وهو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرِّف الآيات لعلهم يفقهون » ، وكما فعل في مقال له بعنوان : « جوابنا للمسيو بيو عن بلاغه » حيث ختمه بالآية الكريمة : « ولتعلمنَّ نبأه بعد حين » ، وكما فعل في مقاله الطويل : « لا بد أن تزغرد الحزينة ولو في عرس جارتها » حيث ختمه بقول الله تعالى : « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين » وكما فعل

---

(١) كتاب عروة الاتحاد ، ص ٩٥ — ١٠٢ .

فى مقاله : « الإنكليز يهيجون المسلمين على إيطالية » حيث ختمه بالآية الكريمة :
« وامتازوا اليوم أيها المجرمون » .

وكما فعل فى مقاله « مسألتا سورية وفلسطين » حيث ختمه بقول الله عزوجل :
« وما ذلك على الله بعزيز » . وكما فعل فى مقاله « اقتراح وطنى على الجالية العربية فى المهجر » فقد كان ختامه الآية : « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون » وكما فعل فى مقال « حول مؤتمر عربى فى الأرجنتين » حيث ختمه بالآية الكريمة :
« لن ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » .

وكما فعل فى مقاله : « فرنسا ملّت اليهود ودسائسهم » حيث ختمه بالآية الكريمة : « ولاتجزون إلا ما كنتم تعملون » . وكما فعل فى مقاله : « هذا مبلغ ادعائهم وقد انهزموا » حيث ختمه بقول الله تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً » .

وكما فعل فى مقاله : « ألمانية وإيطاليـة إزاء البلدان العربية » حيث ختمه بالآية الكريمة : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور » .
وكما فعل فى مقاله : « بعد انتصار انجلترة على إيطالية » حيث ختمه بالآية الكريمة :
« والله رءوف بالعباد »[١] .

وهذه المقالات كلها فى كتاب واحد من كتب شكيب ، وهو « عروة الاتحاد » ، ولو راجعنا صفحات الكتب الأخرى لوجدنا فيها كثيراً من الآيات القرآنية .

ويظهر أن الأمير شكيب كان يعتمد فى الاقتباس والاستشهاد من القرآن على ذاكرته ، بدليل وقوع أخطاء فى الآيات عند الاستشهاد[٢] مثل أن يقول :

---

(١) انظر كتاب عروة الاتحاد ، ص ١١٣ و ١٢٥ و ١٥٥ و ١٦١ و ١٦٧ و ١٧٤ و ١٨٠ و ٢٠٤ و ٢٢٠ و ٢٢٣ .

(٢) أنظر على سبيل المثال عروة الاتحاد ، ص ١٠٢ و ١١٣ و ١٨٠ و كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣ و ٤ .

« والله القاهر فوق عباده » ، وصحة الآية : « وهو القاهر فوق عباده » سورة الأنعام آية ١٨ وآية ٦١ . ومثل أن يقول : « لن ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل » ، وصحة الآية : « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » سورة الأنعام ، آية ١٥٨ . وبدليل أنه يتصرف فى نص الآية ، ويضمن معناها كلامه ، مورداً منها لفظاً أو لفظين أو أكثر دون التزام للنص القرآنى ، كما رأينا حين استعراض مواطن لاقتباسه من القرآن الكريم .

* * *

ويبدو أن شكيب قد حرص « على الجملة القرآنية » يوردها فى مواطن كثيرة من كتاباته مقتبساً أو مستشهداً ، لأنه رأى مع غيره من المحافظين على لغة القرآن أن فريقاً من أبناء العرب والمتكلمين بلغتهم أخذوا يتصلون بالثقافات الأوربية واللغات الأجنبية ، وصاروا لا يعطون العربية الفصيحة الجزلة حقها من العناية والرعاية ، فتارة يرطنون بلغات أو كلمات غير عربية ، وتارة يدعون إلى العامية ، وتارة يهوّنون من شأن الجزالة وقوة الأسلوب ، فرأى شكيب أن واجبه العربى وواجبه الإسلامى يطالبانه مع أقرانه بأن يذودوا عن لغة القرآن ويوطدوا دعائمها .

وكان من زملاء شكيب فى هذا الاتجاه مصطفى صادق الرافعى الذى يصفه شكيب بقوله : « نابغة الأدب وحجة العرب » [١] . وكان الرافعى يقول : « لا فصاحة ولا لغة إلا بالحرص على القرآن والحديث وكتب السلف وآدابهم » [٢] . وكان يقتبس من القرآن الكريم فى كتاباته كثيراً ، ويدير مقالات له حول آيات من القرآن .

---

(١) تحت راية القرآن ، ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

وحينما أصدر كتابه « رسائل الأحزان » نشرت إحدى الصحف العربية التى تصدر فى أمريكا كلمة تقول فيها إن الرافعى لو ترك « الجملة القرآنية ، والحديث الشريف ، ونزع إلى غيرهما لكان ذلك أجدى عليه ، وملأ الدهر .

وقرأ الرافعى هذا فوقف طويلا — كما يقول — أمام كلمة « الجملة القرآنية » ، فظهر له فى نور هذه الكلمة ما لم يكن يراه من قبل ، كأنها المجهر ، وكتب يعلق على كلمة الجملة ، فكان مما قاله :

«وإذا أنا تركتُ الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموّها وقيامها فى تربية الملكة وإرهاف المنطق وصقل الذوق مقامَ نشأة خالصة فى أفصح قبائل العرب ، وردها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا فيه ، وصلتنا به حتى كأنه فينا ، وحفظها لنا منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنطق الفصحاء من قومه ، حتى لكأن ألسنتهم عند التلاوة هى تدور فى أفواهنا ، وسلائقهم هى التى تقيمنا على أوزانها — إذا أنا فعلت ذلك ورضيته ، أفترانى أتبع أسلوبَ الترجمة فى الجملة الإنجيلية ، وأسِفَّ إلى هذه الرطانة الأعجمية المعربة ، وأرتضخ تلك اللكنة المعوجة[1] ، وأُعين بنفسى على لغتى وقوميتى ، وأكتب كتابةً تميت أجدادى فى الإسلام ميتة جديدة ، فتنقلب كلماتى على تاريخهم كالدود يخرج من الميت ولا يأكل إلا الميت » . وهو يقصد بالجملة الإنجيلية عبارة الترجمة العربية للأناجيل .

ويذكر الرافعى أن إبراهيم اليازجى لما سئل تصحيحَ ترجمة الأناجيل أراد أن يقوِّم الترجمة ، ويزيل عجمتها وفساد تركيبها ، ويفرغ عليها جزالة وحلاوة ، فأبوا عليه ذلك .

ثم قال إنه يوجد قوم « أضاعوا العربية بعربيتهم ، وأفسدوا اللغة بلغتهم ،

---

(١) يقال : فلان يرتضخ لكنة أعجمية ، إذا نشأ مع العجم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى العجم فى ألفاظه ولو اجتهد .

ودفعوا الأقلام فى أسلوب ما أدرى أهو عبرانى إلى العربية ، أم عربى إلى العبرانية ، لا يعرفون غيره ولا يطيقون سواه »(١) .

ثم يرى أن السبب فى ضعف الأساليب الكتابية والنزول بالأمة العربية واحد من ثلاثة : مستعمرون يهدمون فى الأمة لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها ، ونشأة فى الأدب على مثل منهج الترجمة فى الجملة الإنجيلية ، وجهل بصناعة الكتابة وأدواتها(٢) .

ثم يقول الرافعى : « إن هذه العربية بُنيت على أصل سحرى يجعل شبابها خالداً عليها ، فلا تهرم ولا تموت ، لأنها أعدت من الأزل فلكاً دائراً للنيّرين الأرضيين العظيمين : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثَمّ كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء ، كأنها أخذة السحر ، لا يملك معها البليغ إلا أن يأخذ أو يدع »(٣) .

وما يكاد مقال الرافعى ينشر فى مجلة « الزهراء » بالقاهرة فى أوائل سنة ١٩٢٥ ، حتى يكتب شكيب مقالا من « لوزان » فى ٨ فبراير ١٩٢٥ ؛ ويسارع بإرساله لينشر فى الزهراء تعليقاً على مقال الرافعى ، وتزكية لدفاعه عن « الجملة القرآنية » وتمسكه بها ، وكأن شكيب لا يريد التأييد هنا لذات التأييد ، بل ليزكى خطةً يتبعها ويؤمن بها ، وليدافع عن أمر يعتقد أن الدفاع عنه واجب تقتضيه غيرته على عقيدته ولغته ، وجعل شكيب مقاله بعنوان « ماوراء الأكمة » ووجّه الحديث فيه إلى الرافعى .

ويرى شكيب أن الدعوة إلى ترك « الجملة القرآنية » مرض روحى عند بعض الناس ، لأنه قد يجوز أن إنساناً لا يعتقد بتنزيل القرآن ، ولكن لا يوجد عربى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

سليم الذوق لا يعتقد ببلاغة القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعمرى إن الأمر لكما قال ذلك الذى سأله سائل : هل يقال : (فأذاقها الله لباس الجوع) فأجابه : ويحك ! هبك تتهم محمدا بأنه لم يكن نبياً ، أتتهمه بأنه لم يكن عربياً » !(١).

وذكر شكيب أن وراء هذه الدعوة دسائس خفية ، وأن الفئة التى تدعو إليها لا تمج الفصاحة من حيث هى » ولا تحارب اللغة العربية نفسها ، ولكنها تحارب القرآن ، إن هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الإسلامية ، وتريد أن تتبذل بها كلام الجاهلية وكلام فصحاء العرب حتى من المخضرمين والمولدين ، وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية » .

ويقول : « وهذه الدسيسة التى ظهر لكم مكنونها من جملة واحدة ، إن هى إلا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود منها الإسلام ، لا القرآن من حيث كونه قرآناً ، ولا الفصاحة من حيث كونها فصاحة » .

ويمضى قائلا : « وأصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الأمة فى لغتها وآدابها خدمة لمبدأ الاستعمار الأوربى ، ومنهم من يشير باستعمال اللغة العامية بحجة أنها أقرب إلى الأفهام ، ولكن منهم من لا يحاول هدم الأمة فى لغتها وآدابها لا حباً باللغة والآداب ، ولكن علماً باستحالة تنصل العرب من لغتهم وآدابهم .

ولذلك ترى هؤلاء دعاةً إلى اللغة والآداب على شرط أن لا يكون ثمة قرآن ولا حديث ، وأن تكون الصبغة لا دينية ، وحجتهم فى ذلك حب التجدد ، وكون القرآن والحديث وكلمات السلف كلها من القديم الذى لا يتلاءم مع الروح العصرية فى شيء ؛ وآخرون حجتهم فى ذلك النزعة القومية التى هى بزعمهم تناقض النزعة الدينية ، وأصحاب النزعة القومية هؤلاء يقولون إنها من باب التجدد ، وإن روح القومية هى السائدة فى هذا العصر ، فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان ! .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١ .

فأما إذا سألهم سائل قائلا : إنكم وأنتم من دعاة التجدد ، ومن قراء الآداب الأوربية لا تنكرون أن كتّاب أوربة اليوم من فرنسيس وألمان وإنجليز وطليان وإسبانيول وروس... إلخ إلخ، إنما آدابهم كلها مأخوذة من اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية ، وأن آيات التوراة والإنجيل تدور على ألسنتهم وأقلامهم جارية فيها مجرى الأمثال ، لا يكاد يخلو منها خطاب ولا كتاب ، حتى إن المنفضين منهم من العقيدة يتكلمون بلغة الإنجيل والتوراة ، وهذا (كليمنسو) الذى لا يوجد على الدين حرب أشد منه ، كان يجاوب بعض من اعترض عليه من أجل بعض نقاط فى معاهدة (فرساى) قائلا : ادخلوا فى فرح المعاهدة تجدوها كما تريدون .

ومعلوم أن جملة: (دخل فى الفرح) هى آية إنجيلية : (ادخل فى فرح سيدك) . وهذا شىء لا يمكن أن يُحْصَى إلا إذا أحصيت رمال يبرين »[1] .

ويقرر شكيب هنا أمراً مهماً يتعلق بالتجديد فى الأدب من ناحية الفكرة والعبارة ، فهو يرى أن التجديد لا يمنع بقاء اللغات على صيغها القديمة ومآخذها من مصادرها القديمة ، ولا يستلزم التجدد فى الفنون والصناعات تغيير أسلوب الكتابة ، ثم هو لا ينكر أن كل عصر تَجِدُ فيه جُمَلٌ واصطلاحات ، وليس جميع ما اصطلح عليه العصر العباسى كان معروفاً فى صدر الإسلام أو فى الجاهلية ، ولكن ما يتجدد « لا بد من أن يرجع إلى نصاب اللغة ، وينزل على حكمها ، ولن تترك اللغة فوضى ، لا فى شرق ولا فى غرب » .

ويستشهد شكيب بأناتول فرانس كاتب فرنسة الأكبر المتوفَّى سنة ١٩٢٤ م فقد كان ينزع إلى المذاهب الاجتماعية الجديدة ، ويغلو فى كره العقائد الدينية والعادات القديمة ، ومع ذلك « كان فى إنشائه أصولياً أستاذياً مقلداً ، يحذو حذو (راسين) الشاعر الذى عاش قبل هذا العهد بمائتى سنة ، وإنه حافظ على الطريقة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤ و ٣٥ .

الكتابية الأصولية المسماة عندهم (كلاسيك) أى الطريقة المدرسية »[١] .

وقد يقول قائل : إن شكيب يربط موضوعاً لغوياً أدبياً بناحيــة الدين ، فيُقحم الدين فى الأدب ؛ ومع أن شكيب ينظر إلى اللغة على أنها لغة عرب ولغة قرآن ، وإنما خلود هذه اللغة ببقاء القرآن وخلوده ، فإنه يستطيع أن يجيبك بأن أعداء « الجملة القرآنية » يقحمون أيضاً الدين فى اللغة ، لأنهم حين يحاربون الجملة القرآنية — وهى أصيلة فى موضوع البيان والأدب من حيث كونها جملة — يحاربون القرآن من حيث كونه كتاب دين ، ويحاربون الإسلام الذى يصور مبادئه ذلك القرآن الكريم .

وفوق هذا حاول شكيب فى أكثر من موطن أن يقرر أنه لا يبحث الموضوع على أساس دينى ، بل هو يفرق بين عنصر الدين وعنصر الأدب فى هذا المقام ، ولذلك ضرب الأمثلة بالملحدين وأشباه الملحدين الذين لم يمنعهم إلحادهم ولا استخفافهم بالأديان أن ينتفعوا ببلاغة النصوص الدينية وأن يهتدوا بأصولها البيانية .

ويقول شكيب : « يقدر العربى أن لا يكون صحيحَ العقيدة ولا مسلماً ، ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف ، لأنها هى الطبقة العليا التى تصح أن تكون مثلا »[٢] .

ويضرب شكيب المثل بـ « زهراب أفندى » الأرمنى الذى كان عضواً مع شكيب فى مجلس « المبعوثان » العثمانى ، فقد كان يؤيد آراءه القانونية وأفكاره الأخرى بنصوص من القرآن والحديث وكلام الأئمة الفقهاء .

وأخيراً يقول : « هناك مبادىء ثابتة وبديهيات ليس فيها قديم وجديد ، لأن الاثنين والاثنين أربعة من مئة ألف سنة ، فلا نقدر أن نعمل على ذلك ثورة ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

وأن المقولات المشرعة لا تتناوله الثورة ، وأن الثورة إنما هى واجبة على الجهل والوهم ، لا على الحق والعلم ، وأن العلم لا يكون قديماً ، وأن الأدب لا بد أن يراعى فيه ذوق الأمة وتاريخها وعاداتها وعرفها ، وأنه ليس تجربة كيماوية » (١) .

والواقع أن شكيب قد بكر بالحث على الاستمداد من الجملة القرآنية قبل تعليقه السابق على مقال الرافعى ، فقد كتب فى جريدة (المؤيد) سنة ١٩١٢ مقالا يذكر فيه شروط الأديب ، وبعد أن ذكر طائفة منها قال :

« ولا يعد الأديب أديباً متحققاً بعد هذا كله حتى يحفظ كثيراً من كتاب الله، ومن أحاديث رسوله عليه الصلاة والسلام حفظاً تنهض الملكة أن يحسن منه الاقتباس ، ويجيد أمامه توطئة الاستشهاد » (٢) .

وقد ظل شكيب وفياً للجملة القرآنية حفياً بها ، يوردها اقتباسا أو تضمينا أو استشهاداً ، ولو رجعنا إلى مقاله « لا أريد أن أكون ناعياً » الذى كتبه بتاريخ ١٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ — أى قبل وفاته بنحو شهرين — لوجدنا الجملة القرآنية تأخذ حظها فيه ، إذ ترد خلاله هذه العبارات : « وضعت أوزارها — نكسوا على رؤوسهم — لا تقنطوا من رحمة الله » (٣) :

° ° °

وألاحظ أن التوفيق يخون شكيب أحيانا فى استشهاده بالقرآن الكريم ، فهو قد أراد مثلا فى فاتحة كتابه عن السيد رشيد رضا أن يبين أن المجاهد لا يضيع جهاده ، وأن فاعل الخير لا بد أن يلقى ثوابه ، فقال هذه العبارة :

« لقد قضت العقول وأيدت حكمها التجارب — التى قد تكون العقول نتيجة لها —

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) رسائل الرافعى ، ص ١٠ نقلا عن جريدة المؤيد ، عدد يوم الاثنين ٩ فبراير ١٩١٢ .

(٣) ذكرى الأمير ، ص ٤٩٩ .

أن الإنسان فى هذه الحياة الدنيا لا يلات[1] شيئا من أعماله ، وأن هذه لن تخفى على الناس مهما حيل بينها وبينهم ، وأنه لن يطمسها طامس ، ولن يقدر أن يغمط من حقها غامط ، مهما حاول المحاولون ، وكابر المكابرون .

وهذا فى الحياة الدنيا التى أكثر ما فيها الظلم ، وأفشى ما فيها الباطل ، فكيف تكون الحال فى الآخرة التى هى بحبوحة الحق ودار الجزاء ، والتى لا يظلم فيها أحد فتيـلا . قال الله تعالى : (نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) وقال تعالى : (وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) ، وقال عز وجل : (ووُفِّيَتْ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ وهو أعلمُ بما يفعلون) إلى ما لا يكاد يحصى من الآى العظام التى تشهد بأن الله لن يَتِرَ أحداً من خلقه عمله »[2] .

ونلاحظ على هذه العبارة أن الآيات التى استشهد بها أمير البيان فيها لا تناسب المقام الذى يتحدث عنه ، وهو مقام الإنصاف للمجاهدين ، والثواب للعاملين ، وعدم الظلم للصالحين ، فهذه الآيات قد جاءت فى مساق الحديث عن الكفار أو العصاة أو المذنبين ، وبعضها ليست نصاً فى إجزال الثواب للمحسنين .

فالآية الأولى وردت فى القرآن الكريم هكذا « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يُبْخَسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النارُ وحبِطَ ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون » سورة هود ، الآيتان ١٥ و ١٦ .

والآية الثانية وردت فى القرآن الكريم هكذا : « أولئك الذين حقَّ عليهمُ القولُ فى أمم قد خلت من قبلهم من الجنِّ والإنسِ إنهم كانوا خاسرين ، ولكلٍّ

---

(١) فى القاموس : ما لاته شيئا : ما نقصه . وفى التنزيل المجيد : « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا » سورة الحجرات ، آية ١٤ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣ : ووتره يتره : ظلمه .

درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يُظلمون ، ويوم يُعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تُجزون عذاب الهُون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » سورة الأحقاف ، الآيات ١٨ و ١٩ و ٢٠ .

وأما الآية الثالثة فعامة ، ليس فيها تخصيص للمظلومين المستحقين للانصاف والثواب ، إذ وردت فى القرآن الكريم هكذا : « وأشرقت الأرض بنور ربها ووُضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقُضيَ بينهم بالحق وهم يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمرا » سورة الزمر ، الآيات ٦٩ و ٧٠ و ٧١ .

وكان فى استطاعة أمير البيان أن يستشهد بمثل الآيات الكريمة التالية :

١ — « وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين » . سورة آل عمران ، الآية ٥٧ .

٢ — « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » . سورة البقرة ، الآية ٢٧٢ .

٣ — « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » . سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

٤ — « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . سورة الزمر ، الآية ١٠ .

٥ — « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . سورة الزلزلة ، الآية ٧ .

٦ — « إنا لا نضيع أجر المصلحين » . سورة الأعراف ، الآية ١٧٠ .

٧ـ { نصيب برحمتنا من نشاء، لا نضيع أجر المحسنين ".سورة يوسف الآية ٥٦ .

٨ـ { إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا } سورة الكهف، الآية ٣٠ (١)

ومع هذه الملاحظة أرى أن شكيب قد زان كتابته بالجملة القرآنية التي يقتبسها أو يضمنها أو يستشهد بها، واستعمل هذه الجملة في مواطنها المناسبة في أغلب الأحيان، واستعملها باعتدال، إذ لم يسرف فيها ولم يقصر

(١) كتبت في هذا الموضوع مقالا في جريدة منبر الشرق، عدد ٣ فبراير ١٩٥٦م.

جلجلة العبارة

من الظواهر الأسلوبية التي لاحظتها في كتابة شكيب مياه في كثير من الأحيان إلى جلجلة العبارة ، وأقصد بجلجلة العبارة تضمنها ألفاظاً فيها شدة صوتية ما عند نطقها ، أو طول في مبناها يقصده المتكلم لتقوية معناها .

ونحن نعرف من معجمات لغتنا أن الجُلْجُل هو الجرس ، ومن الجرس يصدر الصوت العالي عادةً للتنبيه ، والجلجلة التحريك ، وشدة الصوت ، والجلاجل (بكسر الجيم الثانية) السيد القوي ، أو البعيد الصوت ، والجريء الدفاع المنطيق[1] .

والسحاب المجاجل هو الراعد المطبق بالمطر ، وجَلْجَلَ الياسرُ القداحَ : حركها[2] .

• • •

لنقرأ مثلاً من كتاب « أناتول فرانس في مباذله » هذه العبارة لشكيب :

« والقسط كل القسط في هذه المسألة هو أنه لا ينبغي لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البَرَّة أمًّا ، ولا يجعلوا لها من بين اللغات نِدًّا ، وأن يجعلوها قطبَ رحى الثقافة ، ويعلموا أنها نعم السند يوم المماتنة ، فلا يرتبوا أفكارهم في لغة قبلها ، ولا يضلوا في الإبانة عن ذات نفوسهم سبلَها ، حتى إذا صفت لهم مشارعُها ، وحَنَت عليهم أجارعها ، وصارت ملكتها جارية مجرى المُهَج من نفوسهم ، نازلة منزلة الأدمغة من رءوسهم ، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالَت إليه عزائمهم ، وأن يضموا إلى التلاد العربي القديم

---

(١) انظر القاموس المحيط في مادة « جل » .
(٢) أساس البلاغة ، ج ١ ، ١٣١ .

طريفَ البضائع ، ويضيفوا إلى الإرث العُدْمُلى الـكريم حديث البدائع »[1] .

نلاحظ ونحن نقرأ العبارة أن فيها قسطاً من الجلجلة التى تشبه صلصلة الجرس ، وقد جاءت هذه الجلجلة من السجع الذى يقرّب العبارة من النظم الذى ينشده المُلقى فيبلغ الأسماع قوياً باتساقه وانتظام أوزانه وقوافيه .

وجاءت أيضاً من كلمات فيها زيادة حروف وقوة صوت وشدة جرس ، مثل « المثافنة » وهى المجالسة ، و « المماتنة » وهى المباراة والمسابقة ، و « المشارع » بمعنى موارد الشرب ، و « الأجارع » وهى الرمال فيها حجارة ، و « تطالت » بمعنى تطلعت وتطاولت ، و « العدملى » بمعنى القديم .

ونحن نعرف أن الحروف أنواع ، منها المجهورة والمهموسة ، ومنها الشديدة والرخوة والمتوسطة ، ومنها الحروف الصائتة التى تهتز الحبال الصوتية حين النطق بها ، والحروف الصامتة التى لاتهتز الحبال الصوتية حين إخراجها، ومن صفات بعض الحروف الاستعلاء وهو التصعد فى الحنك الأعلى ، ومن صفات بعضها القلقلة ، ومن صفات بعضها اللين .. إلخ[2] .

وإذا رجعنا مرة ثانية إلى « جلجلة العبارة » عند شكيب وطالعنا فى كتابه « الارتسامات اللطاف » وجدنا هذه العبارات التى تحوى ألفاظاً فيها قوة وجهارة ، إما لطبيعة حروفها ، وإما لطريقة تكون حروفها ، وإما لتصرف فيها بجمعها ، أو التوسع فى الحروف المزيدة فيها ، وإما لغير ذلك ؛ وهى بهذا تكسب العبارة جلجلة ، مثال :

« زاعمون فى نجاح الحرية الدينية — صلى الله عليه وعلى آله الغطاريف ، وعلى أصحابه الصناديد — وحياطتها بوحدة الكلمة من سطوات الغدر وغوائل

---

(١) أما قول فرانس فى مباذله ، المقدمة ، ص ٦ .

(٢) انظر كتاب فقه اللغة ، ص ٣٤ — ٣٧ . وهناك ذكر بعض المراجع فى موضوع الفرق بين الجهر والشدة ، وبين الهمس والرخاوة ، ومن هذه المراجع تعاريف ابن جنى ص ٦٩ ورسالة الشيخ طاهر الجزائرى « تدريب اللسان » ص ٢٩ .

الكر — فوجدت فيه الملك الأشم الأصيد ، الذى تلوح سيماء البطولة على وجهه ، والباهل الصنديد الأنجد — فعثروا على قنى قديمة عدملية تحت الأرض — وقد يؤتى من الهند والجاوى بأشجار سريعة البسوق ، ورياحين باكرة السموق — وصار الناس يمارون فى مآثرهم السوابق ومعاليهم السوامق — استحثاثا للنفوس واستحلاباً للعبرات »(١) .

وفى كتابه عن « شوق » نجد هذه التعابير :

« لم يستمطر عارض خاطره فى تقيد شنعاء أو تخليد صلعاء — فقد تصاب الرمايا ولو لم تستد السواعد — الذى يريد شوق أن يستقصه من هذه الحكاية — نزه عن الرافثة قليل نظمه وكثيره — وشدخ يافوخ الكفر »(٢) .

ونستطيع أن نستمر فى عرض النماذج الدالة على جلجلة العبارة من كتابات شكيب ، ولكن حسبنا ما قدمنا ، فهو يدل على ما لاحظنا .

* * *

ولم تقتصر جلجلة العبارة عند شكيب على النثر ، بل عرفت طريقها إلى شعره ، بل لعلها سبقت إلى طريق شعره ، قبل أن تشيع فى نثره ، وحسبنا أن نطالع فى ديوان الأمير قصيدته فى حرب طرابلس(٣) ، لنجد هذه التعابير :

« بروق الصوارم — ملء الحلاقم — الليوث الضراغم — رعود الغماغم — غوالى الجماجم — العيلم المتلاطم — البحور الخضارم — انفراج المآزم — سواد الهمائم — عاديات الأعاجم » ... إلخ .

ولا شك أن جلجلة العبارة تصلح لبعض المواطن دون بعض ، لأن لكل

---

(١) الارتسامات ، المقدمة ، ص ١١ ، ثم ص ٢ و ٥ و ١٢ و ٢٠ و ٢٤ و ٤٢ و ٨٠ .
(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٧ و ٥٨ و ١٠٠ و ١٧٤ و ١٧٨ و ١٨٨ .
(٣) ديوان الأمير ، ص ١٠٧ — ١٠٩ .

مقام مقالا كما قال القدماء ، والألفاظ التى تصلح للنسيب والغزل غير الألفاظ التى تصلح للفخر والحماسة ، أو لوصف الحروب والمعارك ، والألفاظ التى نقلتها سابقاً عن قصيدة شكيب فى حرب طرابلس لو أدخلها فى قصيدة غزلية لكانت نابية سيئة الوقع .

وشكيب يجنح إلى جلجلة العبارة غالباً فى المواطن الملائمة لها ، كمقدمات الكتب التى يجعلها أشبه بكتيبة موفورة القوة ، تمهد الطريق لموضوع الكتاب وتفتح له الباب ، وكالحديث عن مفاخر أمته ، أو استنهاض قومه ، أو ماشابه ذلك .

• • •

وعلى الرغم من أن الأمير شكيب كان سلفياً فى أسلوبه ، يحرص على سلامة اللغة وجزالة الأسلوب ، ويعتز بتراث العربية ومأثور تعابيرها ، نجده أحياناً يقتبس بعض التعابير الرمزية الغربية ، كقوله مثلا : « من الأماكن الحجازية اللاذى بالمستقبل — كما يقول الإفرنج — ينبع[(١)] » .

وأحياناً يأتى بالصورة البيانية التمثيلية المستوحاة من عصره ، كقوله فى مقاله : « عين الإنكليز على عقبة » عن الأمراء العرب : « أمراؤنا يحبون قبل كل شىء المحافظة على إمارتهم ، فمتى ازداد ضعفهم ازدادوا طأطأة رأس للانكليز ، ومتى هبت زعازع الحروب على سفينة ملكهم رموا فى البحر البريطانى من حقوق الأمة العربية لأجل تخفيف شحن السفينة »[(٢)] .

وأحياناً يأتى بالعبارة البارعة فى أداء المعنى عند الموقف الحرج ، كأن يقول عن حبه لأمه : « ورجعت إلى سويسرة لكن بعد أن شفيت غليلى من مشاهدة السيدة الوالدة ، إذ كنت أخشى أن يوافى أحدنا الأجل قبل لقاء الآخر »[(٣)] .

---

(١) الارتسامات ، ص ٢١٥ .

(٢) جريدة الشورى ، عدد ١٦ يوليه ١٩٢٥ .

(٣) روض الشقيق ، ص ٢٦ .

وموطن البراعة فى أن أمه أكبر منه بكثير ، وهى إلى الموت أقرب بحسب العادة ، إذ لا يعز على الموت صغير ، ولكنه لا يقول : « أخشى أن يوافيها الأجل قبل تلاقينا » ، بل يقول على طريقة من الإبهام والتشكيك : « أخشى أن يوافى أحدنا الأجل قبل لقاء الآخر » . وكأنه ينظر فى هذا التعبير إلى طريقة القرآن حيث يقول : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

وأحياناً يفسى شكيب جاجلة العبارة ، ومع ذلك يأتى بما يقوم مقامها من إجادة البيان وإتقان المبالغة ، كأن يتحدث عن المصائب التى نزلت بإنكلترة وفرنسة فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، فيقول : « والآن تحصد إنجلترة ما زرعت ، أما فرنسة فقد حصدت ودرست وذرت وانتهى الموسم ، وذاقت منه ماذاقت »[١] . وفى هذا الشطر الأخير من الجملة ما فيه من سخرية بفرنسة وتصوير لعاقبة بغيها وظلمها .

ويعود إلى السخرية فيقول فى براعة تعبير وسهولة أسلوب : « أما فى مراكش والجزائر وتونس فالدعاية الإفرنسية تسعى بيديها ورجليها فى إقناع إخواننا المغاربة بأن الجبال تزول ، والكواكب تعتريها الأفول ، ولكن حكم فرنسة عليهم لا يتزلزل ولا يتزعزع ولا يحول ، وقد تقوم الساعة ، وينتصب الميزان ، ويبقى هنالك الملك لفرنسة لا لله الواحد القهار ! وقد يعيد الله نظمَ الأكوان من جديد من بعد يوم الحساب ، عملا بقوله تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) ولكنه لن يمس هذا حكم فرنسة على شمال أفريقية »[٢] ! .

---

(١) عروة الاتحاد ، ص ٢١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

طريقة شكيب فى التأليف

لقد ألف شكيب كتباً كثيرة ، منها الكبير الضخم ، ومنها المتوسط الحجم ، ومنها الصغير اللطيف ، وألف فى أغراض مختلفة ، ألف فى الشعر ، والأدب ، والتاريخ ، والرحلة ، والسياسة ، والاجتماع ، والدين .

والمنصف الذى يطلع على هذه الكتب يقدر المجهود الكبير الذى بذله الأمير شكيب فى تأليف هذه الكتب ، وفى جمع المعلومات الغزيرة التى أوردها ، وفى تمحيص المسائل التى يبحثها ، وفى التدليل بمختلف وسائل التدليل على الآراء التى يبديها أو الأفكار التى يعتنقها .

ونلاحظ ملاحظة مبدئية بشأن هذه الكتب ، وهى أنها ترتبط بأحداث تدعو إلى تأليفها وتحث على وضعها ، فيستجيب شكيب لداعى المناسبة ووحى الأحداث ، ويسارع بالتأليف .

يرحل مثلا إلى ألمانية والبوسنة والمجر ، فيرى ما يثير ذهنه ، ويعلم ما يحرك قلمه ، فيكتب كتباً عن هذه الرحلات ، ويزور أسبانية (فردوس العرب المفقود) ويستعد للرحلة بشراء كتب كثيرة عن الأندلس ليطالعها ، فتثير هذه الكتب فى ذهنه أشياء كثيرة ، فيستجيب لتأثيرها ، ويكتب كتابه « تاريخ غزوات العرب » . ثم تتم رحلته ، ويكتب بوحى منها كتابه « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » .

ويسأله سائل عن طريق مجلة (المنار) عن أسباب تأخر المسلمين ، فيجيب السائل بكتابه « لماذا تأخر المسلمون » ، ويحج فى سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م فتوحى إليه الرحلة بكتابه « الارتسامات اللطاف » .

ويموت صديقه أحمد شوقى سنة ١٩٣٢ فيدعو شكيب داعى الوفاء إلى كتابة مؤلفه « شوقى أو صداقة أربعين سنة » .

ويموت أخوه السيد رشيد رضا سنة ١٩٣٥ فيدعوه داعى الوفاء إلى تأليف كتابه : « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » .

ويترجم عجاج نويهض كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، ويقدمه إلى شكيب ليكتب له مقدمة ، ويعلق عليه بما يراه ، فيهتبل شكيب الفرصة ، ويضع تعليقات على الكتاب صارت أضعاف الكتاب الأصلى .

وهكذا نجد أن الأحداث هى التى كانت تدفع شكيب فى الغالب إلى تأليف كتبه ؛ ولهذا الدفع مزية من جهة ، ولكنه خطر من جهة أخرى ؛ فمزيته التفاعل مع الأحداث ، لمعاصرتها ومشاهدتها والاحتكاك بها ، وهذا يثمر الخبرة والاطلاع على جوانب الموضوع ، ومزيته كذلك أن الكتب تعطينا بهذا التفاعل بالأحداث مع الارتباط بها صورة من عصر صاحبها وحياته وحياة الناس من حوله .

وأما خطره فهو الخشية من السرعة لملاحقة الحادث بما يتطلبه من حديث أو تعليق ، فلا يتوافر حينئذ التجرد الهادىء للبحث العلمى الذى لا يستعبده الزمن أو تأثير الوقائع .

ولا شك أن شكيب قد نجح نجاحاً كبيراً منقطع النظير فى التفاعل مع الأحداث ، والاستجابة لها ، والحديث عنها فى إحاطة وتوسع ، بحيث يصعب علينا أن نجد لشكيب فى هذا الباب نظيراً أو مثيلاً .

فهو خبير بالقضايا العربية ، مطلع على أسرارها ووقائعها ، عارف لرجالها والمضطربين فى ميدانها ، وهو دارس للمسائل الشرقية على كثرتها واتساعها وتشعبها ، وهو محيط بأحوال المسلمين فى الشرق والغرب ، مشاهد لأحوالهم وعيوبهم ، فاهم للأسباب التى تزيل ضعفهم وتنهض بهم .

وهو رحالة لم يترك بلدة فى أوربة إلا رحل إليها ، كما رحل إلى أمريكة ، ورحل إلى كثير من بلاد الشرق كذلك ، وهو طُلَعة لا يقنع بقليل الزاد من المعرفة أو المشاهدة ، بل ينقب ويتتبع ويلاحظ ويستنتج ويقيد .

هذا حق الرجل ، ينبغى لكل منصف دَرَسَ كتبه أن يقرره ويؤكده .

وشكيب يتبع فى تأليفه طريقة الاستئناس بالمراجع والأخذ عنها ، وهو تارة ينقل النص عن المرجع الذى يرجع إليه ، وتارة يلخص النص ، أو يضمن حديثه ما احتواه النص من معلومات .

ولكن شكيب لا يتبع الطريقة المعروفة فى ذكر المراجع ، فهو لا يضع فى الهامش اسم الكتاب ، أو رقم الجزء ، أو رقم الصفحة إلا نادراً ، ولم يكن هذا عن جهل من شكيب بهذه الطريقة ، لأنه قد ذكر فى بعض كتبه أن الأوربيين يحرصون على هذه الطريقة فى كتبهم وبحوثهم ، فهم « لا يروون خبراً ، ولا ينقلون جملة ولا أثراً إلا وضعوا فى الحاشية [يقصد الهامش] مأخذَها ، والكتاب الذى أخذوها عنه ، مع ذكر الصفحة ، وذكر طبعة الكتاب ، وتعيين المطبعة أحياناً ، وكل ذلك توثيقاً للنقل ، ونصحاً بالتبليغ ، وتمهيداً للحكم الصحيح الذى لا يتهيأ للقارىء إلا بعد مقدمات صحيحة ، وبينات رجيحة [1] » .

وشكيب فى طائفة من كتبه يكثر من الاستشهاد بالنصوص ، ويلح أحياناً فى هذا الاستشهاد ، مع ما بين النصوص من تشابه ، فهو مثلا يتحدث فى كتابه « الارتسامات » عن « عين زبيدة » فيسرد فيها أقوال الأزرق وابن خلكان وابن جبير ، وبين أقوالهم تشابه ، وفى بعضها تكرار لما فى البعض الآخر [2] ، وكان يمكن الاكتفاء ببعضها والإشارة إلى الباقى ، ولكن الأمير يصبر على النقل ليؤيد ويؤكد ويتوسع .

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٧ .
(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ٣٨ وما بعدها .

ويعود فى هـذا الـكتاب ليتحدث عن إهمال العمران فى بلاد العرب ، وإذا هو يستطرد استطراداً طويلا ، فيتحدث عن آثار عبد الرحمن الناصر فى الأندلس ، وآثار عبد المؤمن صاحب دولة الموحدين ، وآثار المنصور السعدى ، وآثار مولاى إسماعيل سلطان المغرب ، كما يتحدث عن كتب الإفرنج فى فن المعمار الإسلامى ، ويستغرق فى ذلك نحو سبع عشرة صفحة من الـكتاب[1] .

ونلاحظ على طريقته فى التأليف أن « روح الجمع » تسيطر عليه فى كثير من الأحيان ، وقد لمسنا ذلك فيما ذكرناه من استطراده فى « الارتسامات » ، وهو فى مطلع كتاب « أناتول فرانس فى مباذله » نراه يشغل نحو الخمسين صفحة فى نقل كلمات قالها الأدباء والصحف عند وفاة أناتول ، وكثير منها مكرر .

وهذا يشغل القارىء عن موضوع الـكتاب ، ويوجد عنده شيئاً من الملل ، لأن الكتاب ليس فى ترجمة أناتول واستعراض الآراء فيه ، ولـكنه عن مباذل أناتول كما يصرح عن ذلك عنوانُه وموضوعه .

ويظهر أن الأحداث ووقائع الحياة والمناسبات التى كانت تدفع بشكيب إلى تأليف كتبه المتصلة بهذه الأحداث والوقائع كانت توجد لوناً من الارتجال فى منهج تأليفه ، فينقصه استكمال الخطة والمنهج والتنسيق .

فهو مثـلا يبدأ بكتاب عن غزوات العرب فى أوربة كنتيجة لصدر رحلته الأندلسية ، ولـكن المؤلف يكتب بعد هذا كتاب « الحلل السندسية » عن تاريخ الأندلس وعن العرب فى الأندلس ، ولو أنه حدد خطته ومنهجه منذ بدء الطريق ، لتحدث أولا عن الأندلس والعرب فيها ، ثم انتقل من ذلك إلى غزوات العرب فى أوربة ، لأن التـدرج الزمنى يقتضى ذلك ، إذ أن العرب فتحوا الأندلس أولا ، ثم توغلوا فى أوربة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ — ٧١ .

وشكيب نفسه يعترف بمثل هـذا حين يقول عن كتابه « غزوات العرب فى أوربة » إنه كان « فى الحقيقة جزءاً من رحلتى الأندلسية التى نحن بسبيلها ، لأنها هى خاتمة مطاف العرب فى أوربة ، وفاتحـة ما أفاضوا إليه من الممالك بعد فتحهم للأندلس .

وإذا لحظتَ أنى قد بدأت بالرحـلة ، وبتاريخ حملة العرب على أوربة من هذه الجهة ، كان لك أن تقول إنى جعلت أولا ما كان ينبغى أن يكون آخراً ، فإن هذا الجزء هو الآخر باعتبار فتوحات العرب ، ولـكن قضت الأقدار بأن يكون هو الأول ، باعتبار ترتيب سياحتى التى بدأتُ فيها من الشمال إلى الجنوب ؛ فرأيت أنا أولا ما فتحوه هم أخيراً ، ورأيت أخيراً ما احتلوه هم أولا »[1] .

وشكيب يريد أن يعلق على تاريخ ابن خلدون تعليقات سريعة فى أول الطريق ، فإذا هو يتوسع فى التعليق حتى يشغل مجلداً فى التعليق على الجزء الأول وحده . وهو يريد أن يكتب مقدمة لترجمة كتاب « حاضر العالم الإسلامى » . ويعلق على ما يحتاج إلى تعليق ، فإذا شكيب ينتهى إلى أن يضع على الـكتاب تعليقات تدعو إليها مناسبات قوية أو ضعيفة ، فتصير التعليقات أضعافَ الـكتاب ، دون تحديد للمنهج من أول الطريق ، ودون توافر الترتيب والتنسيق .

وشكيب نفسه يعترف بأنه بدأ فى كتابة التقـديم والتعليقات دون خطة مرسـومة أو منهج محدد ، وما كان يدرى أن أمر التعليق سينتهى إلى ما انتهى إليه ، فهو يذكر لنا أن مترجم الـكتاب بعث إليه بالترجمة ، ليبدى شكيب بعضَ ما يعنّ له من ملاحظات على مباحث الـكتاب .

وكان شكيب يومئذ فى شـغل شاغل — كما يعبِّر — وكاد يرد الـكتاب معتذراً لصاحبه ، إلا أنه رأى فيه مباحث تهم الإسلام والمسلمين ، ورأى المؤلف

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ١٢ .

متتبعاً الحركة العربية محيطاً بها ، فأجلّ مقامه ، وربأ به عن أن تكون في رواياته مواطن ضعف ، يقول شكيب :

« فعلقت كلمات قليلة على هذه المواضع ، ولم يكن في نيتي أن أكتب حواشي تزيد على سطرين أو ثلاثة بالكثير ، ولكن الحديث شجون ، والمواضيع التي خوّضها المؤلف (١) تحتاج إلى مزيد التدقيق ، فصار الكلام يتسع معي تدريجاً ، وبعد أن كانت النية تعليقَ كلمات أو أسطار معدودة انتقلنا إلى حواش تستغرق الصفحة والصفحتين .

ثم رأينا أن الاختصار يخل بالمعنى ، وأن يكون من قبيل فتح الباب لمقام شائق القراء ، ثم صكه قبل أن يشفى لهم غليلا ، فصارت التعليقات على الكتاب تزداد طولا كلما تقدمنا في مطالعته ، إلى أن أصبح المتن ربعَ الكتاب بالقياس إلى الحواشي التي صارت هي ثلاثة أرباعه ، بحيث قال العلامة الدكتور يعقوب صروف الطيب الذكر في مجلة المقتطف إن هذا الكتاب (حاضر العالم الإسلامي) أصبح بحواشيه كتاب الأمير أرسلان (٢) » .

ولسنا بهذا نقلل من قيمة هذه التعليقات ، فهي جليلة وعظيمة ، وتدل على سعة الاطلاع ، وغزارة المعلومات ، ووقوف شكيب على ما لم يقف عليه غيره في عصره من أمور العالمين العربي والإسلامي ، ولكن هذه التعليقات كانت بحاجة إلى خطة وترتيب ، ولو توافر لها هذا من أول الطريق لصارت مرحلة جليلة الشأن في طريق وضع دائرة المعارف العربية والإسلامية .

---

(١) خاض الرجل الماء وخوضه واختاضه كلها بمعنى (القاموس) . وأخاض الرجل الماء : خاضه بدابته (الأساس) .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٣٣٧ .

والمقام يذكرنا بأن الأستاذ إسعاف النشاشيبي حينما طالع تعليقات شكيب على هذا الكتاب كتب إليه يقول :

« ذكرتني هذه الحواشي بقولين لإمامين : قيل لأبي بكر الخوارزمي عند موته : ما تشتهي ؟ ! . قال : النظر في حواشي الكتب .

وقال أستاذ الدنيا جار الله : الزبت مخ الزيتون ، والحواشي مِخَخَةُ[1] المتون » .

فكتب إليه شكيب الخطاب التالي :

« أخي الأستاذ الأجل :

شفيتَ غليلي بهذين الشاهدين اللذين جئت لي بهما على فائدة الحواشي ، ومن كان يقدر أن يأتي بهما غيرك ؟ لله دَرُّكَ . وقد أتممت تحبير كتاب اسمه (أناتول فرانس في مباذله) يحتوي ترجمة كتاب لكاتبِ سِرِّه (بروسون) ، وخلاصة آخر لصديقه (سيغور) ، وتلخيص لتأبين أدباء فرنسة (لفرانس) يوم وفاته .

ولما كان فيه من الأعلام الكثيرة والمسائل الفلسفية والاجتماعية والأدبية ما لا بد من تفسيره ، إعانةً للقارىء الشرقي على فهم الكتاب ، فقد جاءت في هذا التأليف أيضاً حواشٍ إن لم تكن على نسبة حواشي (حاضر العالم الإسلامي) فهي حواش لا بأس بها ، وما كان أسرعني إلى تأييد وجهي في الحواشي إلى نقل كلام ذينك الإمامين عن الأستاذ المحقق النشاشيبي ، ولعمري لو أنجدتني بجيش مَجْر ومال دَثْر[2] ، ما أحسستُ فضل النجدة كما أحسست بها عند ما قرأت ذينك الشاهدين »[3] .

---

(١) مخخة (بكسر ففتحتين) : جمع مخ (القاموس) .

(٢) المجر : الكثير من كل شيء . والدثر : المال الكثير (القاموس) .

(٣) مجلة الرسالة ، عدد ١٨ فبراير ١٩٤٦ .

وفى رسالة خطية بين يدىّ من شكيب إلى رشيد رضا بتاريخ ٢ ذى الحجة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م يقول : « فأنا على كل حال صرت محشى باشى » .

ورأبى أن شكيب قد تحيف مؤلفاته وكتاباته بإرساله هذه التعليقات الضخمة والحواشى المظليمة بلا نظام ولا تنسيق ، ولو أنه نظمها لضاعف الفائدة المرجوة منها ، ولاحتفظ لها بمنزلة القمة ، دون أن ينال منها هذا الاضطراب ما ناله ، فأصابها بكَلَف يتحمله قارئه المنصف فى سبيل ما يستفيده من مائدة شكيب الحافلة بالمعارف والمعلومات .

وليت شكيب تذكر فى هذا المجال أنه أثنى ذات مرة على كتاب « نفح الطيب » للمقرى ، ثم قال : « ولكنه ككثير من مؤرخينا أو مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الأشياء ، ولا ينتبهون إلى قاعدة أن الحسن إنما هو تناسب الأعضاء » (١) .

وقد قال شكيب هذا الكلام فى كتابٍ طبعه أول مرة سنة ١٨٩٧ ، وعمره دون الثلاثين ، فليته تجنب ما عابه على المقرى ، لحفظ لتناسب الأشياء حقَّه فى التأليف .

وهاهو ذا السيد رشيد رضا يذكر لشكيب فى إحدى الرسائل أنه — أى شكيب — خالف فى تعليقاته على (حاضر العالم الإسلامى) رأى أستاذ الاثنين الإمام محمد عبده فى النهى عن الحواشى والاستغفار منها ، وإن كان رشيد يُرضِى صديقَه عقب ذلك بقوله :

« ولكن لكم أن تقولوا فى حاشيتكم كما قال الخضرى فى حاشيته على ابن عقيل : (لجاءت حاشية لا كالحواشى ، أعيذها من عين كل حاسد وواشى) ولعمرى إن لكم من الحساد ما لم يكن له » (٢) .

---

(١) رواية آخر بنى سراج ، ص ٦١ (ذيل الرواية) .
(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣٢٧ .

وعاد رشيد ليقول لشكيب فى رسالة تالية :

« بعد أن كتبت إليك فى كتابى الماضى بشأن حاشيتك على الكتاب المترجم ما علمت ، بلغنى أن الحاشية[1] مما يستنكره الجماهير حتى أهل الأزهر ، لا حزب أستاذنا الإمام فقط ، لأنها بلغت من الطول المشذّب[2] مبلغاً ترك الأصل الذى وُضعت عليه أثراً بعد عين ، أو كهلال الشك لا تدركه كل عين ، وصارت قراءة كل منهما مع الآخر مضيعة لكل منهما ، وقراءته وحده لا ترتاح إليها الأنظار ارتياحها إليه لو لم يكن معه ما يشغل عنه .

وشبَّه لى الكتاب مع الحاشية بشرح ديوان صديقنا محمود سامى باشا البارودى رحمه الله تعالى ، ولعلكم رأيتموه ، فإن شارحه كثيراً ما شرح البيت الواحد بصفحة أو بصفحات ، باستطرادات لا تعنى من يريد قراءة شعر البارودى ، فكان هذا الشرح سبباً لعدم رواج الديوان بقدر ما كان يُنتظر لو طبع وحده بغير شرح ، أو بشرح غريب اللغة أو محاسن نكت البلاغة .

وفاتنى أن أقول لك فى الكتاب السابق إننى مخالف لك فيما تظن من قلة الرغبة فى قراءتى هذه الحاشية لو جُعلت كتابا مستقلا ، بل يغلب على ظنى أنك لو ألفت كتابا فى تاريخ الإسلام ، أو لو جعلت هذه الحاشية كتابا مستقلا لوجدت من الإقبال على ما تكتب فوق ما تنتظر للكتاب المترجم وحده من الرواج .

وأرى أن تضن بما بقى لديك مما كتبت وما تنوى أن تكتب إذا كان يمكن أن يجعل كتابا مستقلا ، ولو يضم بعض ما طبع منه إليه[3] » .

---

(١) يريد تعليقات شكيب على حاضر العالم الإسلامى .

(٢) المشذب : الطويل . ومن المجاز : فرس مشذب ، أى طويل (عن الأساس) .

(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣٣٦ .

وقد رد شكيب من (لوزان) على صديقه فى رسالة خطية بين يدىّ ، تاريخها ٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣ قال فيها :

« أما الحواشى فقد اضطررنا لها ، لأن الكتاب موضوعه العالم الإسلامى ، وقد أشار إلى الأصول ، وشوّق إلى الفروع ، فلزم أن نشرح كل مسألة ، ونذكر أخبار كل بلد من بلدان المسلمين فى الحال الحاضرة ، ليعلم المسلمون بعضهم بعضا ، ويطلعوا على ما يدس لهم ويُطبخ ، وليس المسلمين بالتخصيص فقط ، بل قرأت فى الكتب المؤلفة على إفريقية — لأنى اشتريت أكثر من ١٠٠ مجلد على أخبار المستعمرات — ما يعمله البلجيكيون فى الكونغو ، والفرنسيس فى النيجر والسينغال وغينية والكامرون ووادای وماداغسكر والقومور ، والإنكليز فى شرقى أفريقية والأوغاندة ، لتقليص ظل العرب والعربية .

هذا عدا مساعيهم فى ذلك فى جزائر الغرب ، فليس الإسلام مهدداً فقط بل العربية — ولعمرى هل يعيش هذا بدون هذه ؟ .

فلو كنت أردت أن أؤلف كتابا خاصا بالعالم الإسلامى لزمه وقتٌ أطول ومال وفرص لا تتاح لى بالحال التى أنا فيها ، فقلت : مالا يُدْرَكُ كله لا يترك كله ، وجعلت هذه الحواشى وسيلة للغرض الذى ذكرناه » .

ومهما قال شكيب من دفاع عن هذه التعليقات فإنه لن يستطيع أن ينكر أنها بحاجة إلى تنظيم وتنسيق ، وأنها لو أتت على وجهها فى كتاب مستقل ذى خطة ومنهج لكانت الإفادة بها أسهل وأكمل .

التكرار والإسهاب

ومما نلاحظه على كتابة الأمير شكيب « التكرار » . ونحن نعرف أن علماء البلاغة يقولون إن التكرار يأتى لتأكيد غرض من أغراض الكلام، أو للمبالغة فيه ، كما يكون فى مواطن الغزل والمدح والهجاء والتوبيخ والتوجع فى الرثاء، والتأكيد والتهويل والتقرير وغير ذلك .

ونعرف أن تكراراً قد وقع لحكمة فى مَثَل العربية الأعلى : القرآن الكريم، وأن تكراراً وقع فى الشعر ، فكان منه المقبول ومنه المردود .

ولكن شكيب يكرر أحيانا تكراراً يضيق به الحريص على تجدد الفائدة وتكاثر المعنى ، فهو مثلا يكرر الشواهد التى استشهد بها من موطن إلى موطن ، وقد يذكر الحادثة أكثر من مرة ، إن لم يكن بكل ألفاظها فبأكثرها أوما يقاربها، وربما لم تكن هناك مناسبة قوية داعية ، مثل أن يتحدث عن مسلمى الأندلس فى « حاضر العالم الإسلامى » ، ثم يستطرد ويلخص صفحات من كتابه المترجَم « رواية آخر بنى سراج » ، ويستطرد إلى التعليق على معاهدات ومحالفات [1] .

ويستمر شكيب فى استطراد واستشهاد واقتباس من كلامه المذكور فى كتب أخرى له ومن كتب لغيره ، حتى يقارب الستين صفحة ، ثم يزداد عجبنا حين نجد شكيب يقول بعد هذا التطويل مع هذا التكرار إنه لن يستوفى الحديث هنا عن المسلمين فى الأندلس ، لأنه سيستوفيه فى كتابه « الحلل السندسية فى الرحلة الأندلسية » .

وهو فى أثناء حديثه هذا يتحدث عن العلامة « أبو زيد » وبعد صفحات بعيد

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ٢ ص ١ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

المطولات التي كتبها عن هذا العلامة، يعيدها بنصها[1] وكان يكفي أن يشير إليها ويحيل على مكانها السابق .

وقد حاول شكيب منذ وقت مبكر في حياته الأدبية أن يدافع عن الإطناب والتكرار، فقال: «إن للإطناب مقامات في الكلام لأجل التمكين في الأذهان، وإن للإشباع ضرورات في الخطاب، يرمي بها إلى زيادة الوقع في نفوس السامعين، وقد اغتفروا التكرار، بل استحسنوه في خطاب الجماهير، وفيما كُتب برسم القراءة على العدد الكثير .

ولولا هذا وأشباهه ما قيل: لكل مقام مقال، ولولا وجوب التكرار أحيانا ما وُجد باب التوكيد في كلامهم[2]» .

قال شكيب هذا في كتاب حققه ونشره سنة ١٨٩٩ م، ولعل التكرار كان قليلا في أدب شكيب حينئذ، ولكن الأيام تمر وتزداد كتابة شكيب تنوعا وتوسعا، ويصبح شكيب مكثارا فيزداد تكرارا، حتى يوصف بالتكرار، ويحاول هو أن يدافع عن تكراره، ويكتب بذلك إلى صديقه رشيد رضا في رسالة، فيرد عليه رشيد مؤيدا التكرار في سبيل الدعاية، وفي القرآن الكريم في المواطن التي احتاجت إليه فازداد حلاوة، ولكن التكرار من البشر مملول إذا كثر، يقول رشيد مخاطبا شكيب :

«وقد أحسنت في كتابك إليَّ إذ قلت إنك توصف بالتكرار، وصدقت في قولك إن التكرار ضروري في سبيل الدعاية، فإن في كتاب الله المعجز للبشر كثيرا من التكرار لمسائل التوحيد والبعث وما دونها من مهمات الدين ما ليس له

---

(1) المرجع السابق، ص ٣ و ١٧ .

نظير فى كثرته مع بلاغته واختلاف أساليبه وحلاوتها المثبتة لقولهم : (التكرار أحلى) ، ولكن كلام البشر يمل بكثرة التكرار[1] » .

* * *

وهذا التكرار فى مواطن من كتابة شكيب ينضم إلى إسهاب شكيب فى كتابته ، فهو عدو للإيجاز فى كثير من هذه الكتابة ، وكأنه لا يوجز إلا إذا تعمد ذلك وحمل نفسه عليه ، وأما حين يرسل نفسه على طبيعتها ، فإن قلمه يسيل فلا يتوقف إلا إذا أطنب وأسهب ، وما أكثر ما ترك شكيب نفسه على سجيتها منذ عهد مبكر فى حياته القلمية ، فقد نقل لنا المرحوم على الغاياتى فى ذكرياته أن مقالات شكيب فى جريدة (المؤيد) كانت مسهبة ، وكانت كل مقالة تملأ الصفحة الأولى أو تزيد ، فلا يبقى فيها مكان لكاتب سواه .

ولما بدأ الغاياتى يكتب فى (المؤيد) كان يتمنى أن يختصر الأمير مقالاته ، حتى يجد الغاياتى له مكانا بجانبه فى الصفحة الأولى ، وكان للغاياتى صديق من (يافا) هو عادل جبر ، وكان زميلا له فى دراسة العلوم الاجتماعية بجامعة جنيف ، وعزم عادل على السفر إلى بلده لزيارة أهله ، فرجاه الغاياتى أن يبلغ الأمير التحية ، ويسأله بلطف أن يوجز فى مقالاته ، ليجدوا إلى جواره نهرا أو نهرين بالصفحة الأولى ، وبلَّغ الصديق الرسالة ، فضحك لها شكيب ، ووعد بالإجابة إن أمكن[2] ! .

وكان شكيب فى سنة ١٩٢١ أرسل إلى السيد رشيد رضا مذكرات له عما جرى فى سورية أيام الحرب لنشرها فى (المنار) حسب اقتراح رشيد ، وقد لاحظ رشيد الإسهاب والاستطراد والتكرار فى رسالة المذكرات ، فكتب إليه رسالة بتاريخ ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٠ هـ — ٢ يناير ١٩٢٢ م ، وفيها يقول لشكيب :

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٦٣٧ . والرسالة بتاريخ ١١ شوال ١٣٥٠ هـ (تقابل سنة ١٩٣١ م) .

(٢) جريدة منبر الشرق ، عدد ٢٣ يناير ١٩٥٢ .

الرسالة على طولها قد كُتبت بأسلوب الإطناب ، حتى إنه قلما يوضع «إن
ضمير موضع مظهر ، وفيها تكرار للجزئيات والرد على الخصوم وما يتعلق به ،
تذكر حياة كل شخص من الأشخاص الذين يُستشهد بهم ، وهذا النوع من
الدفع أو الجدل يذكِّر خالىَ الذهن بأن الكلام عرضة للارتياب ، ويكفى الإشارة
إلى ذلك مرة واحدة تذكِّر المكابرَ بأنه لا يستطيع أن يمارى فى هذه الوقائع
وهو ظاهر » .

ونشر شكيب الرسالة فى كتابه عن رشيد ، وعلق عليها بقوله :

« أقول قد يكون الأستاذ على حق فيما يقول من جهة التكرار وكثرة
الاستشهاد ، ولكن الذى بلوناه من مكابرات الأعداء فى هذه المسألة دعانا إلى
ذكر كل حادثة بشواهدها ، وأحياناً كنا نشفع الشهادة بترجمة صاحبها حتى
نبقى مجال المكابرة »[1] .

ويظهر أن من أسباب إسهابه فى الكتابة مطالعته الكتب العربية الواسعة
وتأثره بها ، كالكامل لابن الأثير ، ونفح الطيب للمقرى ، وتاريخ ابن خلدون ،
وصبح الأعشى للقلقشندى .

واستمر شكيب يسهب كثيراً ، ويوجز قليلا ، على الرغم من أنه القائل :
« الكاتب الذى يكثر من اللفظ بما يزيد على حاجة المعنى أشبه بالمرأة الضعيفة
التي تريد أن تستر هزالها بكثرة الثياب »[2] .

ويمر على هذا القول قرابة عامين ، وإذا رشيد رضا يعود فيكتب إلى شكيب
رسالة بتاريخ ١٣ رجب ١٣٥١ هـ — ١٢ كانون الثانى (يناير) ١٩٣٢ وفيها
يطالبه بأمور منها ترك الإسهاب فيقول :

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣١٠ و ٣١١
(٢) جريدة الشورى ، عدد ١٩ نوفمبر ١٩٣٠ .

« أن تترك عادة الإسهاب والتطويل فى كل ما تكتب ، إلى الإيجاز تارة ، والتوسط تارة أو تارات ، فكثير ما تكتب فى بسط المسائل ماهو معروف عند من تكتب له أو لم ، وقد يكون معروفا مما كتبت من قبل . والكتاب المختصر المُفَجَّل خير من المطول المؤجل » .

وقد علق شكيب على هذا موافقاً بقوله : « هذا عين الصواب ، وليتنى جعلت رأى الأستاذ حِنْدِيرَةَ عينى[1] » .

ولكن ، هل تاب شكيب حقاً من إسهابه واستطراده وتكراره ؟ وهل جعل نصيحة رشيد حدقةً لعينه حقاً ، أو على الأقل جعلها منظاراً لعينه ، أو وضعها أمام ناظريه ؟ .

لم يكن من ذلك شيء ، بل لعل الأمر لم يزد على ترديده عبارة التمنى السابقة دون استطاعته الحصولَ على ما تمنى ، فإن العادة كانت قد استحكمت وتحكمت .

وإليك الدليل . فقد أصدر شكيب كتابه عن شوقى عام ١٩٣٦ م ، أى بعد نصيحة رشيد بأكثر من ثلاث سنوات ، وإذا هو فيه يسهب ويستطرد ، ويطيل الإسهاب والاستطراد .

فهو يشير مثلا إلى بدء صلته بشوقى ، فيذكر أنه فى سنة ١٨٩٠ كان بمصر ، ولم يكن يسمع بشخص يقال له « شوقى » ، ثم يستطرد فى حديث عن نفسه ، وعن الخديوى توفيق ، وعن مدحه للخديوى ، ويذكر جانباً من شعره ، ويظل فى هذا الاستطراد نحو ثلاث صفحات ، ثم يعود إلى شوقى موضوع الكتاب[2] .

وفى موطن ثان يترك الحديث عن شوقى موضوع الكتاب ليستطرد بالحديث

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٦٨٣ . والحنديرة والحندورة والحندير والحندارة والحندور : حدقة العين (القاموس) .

(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٤ وما بعدها .

عن الحرب الطرابلسية ، وزيارته لمصر فى أثنائها واشتراكه فيها ، ويظل فى هذا الاستطراد لأكثر من ثلاث صفحات ، ويعنون شكيب جزءين من هذا الكلام بعنوان « استطراد »[1] ، فهو يستطرد عامداً وعلى وعى « ومع سبق الإصرار » .

وليست هذه أول مرة يصرح فيها شكيب عن نفسه بأنه يستطرد وهو عالم باستطراده ، فقد سبق له فى « الارتسامات اللطاف » أن صرح بمثل هذا أكثر من مرة ، فحينما أشار — وهو يزور الطائف — إلى مسجد ابن عباس فيها ، استطرد فأورد ترجمة ابن عباس وأقوال الأئمة فيه ، وظل فى ذلك عشر صفحات ، ثم قال معتذراً : « ولو شئنا استقصاء مناقبه لطال المقام جداً ، لا سيما أن كتابنا هو رحلة إلى الحجاز ، لا ترجمة لابن عباس رضى الله عنه ، وإنما أوردنا ما أوردنا منها لأن التراجم الزكية هى خير ما يُطْرِف به الكاتبُ القراء » .

وفى مكان آخر يستطرد ثم يعتذر فيقول : « وأرانى قد بعدت عن الموضوع الذى كنت فيه ، ولكننا فى كل مرة لم نخرج إلى شىء غير مرتبط بأصل الموضوع »[2] .

وفى موطن ثالث ينتهز شكيب فرصة رده على اليازجى الذى انتقد شوقى ، وينفلت من حديث شوقى إلى حديث عن اليازجى ، ويورد لنا رثاءه فى اليازجى[3] . وقد انتهز شكيب فرصة كتابه عن شوقى ، وضمنه أكثر قصائده ، أعنى قصائد شكيب لا شوقى[4] ! .

وفى موطن رابع نرى طرفة عجيبة من طرائف الاستطراد والتوسع فى الحديث بلا موجب ، فقد أشار شكيب فى الكتاب إلى رثاء شوقى لأمين باشا فكرى ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥ وما بعدها .
(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ١٥٣ و ١٩٥ .
(٣) كتاب شوقى ، ص ٧٦ وما بعدها .
(٤) المرجع السابق ، الصفحات ٤ و ٦ و ١٧ و ٤٣ و ٧٦ و ٨٤ و ٩٥ و ١٠٢ و ١٤٧ .

وعزائه لإسماعيل صبرى باشا فى أمين ، ثم استطرد فذكر ثلاث قصائد فى رثاء أمين باشا ، وهى قصيدة شوقى ، وقصيدة إسماعيل باشا صبرى ، وقصيدته هو، ثم قال : « ولو فسح المقام لاستوفيت له ثلاثين مرثية ، وكان بها قمِناً »[1].

وأقول على طريقة شكيب : ولو فسح المقام لأوردتُ طوائف أخرى من استطراد شكيب فى هذا الكتاب ؛ فحسبنا منه ما تقدم !.

والعجيب فى الباب أن شكيب يترك ما يُنتظر منه أحياناً ، فقد تكون هناك مناسبة داعية لشىء من الاستطراد فيتركها عمداً أو سهواً ، ومن أمثلة ذلك أنه قال فى « الارتسامات اللطاف » :

« والسلسلة الجبلية من الحجاز إلى اليمن متصلة ، وعن يمين الذاهب من الشام إلى مكة التهائم الواصلة إلى سِيف البحر الأحمر ، وعن اليسار بلاد نجد ، وهى من أطيب البلدان نُجْعة وألطفها هواء ، يضرب المثل بجودة هوائها ، فيقال بلاد نجدية الهواء[2] » .

هذا كلام شكيب ، وهو شاعر أديب ، وله سوابق من الاستطراد بداعٍ قوى أو ضعيف ، فلماذا لم يستطرد هنا بذكر شىء من الشعر العربى فى نجد وهوائها وصباها ، مع أنه ذكر قبل ذلك أشعاراً كثيرة قيلت فى المواضع التى مر بها ، وأطال فى ذكرها نقلا عن السابقين[3] .

وقد أدرك ذلك السيد رشيد رضا الذى تولى تصحيح الكتاب وتعليق بعض حواشيه ، فقال فى الهامش : « للشعراء من المدح لهواء نجد ، والحنين إلى صَبا نجد ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٠ والقمن – ككتف وجبل – والقمين – كأمير : الخليق الجدير .

(٢) الارتسامات ، ص ٢٥٩ . وسيف البحر (بكسر السين) : ساحله . والنجعة : طلب الكلأ فى موضعه . وانتجعت فلانا : طلبت معروفه .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤١ وما بعدها .

ما يكاد يفوق نسيبهم وتشبيبهم بغوانى الحسان ، ولعل أمير البيان لو تذكر هذا هنا لروى لنا من محفوظه الواسع من الشعر الرائع ، ما هو أشد تشويقاً لجزيرة العرب من سرد أسماء المواقع ، فإن ذكر تلك الصِّبا يكاد يكون أرقَّ من ذكرى أيام الصبا»[١] .

وقد عمَّق نزعةَ الإسهاب والاستطراد فى نفس شكيب كثرةُ المعلومات التى كسبها من مطالعاته الواسعة المتشعبة المتصلة بأكثر من لغة ، فقد كان شكيب يتقن العربية والتركية والفرنسية ، ويعرف الإنجليزية والألمانية[٢] . تتوارد على ذهنه هذه المعلومات وهو يكتب ، فلا يدرى ماذا يأخذ وماذا يدع ، فيريد أن يستن بسنة الكثير من السلف حينما كانوا يحرصون على أن يمتعوا قراءهم بكل ما يعرفون ، وشكيب قد أدمن النظر فى « نفح الطيب » ، وعنصر الإسهاب والاستطراد فيه واضح ، كما أنه طالع للجاحظ وأعجب به ، والجاحظ له باعه فى تشقيق الحديث وإطالة الكلام .

ومن الأسباب كذلك تعوُّد شكيب على سرعة الكتابة التى تهوِّن عليه طولَ ما يكتب ، وهو رجل قد ألف الانهماك فى التسطير والتحبير ، فيسطر فى الوقت القليل ما لا يسطره غيره فى الزمن الطويل ، وقد حدَّث أحدَ أصدقائه بأنه كتب فى ستة أشهر — وهو فى (مرسين) — خمسمائة وسبعين مكتوبا ، وأربعين مقالة ، وترجم عن الفرنسية كتابين فى خمسمائة صفحة ، وكل ذلك بخط يده[٣] .

ومن الباحثين من يرجع سبب شهرة شكيب الواسعة فى عالم الأدب إلى « أنه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٢) ذكرى الأمير ، ص ٥٣ . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

(٣) جريدة الشورى ، عدد ٢٤ سبتمبر ١٩٢٥ .

كان مكثاراً فى الكتابة ، وما انفك طول حياته عن مبادلة الأدباء والشعراء فى العراق ومصر والمغرب وسائر بلاد الشام ، وما خلفه من الآثار نثراً وشعراً فى أكثر صحف العالم العربى ومجلاته ، مما خلد ذكره ، وطبقت شهرته الخافقين [١] » .

ويقول محمود زكى باشا عن شكيب : « أما كيفية تحبيره الرسائل والمقالات الضافية الممتعة فإنه لا يكاد يصدق القارىء أنها كلها عفو الساعة ، وفيض البديهة ، ومسابقة القلم للخاطر ، حتى صار يلقبه بعض الظرفاء (بماكينة سنكر !) التى لها سرعة البرق فى التطريز ، وقد نراه يكتب فى شئون شتى فى وقت واحد ، وكل موضوع يخالف الآخر » [٢] .

ولقد كان هذا الإسراع مع سعة الاطلاع وغزارة المعارف سبباً فى متاعب لشكيب يعبر عنها بقوله :

« كثيراً ما كنت أكتب الجملة وأريد إتمامها بعبارة أو كلمة ، فتتزاحم الخواطر فى رأسى ، فتذهب بما كنت أريد أن أقوله ، وتبقى الجملة ناقصة ، وتلبث تلك العبارة المتممة لها فى قعر الدواة ، وقد أعيد النظر على ما كتبت . فأفطن لموضع النقص وأسده ، وقد تحول عُدَوَاء الشغل [٣] ووفرة الوارد والصادر من الكتب ، فأسرح المقالة بدون إعادة النظر عليها .

وعند ما تجىء فى الجرائد مطبوعةً أرى فيها الزائد والناقص ، وينغص ذلك علىّ لذةَ قراءتها . وكم من مرة رميت بالجريدة التى فيها مثل هذا السهو جانباً ، لأنه لو كانت كلمة محرّفة أو مصحفة بجهل منضّد الحروف لأمكن تصحيحها فى عدد

---

(١) مجلة الأديب ، عدد كانون الثانى ١٩٤٧ .

(٢) جريدة الشورى ، عدد ١١ أغسطس ١٩٢٧ .

(٣) العدواء (بضم ففتح) : المركب الغير المطمئن ، والأرض اليابسة الصلبة ، وعدواء الأرض : بعدها .

آت من الجريدة أو المجلة ، ولكن الجملة الناقصة يكون من أبرد الأمور أن تعتذر عنها بأنها بقيت فى كعب الدواة [1] » .

• • •

هذا وأحب أن أشير إلى أننا حين نستعرض كتب شكيب سنزداد معرفة بنثره وكتابته ، لأن مزيداً من المعلومات المتعلقة بالموضوع سترد حينما يلائم المقام عرضها بمناسبة الحديث عن هذه الكتب .

---

(١) المرجع السابق ، عدد ١٠ نوفبر ١٩٢٧

المعنى عند شكيب

تحدثت عن شكيب الناثر من ناحية ألفاظه وأسلوبه وصور تعبيره، ولاشك أن الحديث عن اللفظ يشمل الحديث عن المعنى من بعض الجهات، لأن اللفظ وعاء المعنى، والمعنى لا يفهم دون لفظ، ولكن لما كانت المعاني هي الهدف الأساسي المقصود من الألفاظ كان من حقّ المعنى أن نخصه بحديث.

لقد أبدى شكيب رأيه في قضية اللفظ والمعنى، في مواطن متفرقة من كتاباته، ونستطيع أن نلمح جانبا من هذا الرأي حين نجده في تقديمه لكتاب "الدر اليتيمة" يقول:

"إن المعاني إذا كثرت على الألفاظ ضاق دونها ذرع الكتبة، فذهبوا في إبرازها إلى الخَلْق،وعرضها على الأذهان مذاهب الضعف ومسالك السخف، فأفسدوا لغتهم وأعجموا منطقهم.

وإذا كثرت الألفاظ على المعانى بين قوم سادت بينهم الصناعة اللفظية . ولهَا المشتغلون بنوع من الحفظ لم يقصد لذاته ، فكان العى والحصر أحسن منه .

فكانت البغية كل البغية فى تناسب القوتين ، وتعادل المُنّتين [1] ، وتضارع المادتين ، حتى يتوفر [2] لكل معنى نَدِيدُه من اللفظ ، ويقتنى بازاء كل مغزى ضريبه من السبك ، ويودع كل خاطر قالبه الأليق ، ويلبس كل فكر ثوبه الألبق ، وهى غاية من أبعد البعيد ، وعقبة عَنُود لدى التصعيد ، ولكنها رأس النصح فى

---

(١) المنة (بضم الميم) : القوة .

(٢) هكذا ، والصواب انه : يتوافر . فى أساس البلاغة : « وتوفر على كذا إذا كان مصروف الهمة إليه . وكان ذلك وأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متوافرون » ج ٢ ص ٥١٩ .

خدمة اللغة ، وأول الواجب فى حق اللسان ، وإنما يتذرع إلى تسهيلها ، وتمهيد طرق تحصيلها ، بإدمان النظر وإدامة السهر فى التطبع على بلاغة الأولين ، وتقليد مناهج السالفين »[1] .

ونفهم من هذا أن شكيب يستحسن التساوى بين اللفظ والمعنى ، بحيث لا يطغى اللفظ فيتسع فيكون الكلام صنعة ولهواً ، ولا تضيق الألفاظ بالمعنى الكثير فيؤدى ذلك إلى الضعف والسخف .

ويعود شكيب فى المقدمة نفسها فيرى أن « الدرّة اليتيمة » نموذج طيب لإيراد المعانى الجليلة فى الألفاظ القليلة ، فيقول عنها :

« إنها مع صغر حجمها قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة ، وأسمى درجات الحكمة ، وتضمنت من الحكم البوالغ والحجج الدوامغ ما لم يتضمنه كتابٌ قبلها ولا بعدها ، فكانت حرية بأن يتخذها الكاتب منتجع لبه ، وحماطة قلبه ، وأن يجعلها دستور إنشائه ، ومثال احتذائه ، وحقيقة بأن يتخذها الإنسان نصب ناظره ، وشغل خاطره ، يهتدى بنور حكمها فى ظلم المعاضل ، ومدلهمات المشاكل ، ويتدرب بما أوضحته من سبل التصرف الحكيمة ، ونهجته من جوادى الكمال القويمة ، على امتزاج لحمتها بقواعد الكون ، ودخولها تحت طور الطَّوْق »[2] .

وشكيب يقرر بهذا أن الكلام القليل إذا تضمن المعنى الكثير بلا تقصير كان أعلى طبقات البلاغة ، وأن هذا النوع من الكلام هو المثل الأعلى .

وفى موطن آخر ينص شكيب على أن المعنى الجليل إذا لم يجد من اللفظ حلةً سنية قويمة تناسبه انحط الكلام وصار ركيكا ، فيقول : « نقاوة اللغة هى

---

(١) الدرة اليتيمة ، ص ٦ و ٧ . والأليق : بمعنى الأليق .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨ . وحماطة قلبه : صميم قلبه . ونهجته : سلكته . وجوادى الكمال : سبله وطرقه .

الشرط الأول للشاعر والكاتب ، والمعانى وحدها لا تكفى ، ولا ينهض ركاكة اللفظ علو المعنى ، وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم »[1] .

ويؤمن شكيب بأن النثر الجيد هو ما جمع بين حضارة المعانى وبداوة الألفاظ[2] وقد حاول أن يحقق ذلك فى كتاباته ، فاستقام له الأمر فى أحيان كثيرة ، حتى قال عنه خليل مطران إنه « حضرى المعنى بدوى اللفظ »[3] .

يقول شكيب أيضاً : « لست ممن يعترضون على أولئك الذين يريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، ويريدون أن يفهموا الناس ويفهمهم الناس ، ويعيشون مع الجيل الذى هم فيه ، دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

كلا ، لأنى من هؤلاء القوم أنفسهم ، لى ماض يشهد لى بذلك ، و ٣٨ سنة فى عالم المطبوعات من أهرام ومؤيد ومقتطف ومقتبس وجرائد ومجلات عديدة . عشت فيها مع الجيل الذى أنا فيه ، واجتهدت أن أفهم الناس ، وأن يفهمنى الناس ، وجُلْتُ فى أكثر المواضيع العصرية ، وطالما ألبست يدى عند الكتابة قفازاً ، ولكننى حرصت على أن يبقى أسلوبى عربيا ، وأن أقتدى بنغمة السلف فى دولة فصاحتهم ، وأن لا أقطع علاقتى مع الأجيال الماضية »[4] .

وهو لا يعارض أهل المذهب الجديد فى الأدب إذا أحبوا الجَوَلان فى الموضوعات الحديثة والمعانى المستجدة ، بشرط أن يكون الأسلوب عربياً قوياً : « وإذا أراد الكاتب العصرى أن يجول فى المواضيع الحديثة والمعانى المستجدة

---

(١) كتاب شوقى ، ص ٩٠ .

(٢) مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ١٥٢ .

(٣) ديوان الأمير ، ص ٤ .

(٤) مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ١٥١ .

استنفد جميع مُنّته فى إلباس هذه المعانى الجديدة حللَ الأساليب العربية القويمة التى هى أصل اللغة والطراز المنسوج على منواله »[١] .

وحينما نرجع إلى أدب شكيب وكتابته نلمح فى سهولة أنه كان رجلا واسع الاطلاع غزير المعلومات رحيب الثقافة ، وأن له مكانته الملحوظة فى لغته وأسلوبه ومعناه . وقد حقق له ذلك تتبعُه لآثار العلماء والأدباء ، وحافظته القوية الواعية لما يطالع ، واتصال مطالعته ، وإدمانه الاستفادة العلمية من كل وجه ، ومسارعته إلى تسجيل آرائه وأفكاره .

وحينما ننظر فى معانى شكيب نجدها قوية ، وقد توافرت لها القوة بعوامل عديدة ، منها إحاطته الواسعة بمفردات اللغة ، ومعرفته عدداً من اللغات : كالتركية والفرنسية والإنجليزية والألمانية ، إلى جانب العربية ، ومزاولته الترجمة حيناً طويلا من الزمن ، وفى مقدمة أنواع ترجمته ترجمتُه عن الفرنسية التى تكونت له عن طريقها ثقافةٌ واسعة كانت ثمرة لقراءاته فيها ، وتحدثه بها خلال زياراته المتكررة لفرنسة ، وخلال إقامته الطويلة فى جنيف ، فهو يطالع بها الكتب والمجلات والصحف ، وهو يكتب بها الكثير من النداءات والبيانات السياسية ونحوها :

« وهذه الثقافة الفرنسية مكنته من الرجوع إلى مصادر المستشرقين وتعريب كتبهم، وتلخيص أقوالهم ومناقشتها والرد عليها ، فكثرت أسماء أعلامهم فى بحوثه ، حتى نافست أعلامَ العرب ، نجد فيها : دوزى ، ورينو ، وليفى بروفنسال ، وبديكر ، وكونده ، ودرمنغم ، ورينان .

فكان يفتح نافذةً على الأدب الغربى ، وأخرى على الأدب العربى ، ويُجرى التيار على تفكيره وآرائه ، فيخرج بالمعلومات النادرة عن الأدبين جميعاً ، وخاصة عن الأدب الفرنسى[٢] » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ . والمُنّة : القوة .

(٢) الأمير شكيب ، ص ٢٠٣ .

وإذا كان شكيب — كما ذكر مطران[1] — قد ظل دهراً طويلا يمد قراء العربية بكتب قيمة فيها من مختلف الآراء ما يهيىء لهم من أمرهم رشداً، ورسائل متنوعة يجتنون منها ما يغذى العقول ويفكه القلوب، فإنه يحسن بنا أن تذكر أن شكيب قد كتب فى أغراض كثيرة مختلفة؛ كتب فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع والرحلات والتراجم واللغة وغيرها.

ومعانيه فى هذه الكتب تختلف باختلاف موضوعاتها، فهو إذا كتب فى الأدب كانت معانيه فى أغلب الأحيان متأثرة — وكدت أقول متابعة — معانى القدماء، كما فى مناقشاته مع خليل سكاكينى[2]، وهو إذا كتب فى التاريخ غلبت عليه المعانى المنقولة عن غيره من السابقين أو المعاصرين، مع المقارنة والتعليق والشرح أحياناً، كما فى «الحلل السندسية» و «تاريخ غزوات العرب».

وإذا كتب فى السياسة كانت معانيه بعيدة الغور، عميقة الفهم، لأنه يكتب عن خبرة وتجربة ومشاهدة واتصال بالأحداث، وإذا كتب فى الاجتماع تأثر بأفكار ابن خلدون ومعانيه، وإذا كتب عن الرحلات حمل إلينا المعانى الدالة على التدقيق فيما شاهد، والتحقيق لما سمع، ولا ينسى هنا أن يربط بين الماضى والحاضر.

وقد يطغى صوت الماضى بمعلوماته وآرائه وأحكامه على صوت شكيب وفكره كما نرى ذلك واضحاً فى كتابه «الارتسامات» عند استشهاداته بكلام الأولين على أشياء يراها فى رحلته، ويستطيع أن يحدثنا هو عن حاضرها.

وإذا كتب التراجم فإنما هى ذكريات وخواطر واجترار للماضى، مع حديث عن نفسه، وربط لشخصه بشخص المترجم له، فتتجلى المعانى الذاتية، كما فى كتابيه عن رشيد وشوقى، وإذا كتب فى اللغة تجلت لك روح المعجمات، وظهرت النزعة السلفية فى النقل والمحافظة واحترام المأثور.

---

(١) ديوان الأمير، المقدمة، ص (د).
(٢) سيأتى الحديث عن هذه المناقشات عند التعرض لآراء شكيب فى النثر.

ومن هذه الكلمات نستطيع أن نلحظ فى سرعة أن مضمون الكتابة عند شكيب متنوع، فتارة يكون نقليا، وتارة يكون عقلياً، وتارة يكون عاطفياً، وأكثره له عمقه، والقليل منه يخف وزنه.

ولكن هناك أمراً هاماً يجب التنبه إليه، وهو أن شكيب لم يكن من أدباء الأبراج العاجية، ولم يكن من شيعة الذى يتخذون الأدب لوجه الأدب، أو الفن لذات الفن بل هو رجل دعوة، وله رسالة، وله فى الحياة العامة واجب يرى نفسه ملزماً بأدائه

[قد كان شكيب يحس بأنه مسئول عن حراسة تراث العربية، ومواريث الإسلام، وقضايا العرب، وشئون المسلمين، ولذلك كان لزاماً عليه أن يبشر بدعوته، وأن يسهر على رسالته، وأن يدافع عن القضايا التى يؤمن بها ويلزم نفسه الذود عنها، وما دامت هذه القضايا ترتبط بعقيدته وقوميته، وهما أعز ما يحرص عليه الرجل الأصيل الغيور فى دنياه، فليندفع شكيب فى ميدان الكتابة والخطابة والمحادثة والمراسلة والنشر، ذائداً عن حرمات العرب والمسلمين.]

وليكن لشكيب فى هذا المجال مدد أى مدد من عواطفه ومشاعره وأحاسيسه التي تفاعل مع الأحداث المباشرة أو غير المباشرة التى تتصل بإخوته فى الوطن وإخوته فى الدين، وليكسب شكيب على مر الأيام — بحكم هذه الرسالة — ما يشبه صفة «الخطيب» الذى لا يمـــل ارتقاء منبر الدعوة ليحرض أو يذكر ويثير أو ينقد.

ومن هنا تطرق الإسهاب والإطناب إلى كتابة شكيب من أوسع الأبواب، والإطناب هو أن يزيد اللفظ عن المعنى، ومعانى شكيب جليلة وقوية، ولكن ألفاظه موفورة، وتعبيراته كثيرة، وأرصدته اللغوية والبيانية كبيرة، وإذا

فاتكن معانيه فى كثير من مواطن كلامه كالغيد الأماليد (١) اللواتى يشبهن غصون البان الراقصة ، وهن يتاوجن داخل ثياب جميلة رائعة ، ولكنها فضفاضة واسعة ! .

ولقد عاب عليه خليل سكاكينى ذلك الإطناب ، وتمنى عليه لو ضاعف معانيه وإن أطنب فيها ، فقال له : « إذا أردت أن تكثر فلا دخل للاطناب والإيجاز فى إكثارك ، وإنما الإكثار أن تضاعف معانيك ما شئت وشاء المقام ، لا أن تضاعف ألفاظك على غير حاجة إليها ولا فائدة فيها (٢) » .

واتهمه السكاكينى فى موطن آخر بقلة البضاعة ، ونزارة المادة الفكرية : ولذلك يلجأ شكيب إلى التكرار ، ويسرف فى استعمال المترادفات ، مثل قوله فى بيان له إلى الأمة العربية : « ياإخواننا ؛ إن الصارخة القومية ، والنعرة الجنسية ، قد بدأت مع الأقوام ، ونشأت مع الأمم ، منذ الكيان ، ومنذ وجد الاجتماع البشرى ، وتساكن الإنسان مع الإنسان (٣) » .

وكان يستطيع أن يوجز ولا ينقص المعنى فيقول : « ياإخواننا ، إن الصارخة القومية قد بدأت منذ وجد الاجتماع البشرى » .

ومثل قول شكيب فى البيان السابق : « وإن هذه النعرة الجنسية والحمية القومية ، وإن عم أمرها جميع الأمم ، ولم يخل منها عرب ولا عجم ، فقد اختص منها العرب بالشقص الأوفر والحظ الأكمل (٤) » .

وكان يستطيع أن يوجز بلا نقصان فى المراد بأن يقول : « وإن هذه الحمية القومية ، وإن عم أمرها جميع الأمم ، فقد اختص منها العرب بالحظ الأكمل » .

---

(١) الغيد : جمع غيداء ، وهى المتثنية لينا . والأماليد : جمع أملود ، وهى المرأة الناعمة .
(٢) مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ١٢٧ .
(٣ و ٤) المرجع السابق ، ص ٩٧ والشقص : النصيب

ولكن شكيب يرد على هذا المأخذ بأن العبارات السابقة « جمل من نداء كان الوفد السوري وجهه إلى الأمة العربية : قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، وخاصيها وعاميها، مراعياً حال من يخاطبهم ، وضرورة تمكين المعانى من نفوسهم، وتحريك عاطف حميتهم ، بما هو فى كل لغة ، وفى كل منطق ، وفى كل أدب ، موطنُ التكرار الأكبر ، ومحل التأكيد اللازم ، إذ كانت المناشير العامة والرسائل الموجهة إلى الجماهير دائماً على هذا النسق ، ولم تكن قاعدة (خير الكلام ما قل ودل) موضوعة لمثلها ، إلا إذا اختلت قاعدة أخرى هى أعم منها . و (لكل مقام مقال) والفصاحة [البلاغة] هى المطابقة لمقتضى الحال[1] » .

والواقع أن شكيب يتناول المعنى من المعانى فيظل يفصل فيه القول ، ويردد حوله الألفاظ المترادفه أو المتقاربة ، حتى يؤكده أو يثبته ، ويبدو هذا بصورة أوضح من غيرها فى بياناته السياسية ، وفى دفاعه عن نفسه ورأيه ، وفى حديثه عن أحوال أمته ، إذ يكون فى هذه الأحوال منفعلا أو ثائراً ، فتستبد به العاطفة ، فتسيل على أسلة[2] قلمه فيضاً من تعابيره يجلّى فيها المعنى الذى يريد تجليته ، ولو كان ضئيلا ، أو كان معروفاً من قبل .

* * *

وقد يقع من شكيب ما يشبه التناقض فيما يتعلق بالموضوع والمعانى والأفكار التي يصورها ، فهو مثلا يحدثنا بأنه لا يؤلف إلا فى الموضوع الجديد ، ليضيف إلى ذهن قارئه معلومات جديدة ومعانى طريفة ، فيقول فى ملحق لرواية « آخر بني سراج » :

« كنت منذ نشأتى ممن لا يحبون التآليف فيما كثر فيه التأليف وطال فيه المقال ، كأنما أعده تكراراً لسابق ، أو إعادة لصدى ، وخلواً من كل براعة ،

---

[1] المرجع السابق ، ص ١٠٤ نقلا عن جريدة السياسة ، عدد ٧ نوفمبر ١٩٢٣ .
[2] أسلة القلم : طرفه .

وأخبار الأندلس مستفيضة فى التواريخ شرقا وغربا ، ومعروفة عند الأدباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة فى عدد الكتب ، وإنما يستحب الإنشاء فيما ندر فيه الكلام ، وعز البحث وطمست الأعلام ، فإذا قرأته العامة — بل الخاصة — سقطت منه على جديد ذى طلاوة ، ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الأخرى مدارسة كتب القواعد التى لا تتغير(١) » .

يقول هذا ثم يعود بعد حين طويل من الزمن ، ربما ظهرت فيه مؤلفات جديدة عن الأندلس ، وربما نشرت فيه كتب قديمة عن الأندلس ، يعود ليكتب « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » ، ويعتمد كثيراً على نقول من « نفح الطيب » وغيره ، فأين إذن الجديد ؟ وأين التجديد ؟ .

ولا أحب أن أترك الحديث عن « رواية آخر بنى سراج » وملحقاتها دون أن أنتزع منها نصاً يدل على أن شكيب يكتب فى أحيان كثيرة بعاطفته وانفعاله ، دون تجرد للموضوعية أو تحكيم للنزعة العقلية . يقول عما كتبه كخلاصة لخاتمة تاريخ العرب فى الأندلس :

« ولا أكتم القارىء الذى هو خليق بأن لا يخفى عليه بشفوف بصره ولطف حسه أن الأمر غير خالٍ فى هذا الإملاء أيضا من نزعة جنسية ، وحنوة عصبية ، وهفوة للفؤاد وراء آثار بنى الجلدة ، مما تستشعر فيه مرضاة هذه النفس العظيمة السر ، البعيدة مهوى الغرض ، الغريبة شكل الهم ، وتوفر به اللذة والراحة لهذا الوجدان الداخلى السائح فى أثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها ، على ترجيح الأقرب فالأقرب .

وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه ، والميل للاتصال بأبناء أبيه ، فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التى هى جزء من هذا المجموع ، لما يحس

---

(١) آخر بنى سراج ، الملحق ، ص ٦٠ .

أن أقرب أنواع الدم إلى دمه هو الجارى فى عروق قومه ، فهو يحن إليهم ، ويحنو عليهم ، ويتألم لألمهم ، ويعتز بعزهم .

وإذا غابت أشخاصهم استأنس بآثارهم بعد الأعيان ، وارتاح إلى مواطنهم ، ورغب في الدوس على مواطىء أقدامهم ولو بعد أزمان . وقد عهدنا الذى يصاب بعزيز أو بذى قرابة يختلف إلى قبره ، يشفى بالبكاء عنده حرارة صدره ، وإذا ظفر بقطعة من ملبوسه أو مفروشه ، أو برقعة من خطه ، احتفظ بها ، وغالى فى قيمتها ، وجعلها مدار أنسه ، فى خلوات نفسه ، وروح حياته ، فى منتبذ مناجاته[1] » .

الكلام جميل ، والهدف نبيل ، وحب الأوطان ديدن الإنسان الكريم ، وما أوردت النص لأعيب على شكيب قليلا أو كثيراً من غيرته على وطنه ، أو حبه لقومه ، أو تتبعه لمآثر آبائه ، ولكنى أردت أن أبين عنصر العاطفة والانفعال الذي ينفذ بشكيب حينما يتحدث فى مثل هذا المجال ، فيلقى هذا العنصر على مضمون كلامه ظلالا من عاطفته وانفعاله .

ولقد حق لشكيب أن يقال فيه إنه كاتب مشبوب العاطفة ، شديد الحماسة ، خيالي نابليوني[2] ، وكأنه لا يكتب بقلم فيه المداد ، وإنما يكتب بقبس من شعوره وعاطفته له امتداد .

ولنذكر فيما يلى أمثلة قليلة ومقطوفة من روضتها ، لتدل على مدى استجابة شكيب لعاطفته وانفعاله حين يكتب :

قال فى سبب وضعه كتابا عن شوقى :

« وإنى لأخجل من نفسى إذا رأيتنى قصرت فيما يجب على نحو شوقى بعد وفاته ، وإنى لأتخيل شوقى — وهو الذى يقول ، كما جاء فى جريدة كوكب

---

[1] رواية آخر بنى سراج ، ص ٣٦٦ .
[2] الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٦٢ .

الشرق» إلى أحد أصحابه الثلاثة الذين لا يعز أحداً عليهم — قد نظر إليّ من برزخه، وأطلّ عليّ من نافذة الغيب، وحدّق بي بعيونه تلك التي كان يقول فيها صديقنا الشيخ علي الليثي: (محاجر مسك ركبت فوق زئبق) وقال لي: أهكذا ضمنتني يا أخي بعد وفاتي؟ وإنه في تلك الساعة قد ينشدني قول أبي العتاهية:

سيُعرَض عن ذكري، وتُنسَى مودتي ويَحْدث بعدي للخليل خليل
إذا ما انقضت عني من الدهر ليلةٌ فإن بكاء الباكيات قليل

فأبدا أجيبه قائلا: لو نسي عهدَك الأولون والآخرون لما خفرت لك عهداً، ولا مذقت لك وداً، وإنك في الغيب عندي لكما في المشهد، وأنت تعلم أنها صداقة أربعين سنة، تساقينا كؤوسها صفواً بدون قذى، وتبادلنا رياحينها عفواً بدون أذى.

فإن أظمأ عهدك النسيان فلي مدامع ترويه، وإن شطت بشعرك النوى فإن الدهر كله يرويه، وإنه وإن بكاك الناس حبا بالأدب، ورحمة للسان العرب، فإني لأبكيك بصفتين: صفة الأديب البرّ بلغته، الغيور على صناعته، وصفة الأخ الضنين بأخوته، الحريص على مروءته، فأنا في مقدمة من لك من الإخوان الذين يبكون فضلك، ويذكرون عهدك، إلى أن يواروا في التراب [1] ».

نرى هنا أن شكيب قد اندفع إلى الكلام عن شوقي بصفتين إحداهما عاطفية في لُحمتها وسَداها، وهي الأخوة، وأخراهما لا تخلو من العاطفة والهوى، وهي الغيرة على اللغة القومية.

وإذا كنا نرى شكيب في مقدمته لكتاب «السيد رشيد رضا» يذكر أنه أقدم على نشره لأن هذا ما يقتضيه الإنصاف والعدل، فإنه يذكر بجوار هذا السبب سبباً آخر عاطفياً وهو أخوته لرشيد، يقول:

---

(١) شوقي أو صداقة أربعين سنة، ص ١٢٥.

. وإنى لأجد نشرَ مناقبه ، والتنويه بقدره ، والإشادة بحسناته الكثيرة ، والإنارة لبراهينه الساطعة ، من عزائم الله الموجبة ، وفرائضه المبرمة ، عملا بقوله تعالى: (وَزِنُوا بالقِسطاسِ المستقيم) هذا مضافا إلى ما كان بيننا من الإخاء القديم، والذمام المتين ، والرمى عن قوس واحدة ، والاقتداء بإمام واحد . لا جرم أنى أرى ترجمتى له دَيْناً علىَّ لايجوز أن ألوى به مادامت لى أنامل تمسك القلم »[١] .

ونحن نتذكر أن شكيب زار الأندلس سنة ١٩٣٠ ، وصاغ عن زيارته قصيدة طويلة النفس ، وفيها أطلق لعاطفته العنان ، وأرضى انفعاله الثائر ، فقال فيما قال عن حضارة العرب فى الأندلس :

يقولون كانت أُمّة عربية	بأندلس ، سادت بها جمٌّ أعصر
وقد عمرت أقطار أندلس بهم	فكم بلد فخم ، ومصر ممصر
وكم أربع خضر ، وحرث مطبق	وفاكهة رغد ، وزهر منوَّر
وكم قائد قرم ، وجند مدّرب	وكم سائس فحل ، وأمر مدبَّر
وكم بطل إن ثار نقعٌ رأيته	يبيع بأسواق المنايا ويشترى
وما شئت من علم ورأى وحكمة	ودرس وتحقيق وقول محرر
إلى شمم جم ، ومجد مؤثل	وفى عزة قعسا ، ووفر موفر
نعم كان فيها من نزار ويعرب	جموع بخيل الأرض فى يوم محشر
فراحت كأن لم تغن بالأمس وانقضى	لهم كلُّ رِكْزٍ غير ذكر معطر[٢]

وكأن شكيب لم يكفه هذا التصوير الشعرى ، فعاد فى كتابه «الحلل السندسية» يتحدث عن الموضوع نفسه بالروح العاطفية نفسها فيقول :

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٥ . والذمام : الحق والحرمة . ولا ألوى به: لا أؤخره

(٢) ديوان الأمير ، ص ١٢٣ و ١٢٤ . والحرث المطبق : العام ، والقرم : السيد . والنقع : الغبار ، والركز : الصوت الخفى .

« نعم ، حواضر كالبحار الزاخرة كانت تموج بالبشر ، وحصون كالجبال الشامخة تحمي بالألوف ، وتكبو فيها جياد الفكر ، وجيوش كانت حصى الدهناء ، ورمال البطحاء ، ومساجد كانت في الجُمَع المشهورة تَغَصُّ بألوف الألوف من المصلين ، ومدارس كانت مكتظة بالألوف من القراء والطالبين ، وما شئت من إسلام وإيمان ، وحديث وفرقان ، وأذان يملأ الآذان .

وما أردت من نحو ولغة وطب ، وحكمة ومعان وبيان ، بلغة عربية عرباء ، يحرسها علماء كنجوم السماء ، وما أردت من عيش خضل ، وزمن نضر ، وحزرات أنفس ، وضحكات قلوب ، كل هذا عاد كهشيم المحتظر ، كأن لم يَغْنَ بالأمس ، ولم يبق منه إلا آثار صوامت ، وأخبار تتناقلها الكتب ، كأنه لم يعمر الأندلس من هذه الأمة عامر ، ولا سمر فيها سامر »[1] .

إن التشابه هنا قوي بين أبيات الشعر وسطور النثر ، حتى لو قلنا إن شكيب قد نثر هذه الأبيات بتلك السطور لما بعدنا عن الحقيقة ، وليس التشابه في المعنى فقط ، بل في بعض الألفاظ أيضاً ، وهذا دليل على أن شكيب كان ينثر أحياناً بعاطفة الشاعر ، كما كان يقول الشعر أحياناً بعقل المفكر[2] .

ولم يكتف شكيب بما قدمناه من نبضات قلبه ، وخلجات مشاعره ، ونسمات عواطفه ، وهو يتحدث عن ماضي العرب في الأندلس ، بل عاد ليؤكد لنا سيطرةَ العاطفة عليه في مثل هذا المجال فيقول :

« وأما السائح الشرقي فإنه يقضي سياحته في أسبانية متأملاً غائصاً في بحار العبر ، هائماً في أودية الفكر ، كلما عثر على أثر عربي خفق له قلبه ، واهتزت أعصابه ،

---

(١) الحلل السندسية ، ج ١ ص ١١ . والدهناء : موضع لتميم بنجد . وخضل : طري ناعم يرشف نداه . وحزرات أنفس : خيار نفوس .

(٢) كما في رثائه لتيمور حيث سرد أسماء كتبه وأبان أعماله اللغوية ، وكما في رثائه الرافعي فقد حدثنا فيه عن قضية القديم والجديد .

وتأمل فى عظمة قومه الخالين ، وما كانوا عليه من بُعد نظر ، وعلوهم ، وسلامة ذوق ، ورفق يد ، ودقة صنعة ، وكيف سمت بهم هممهم إلى أن يقوموا بتلك الفتوحات فى ما وراء النهر فى بحبوحة النصرانية ، وملتطم أمواج الأمم الأوربية ، وأن يبنوا فيها بناء الخالدين ، ويشيدوا فيها ألوفاً من الحصون ، وأن يملأوها أساساً وغراساً ، كأنهم فيها أبد الآبدين .

فلا يزال قلب السائح المسلم فى الأندلس مقسماً بين الإعجاب بما صنعه آباؤه فيها ، والابتهاج بما يعثر عليه من آثارهم ، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذى كانوا ملكوه ، والوجد على ضياع ذلك الإرث الذى عادوا فتركوه ، وأكثر مايغلب عليه فى سياحته هناك هو الشعور بالألم ، فهو لا يزال يسير بين تأمل وتألم ، وتفكر وتحسر ، لكنه يريد مع ذلك أن يقتفى هذه الآثار ، وأن يمشى فى مساكن أولئك الآباء ، وأن يخاطب الأحجار ، وذلك لأنه لهوى النفوس سرائر لا تعلم ، من جملتها أنها تنزع إلى البكاء عند دواعى الوجد ، كما ترتاح إلى الطرب عند بواعث السرور ، وأنها قد تهتف بالأمرين معاً ، وتجمع الضدين شَرَعاً[1] ، وأن كل ما هو حنين وتذكار ، وولوع بعد الأعيان بالآثار ، هو من سرائر النفس البشرية ، ومما هو غالب على النفس الناطقة »[2] .

* * *

ومما يدل على استجابة شكيب للنوازع العاطفية فى أعماله الأدبية أنه يحدثنا فى مقدمته لكتاب « محاسن المساعى فى تاريخ الإمام الأوزاعى » أنه نشره لعدة أسباب ، منها : أن الأوزاعى إمام أهل الشام ، وشكيب شامىّ ، والأوزاعى مفخرة مسلمى لبنان بنوع خاص ، وشكيب لبنانى ، وعائلته الأرسلانية لها محبة خاصة لهذا الإمام[3] .

---

(١) يقال : الناس فى هذا الأمر شرع : أى سواء .

(٢) الحلل السندسية ، ج ١ ص ٣٠٢ .

(٣) محاسن المساعى ، ص ١٨ .

ولقد قام شكيب برحلات كثيرة ، وكتب عنها أكثر من كتاب ، مثل الارتسامات اللطاف ، وتاريخ غزوات العرب ، والحلل السندسية ، ورحلة ألمانية ورحلة روسية ، ورحلة البوسنة ... إلخ . والكتابة عن الرحلات تناسبها المعاني العاطفية ، ويبدو فيها الانفعال الذاتي ، ولذلك نجد هذه الرحلات مليئة بخوض شكيب وذكرياته .

ولا ننسى أن شكيب تغلب عليه أحياناً الروح الصحفية التي لا تحرص على عمق المعنى أو دقة التحليل ، فقد بدأ شكيب يتصل بالصحف وهو في السادسة عشرة من عمره ، حيث نشر أول مقال له في مجلة « الصفاء » ، وراسل جريدة الأهرام وهو في سن الحادية والعشرين ، وكتب في المؤيد وهو في نحو هذه السن . وكتب مقالات نعجز عن حصرها في جرائد ومجلات كثيرة ، كالمقتطف والمؤيد والشورى والشباب والزهراء والمقتبس والجهاد والمقطم .

بل إنه نشر كثيراً من كتبه مقالات في الصحف أو المجلات أول الأمر . ثم عاد فجمعها في كتب ، مثل كتابه عن شوقي الذي نشر أكثره أولاً في «الجهاد» وكتابه « لماذا تأخر المسلمون » الذي نشره أولاً في « المنار » ، وكتب « الارتسامات اللطاف » الذي نشره أولاً في « الشورى » ، وهكذا .

وينبغي أن نتذكر هنا مجلته العربية الروح الفرنسية العبارة ، وهي مجلة « الأمة العربية » التي تتجلى فيها عاطفته الإسلامية ، وقوميته العربية ، وغيرته على قضايا بلاده وقومه ، وشدة حملاته على الاحتلال والاستعمار ، وانفعاله الظاهر وهو يدافع عن العروبة والإسلام : « ومقالاته في أكثرها عنيفة سافرة مندفعة ، تتساءل غالباً عن الاستعمار في القرن العشرين حين يتشدق الغرب بالرقي والحضارة الإنسانية ، وهي تسأل الدوتشي : هل تلتقي تعاليم الفاشيست مع الإنجيل في شيء ؟ وهل تقف مؤامرات الغرب ضد آسية وأفريقية ، فتكف عن القتال والتعذيب في سورية

وغيرها من البلاد العربية والإسلامية ، وهى تتساءل كذلك عن فرنسة العلمانية وأعمالها التبشيرية فى الجزائر وغيرها من أقطار العرب .

وكانت مجلة « الأمة العربية » كغيرها من الصحف العربية الحرة شبيهة «بالعروة الوثقى» لجمال الدين الأفغانى ، وصحف « الفتح » و « الجهاد » و « الشورى » و «المؤيد» . وكانت منبراً من منابر الأحرار تهدد الاستعمار ، وتفضح التبشير ، وتثير قضايا الحق والعدالة ، فكأن صفحاتها المحسين مجلدات تحوى ملفات الدفاع عن العرب ، وتشع نوراً هادياً للخير والمساواة ، بل كأنها نار تحرق أباطيل المستعمرين وحججهم ، بلغتهم وأسلوبهم وبيانهم ، فلم يكن بيان شكيب ايقل عن بيانهم ، ولم تكن ثقافته لتقل عن ثقافتهم فى الفرنسية ، « ومن علم لغة قوم أمن مكرهم »[1] .

هذا وحين نستعرض كتب شكيب وثاره تبدو لنا خلال الاستعراض معان أخرى عن المعانى التى طرقها شكيب فى كتاباته .

---

(١) الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٠٤ .

لقب « أمير البيان »

شكيب أرسلان أمير من جهة نسبه ، لأنه من أسرة أرسلان ، وهم من أمراء لبنان ، ولكن شكيب لم يقتصر على هذه الإمارة النسبية أو الاجتماعية ، بل كسب إمارة أخرى أوسع شهرة من سابقتها ، وهى إمارة البيان ، فقد اشتهر لقب « أمير البيان » على شكيب أكثر من أى لقب آخر ، على الرغم من كثرة النعوت والألقاب والصفات العالية الضخمة التى أطلقها عليه الأدباء ورجال الصحف والمجلات ودور النشر ، ولذلك يقول على الغاياتى فى ذكرياته تحت عنوان « أمير البيان » :

« لعل القارىء العربى قد فهم من أول وهلة من هو المقصود بهذا اللقب الذى أطلقوه إطلاقاً فى الشرق على المغفور له الأمير شكيب أرسلان . نعم هو بعينه الأمير شكيب الذى ملأ ذكره العالم الإسلامى ، وملأت كتاباته الصحف العربية فى المشرق والمغرب[1] » .

ولكن من الذى أطلق عليه هذا اللقب لأول مرة ؟ .

إن الغاياتى قد قال كما رأينا : « اللقب الذى أطلقوه » فمن الذين أطلقوه ؟ . لم يذكرهم .

ولما رثى الغاياتى شكيب قال عنه : « وعُرف ببلاغة الأسلوب وإشراق الديباجة ، حتى سُمِّىَ بحقٍّ أمير البيان[2] » فجاء بالفعل المبنى للمجهول ، ولم يعين لنا الذى سماه بأمير البيان .

---

(١) جريدة منبر الشرق ، عدد ٢٣ يناير ١٩٥٣ .

(٢) ذكرى الأمير ، ص ١١ .

ولما رثته مجلة « الشبان المسلمين » قالت : « وقد استحق الأمير عن جدارة واستحقاق لقب أمير البيان » ، ولكنها لم تذكر من أعطاه هذا الحق بالتحديد .

وقال الدكتور سامى الدهان عن شكيب : « وأطلق عليه الأدباء : (أمير البيان)[1] . ولكن من أول أديب أطلق عليه هذا اللقب ؟ أو من أولئك الأدباء الذين أطلقوه ؟ » .

وفى عام ١٩٥٦ سألت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وصديق شكيب ، فقلت : متى أطلق على شكيب لقب « أمير البيان » ؟ ومن أول من أطلقه عليه ؟ .

فأجاب : لا أدرى ! .

فلنحاول البحث لعلنا نقترب من الحقيقة إن لم نبلغها :

لاحظت فى رسائل السيد رشيد رضا إلى شكيب أن أول رسالة منه تذكر لقب « أمير البيان » كانت بتاريخ ٨ ذى القعدة ١٣٤٢هـ — سنة ١٩٢٤ م حيث يقول له فى أولها : « سيدى الأخ الكريم والولى الحميم أمير البيان حياه الله تعالى[2] » .

وقد سبقت هذه الرسالة رسائلُ ليس فيها ذكر هذا اللقب ، وجاءت بعدها رسائل ليس فيها هذا اللقب أيضا ، وتمر قرابة خمس سنوات تتوالى فيها رسائل رشيد إلى شكيب — كما نراها فى كتاب السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة — فلا نجد فيها هذا اللقب ، حتى نصل رسالة تاريخها ٢٢ من ذى الحجة ١٣٤٧ هـ — ٣١ مايو ١٩٢٨ ، وإذا رشيد يقول فى صدرها :

« إلى أخى فى الله عز وجل أمير البيان ، ومدره بنى معد وعدنان ، وسائر بني قحطان ، الأمير شكيب أرسلان[3] » .

---

(١) حياة الأمير شكيب أرسلان ، ص ٨٦ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣٣١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٣١ .

وبعدها رسالة بتاريخ ٣ المحرم ١٣٤٨ — ١٩٢٩ م أولها : « صديق وأخى أمير البيان حفظه الله تعالى »[1] .

ثم تعود الرسائل بعد هذه الرسالة إلى طَىّ هذا اللقب فترة من الزمن .

نستنتج من هذا أن اللقب لم يذع ، ولم يتعوده رشيد مع شكيب ، ولم يستعمله غيره ، بدليل أن الأمير بدأ كتابته فى جريدة الشورى فى ٧ يناير سنة ١٩٢٥ ، حيث كتب افتتاحية العدد الثانى عشر من السنة الأولى ، وتحت عنوانها جاءت هذه العبارة : « لحضرة صاحب السعادة الكاتب العربى الكبير الأمير شكيب أرسلان » .

وفى عدد ١٩ فبراير ١٩٢٥ من الشورى ذكرت الجريدة رسالة لشكيب عبرت عنها بقولها : « سعادة الأمير شكيب أرسلان » .

وفى عدد ١٦ إبريل ١٩٢٥ كتب شكيب الافتتاحية بعنوان « دارين أيضاً » ، وتحت العنوان جاءت هذه العبارة : « كلمة أمير البيان شكيب أرسلان » .

فيكون رشيد قد سبق الشورى فى استعمال اللقب بنحو عام . ولقد جاء ذكر شكيب فى أعداد تالية للعدد السابق ، ولم يُذكر اللقب ، ولكن فى عدد ١٦ يوليه ١٩٢٥ جاء ذكر شكيب فى مقالة لأحمد زكى باشا موصوفاً باللقب ، وفى العدد نفسه مقال لشكيب تحت عنوانه هذه العبارة : « لسعادة كاتب الشرق الأستاذ العلامة الأمير شكيب أرسلان » .

وفى عدد ٣٠ يوليه ١٩٢٥ وصفت المجلة شكيب بأنه « أمير كتاب العرب اليوم فى التاريخ والسياسة والأدب » .

وفى عدد ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ مقال لشكيب تحت عنوانه لقب « أمير البيان » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٣٢ .

ولقد كتب المرحوم أحمد زكى باشا مقالاً فى عدد ١٤ مايو ١٩٢٦ من الشورى بعنوان : « لقد عاد عراب بغداد » وفيه يخاطب صاحب الشورى بقوله :

« يا أبا الحسن : أترضى ياحبيبى أن تكون سفيرى ، لدى أميرك وأميرى ، الذى أقام له أهل الأدب والبيان عرشاً لا تدانيه عروش ذوى التاج والصولجان ، وما ذلك إلا لأنه أصبح نصير العربية وخادم الإسلام ؟ » .

وفى عددى ٢ و ٩ يناير ١٩٢٩ وصفت « الشورى » الأمير بقولها : « عطوفة ملك البيان « الأمير الجليل شكيب أرسلان » فجمعت له بين الإمارة والملك فى دولة البيان ، وإن كان لقب الإمارة البيانية لم يصبح بعد ملتزماً كما التزمه الناس فيما بعد — فى أغلب الأحيان — عند التعبير عن شكيب .

والعجيب أن رشيد يقول عن شكيب فى تقديمه لكتاب « الارتسامات اللطاف » :

« أذن الله تعالى لعبده ، المجاهد فى سبيله بماله ونفسه ، ولسانه وقلمه ، وعلمه وعمله ، الأمير شكيب أرسلان ، الذى يحقّ لقبته أمته بأمير البيان ، أن يستجيب لأذان إبراهيم خليل الرحمن »[1] .

ورشيد ينسب التلقيب باللقب إلى الأمة ، مع أننا رأينا أنه كان أسبق من غيره إلى إطلاق هذا اللقب على شكيب ، أفيكون رشيد أراد التواضع فلم ينسب الأمر إلى نفسه ، أم أراد أن يعطى اللقب مكانةً عالية حين ينسب إطلاقه إلى الأمة لا إلى فرد ، أم سبقه غيره بإطلاقه ولم يعرفه ؟ .

مازال الأمر يحتاج إلى تتبع لمعرفة الحقيقة ! .

وقد لفت نظرى مقال نقدى كتبه الأب توتل اليسوعى فى مجلة « المشرق » ينقد به كتاب « حاضر العالم الإسلامى » وفيه تعرّض للقب « أمير البيان » فقال :

---

(١) الارتسامات اللطاف ، المقدمة ، ص ٦ .

« إننا لنسر أن يستحق أديب من أدبائنا اللبنانيين ، وتلميذ مدرسة الحكمة المارونية البيروتية سابقا (راجع ٢ : ٢٤٢)[1] لقب أمير البيان ، لكننا لا نجرؤ على مسابقة الأيام واستعجالها فى مبايعة الملوك والأمراء ، لأن عالم الأدب والبيان والشعر والنثر أوسع أفقاً فى الزمان والمكان من أن نحتكر ناحية من نواحيه لابن من أبناء زماننا ، فحسبنا أن نترك لمن يأتى بعدنا القول المحكم فى تقدير القيم الأدبية على الإطلاق »[2] .

أثارتنى هذه الكلمة نوعاً ما ، لأنى أحسست فيها روح التهوين من شأن شكيب الذى كان فى سنة ١٩٣٤ علماً من الأعلام ، إن لم نقل فى طليعة الأعلام من ناحية ذيوع الصيت الأدبى والشهرة البيانية ، فيكتفى الكاتب بوصف شكيب بأنه « أديب من الأدباء اللبنانيين » ، ويحرص على أن يشير إلى فضل « مدرسة الحكمة المارونية البيروتية » على شكيب ، كأن تلمذته فى هذه المدرسة هى وحدها التى كانت صاحب الأثر الأكبر فى تكوينه البيانى .

ثم مَن قال إننا حين نقول عن « شكيب » إنه « أمير البيان » نقصد تعميم ذلك على مرّ الزمن ؟ .

إن الذى يقول « شكيب أمير البيان » لا يقصد أبداً أنه أمير البيان فى كل زمان ومكان ، وإنما يقصد ذلك بالنسبة لعصره ووطنه العربى .

ولقد وُصفت مريم بأنها « سيدة نساء العالمين » ، ووُصفت فاطمة الزهراء بأنها « سيدة نساء العالمين » . وقال العلماء : إن التوفيق بين القولين يكون بأن مريم سيدة نساء العالمين بالنسبة لزمانها ، وأن فاطمة سيدة نساء العالمين بالنسبة لزمانها .

وليست هناك مبايعة لملوك أو أمراء كالمبايعة فى دنيا السياسة والحكم سواء

---

(١) يقصد مراجعة مجلة المشرق .

(٢) مجلة المشرق ، بيروت ، المجلد ٣٢ ، سنة ١٩٣٤ ص ١٤٥ .

بسواء ، ولكن الذى هنا نوع من التقدير الأدبى لرجل عاش حتى مقال الأب خمسة وستين عاماً قضى أكثرها فى الدفاع عن العروبة والعرب ، وعن الإسلام والمسلمين ، وما أوثق الروابط والعلاقات بين العروبة والإسلام ، فالعروبة وعاء الإسلام ، والإسلام روح العروبة .

ويطالب الأب بترك الحكم لمن يأتى بعدنا ، ولا شك أن الأحكام الأدبية تكون أقرب إلى الصدق والدقة والتجرد إذا كانت على راحلين انقطعت صلاتهم المادية بالحياة والأحياء ، ولكن الذين يأتون بعدنا بشر مثلنا ، وقد يستطيع منصف أن يصدر حكمه الأدبى على مفكر حى ، فليس ذلك مستحيلا ، وإن كان بلوغه صعب المنال .

مهما يكن من أمر فما أظن أن كلمة الأب قد بلغت مأمولها ، فقد أخذ لقب « أمير البيان » يشيع ويذيع ، وإذا جاء ذكره — كما يقول الغاياتى — عرف الناس المقصود به قبل النص على اسمه .

وإن كنا نلاحظ فى الوقت نفسه أن بعض المجلات لم تكن تلتزم اللقب ، ففي عدد ١٩ أغسطس ١٩٣٥ من مجلة « الرسالة » كتابة لشكيب لم تذكر المجلة اللقب معها ، كما كتبت المجلة عنه قبيل ذلك وبعيد ذلك ، ولم تذكره ، وإن يكن محمد كرد على قد وصف شكيب فى العدد المشار إليه آنفاً بأنه « شيخ كتّاب العرب » .

وقد يتوهم متوهم أن إطلاق لقب « أمير البيان » على شكيب كان لوناً من المتابعة لإطلاق لقب « أمير الشعراء » على أحمد شوقى ، ولكن إذا تذكرنا أن مبايعة شوقي بهذا اللقب كانت سنة ١٩٢٧ ، وأن لقب « أمير البيان » كان يطلق على شكيب — كما رأينا — فى سنة ١٩٢٤ ، لم يبق لهذا التوهم مجال .

ولقد كتب رشيد سليم الخورى سنة ١٩٣٧ يقول : « لم يتح لى أن أقرأ شيئاً من مؤلفات الأمير الكثيرة ، ولكننى كنت أطالع ما يبدعه قلمه الفياض .

وتتناشره الصحف من الرسائل الوطنية والتاريخية ، وفيها من شواهد التفوق في الإنشاء ما يؤيد كل التأييد رأى كبار أدباء المعاصرين فيه ، وجدارته التامة بلقب أمير البيان ، ورأيي الخاص أن الأمير شكيباً هو أحد ملوك الترسل في لغة العرب في كل العصور »[١] .

وفي ربيع سنة ١٩٣٩ قال أمين الغريب من خطبة له في تكريم شكيب بالقاهرة : « منذ خمسين عاماً زار الأمير شكيب وادى النيل ، وأخذ ينشر في جرائده مقالات بارزة نقشت له في الأذهان أساساً للقب الذي لزمه في كل مكان ، وهو « أمير البيان[٢] » .

* * *

وهناك ألقاب أخرى كانت جريدة الشورى تفتنّ في نعت شكيب بها مثل « كاتب الشرق الأكبر » و « أديب الشرق الأكبر »[٣] ، و « أمير كتّاب العرب » و « أديب العصر »[٤] و « أمير أدباء العصر »[٥] و « شيخ الأدب » ، و « أمير كتّاب العصر »[٦] و « أمير الكتّاب وأديب العرب »[٧] . و « كبير الأدباء » و « عميد البيان »[٨] و « الكاتب العربي الأكبر » و « أمير الأدباء والكتّاب » و « أديب العرب الأكبر »[٩] و « نابغة الزمان »[١٠]

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ٨ سبتمبر ١٩٣٧ نقلا عن مجلة « العصبة » بالبرازيل .
(٢) المرجع السابق ، عدد ١٠ مارس ١٩٣٩ .
(٣) انظر الشورى ، عددى ٧ و ١٤ يناير ١٩٢٦ .
(٤) المرجع السابق ، عدد ١١ و ٢٥ فبراير ١٩٢٦ .
(٥) المرجع السابق ، عدد ٢٥ مارس ١٩٢٦ .
(٦) المرجع السابق ، عدد ٣٠ إبريل ١٩٢٦ .
(٧) المرجع السابق ، عدد ٢١ مايو ١٩٢٦ .
(٨) المرجع السابق ، عددى ٤ و ١٨ يونيه ١٩٢٦ .
(٩) المرجع السابق ، أعداد ١٦ و ٢٣ و ٣٠ يوليه ١٩٢٦ .
(١٠) المرجع السابق ، عدد ١٦ سبتمبر ١٩٢٦ .

و « سيد الكتّاب » و « عطوفة العالم الاجتماعى الكبير »[1] و « ملك البيان »[2].

والرافعى يطلق على شكيب لقب « حجة الأدب وسيد كتّاب العصر »[3]،

ولا ننسى أن شكيب أطلق على الرافعى لقب « إمام الأدب وحجة العرب »،

وكان الرافعى يفخر كثيراً حينما تنشر صورته ومعها هذا اللقب[4].

وسامى الخورى ينعت شكيب بنعت « بطل العروبة »[5].

ومن الألقاب التى أطلقت على شكيب أيضاً لقب « حجة الإسلام »[6].

ولقب « فارس اليراعة »[7].

---

(١) المرجع السابق ، عددى ١١ و ٢٥ نوفبر ١٩٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، عدد ١١ أغسطس ١٩٢٧ .

(٣) تحت راية القرآن ، ص ٣١ .

(٤) المرجع السابق ، وحياة الرافعى ، ص ٢٧٧ .

(٥) ذكرى الأمير ، ص ٢٩ ، وفى الكتاب ألقاب أخرى . مثل « المجاهد الأكبر ، شيخ الأدباء ، إمام المجاهدين ، المجاهد العربى ، العالم الفيلسوف ، الكاتب المفكر ، المؤلف العظيم » انظر ص ٧ و ٩ و ١٠ .

(٦) الأمير شكيب أرسلان ، حياته وشعره ، ص ٦٣ .

(٧) المنار ، المجلد الأول ، العدد ٣٨ ، ص ٧٥٩ .

الباب الرابع

شكيب الشاعر

— شكيب الشاعر
— معلم وأستاذ
— فى الباكورة
— الباكورة بين طبعتين
— ديوان الأمير
— المحسنات البديعية
— التقليد للسابقين والمعاصرين
— الجملة القرآنية فى شعره
— محاولة صنع الملحمة
— مدائح للسلطان والدولة
— التكسب الأدبى بالشعر
— الرثاء
— المواعظ
— الهجاء
— الصورة الشعرية
— طريقته فى نظم الشعر

شكيب الشاعر

بدأ « شكيب » قول الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره كما حدثنا أكثر من مرة، ومن العسير تعليل الموهبة الأدبية : أهى وراثة ، أم وليدة البيئة الشعرية الخلابة ، أم نتيجة الدواعى والبواعث التى تثير الشعور وتهز الوجدان ، أم حصيلة القراءة المتواصلة لعيون الأدب وأنماطه العالية ، أم أثر المعلم الماهر الذى يحسن تفتيق الملكات وتوجيهها وصقلها .

ومهما كان السبب فإن الذى يسترعى النــــظر فيما يتعلق بشكيب الشاعر جملةُ أمور :

أولا : أن والد شكيب قد قال بعض الشعر ، وأن أَخَوَيْ شكيب : نسيب وعادل نظما الشعر ، ومعنى ذلك أن موهبة الشعر موجودة فى أسرة شكيب .

ثانيا : أن شكيب حفظ منذ بواكير عمره كثيرا من عيون الأدب العربى القديم شعره ونثره ، وطالع فيه أضعاف ما حفظ .

ثالثا : أن عبد الله البستانى — أستاذ شكيب الأول — كان مشهورا بحبه الأدب القديم ، وتوجيه طلابه إلى قراءته واحتذائه .

رابعا : أن الفترة التى نشأ فيها شكيب كانت بداية النهضة الأدبية الحديثة ، حيث ظهر شعراء ولعوا بالشعر القديم ومحاكاته ، ونشرت دواوين شعرية ، وكان الشعراء فى لبنان والعراق ومصر يتراسلون ، وكانت الصحف تبرز أخبار الشعراء ومساجلاتهم .

خامسا : أن البلدة التى ولد فيها شكيب ونشأ — وهى الشويفات — من أجمل البلدان فى لبنان ، حسن منظر وجودة مناخ .

ونستخلص مما تقدم أن جملة عوامل توافرت على إنماء البذرة الشعرية الطيبة التي خلقت في شكيب، ولا عجب بعد هذا أن تفتحت البذرة، ونمت بسرعة وأثمرت في سن مبكرة.

•••

ويمكن أن نقسم شعر شكيب إلى قسمين: الأول شعره في أواخر القرن التاسع عشر، حين دب دبيب الوعي القومي، وتكونت براعم الأدب في بلاد العرب، ويتمثل هذا القسم في ديوانه الأول " باكورة "، والقسم الآخر هو شعره في الثلث الأول من القرن العشرين، حيث اشتد الوعي، وتوالت الأحداث تشحذ الهمم وتؤجج الشعور، وتفتحت البراعم عن أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وإسماعيل صبري، وخليل مطران، ومن هم في مرتبتهم أو دونهم من شعراء العراق والشام ومصر.

وقد يكون من حق شكيب علينا ونحن نتحدث عن شعره أن نقيسه بمقياس ذلك العصر الذى عاش فيه وقال فيه الشعر، ولو بالنسبة للنصف الأول من حياته ثم لنا أن نقيسه فيما بعد ذلك بما جد للشعر من مستوى، وبمن ظهر من أقرانه الشعراء.

ولو أجملنا القول فى الحكم على شعر شكيب فى مرحلته الأولى لقلنا إنه شعر له جزالته وطلاوته، وإن لم يكن عبقريا، وهو شعر يظهر فيه التقليد لفحول الشعراء العرب بوضوح وجلاء.

ولهذا الإجمال تفصيل، فقد بدأ شكيب بقول الشعر ونشرت له جرائد بيروت بعضه، وهو ما زال تلميذا فى المدرسة لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، وكان الناس يترددون فى تصديق أن هذا الشعر العربى الموزون، الفصيح الألفاظ، المتين التراكيب، الجزل العبارة، لهذا الفتى الناشىء، وما زالت الشبهة تعترض حتى كثير من شكيب

وتواترت الأدلة ، فزالت الريبة(١) ، وفى غمرة الإعجاب البادى بمن يسمون النظم ، وبعد ثلاث سنوات فقط من بدئه النظم ، نشر ديوانه «باكورة» شعره أو بطالونه ، سنة ١٨٨٧ م .

ولقد استخرج شكيب لنفسه وهو فى الرابعة عشرة صورة فكتب تحتها :

وبنفسك فابدأ بتصــويرها بما أنت من خالد فاعــل
وإلا مضى الجسم مع رسمــه ولا يُخلد الزائلَ الزائل ! (٢)

ونقرأ البيتين فنجدهما موزونين ، وفى معناهما دقة وفلسفة ، وإن تكن الصياغة قد اعتورها نحو أجأت إليه ضرورة النظم والوزن ، فتأخر ما حقّه التقديم ، وتقدم ما ينبغيه أن يتأخر ، فلو رتبنا كلمات البيت الأول على أصلها لكانت هكذا : « وابدأ بتصوير نفسك ، بما أنت فاعل من خالد » . ولكن شكيب يقول هنا شعراً لا يقول نثرا ، وهو لم يتمرس بعد بصياغة الشعر وتذليل العقبات الملجئة إلى الضرورات أو شبهها فيه .

وكان هناك كما ذكرنا أكثر من سبب دفع بشكيب إلى الشعر وإلى المضى فيه ، فهناك الموهبة الفطرية الصالحة للتفجير ، وهناك النهضة الشعرية التى بدت بشائرها بعد انتصاف القرن التاسع عشر ، وأصبح للشاعر مكانة ملحوظة ، ومنزلة مرموقة ، وفى الفتى شكيب تطلع وطموح ، وهناك ما قد يتصل بهذا ، وهو الجمع بين إمارة النسب والظهور فى عالم الأدب ، وشهرة الشاعر أسرع من شهرة الناثر .

وهناك أستاذه فى مدرسة الحكمة عبد الله البستانى الذى كان يحب العربية حباً جماً ، ويعنى بها عناية كبيرة ، ويتتبع مفرداتها ، ويقول الشعر مقلداً فيه شعراء الجاهلية ، محاولا الاحتفاظ ببضاعتهم مبنى ومعنى ، ولفظاً وخيالا .

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ١٤٧ .
(٢) باكورة ، ص ٩٢ .

ولا ريب أن شكيب كان يستمع إلى شعر البستانى وشرحه وتعليقاته وقراءاته لأشعار القدماء ، فكان الأستاذ يبدو فى نظر تلميذه عملاقاً تحيط به هالة من الجلال والهيبة ، وكأنه المثل الأعلى لهذا الفتى الطموح .

وهناك الفرص التى كانت تتاح لشكيب كى ينشد ما يقول فى مدرسته . على مسمع من أساتذته وزملائه وزوار المدرسة المختلفين إليها من قريب أو من بعيد ، ويقول مارون عبود وهو يتحدث عن زميله شكيب : « ولا بأس علىّ إذا ما أعادنى تداعى الأفكار نصفَ قرن إلى الوراء ، وعُدْنا معاً إلى المعهد الذى نشأ بين جدرانه الأمير شكيب أرسلان ، ففى ضحى النهضة كنا فى مدرسة الحكمة. وكان لا يعنينا غير الشعر وقائليه ، كنا ننظمه بلا ملل . ونتبارى فيه بلا وجل . وكان شكيب أرسلان قدوتنا ، كأن نجمه قد لمع[1] » .

وهذا هو الشيخ محمد عبده يزور المدرسة ، ويسمع التلميذ شكيب يلقى بعض شعره ، فيصافحه ويقول له : « ستكون من أحسن الشعراء » ، وهناك تشجيع والده له على الاستمرار فى قول الشعر ، وذلك بجوار تشجيع أساتذته له ، وهناك اتساع صدر الصحف فى بيروت لنشر ما ينظم[2] .

وهناك ما يقتضيه تحدر المواريث العربية وتسلسلها فى نفوس أفراد هذه الأسرة الأرسلانية العربية العريقة ، من حرص على العربية ، وتفاخر بالسبق إلى بيانها ، واعتزاز بنظم الشعر بها ، ولذلك كان شكيب شاعراً ، وكان أخواه نسيب وعادل شاعرين ، فلنسيب ديوان « روض الشقيق » الذى نشره شكيب سنة ١٩٣٥ م ، ولعادل « شعر غير مجموع ، لا يقل شأناً عن أخيه فيه[3] » .

---

(١) رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٠ .
(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٣٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١١ .

ولما كان شعر عادل غير مجموع ولا مطبوع ، فقد يحسن أن نسمع منه شيئاً ، فله من قصيدة بعنوان « من وادي السرحان إلى وادي النيل » هذه الأبيات القوية :

أرقتُ وما في النوم خير لوسنان إذا لم ينم شرُّ المغير بأوطان

وغالبني شوق يساور مهجةً تقلّبُ منه في الدُّجى فوق نيران

صبرت فما أذللت دمعا ، ولو جرى مسحت بأطراف التجلد أجفاني

بعيد على ، نيك القريات ، منزلي فما لي سوى الذكرى إذا الليل أضواني

وما ضرني أن طال ، وهو وصبحه إذا لم تضيء شمس المنى فيه سيان

نظرت إلى الآتي فأوقفت دونه وعدت إلى الماضي بفكري فعزاني[1]

وله قصيدة في رثاء أخيه نسيب منشورة في ديوان « روض الشقيق » .

وهناك تحريض أخيه نسيب له على قول الشعر ، إذ كان أكبر مشجع له في هذا المضمار[2] ، ولا ننسى هنا تلك المنافسة بين الأخوين في مجال المدرسة والكتابة والشعر ، وشكيب يتحدث عن بعض ذلك في تقديمه لديوان شقيقه ، حيث يقول عن حالهما في مدرسة الحكمة :

« وكنا في صف واحد ، فلما ألقيت إلينا مواضيع المسابقة لأجل الجوائز كان هو أول الصف في الشعر ، وكنت أنا الثاني ، وكنت أنا الأول في الإنشاء ، وكان هو الثاني »[3] .

وبينما نرى التلاميذ في هذه المرحلة من التعليم يتعثرون في عباراتهم الإنشائية ، ويعسر عليهم أن يكتبوا موضوعا خالياً من كثير الأخطاء النحوية والإملائية

(١) جريدة الشورى ، عدد أول فبراير ١٩٢٩ . وأضواني : أضعفني وأهزلني .
(٢) مجلة الأديب ، عدد كانون الثاني ١٩٤٧ .
(٣) روض الشقيق ، ص ١٩ .

واللغوية ، كان شكيب ينظم الشعر ، ويأخذ مدده له بإدمان المطالعة فى كتب اللغة والأدب والشعر ، والعكوف على دواوين العباسيين ، يردد فيها النظر ، ويحفظ منها ما يطيق ، ويكتب نثراً بجوار شعره فيجيد فيه ويجيد .

وإذا كان شكيب قد أخبرنا بأن نتيجة التنافس بينه وبين أخيه أبانت أنه الأول فى الإنشاء (أى النثر) والثانى فى الشعر ، فكأنما كانت هذه إشارة رمزية من عالم الغيب تشير إلى ما سيكون لشكيب فى غده من انتهائه إلى مقام المجلِّى فى النثر ، والمصلِّى فى الشعر .

معـــلم وأستاذ

يخيل على ظنى أن الشيخ عبد الله البستانى قام بمهمة المعلم للشعر مع شكيب ، وأن البارودى قام بمهمة الأستاذ معه ، فالأول علّم وقوّم وهدى السبيل ، والآخر خرج ودفع بالشاعر الشاب إلى أعلى .

كان البستانى معلماً لشكيب فى الشعر ، لأنه كان معلماً له فى دروسه العربية بمدرسة الحكمة ، ونحن ندرك مدى التأثير البالغ الذى يكون من المعلم القوى الشخصية فى التلميذ المعجب بعمله والمقتدى به ، ولا ريب فى أن البستانى اللغوى الغيور على العربية ، النافخ روحها فى صدور تلاميذه ، قد سدد خطاهم فى محاولاتهم الأولى الأدبية ، ولاشك أنه خص ابنى حمود أرسلان (شكيب ونسيب) بفضل من عنايته ، لأنهما قالا النثر والشعر معاً[1] ، فهو يعجب بهما ويستزيدهما ، ويحذرهما معاطبَ الطريق فى الشعر مما يتعلق بالوزن ، والقافية ، والصياغة ... إلخ .

ولقد كان البستانى بارعاً كل البراعة فى تقليده للقدماء من الشعراء فى عصر الجاهلية ، وحسبنا أن نعلم أنه قام بتشطير معلقة عنترة ، فلا يكاد غير البصير بالشعر يدرك الفرق بين عبارة عنترة وعبارة البستانى ، ولنستعرض جزءاً من هذا التشطير لنبين ذلك . قال البستانى :

(هل غادر الشعراء من متردم)	فقـد ثلمتـه برأس المرقم
أم هل وددت ظباء منعرج اللوى	(أم هل عرفت الدار بعد توهم)
(حيث من طلل تقادم عهـده)	حتى التوت عنـه نُهى المترسم
يكى به عـذق الرباب لأنه	(أقوى وأقفر بعد أم الهيثم)[2] ...

(١) روض الشقيق ، ص ١٨ و ١٩ .

(٢) رواد النهضة الحديثة ، ص ١٨٠ . والمتردم : المحل الذى يرقع ويصلح . والمرقم : القلم .وطلل : ما بقى من آثار الدار . والنهى : جمع نهية وهى العقل . والمترسم . الناظر المتطلع. عذق الرباب : السحاب الأبيض الكثير . أقوى وأقفر : خلا . أم الهيثم: كنية عبلة حبيبة عنترة .

إننا لو أزلنا الأقواس الموضوعة على أبيات عنترة لصعب على الكثير التمييز بين كلام عنترة وكلام البستاني ! .

وإنما نريد من النص على هذا الإشارةَ إلى أن هذه النزعة من البستاني إلى شعر الفحول من القدماء ستكون دافعاً قوياً لشكيب إلى تقليد القدماء في مفرداتهم وعباراتهم ، والكثير من أخيلتهم ومعانيهم .

* * *

وأخذ شكيب التلميذ يقول الشعر ، فيطول فيه نَفَسُه ، حتى تتجاوز بعض قصائده مئةَ بيت ، بلا خلل في الوزن ، ولا عيب في القافية ، ولنتصوره وهو يضع في نهاية كل بيت قافيةً هي كلمة متماثلة في الحرف الأخير منها مع ما يزيد على مئة كلمة ، لندرك مبلغ الزاد اللغوي الذي حصل عليه شكيب وهو ما زال تلميذاً في المدرسة .

وهو محمود الجهد مهما بدا في شعره من تقليد أو متابعة ، فإنه لناشىء ، وإن الجو الشعري من حوله ليوحي بالإيغال في هذا التقليد وتلك المتابعة .

ويمضي شكيب على طريقته ثلاث سنوات ، يكون حصادُها مجموعةَ شعره التي حملها إلى الناس مطبوعةً تحت عنوان « باكورة » .

فلنستمع إليه يقول وهو تلميذ في المدرسة :

فديتُك ربعاً قد ترحــل آلُهُ ... تغزلت من غزلانه بالحقــائق

عفا ، وخلت منه المنازل بعد ما ... لقد كان زيناً للنُّهَى والمناطق

وأقوى وأقوى ماحوت من معاقل ... أناخت عليـــه عاديات البوائق

وأجدب بعد الخصب إذ كان زاهراً ... بكل كتاب للفوائد واسـق[1]

---

(١) الباكورة ، ص ٨٦ . وعفا : درس وزال . والنهى : العقل ، أو هو جمع نهية ، وهي العقل أيضا . وأقوى : خلا . والبوائق : جمع بائقة ، وهي الداهية . وواسق : جامع .

ويقول فى موطن آخر مواصلاً السير على طريقة القدماء :

ما بين غزلان العقيق وبانه حربٌ بها بطلُ الهوى كجبانه
الموت بين العاشقين موزّع مما جرى للعطف مع أقرانه
والقد يطعن مثله ، لكن يرى مطعونه ماقى بغير سنانه
حرب تضرم بالحضيض سعيرُها وعجاجها بالجزع فوق رعانه
عبث بعشاق العقيق وأدغلت فدماؤهم تربى على غدرانه (١)

ويقول من رثائه لسليم البستانى المتوفى سنة ١٨٨٥ :

الدهر أفتك فارس بطراده أبداً ، وأكثر فتكه بجياده
يجنى فإن قصد الفتى لم ينتفع بمضاء صارمه وطول نجاده
ما إن يصوب نحوه سهم البلا إلا وكان السهم فى إقصاده (٢)

وهكذا انتفع شكيب بدروس معلمه البستانى ، واستجاب لتوجيهه ، فاختار ألفاظه ، ونقى لغته ، وحافظ على جزالة عبارته ، ووصل أسبابه بأسلافه قدامى الشعراء : ما بين جاهليين وعباسيين .

ثم يأتى أثر الأستاذ البارودى :

تطلع الفتى شكيب من حوله فرأى فى دنيا العروبة طائفة من فحول الشعراء ، تهتف الدنيا بأسمائهم ، وتردد ما تتلقى من شعرهم ، وتشير إليهم بالبنان فى كل مقام من مقامات الشعر والبيان ، وفى طليعة هؤلاء محمود سامى البارودى ، الذى يعد بحق موقظ الشعر من غفوته الطويلة خلال الحكم العثمانى ، وممهد الطريق أمام الشعراء الذين تألقوا بعده من أمثال شوقى وحافظ ومطران .

---

(١) الباكورة ، ص ٧١ والرعان : جمع رعن ، وهو الجبل الطويل . وأدغلت : اغتالت .
(٢) الباكورة ، ص ٧٢ . والطراد : الرمح القصير . والاقصاد : الإصابة القاتلة والطعنة التى لا تخطىء .

ولقد هدى الإمام محمد عبده شكيب إلى شعر البارودى ، فطالعه وحفظه وأعجب به وقلده ؛ يقول شكيب :

« فلما قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها فى أنفسنا من قبل أن عرفناه ، وعلمنا أن فى المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين ، وأن يسامى بنفسه أنفاسهم .

وكنا من قبل محمود سامى نظن الأولين غاية لا تدرك ، وأنهم إذا قُرِن بهم المتأخرون أو المعاصرون كان أولئك هم السماء وهؤلاء هم الأرض ، وبقى فينا هذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامى ، وحفظنا جميع قصائده التى فى (الوسيلة الأدبية) ، فلم نكن لشدة إعجابنا بها نخرم منها بيتاً واحداً ، وكان حفظنا لها من أقوى عوامل الشعر فينا » [1] .

وكان شكيب يقول فى نفسه إن محمود سامى « مملكة عربية » ، ويقرر أن الإمام محمد عبده كان يقوّى فيه هذه العقيدة ، ثم يقول شكيب : « ولذلك كنت أنا أرانى خريجاً فى الشعر لمحمود سامى البارودى ، وإلى هذا أشرت فى أول قصيدة أجبته بها يوم بدأ بمراسلتى من منفاه فى سيلان » [2] .

وشكيب يقصد قوله عن البارودى :

أيعجب من تنويه مثلى بمثـــله ... لعمرى الذى قد شق فى شعره فمى

وما دام البارودى هو الذى فتح فمَ شكيب وأطلقه بالشعر ، فلا عجب إذا سمعنا شكيب يقول بعد ذلك : « إن البارودى هو إمامى فى الشعر » ! .

وكان بيت شكيب السابق رداً على بيت من البارودى خاطب به شكيب وهو :

وأنت الذى نوهت باسمى ، ورشتنى [3] ... بقول سرى عنى قنـــاع التوهم

(١) كتاب « شوقى » ، ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٢ و ١٠٤ .

(٣) رشتنى : قويتنى وأصلحت أمرى .

وإذا كان البارودى قد اعتبر هذا التنويه من شكيب فضلا تقدم به ، وفضيلة اشتمل عليها ، فالواقع أن شكيب عمد إلى هذا التنويه لإرضاء نزعة الطموح فى نفسه ، فقد تطلع فرأى البارودى ملء السمع والبصر ، وشكيب قد تكون له شهرة فى ناديه وبين أهليه ، ولكن شهرة البارودى شرقت وغربت ، وإن يكن قد جارت عليه الأحداث بعد إخفاق الثورة العرابية ، ونفى إلى سرنديب ، فحدث شكيب نفسه بأن ينشد وسيلة ، يتحكك بها بهذا الشاعر الكبير ، حتى يحصل منه على جواب فيكون سعيداً ، ولكنه تهيب المراسلة ، خشية ألا يأتيه الجواب ، فبمَ يحتال ؟ .

أخذ يستشهد بشعر البارودى فى مقالاته التى كان ينشرها فى « الأهرام » بعد سنة ١٨٩٠ م ، وبدأ بالاستشهاد دون أن يذكر اسم البارودى ، فذكر له البيتين التاليين :

يا قلب صبرا إن أضرّ بك الهوى ... فكل فراق أو تلاق له حدُّ
قد يشعب الإلفان[1] أدناهما الهوى ... ويلتئم الضدان أقصاهما الحقد

ولكن البارودى لا يجيب ، ولعله اطلع على استشهاد شكيب هذه المرة ، ولكنه لم يحرك منه ساكنا ، وصبر شكيب . وعاد يستشهد بشعر البارودى ، فذكر له بيتا قاله فى أهل (كريت) الثائرين على الدولة العثمانية ، وهو :

قوم أبى الشيطان إلا خسرهم ... فتسللوا من طاعة السلطان[2]

وصرح شكيب هذه المرة باسم البارودى ، وزاد فنعته بلقب « أمير الشعراء » والبارودى فى المنفى ، وقد أعرضت عنه الدنيا بعد طول إقبال ، وانصرف عنه الأصدقاء والخلان ، والتنويهُ المتكرر هنا من أمير شاعر غير ناقص فى أدائه

---

(١) يشعب الإلفان : يحدث لهما ما يفرقهما .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

الشعر ، وهو يمضى على طريقة البارودى من اعتزاز بالقديم ، وعناية بالجزالة ، واحتفال للعبارة ، ولذلك كتب البارودى إلى شكيب مقطوعة شعرية يقول فيها :

أشدتَ بذكرى بادئاً ومعقباً ... وأمسكتُ لم أهمس ولم أتكلم
وماذاك ضناً بالوداد على امرئ ... حبانى به ، لكن تهيبت مقدمى
فأما وقد حق الجزاء فلم أكن ... لأنطق إلا بالثناء المنمنم (١)
فكيف أذود الفضل عن مستقره ... وأنكر ضوء الشمس بعد توسم ؟
وأنت الذى نوهت باسمى ورشتنى ... بقول سرى عنى قناع التوهم
لك السبق دونى فى الفضيلة فاشتمل ... بحلتها (٢) فالفضل للمتقدم
ودونكها يا ابن الكرام حبيرةً ... من النظم سداها بمدح العلا فمى

واهتبل شكيب الفرصة ، وسارع فنظم قصيدة طويلة بلغت أربعين بيتا ، تفيض مدحا وتمجيداً للبارودى وشاعريته ، وفى أولها يقول :

لك الله من عانٍ بشكر منمنم ... لتقدير حق من عُلاك محتم
وشهم أبى النفس أضحى يرى يداً ... تذكرَ فضل أو جميل لمنعم
رأى كرما منى تذكر قوله ... فدل على أعلى خلالا وأكرم
ولو كان يدرى فاضلٌ قدرَ نفسه ... رأى ذكره فضلا على كل مسلم
أيعجب من تنويه مثلى بمثله ... لعمرى الذى قد شق فى شعره فمى

ومضى شكيب يهدر فى قصيدته مادحا وممجدا حتى يقول :

وقد طالما حدثت نفسى وعاقنى ... ترددها مابين : أقدم وأحجم
حلفت بما بين الحطيم وزمزم ... وبالروضة الزهرا أليةَ مقسم
لألفيت عندى دوس مشتجر القنا ... وخوضى فى حوض من الطعن مفعم

---

(١) المنمنم : المزخرف المنقوش .
(٢) فاشتمل بحلتها : أدرها على جسدك كله .

أقل بقلبي في المواقف هيبة   وأهون من ذاك المقام المعظم (١)

وبلغت القصيدة البارودي مع رسالة من شكيب ، فاهتز لها وأعجب بها ، وتلقاها كما يقول في رسالته إلى شكيب في ٢٨ ذي القعدة ١٣١٥ — ١٨٩٧ م « بيد ترعد فرحاً ، وفؤاد يهتز مرحاً » ، لأنها « نظم لو وصفته لقلت سحراً ، ونثر لو وردت شرعته لكان بحراً ، إنها وأيم الله منة لا يقوم بها الشكر ، ولا يتدرج إلى معروفها النكر ، كيف لا وقد أضاءت عليّ غيابة الوحشة ، وسرت عني ضبابة الحسرة » . ويذكر أنه أحس من قبل بميل في النفس إلى شكيب ، وأنه قد تم الأمل بتعارف الأرواح قبل تعارف الأشباح ، وأنه سيعود إلى مراسلته بعد هذا إن شاء الله (٢) .

وحقق البارودي وعده ، فكتب إلى شكيب مقطوعةً أطول من مقطوعته الأولى ، وفيها يقول :

أدي الرسالة يا عصفورة الوادي   وباكري الحي من قولي بإنشاد
وزفي سنةَ الحراس ، وانطلقي   بين الخمائل في لبنان وارتادي
لعل نفحةَ ودٍّ منك شائقة   تهز عطفَ شكيب كوكب النادي
هو الهمام الذي أحيا بمنطقه   لسانَ قوم أجادوا النطق بالضاد
تلقى به أحنف الأخلاق منتديا   وفي الكريهة عَمْراً وابن شداد
أنمى ودادا ، وحسبي أنه نسب   خالي الصحيفة من غل وأحقاد
أفادني أدبا من منطق شهدت   بفضله الناس من قار ومن باد (٣)

---

(١) ديوان الأمير ، ص ٥ و ٦ . وألية مقسم : يمين حالف . ومشتجر القنا : أي الرماح المتضاربة .

(٢) كتاب شوقي ، ص ١٠٦ .

(٣) ديوان الأمير ، ص ٧ . وأحنف الأخلاق : مستقيم الأخلاق . والكريهة : الحرب أو الشدة . وذو الكريهة : الصارم لا ينبو عنه شيء .

وإذا كان البارودى قد أرسل إلى شكيب فى المرة الأولى سبعةَ أبيات أجابه عليها شكيب بأربعين بيتا، فإن البارودى فى هذه المرة يرسل إلى شكيب اثني عشر بيتاً يجيبه عليها شكيب بعشرين بيتاً فقط.

لعل شكيب قد أخذ يحس بشخصه أمام شخصية البارودى الضخمة، بعد أن بذل جهده فى أن يسمو بشعره إلى مستوى شعر البارودى أو مايقاربه، وها هو ذا يجيب على مقطوعة البارودى السابقة بقصيدة يحرص فيها على الصورة التقليدية الموروثة التى لم يحرص عليها فى قصيدته الأولى للبارودى التى بدأها بالدخول مباشرة فى الموضوع:

لك الله من عان بشكر منمنم   لتقدير حق من علاك محتّم ... الخ.

ولكنه فى قصيدته الثانية يبدأ بالحديث عن العيس والحادى، والظعائن والنوى، والتأويب والإسآد، وهماسير النهار وسير الليل، وإذا كان البارودى قد جعل رسوله «عصفورة الوادى» فكأن شكيب أراد أن يكون سلفياً فى قصيدته أكثر من البارودى، فقال فى مطلعها:

هل تعلم العيس إذ يحدو بها الحادى	أن السرى فوق أضلاع وأكباد
وهل ظعائن ذاك الركب عالمة	أن النوى بين أرواح وأجساد
تحملوا ففؤادى منذ بينِهم	فى إثرهم نضو تأويب وإسآد
يرتاد منزلهم فى كل قاصية	وحبه لو درى أحرى بمرتاد
بين الجوانح ما لو أنت جائبه	أغناك عن لف أغوار بإنجاد
وفى الفؤاد كشطر الكف بادية	فى جنبها تيه موسى ليس بالبادى
كم بت أنشد أحبابى وأنشدهم	فى الهند، ياشدما أبعدت إنشادى[1]

(١) المرجع السابق، ص ٨. والعيس: الإبل، مفردها عيساء. والتأويب والإسآد: سير النهار والليل.

وامتد حبل المراسلة الشعرية بين البارودى وشكيب ، وأخذ البارودى يطيل نفسه فى شعره إلى شكيب ، كما نرى فى قصيدته التى مطلعها :

ردي التحية يا مهاة الأجرع[1] وصلى بحبلك حبل من لم يقطع

قد قاربت الخمسين بيتاً[2] ، فيحرص شكيب على أن يزيد فيجاوبه بقصيدة تزيد على الستين بيتاً ، ومطلعها :

أترى يحل هواك بين الأضلع ويحل لى بسواك ذرف الأدمع

وفيها يصرح بالاعتزاز بشعره والافتخار به ، فيقول عن نفسه :

ولقد بذذت السابقين ، فمن لهم بوقوف سير بالمكارم موضع[3]
وبلغت من سامى الفخار وجاء فى التـ ـقريظ من « محمود سامى » الأرفع

ثم يعاود التواضع بعد مرحلة من القصيدة ، فيقول عن البارودى :

أضحى يطارحنى القريض ، وهل ترى من أصبع يوماً تقاس بأذرع
أملى إلى قصيدة ، فأذابنى خجلاً وهيبة خاشع متخشع ![4]

ثم يرجع بعد ذلك بزمن طويل فيقول فى كتابه عن شوقى سنة ١٩٣٦ : « ولا أنكر أنني قبل أن قرأت شعر البارودى بدلالة الشيخ محمد عبده كان سبق لى نظمٌ غير قليل ، وكان اطلع عليه الشيخ محمد عبده نفسه ، فقال لى فى اجتماع فى الجامعة الأميريكية فى بيروت وعرَّفوه بى : أنت ستكون من أحسن الشعراء ، وكذلك قال العلامة الشيخ إبراهيم الأحدب الذى كان الصدرَ المقدَّم فى الأدب ، وقد قرأ لى أبياتاً فى إحدى الجرائد ، وأنا بعدُ فى المدرسة : إن هذا الولد سيكون شاعراً »[5] .

---

(١) الأجرع : الرمل الأبيض .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩ .
(٣) موضع : مسرع .
(٤) المرجع السابق ، ص ١١ — ١٤ .
(٥) كتاب شوقى ، ص ١٠٤ .

ونحن لا ننكر ما كان لشكيب من شعر قبل صلته بالبارودى ، ولا ننكر ما لهذا الشعر من جودة ، ولكن صلته بالبارودى هزته هزاً عنيفاً ، وبعد أن كان يقول الشعر على أنه تلميذ فى مدرسة الحكمة ، أو يقول لِيُنْشَر فى جريدة بيروتية ، صار يقول الشعر على أنه يراسل أمير الشعراء ، وموقظ الشعر سامى البارودى ، وإذن فلابد لشكيب من أن يحاول قدر طاقته أن يرتفع إلى مستوى هذا الشاعر العملاق أو مايدانيه ، وقد فعل ، وحق له أن يقول إن البارودى هو إمامه فى الشعر ، وإنه هو الذى خرجه فيه كما ذكرنا من قبل . وقد ظل شكيب يراسل البارودى بعد العفو عنه ورجوعه من منفاه إلى مصر[1] .

يقول مارون عبود : « فلا تعجب إن رأيت فى الأمير نفحة جاهلية وثروة لغوية ، فشعره الأول ، وخصوصاً نقائضه [مساجلاته] مع البارودى ، هو أصفى شعره وأنقاه ، مع أنه لم يكن اجتمع أشده »[2] .

وليس البارودى وحده هو الشاعر الذى تأثر به شكيب وتفاعل معه ، فقد تأثر شكيب بغيره وتفاعل مع سواه بعد صدور « الباكورة » ، فكان هناك شوقى الذى عرفه شكيب منذ سنة ١٨٩٢ ، وإذا كان شكيب قد اتخذ البارودى إماماً وأستاذاً ، لأنه أسبق منه وأسن ، ولأنه أرسخ قدماً فى الشعر ، وأعمق غوصاً على المعانى ، فإن شكيب قد اتخذ من شوقى قريناً له وقريعا ، لأنهما متقاربان فى السن ، ومتشابهان فى النشأة والتنقل ، ومن ناحية غنى الأسرة ، وجاه الحياة ، والتعلق بالقديم ، والاعتزاز بمواريث السلف فى المبنى والمعنى .

وقد انعقدت بينهما صداقة متينة ، وأعجب كل منهما بالآخر ، وكان شكيب بعد معرفته شوقى يحرص على قصائد أمير الشعراء ، ويراها قد استوفت شروط

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : ج ١ ص ٤١٠ .

(٢) رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٤ .

الشعر من متانة النسج، ورصانة الأسلوب، وفصاحة الكلمات ودقة المعاني، واطراد الانسجام

وكان شكيب يعارض شوقي ، والمعارضة فيها تفاعل وتأثر ، وإن كان شكيب يعترف لشوقي بسبقه ، فيقول :

أو أعارضْ فتى القريض ، فما عا رض وردَ الحدائق القـلاّم
ذا مجال رضيتُ فيه من السبـ ـق بعزم لم يثنه الإحجام[1]

ونستطيع من مطالعة كتاب رشيد عن شوقي أن نستخلص الكثيرَ من مواطن التفاعل والتأثر المتبادل بين الشاعرين مما يستحق أن ينفرد بحديث .

وهناك أيضاً الشاعر عبد الله باشا فكرى ، فقد أشار الإمام محمد عبده على شكيب عقب ظهور باكورته أن يهديها إلى فكرى ؛ فأرسلها مع أبيات يقول فيها :

إذا ما رمت من مهديك كفؤا لقد أنفدتَ لؤلؤ كل بحر
فكيف يقوم عندك نزرُ شعر يذيب الرعب منه كل شطر ؟

ورد عليه فكرى بقصيدة يمدح فيها شكيب بمثل قوله :

كميٌّ من سلالة أرسلان ذؤابة قومه الأسد الهزبر
نمى خطب العلا وصبَّ إليها فكان له صباه خير مهر[2]

وكان اتصاله بفكرى سبباً فى تفاعل آخر مع أحد شعراء عصره الأعلام .

---

(1) كتاب شوقى ، ص ١١ — ٢٠ . والقلام: نبت.
(2) ديوان الأمير ، ص ١٨ . والكمى الشجاع . والهزبر : اسم الأسد ، أو الشديد الصلب .

في الباكورة

كان شكيب يعتز بديوانه الأول " باكورة " المطبوع سنة ١٨٨٧ اعتزازاً واضحاً، ويرى شعره فيه أهلاً لأن يقرن مع ما نظمه من شعر بعد أن استوى عوده، بدليل أنه حينما فكر في طبع ديوانه سنة ١٩٣٥ - أي؛ بعد قرابة خمسين عاماً من طبع الباكورة - حرص على أن يضمنه أكثر ما في الباكورة لسببين:

أولهما: أن نسخ الباكورة صارت نادرة، والثاني: أنه راجع شعر الباكورة فلم يره دون أن ينسب إليه ولا أصغر من أن يقيد عليه، بل قد رأى أن الشباب أشعر من المشيب، ووجد أحسن القريض ما جاء في العهد الغريض

ويقول عن ديوان شعره الذى يشمل الباكورة : « هذا ديوان شعرى من أيام الصغر إلى أيام الكبر ، تتجلى فيه روحى حدثاً ، وشاباً ، وكهلا ، وشيخاً ، ويعرف منه القارئ أنها روح لم تزل يشبه بعضها بعضاً فى جميع أدوار الحياة [٢] » .

ولم يكن هذا رأى شكيب وحده ، بل كان رأى السيد رشيد رضا ، الذى يصفه شكيب بأنه أخ له ، فحينما بعث شكيب بأصول الديوان إلى رشيد ليطبعه ، لم يجد معها شعر الباكورة ، فطالبه به ليضعه فى الديوان ، فأرسل رشيد إليه رسالة بتاريخ ٦ المحرم ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م يقول فيها :

« إننى كنت مستاء من طبع هذه القصائد المرسلة فى الكراريس الخمس بدون طبع قصائد الباكورة التى غرست محبتك وتقديرك فى قلبى ، وهذه القصائد فى نظرى أعلى نظماً ولغة وموضوعاً من كل ما فى الكراريس من المدائح والمراثى ،

---

(١) ديوان الأمير ، ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة الأولى .

حتى جاءتني مكتوباتك الأخيرة تبشرني بالظفر بالباكورة ، وشروعك في اختيار ما تريد طبعه منها ، فلم يعجبني هذا الاختيار ، لأنني أود أن تطبع كلها[1] » .

وكان رشيد يرى جعل الباكورة في أول الديوان ، ولكن شكيب أصر على جعلها في آخر الديوان[2] .

ونتناول الباكورة فنجد أن شعر شكيب صورة لحياته ، بحيث يمكننا أن نستخلص الكثير من شئون هذه الحياة عن طريق هذا الشعر ، فهو يفتتح الديوان بقصيدة يهديها إلى « العالم العامل ، الفيلسوف الكامل ، واسطة عقد الحكماء ، ودرة تاج البلغاء ، الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده المصرى أيده الله تعالى » . كما نجد قصائد أخرى له في الإمام[3] .

فنفهم من هذا تعرُّفَ شكيب إلى الشيخ ، وإعجابه به .

ونجد في الديوان قصائد كثيرة أنشدها شكيب في مدرسة الحكمة ، وفي المدرسة السلطانية ، وفي أساتذته ومعلميه[4] . فنعرف من ذلك تبكيره في الشعر حتى سمى الديوان « باكورة » ، وظهوره بالشعر في مدرسته ، ووفاءه لأساتذته .

ونجد في الديوان قصيدة بدأها بقوله :

ياجمال الإسلام ، والإسلامُ صدَّه عن هوى الجمال الملام[5]

فنفهم أنه يحيِّي بها جمال الدين الأفغاني ، وأنه معجب به ، وهو يطالبه بالعمل لإنهاض المسلمين ، ولذلك يقول له فيها :

منك يرجى ياسيدي ياجمال الـــدين وصل الحبال وهي رمام

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٧٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٨٧ .
(٣) الباكورة ، ص ٣ و ٣٠ و ٣٦ و ٤١ .
(٤) الباكورة ، ص ٥ و ١٠ و ٧٦ و ٨٣ و ٨٦ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

ونراه يمدح « علي باشا باى تونس الخضراء » ، ويقرظ تأليفه « مناهج التعريف في أصول التكليف[١] » . فنفهم أنه يوسع دائرة صلاته الأدبية إلى خارج وطنه لبنان .

ونراه يهنيء « هولو باشا العابد برياسة نجله أحمد بك على دائرة استئناف الجنحة في الآستانة » ، ويهنيء « واصي باشا متصرف لبنان بزفافه » ، ويمدح محمد باشا الحسيني كبير أنجال الأمير عبد القادر الجزائري ، ويهنيء أحمد بك العابد برئاسة دائرة الاستئناف ، ويمدح عبد العزيز أفندي السلطاني ، ويهنيء حسن بيهم بزفافه ، ويمدح جمال رامز ، ويمدح صديقه أيوب عون مدير مدرسة الكاثوليك في حلب ، ويهنيء المطران يوسف الدبس مؤسس دار الحكمة[٢] .

نرى هذا فنفهم اتصال شكيب بهؤلاء ، ومجاملته للكبراء والأصدقاء ، وجمعه في معرفته بين رجال الحكم ، ورجال القضاء ، ورجال العلم ، وأصدقاء الحياة .

ونجده يرثي حرم واصي باشا متصرف لبنان ، ويرثي أحد الكرام دون أن يذكر اسمه ، ويرثي أحد أعيان لبنان بناء على اقتراح اقترح عليه ، ولا يذكر اسم المرثي ، ويرثي الشيخ محيي الدين اليافي ، ويرثي سليم البستاني صاحب مجاني الجنة والجنان[٣] .

نجد هذا فنفهم منه معنى الوفاء عند شكيب لمن مضوا ، ومعنى المجاملة للكبار حين يرثي أعزاءهم ، ومعنى الاستجابة لصنع الرثاء عند الاقتراح ، ومعنى تقديره للعلم والأدب .

ونجده يتغزل « بالحسن المغنوي مفتخراً بأصحابه[٤] » ، فنفهم أنه كان رجلا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢) راجع هذه التهاني والمدائح على التوالي في الباكورة ، ص ٣٩ و ٤٦ و ٤٨ و ٥٠ و ٥١ و ٥٤ و ٥٧ و ٥٨ و ٧٦ .

(٣) راجع هذه المراثي على التوالي في الباكورة ، ص ٤٣ و ٦٠ و ٦٦ و ٦٨ و ٧٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨ .

صاحبَ مبادئ وقيم ومعنويات ، ونكاد نفهم أنه لم يتعرض لتجارب عاطفية حقيقية ، وأن أشعاره التى قالها فى الغزل والنسيب[1] إنما هى بنت الصنعة والخيال.

وما دامت الصنعة تيسر على شكيب أن يتغزل دون أن يكون أمامه من يتغزل به حقيقة ، فلا عليه إذا كان يشكو دون أن يكون هناك أسباب جوهرية لشكواه.

وما تلك الأسباب وشكيب ينشأ فى دعة من الحياة وسعة من العيش ، وقدرة على التعلم ، وحظوة عند الأساتذة وكبار القوم ؟ . لكنه يشكو متصنعاً ومقلداً ، فما أطول الشكوى فى أدبنا وما أقدم عهدها . فنراه يقول :

فلله يادنيا حياتك كـــربة ... وفيك غراب البين ما زال ينعب
رأيتك محض الغش فى محض قذرة ... فلا منك رهبان ، ولا فيك أرغب
وإنى وإن ضاقت علىّ مذاهبى ... لديك فصدرى من فنائك أرحب
أرى بك من نكدى وصبرى عجائباً ... وأعجب من حالى ، وحالك أعجب[2]

ولعلى بهذه الإشارات إلى موضوعات القصائد فى الباكورة أكون قد أوجزت الأغراض التى طرقها شكيب فى باكورته ، وأما ألفاظه فنقية خالصة فصيحة ، وأما عبارته فجزلة ، وأسلوبه متين ، وأما معانيه فهى معانى العباسيين المعروفة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ و ٧٤ و ٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ .

الباكورة بين طبعتين

مضت السنوات تباعاً بعد صدور الباكورة ، حتى جاءت سنة ١٩٣٥ ، حيث اعتزم شكيب إخراج ديوانه ، وأراد أن يضم إليه شعر الباكورة ، فماذا فعل ؟ من حسن الحظ أنى عثرت على نسخة « الباكورة » التى أجرى فيها شكيب بخط يده التعديلات فى شعره فيها ، من تصحيح وتبديل وحذف ، وقد حصلت على هذه النسخة من السيدة زوجته .

وبدراسة هذه النسخة ومراجعة طبعة الديوان عليها وجدت أن جميع التعديلات التى أجراها شكيب فى النسخة قد أخذ بها ناشر الديوان .

لقد غيَّر شكيب فى العناوين ، وفى مقدمات القصائد ، وحذف كثيراً من الأبيات ، وحذف طائفة من القصائد بأكملها ، والدافع القوى الذى دفعه إلى ذلك — فيما يبدو لى — هو رغبته فى تخفيف التوسع فى المدح ، والتخلص مما لا يجب أن ينسب إليه ، لضعف فى صياغته أو معناه ، أو لأنه يتضمن معنى لا يرتضيه شكيب بعد أن قضى فى الحياة قرابة أربعين عاماً يغادى ويراوح أمورها وأحداثها وأهلها .

وألاحظ أنه كان يعبر عن نفسه بصيغة الغائب ، مثل : « قال » و « أنشد » و « كتب » و « يمدح » و « يقرظ » . . . إلخ ، فنقل هذه الكلمات إلى صيغة المتكلم ، بأن أخذ يقول : « قلت » و « أنشدت » و « كتبت » و « أمدح » و « أقرظ » . . . إلخ .

وهذا موجود فى أغلب القصائد مما لا يحتاج إلى إثبات مواطن له من الديوان .

وقد نسارع فنظن أن هذا التغيير كان نتيجةً لاعتزاز شكيب بنفسه وإحساسه بذاته بين الشعراء والأدباء ، ولكنى لا أميل إلى هذا ، وأرجِّح أن شكيب قد فعل هذا تواضعاً أو نأياً عن مظنة الاعتزاز ، لأن صيغة الغائب فى مثل هذه

الطلات معروفة مألوفة فى الحديث عن كبار الشعراء فى دواوينهم ، حيث يكون لهم رواة ، أو ناشرون يثبون أشعارهم ، فيقولون : « وقال الشاعر » ، و « مدح فلانا فقال » ، فكأنه أراد أن يقول — بطريق غير مباشر — : « لست ممن له رواة يقولون عنه : « قال ، ومدح ، وأنشد » ، ولكنى أقدّم نفسى إلى قارئى ، وأقول : « قلت ، ومدحت ، وأنشدت » .

ومن التغييرات المتكررة حذفُه الكثيرَ من ألقاب التفخيم والتعظيم التى كان قد أضفاها على أشخاص يعجب بهم ويشيد بمكانتهم ، وإذا كان هو فى أول قصيدة قد أبقى على العبارة الفخمة التى وصف بها الإمام محمد عبده وهى « حضرة الإمام العامل ، الفيلسوف الكامل ، واسطة عقد الحكماء ، ودرة تاج البلغاء ، الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده المصرى أيده الله تعالى » [١] .

إذا كان قد أبقى على هذه العبارة مع فخامتها وضخامتها ، فإنه أثبت فى الباكورة قصيدة قدمها بقوله : « وكتب يمدح بها حضرة رأس الأساتذة وفخر الجهابذة الشيخ محمد عبده المصرى الشهير » ، ولكنه غيرها فى الديوان إلى : « وكتب بها إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » ، فحذف عبارة : « أستاذ الأساتذة وفخر الجهابذة » .

لم حذفها ؟ ألتخفيف من عبارات المديح فى الإمام ، وقد سبق منه فى تمجيده ما سبق ، أم للتخلص من السجعة المصنوعة ؟ .

ومثل هذا يقال فى قصيدة قدمها بقوله : « وقال يمدح العالم العلامة الشيخ محمد عبده . . . » فحذف كلمة « العالم العلامة » من طبعة الديوان [٢] .

وفى قصيدة كانت بعنوان : « قال فى العلم والعصر ، وأنشدها فى محفل مدرسة

---

(١) الباكورة ص ٣ والديوان ، ص ١٣١ .
(٢) أنظر الباكورة ، ص ٣٦ ، والديوان ، ص ١٦١ .

الحكمة » غير العنوان إلى ما يلي : « وقلت ، وأنشدتها فى محفل مدرسة الحكمة ، وكنت فى السادسة عشرة من العمر »[1] .

أضاف هنا إلى التحول من صيغة الغائب إلى صيغة المتكلم ، النصَّ على عمره حين أنشأ القصيدة .

وصنع مثل هذا فى القصيدة التالية للقصيدة السابقة ، إذ كانت مقدمتها :
« وقال مثل ذلك عند حضور امتحان المدرسة السلطانية » فجعلها فى الديوان .
« وقلت فى مثل ذلك عند حضور امتحان المدرسة السلطانية فى السنة نفسها »[2] .

وصنع مثل هذا فى القصيدة التى كانت مقدمتها : « وله رثاء لحرم صاحب الدولة واصا باشا متصرف لبنان الأفخم » فصارت فى الديوان : « ولى رثاء لحرم واصا باشا متصرف لبنان ، وهو من نظمى يوم كنت فى الرابعة عشرة من عمرى »[3] ، فحذف بعض الألقاب ، وذكر سنَّه عند النظم .

وصنع مثل هذا فى آخر مقطوعات الديوان ، حيث كانت مقدمة المقطوعة الأخيرة كما يلى : « وكتب الناظم تحت رسمه » . فصارت فى الديوان هكذا :
« وكتبت تحت أول صورة فوتوغرافية استخرجت لى وكنت فى الرابعة عشرة »[4] .

ولعل السر فى ذكر سنة النظم عن طريق تحديد العمر هو الإشارة إلى أن هذه القصائد نُظمت وهو ناشىء ، فلا ضرورة بالناقد إلى أن يشتد فى نقدها دون مراعاة لهذا الأمر .

ولعلَّ من السر فى ذلك أن شكيب قد تعوَّد حين استبحر فى الكتابة والنثر — بعد الباكورة بسنوات — أن يؤرخ ما يكتب كلما استطاع ، ليحدد

---

(١) الباكورة ، ص ٥ ، والديوان ص ١٣٢ .
(٢) الباكورة ، ص ١٠ ، والديوان ، ص ١٣٨ .
(٣) الباكورة ، ص ٤٣ . والديوان ، ص ١٦٦ .
(٤) الباكورة ، ص ٩٢ ، والديوان ، ص ٢٠١ .

الزمن الذي صيغ فيه ما كتبته يده ، وفى كثير من الأحيان يحدد المكان أيضاً .

فهو يؤرخ مقدمة كتابه « الارتسامات » بقوله : « وكتب بلوزان في ٥ ذى الحجة الحرام ١٣٤٩ » .

وهو يؤرخ مقدمة كتابه « غزوات العرب » بقوله : « جنيف ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢ » . ويعود فيؤرخ ملحق هذه المقدمة بقوله : « جنيف ١٤ جمادى الثانية ١٣٥٢ » .

ويؤرخ مقدمته لديوان أخيه « روض الشقيق » بقوله : « جنيف فى ١٩ رمضان ١٣٥٣ » .

ويؤرخ مقدمة ديوانه بقوله : « جنيف ربيع الأول سنة ١٣٥٤ » ، بينما لم يفعل مثل هذا فى الباكورة .

بل نراه يؤرخ مقالاته التى ينشرها فى الصحف فى أغلب الأحيان [1] .

إن تتابع الأحداث ، وكثرة الكتابة ، واختلاف وجهات النظر باختلاف الظروف والعوامل ، دفعت بشكيب إلى عادة التأريخ لما يكتب ، حتى يفهم قارئه الكتابة فى ضوء زمانها الذى صيغت فيه .

* * *

ونعود إلى استكمال ما حدث من تغيير فى الباكورة عند نقلها إلى الديوان .

هناك قصيدة يقدمها بقوله : « وله ثناء على حضرة الذكى جمال بك نجل حضرة نموذج الكمال والفضل ، ومعدن النزاهة والعدل ، صاحب الفضيلة رامز بك نائب بيروت الحالى » . فصارت المقدمة فى الديوان كما يلى : « ولى ثناء على جمال بك » .

---

(١) انظر على سبيل المثال المقالات المجموعة فى كتاب عروة الاتحاد ، ص ٥٦ و ٧١ و ١٠٢ و ١٥٥ و ١٥٧ و ١٦١ و ١٧٤ و ١٩٨ و ٢١٠ .

نجل رامز بك قاضى بيروت لذلك العهد ، وكان من أفذاذ القضاة فى العدل والنزاهة[١] » .

وهناك تغييرات أخرى لا تخرج عن هذا القبيل .

وفى الباكورة قصيدة مدح لجمال الدين الأفغانى ، ولكن شكيب لا يذكر اسمه فى عنوان القصيدة فى طبعة الباكورة ، بل يكتفى بلفظة : « وكتب » ، ولكنه جعل عنوانها فى الديوان كما يلى : « وكتبت إلى السيد جمال الدين الأفغانى رحمه الله[٢] » . وما نظن أن ترك الاسم كان مقصوداً ، إذ لا حكمة لتركه ، والقصيدة صريحة فى كونها فى مدح جمال الدين . فلعل شكيب سها عن ذكر اسمه .

وهناك قصائد مثبتة فى الباكورة حذفها شكيب من طبعة الديوان وهى :

١ — قصيدة « يهنىء بها صاحب السعادة هولو باشا العابد برئاسة نجله أحمد بك على دائرة استئناف الجنحة فى الآستانة » . وهى ستة وأربعون بيتاً .

٢ — قصيدة « يمدح بها صاحب السعادة الأمير السيد محمد باشا الحسينى الجزائرى كبير أنجال المغفور له الأمير عبد القادر » . وهى واحد وثلاثون بيتاً .

٣ — قصيدة فى « تهنئة سعادة الشهم أحمد بك العابد برئاسة دار الاستئناف فى دار السعادة باقتراح أحد الذوات » . وهى اثنان وثلاثون بيتاً .

٤ — قصيدة « ثناء على حضرة السرى الأنجب عزتلو عبد العزيز أفندى السلطانى » ، وهى أربعة وثلاثون بيتاً .

٥ — قصيدة ذكرها « تاريخاً لورود أحمد وفيق مقبل نجل ذى السعادة جمال بك ناظر رسومات بسورية » وهى تسعة أبيات[٣] .

---

(١) الباكورة ، ص ٤٣ . والديوان ، ص ١٧٢ .

(٢) الباكورة ، ص ٢٨ . والديوان ، ص ١٥٤ .

(٣) راجع القصائد الخمس فى الباكورة على التوالى ، ص ٣٩ و ٤٨ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢

وقد أشر شكيب عليها بخطوط متقاطعة تدل على إرادته حذفها . ونلاحظ أن القصائد الخمس كلها في المديح ، فيحتمل أن يكون شكيب قد حذفها تخففاً من مديح قديم العهد ، أو لعله حذفها لأنه قد طرأ على صلاته بهؤلاء الممدوحين ما يعكر صفو المديح .

وهناك قصائد حذف شكيب من كل منها كثيراً من الأبيات [1] ، ونص على الحذف أحياناً بطريق غير مباشر حين قال في الديوان : « ومنها » ، و « منها » [2] ، وأحياناً لم ينص [3] . وفي قصائد حذف من كل منها بيتا أو بيتين أو نحو ذلك ، وهذا تكرر في كثير من القصائد . وكذلك غيّر شكيب بعض الألفاظ ، إما لأنها خطأ مطبعي ، وإما لأنه استحسن وضع لفظ مكان لفظ وهذا قليل .

وهناك أبيات حذفها شكيب لما فيها من روح النحاة واصطلاحاتهم ، ومنها هذه الأبيات :

١ — أوامره فعل مضى بلا مرا ... وتنكص عن فعل المقي الجوازم

٢ — تنوح على البلوى وتشكو ، وإنها ... لتعجم شكواها ، وأشكو فأعرب

٣ — إذا كنتُ ممن قال ذلك موقناً ... فإني من يسعى لأمر وينصب [4]

وحذف بيتاً كأنه أحس فيه لغة المؤرخ ، وهو :

تدارخت عهدها فيها المسرة مذ ... تقوضت بهناها دولة الكدر [5]

وحذف بيتاً فيه مبالغة شديدة في مدح وزير :

وكيف يبلغ حق الوصف ممتدح ... مَن سر عنصره وحى وتنزيل [6]

---

(١) انظر الباكورة ، ص ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٨ و ٥٦ و ٥٧ . وغيرها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣ و ٣٥ و ٣٧ و ٥٠ و ٥٦ و ٦٤ وغيرها . والديوان ، ١٢٧ و ١٥٨ و ١٦٠ و ١٦٢ و ١٧١ و ١٧٣ وغيرها .

(٣) الباكورة ، ص ٣١ و ٣٢ و ٣٨ و ٦٠ و ٧٣ وغيرها .

(٤) الباكورة ، ص ١٤ و ١٥ و ١٧ .

(٥) الباكورة ، ص ٤٦ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

ديوان الأمير

في سنة ١٩٣٥ أصدر شكيب ديوانه ، وقد صدَّره خليل مطران بمقدمة تحدث فيها عن شكيب الذي أجمعت أمته على نعته بأمير البيان ، وذكر أن الناس توقعوا من صاحب الباكورة أنه سيحث بعدها خطاه في سبيل الشعر ، لينال مقاماً لا يرام بين الشعراء ، ولكن الشئون الضخام صرفت شكيب إلى النثر فترسل ، وظل يتحف قراءه بفيض رسائله ومقالاته ، ويريهم كيف ملك اللغة من أول أمره ، مع سلاسة وانسجام ورصانة تراكيب ، ويذكر مطران أن شكيب رضي لنفسه بأن يكون شاعراً مقلا مجيداً ، وأن أشعاره لؤلؤات منظومة في بحر من اللآلىء المنثورة .

وعقب تصدير مطران جاءت مقدمة شكيب ، وفيها يخبرنا بأن مادفعه إلى نشر شعر الصغر والكبر ثلاث خصال :

الأولى : « أن الشعر لقائله كالولد لناجله ، فأخشى من بعد انصرافي من الدنيا أن ينسب إليَّ ما لم أقله » .

والثانية : « أن بعض هذه القصائد متعلق بوقائع تاريخية مشهورة ، وبعضها متضمن لمبادىء سياسية مأثورة ، فنشرها حصة من التاريخ يتميز فيها من اعتدل عمن اعتدى ، ويُعرف من ضل ممن اهتدى » .

والثالثة : « أنه كان لي أصدقاء وأتراب وإخوان ، ترافقني عليهم الحسرات إلى التراب ، ومن الأعلام من لم أعرفه بوجهه ، ولكني عرفته بآثاره ... فقد أحببت أن أبث أرواحهم الزكية الوجدَ الذي أجده من فراقهم ، وأن أنشر بعد طيِّ أجسادهم ماأعرف من محاسن أخلاقهم ، فأكون وفيتهم بعض حقوق الوفاء » .

والديوان يتكون من قسمين : الأول — ويشمل نحو ثلثي صفحات الديوان —

هو ما قاله بعد شعر الباكورة ، والآخر — ويشمل نحو ثلث الديوان — هو ما أبقى عليه من شعر الباكورة ، وقد تعرفنا إلى هذا القسم الأخير من قبل .

وبعد مقدمة مطران ومقدمة شكيب نجد الشاعر يورد لنا « المراسلات السامية » وهي المراسلات الشعرية التي كانت بينه وبين « سامي البارودي » ، ولذلك نسبها إليه ، وقد سبق حديث عنها :

ويأتي بعدها القسم الثاني في المساجلات الشعرية والمفاكهات الأدبية التي جرت بين شكيب وبين فريق ممن اتصل بهم أو تصادق معهم أو داعبهم ، مثل : عبد الله باشا فكرى ، وإسماعيل باشا صبرى ، وخليل مردم ، ومحمد كرد علي .

ثم ينتقل إلى المدائح ، فنجده يمـــدح الخديوى توفيق ، ويشترك بقصائده في تكريم حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٥ ، وخليل مطران سنة ١٩١٢ ، وأحمد شوقى سنة ١٩٢٧ ، وعبد الله البستاني سنة ١٩٠٤ ، وعبد الحميد الرافعي سنة ١٩٢٩ .

ثم ينتقل إلى المراثى ، فيرثى أحمد فارس الشدياق ، ومحمود إبراهيم فخرى ، ووالدة نعوم باشا متصرف جبل لبنان ، وعبد الله باشا فكرى ، ونجله أمين بك فكرى ، وإبراهيم اليازجى ، ومحمود سامى باشا البارودى ، ومحمد بك فريد ، وملحم ابن الأمير توفيق مجيد أرسـلان ابن عم شكيب ، والأمير عبد القادر نجل الخديوى عباس حلمى ، وأحمد مختار بيهم ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، وكامل بك الأسعد ، وأخاه نسيب ، وأحمد باشا تيمور ، وعبد القادر الشيبي ، وأحمد بك شوقى ، وعبد السلام بتونه .

ثم ينتقل إلى القسم الرابع ، وهو المدائح السلطانية ، وشئون السياسة العثمانية ، فيورد ما تعيه ذاكرته من مدائح في السلطان عبد الحميد ، لأنه لم يعثر على أصولها ، ولا على صورها المنشورة ، ويحيى انتصارات الدولة العثمانية ، ويهنىء بصدور الدستور العثماني ، ويحث على الجهاد ضد احتلال إيطالية لطرابلس الغرب ، وعلى

التبرع من أجل طرابلس ، ويحذر من كيد الاستعمار ، ومن الخروج على الخلافة ، بعد أن يمجد سيرة صلاح الدين الأيوبي .

ثم ينشىء قصيدة طويلة النَّفَس عن « معركة حطين » ، وذلك بمناسبة زيارته لقرية حطين التابعة لطبرية سنة ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٢ م ، وينشىء قصيدة طويلة أخرى فى ذكرى الأندلس ، بمناسبة زيارته لها سنة ١٩٣٠ م . ويحيي الاتحاد بين الترك والعرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى .

ويتخلل هذه الأقسام قصيدة فى معارضة قصيدة قيلت فى السيد محمد المهدى عم السيد أحمد الشريف السنوسى ، وقصيدة قال عنها إنها « من عبث الشباب تقليداً للشعراء » ، وتحية بعض من مدحوه ، والتهنئة ببعض المواليد أو بزفاف ، وشكر لبعض علماء البوسنة ، وأبيات عن ذكرى جوته بمناسبة زيارته لقبره سنة ١٩١٧ ، وبيتان عن زيارته لقبر خالد بن الوليد فى حمص سنة ١٩٠٥ .

هذه مواد الديوان وهذه قصائده ، ومنها تلوح لنا الأغراض التى نظم فيها شكيب خلال المدة الطويلة الواقعة بين الباكورة والديوان .

ونلاحظ أن شعره فيه موصول الأسباب بحياته وتصرفاته ورحلاته ، فهو فى مساجلاته الشعرية ومراسلاته مع البارودى وفكرى وصبرى ومردم وكردعلى يطلعنا على جوانب من المؤثرات التى أثرت فى شعره بطريق مباشر أو غير مباشر .

وهو فى مدائحه للخديوى يرينا أنه اتصل بالسياسة المصرية نوعا من الاتصال .

وهو فى قصائد تكريمه للشعراء يطلعنا على صلات وروابط كانت تربطه بهؤلاء .

وهو فى مراثيه أيضاً لهؤلاء النفر من العلماء والأدباء والشعراء والمجاهدين يرينا ألوانا من وفائه من جهة ، فوق ما نفهم من توثق علاقاته الروحية والأدبية بينه وبينهم من جهة أخرى .

ومن مدائحه السلطانية والعثمانية نفهم أن شكيب قد واصل التأييد والتمجيد للخليفة العثمانى ، وللسلطنة العثمانية ، وللجامعة الإسلامية ، وقد عرفنا فى عصره وفى حياته أنه استمر فى عثمانيته إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى . ومدائحه للسلطان فى الديوان امتداد طويل العمر لمدائحه له فى الباكورة .

وشعره فى حطين والأندلس وخالد وصلاح الدين ، يشعرنا بنزعته الإسلامية وروحه العربية ، وهيامه بالرحلة والمشاهدة ، وحرصه على التذكير بأمجاد السلف وتاريخ الأجداد .

وتهنئاته فى المناسبات كالميلاد والزفاف ، مع معارضته بعض القصائد لمجرد المعارضة ، وقوله فى عبث الشباب مع نصه على أن هذا تقليد للشعراء ، كل هذا يشعرنا بأن شكيب كان ينظم الشعر أحيانا لا بانفعال أو اندفاع عاطفى ، بل بحكم الصنعة والقدرة على الصياغة الموزونة .

ونلاحظ على الديوان ضآلة حجمه بالنسبة إلى ما كان منتظراً من شكيب فى ميدان الشعر ، فالديوان كله فى مئتى صفحة ، فإذا حذفنا منها قرابة السبعين صفحة، وهى التى ضمت أشعار الباكورة ، بقى بين أيدينا نحو مئة وثلاثين صفحة ، هى كل نتاج شكيب من الشعر خلال قرابة نصف قرن من الزمان، فلو قسمنا الصفحات على السنوات ، لخرجت كل سنة بنحو صفحتين ونصف من الشعر .

والسر فى ذلك قريب غير بعيد ، وهو أن شكيب كان قد عقد العزم على أن يكون علَماً فى النثر ، لا أميراً بين الشعراء ، وكان قد شغلته رسالته القومية والإسلامية والسياسية عن العكوف على سواها .

وقد أشار إلى ذلك مطران حين قال عن شكيب : « غير أن شأناً آخر من الشئون الضخام التى هى أشد إغراء للرجل البعيد المطمح فى مطالب العلياء صرفه وشيكا عن الهيام فى مسابح الخيال والضرب فى آفاقه الأنيقة إلى منازلة الأحداث والأيام فى معترك الحقيقة » .

المحسنات البديعية

إذا نظرنا إلى مجموعة شعر شكيب التى تشمل الباكورة والديوان وجدنا عدة ظواهر ، منها :

العناية بالبديع ، وشكيب يقول : « ولم نكن نجهل البديع ، ولا كان يفوتنا شىء مما فى خزانة ابن حجة [1] » . فنجد فى شعره « الجناس » كقوله فى « الباكورة » :

لا غرو أن أهدى إليك رقائق ... وأنا رقيـــق فضائل ومآثر

وقوله :

قد جادها صوبُ الصَّبَا ، وبنشرها ... نمَّ الصبا عن كل عَرْفٍ زافر [2]

وقوله يخاطب أمير الشعراء :

لئن كنت أحمـد شوقى إلىَّ ... فما زلت أحمـــد شوقى إليك

وقوله :

شهدت به فى الحسن بدراً وفى التقى ... شهدت به سيماء من شهدوا « بدرا »

وقوله :

سلانى : هل على بُعد سلانى ... وهل كان المغيب سوى العيان

وقوله :

كالسيف فى أوضائه ومضائه ... والليث فى وثْباته وثَباته

---

(1) كتاب شوقى ، ص ١٠١ .

(2) الباكورة ، ص ٣ و ٤ .

وقوله عن محمد إسعاف النشاشيبي بمناسبة صدور كتابه « كلمة في اللغة العربية » :

قد قالت اللغة الفصحى بغربتها قد أحسن الله إسعافي « بإسعاف »
هو المجيب لمن قد بات ينشده : أنصر أخاك لدى ظلم ، وأس عاف ![1]

ونجد في شعره « المطابقة » مثل قوله :

لما كل آن في البرية مظهر يخبّر أن الله أودعها سرا

وقوله :

يبدو أرقَّ من النسيم فإن عرَا خطب غدوتَ الصارم المسلولا

وقوله :

في نعمة الحمَل الوديع ، فإن عدا عادٍ ترى أسداً يفارق غيلا[2]

ونجد « التورية » ، مثل قوله يخاطب خليل مطران :

أو كانت الدنيا قسوس فصاحة بحذا عكاظَ ، فإنك المطران[3]

وقوله في الشيخ عبد القادر الشيبي :

يقولون لي : نبغي جواب سؤالنا ويسألني عن ذاك صحبي وجلاَّسي
لماذا ترى « الشيبي » عندك أولا وتؤثره في كل شيء على الناس ؟
فقلت : أرى الشيبي يندر مثله ببرّ وإكرام ولطف وإيناس
وفي خدمة الإسلام قد شاب مفرق لذاك أرى الشيبي تاجاً على الراس[4]

---

(١) مجلة الزهراء ، عدد رمضان ١٣٤٤ — ١٩٢٥م .

(٢) الديوان ، ص ٢٥ و ٧٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٤) الارتسامات اللطاف ، ص ١٩٩ .

ونجد الصنعة اللفظية الظاهرة ، بما فيها من تقسيم وازدواج داخل نظم الشعر . كقوله :

من للبدائع ؟ أو من للصنائع ؟ أو من للوقائع إما داهمٌ دهما ؟
من للصوارم ؟ أو من للمكارم ؟ أو من للمغارم يقضيها عن الغرما ؟

وقوله عن شعر شوقي :

كالدرّ في لمعاته ، والبدر في قسماته ، والصبح في نسماته[1]

(١) الديوان ، ص ٦٣ و ٨٣ .

التقليد للسابقين والمعاصرين

ومن الظواهر البادية فى شعر شكيب متابعته للسابقين ، وتقليده للمتقدمين . فى اللفظ تارة ، وفى المعنى تارة ، وفيهما معاً تارة أخرى ، وهو يقلدهم بصفة عامة فى سوق العيس ، وحدو الظعائن ، وفى الوقوف على الديار ، والتغنى بالذكرى والماضى ، والفخر بالنسب والقوم ، وترديد الشكوى والحنين ، والمدح باجتماع المكارم والمحامد ، والرثاء بأن المرثى هو الشمس قد خُسفت ، والبدر قد احتجب ، وأن الدنيا قد انهار منها جانب أو جوانب بموته ، ولا بد من تحدر الدموع كالأنهار .

نستمع إليه يخاطب البارودى فيقول مادحاً له :

جمعت العُلَى من تلدها وطريفها ... فجاءت كعقد فى ثناك منظم[1]

ويقول مرة ثانية :

هل تعلم العيس إذ يحدو بها الحادى ... أن السرى فوق أضلاع وأكباد ؟

وهل ظعائن ذاك الركب عالمة ... أن النوى بين أرواح وأجساد ؟[2]

ويقول من رثائه لرشيد رضا سنة ١٩٣٥ ، وهو ماختم به ديوانه :

تحدّرى يا دموعى بالميازيب ... وعارضى السحب أسكوباً بإسكوب

وأدركى كبداً لجَّ الأوار بها ... عن مارج فى صبيب القلب مشبوب

هيهات ، أى الرّزايا بعدُ ترمضنى ... وأى داهية دهياء تلوى بى ؟[3]

وإذا كان التقليد هنا فى المعنى مع التصرف فى العبارة ، ومع خفاء التقليد على غير البصير بالشعر ، فإننا نرى شكيب فى الباكورة يقلد عمرو بن أم كلثوم فى معلقته تقليداً واضحاً يلحظه كل من وقف على المعلقة ، فهو مثلا يقول :

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٢ . والميازيب: خراطيم الماء . والأسكوب : الماء المنسكب. وترمضنى : تؤذينى وتوجعنى . وتلوى بى : تهلكنى .

ألا لا تذهلى يا أم عمرو عن الحق الذى لا تجهلينا
ولا يقتادك الطاغوت إلا وأنت على الطواغت تظهرينا
وأنت صديقة يا أم عمرو لعمرك لن تزالى تظفرينا
فإنا لا نطيق الضيمَ يأتى على أصحـــابنا ومُواثيقنا
وإنا نكبح الأرزاء عمن يعوذ بنا مليكاً أو قطينا
وإنا لا نرى الأعداء إلا أسارى عنــوة ومهزّمينا
سلى إن شئت عنا فى المعالى تربنا من أعز المعتلينا
تربنا لا نكون بلا اعتزاز فنــلزم عزة حتى نكونا
تربنا لا ينازلنا جرىء تخر له الضراغم ساجدينا
تربنا لا يكابرنا كبير سما إلا ونحن الكابرونا
سلى من شئت إما شئت حتى تربنا ما تربنا يا ظعينا[1]

والقصيدة كما قال شكيب كانت ثلاثمائة بيت ، وقد نشر منها خمسة وستين ، وهى على هذا الطراز .

وشكيب يقلد المتنبى ، فيقول فى الباكورة :

بقلبى ما تهمى العيون وتأرق والعين ما يبلى الفؤاء ويرهق
وما كنت ممن يُرهق العشق قلبه ولكن من يدرى فنونك يعشق !

وهما مأخوذان من قول المتنبى :

لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقى وللشوق ما لم يبق منها وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولــكن من يبصر جفونك يعشق[2]

ويقول شكيب :

فإن يك دفع الشر بالرأى حازما فما زال دفع الشر بالشر أحزما

---

(١) الباكورة ، ص ٩٠ .

(٢) مجلة الرسالة ، عدد ١٥ ديسمبر ١٩٤٧ مقال (شكيب الشاعر) لمحمد رجب البيومى ، والباكورة ، ص ٣٠ .

وهو ينظر إلى قول المتنبى : « ولكن صدم الشر بالشر أحزم »[1] .

ويقول من قصيدة فى مدح عبد الحميد الرافعى (وهو من طرابلس الشام) :

أكارمٌ بهم باتت طرابلسٌ مصراً يقصر عنها كل ما يبسا[2]

وهو ينظر فى هذا إلى قول المتنبى :

أكارم حسد الأرضَ السماء بهم وقصرت كل مصر عن طرابلس

وهو يقلد أبا العلاء فيقول :

فقل ألا فى سبيل الكمال ما أنا فاعل[3]

وأبو العلاء هو القائل :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

ويقول شكيب راثياً :

ولم يأت فيه الموت مصرعَ واحد ولكنه كان المصارع أجمعا[4]

وقد أخذه من قول الأول :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وأخذه أيضاً من قول متمم بن نويرة فى رثائه لأخيه مالك :

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقى لتذراف الدموع السوافك

فقال : أتبكى كل قبر لقيتَه لقبر ثوَى بين اللوى فالدكادك ؟

فقلت له : إن الشجى يبعث الشجى فدعنى فهذا كله قبر مالك !

ويقول شكيب فى رثاء عبد القادر الشيبى :

تغيرت البلاد ومن عليها ورتبة آل شيبة فى أمان[5]

---

(١) شعراء الحماسة فى مصر والشام ، ص ٥١ . والديوان ، ص ١٠٠ .

(٢) الديوان ، ص ٤٧ ، وانظر كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ١١٢ .

(٣) رواية آخر بنى سراج ، ص ٥٠ .

(٤) الديوان ، ص ٥٧ .

(٥) الديوان ، ص ٨١ .

وهو مأخوذ من البيت المدّعى لآدم[١] :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مسوَدٌّ قبيح

ويقول فى الباكورة :

من الدهر تشكو أم على الدهر تعتب وما صاحب الحاجات إلا معذب[٢]

وهو مأخوذ من البيت المشهور :

وما الدهر إلا منجنونا بأهله وما صاحب الحاجات إلا معذبا

وغير هذه الشواهد على تقليده السابقين كثير .

ولم يقتصر شكيب على تقليد السابقين ، أو النظر إليهم ، أو النقل عنهم ، بل وقع فى مثل هذا أو قريب منه مع معاصريه ، فهو يقول فى رثائه لشوق سنة ١٩٣٢ :

كنا نخاف رداك قبل وقوعه فلنا الأمان اليوم من دهشاته[٣]

وهو ينظر إلى حافظ حيث يقول فى رثاء الإمام محمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥ :

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

ومع هذا أرى أن بيت شكيب قد قصر عن بيت حافظ .

ويقول شكيب فى رثائه لشوقى أيضاً :

قد كنت أطمع أن تُرى لى راثياً يامن غدوتُ اليوم بعض رثاته[٤]

وهذا مأخوذ من قول شوقى فى رثاء حافظ :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى يامنصف الموتى من الأحياء !

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ، ص ٤٤ .

(٢) الباكورة ، ص ١٤ .

(٣) ديوان الأمير ، ص ٨٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٨٢ .

ولابد أن شكيب قد قرأ بيت شوق الذى أراه أفضل من بيت شكيب ، وهذا لا يتعارض مع كون قصيدة شكيب فى رثاء شوق من عيون قصائد الرثاء ! .

* * *

ومن العجب أن شكيب يحاول فى بعض الأحيان أن يجعلنا نفهم أنه سبق شوق إلى معانٍ فى الشعر ، فهو يورد مثلا بيت شوق فى صلاح الدين :

فلو كان الدوام نصيب ملك   لنال بحد صارمه الدواما

ثم يقول لنا : إنه قد وقع بينه وبين شوق توارُدُ خواطر ، لأنه لما زار قبر خالد بن الوليد كتب على جداره هذين البيتين :

مَغِيبُكَ سيفَ الله فى غمدك الثرى   دليل بأن الله لا شك واحد

فلو أن فرداً خلَّدته فُتوحُــه   لما كان فى الأقوام إلاك خالد[1]

ثم ينص شكيب على أن هذين البيتين أقدم تاريخاً من بيت شوق[2] :

وإذا كان شكيب قد قال : إن هذا « توارد خواطر » فقد يفهم فاهم أن هذا ما هو إلا تلطف فى التعبير من شكيب ، وكلام شكيب يدل — على كل حال — على عنايته بنفى تقليده لشوق .

* * *

وقد يجرنا هذا إلى معرفة رأى شكيب فى « السرقات الشعرية » ، فهو يقول من مقال له فى جريدة « الأهرام » :

« فقد تتوارد الخواطر ، كما يقع الحافر على الحافر ، وكثيراً ما يقول شاعر بيتاً يظن نفسه غير مسبوق إلى معناه ، ثم يعثر عليه فى أثناء استقرائه ، فيعجب

---

(١) البيتان فى الديوان ، ص ٣٩ .

(٢) كتاب « شوق » ، ص ٢٠٢ .

لهذا التصادف ، ولـكن الناس الذين يطلعون على القولين يسارعون إلى الحكم بأن الأحدث قد أخذ عن الأقدم ، والحال أنه لا يكون المتأخر قرأ فى هذا شيئاً للمتقدم ، وربما لا يكون سمع باسم الشاعر الذى جاء بيته مشابهاً لبيته .

ومن لك بعد ذلك بإقناع الناس بأن هذا التشابه بين الـكلامين إنما هو مجرد توارد خواطر ، كما قالوا فى بيت امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبى على مطيّهم يقولون : لا تهلك أسىً وتجمل

وبيت طرفة :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلك أسىً وتجلد

فالعلماء لم يقولوا إن أحدهما سرق من الآخر ، ومثل هذا كثير فى الشعر العربى ، وإن كنت لا أنفى كون المسروق أيضاً كثيراً ما سرق منه عمداً ، وألبس ثوباً غير ثوبه الأول ، ومنه ما نطق به الشاعر رشحاً لمحفوظ كان قد نسيه ، وظن أنه ورى زنده .

فهذان النوعان اللذان لا شك فى وجودهما لا ينفيان وجود التوارد المحض على معنى واحد دون أن يكون اللاحق ذا علم بما قال السابق (١) » .

ثم ساق شكيب فى مقاله أمثلةً لأناس طرقوا فى شعرهم معانى سبقهم هو إليها ، فهذا شاعر نشر فى جريدة « الأهرام » قصيدة رثاء لصديق له قال فيها :

كأن سريرك المحمول فلك ودمع النائحين عليك ماء

ويذكر شكيب أنه لما كان فى الخامسة عشرة رثى سيدة بقصيدة مطلعها :

أتذكر نبذ النصح فيما تحاوله بعذل ، وباكى العين جارت عواذله (٢)

---

(١) جريدة الأهرام ، عدد ٢٢ مايو ١٩٣٩ م . مقال « خواطر على توارد الخواطر » .

(٢) القصيدة فى الباكورة ، ص ٤٣ — ٤٦ .

ومنها قوله :

أيصرعها يوم الثلاثا ، وقد سرى بها نعشها كالفلك ، والدمع حامله

ثم يقول : إن هذا المعنى قد سبق له منذ خمس وخمسين سنة ، وما يظن أن الشاعر الناشر في « الأهرام » قد اطلع على القصيدة .

هكذا تحدث شكيب عن السرقات الشعرية ، ونحسن أن نتذكر أن هذا الحديث كان في سنة ١٩٣٩ ، أي بعد صدور الديوان بنحو أربع سنوات ، ثم نتساءل : أكان شكيب يتحدث عن خواطر مطلقة حول « توارد الخواطر » ، أم أن ناقدين عابوا عليه ما قلد فيه سابقيه ومعاصريه ، فأراد أن يدافع بهذا عن نفسه من وراء ستار ؟ ! .

ونحسن أن نتذكر أيضاً أن الأبيات التي قلدها شكيب مشهورة سائرة ، لا يمكن أن تغيب عن شكيب ، فليس التقليد فيها من قبيل ما تحدث عنه من « رشح المحفوظ المنسي » ! .

الجملة القرآنية فى شعره

ومن الظواهر التى نلاحظها فى شعر شكيب اعتماده على « الجملة القرآنية » بلفظها أو معناها ، أو هما معاً فى كثير من الأحيان ، وقد سبق لنا حديث عن الجملة القرآنية فى نثر شكيب ، وعللنا انبثاث هذه الجملة فى كتابته ، وما كان من تعليل هناك يلقى ضوءاً من غير شك على انبثاث الجملة القرآنية هنا .

ولنستعرض أمثلة لأثر الجملة القرآنية فى شعره .

يقول فى الديوان :

وكل ذنوب العالمين مصيرها إلى العفو، إلا الشرك ممتنع الصفح

سينصركم من تنصرون كتابه ويؤتيكم الفتح القريب من الفتح

ويقول أيضاً :

وبالطائفين العاكفين بهذى الليالى تراهم ، من ركوع وسُجَّد

ويقول :

مشاة وركباناً على كل ضامر ومن فوق قضبان الحديد المسدد

ويقول :

وجاء الكرام الكاتبون فقيدوا لكل عصامى حساباً مرقماً

ويقول :

متاع قليل ، ثم مأوى لحفرة فماذا عسى الإنسان أن يتمتعا

ويقول :

أجل لم تزل حتى أصبت « بملحم » فتفتأ حتى اليوم تذكر « ملحما »

ويقول :

أثواك ربك فى أفياء جنتــه ممتــع الروح فى روح وريحان

ويقول :

بحيث قد فرق الـــبرين رمهما وحيث قد مرج البحرين عن كثب

ويقول :

وغـدت لمجة الثنـاء عليـــه مثلما دام للصـــلاة إقام

ويقول :

أطلت عليكم بغتــة شرد المنى تحقق بعث الله مع عسره اليسرا

ويقول :

ســلاماً وبرداً نلتموها بلطفه وجيرانكم بالسيف هاماتهم تفرّى

ويقول :

ولاعذر فى التقصير بعد الذى جرى فما فات فرض الصوم من شهد الشهرا

ويقول :

لقد منّ بالشورى عليكم بمقتضى (وشاورهم بالأمر) إن تحمل الأمرا [1]

ويقول :

يوم تلاقى الجمعان ، وانتصب الميـــزان رهن انحرافه الظفر

ويقول :

فراحت كأن لم تغن بالأمس ، وانقضى لهم كل رِكز غير ذكر معطر [2]

---

(١) هذه الأبيات موجودة فى الديوان ، ص ٣٦ و ٤٠ و ٤٥ و ٥٨ و ٦٦ و ٨٩ و ٩١ و ٩٦ و ١٠٢ و ١٠٣ على التوالى . وقد قال شكيب (وشاورهم بالأمر) وصحة الآية : (وشاورهم فى الأمر) .

(٢) الديوان ، ص ١١٩ و ١٢٤ .

ويقول :

إن الشهيد لحيٌّ عند خالقه وإنما الميت حقاً خائن الوطن[1]

ويقول :

يتخيل الإنسان أبعد مطمح والموت منه مثل حبل وريد

ويقول :

لقد عصفت فى شقة الغرب ريحهم فسادت ولكن لم تكن ريح صرصر[2]

ويقول :

ورماهم بكتائب من كتبه فتطايروا كالحُمُر لاقت قسورا
وافاهم ببلاغة مضرية ما كان معجزها حديثاً يفترى[3]

ولم تكن « الجملة القرآنية » يتألق ثناها فى شعر شكيب — بمبناها أو بمعناها — اتفاقاً أو دون قصد ، بل كان يستضىء بها واعياً قاصداً ، وكأن استضاءته بها فى شعره امتداد مقصود لاستضاءته بها هناك فى نثره ، ولذلك نراه فى رثائه للرافعى سنة ١٩٣٧ يقول :

كثر التفيهق فى الجديد ونهجه كم من تكلم بالجديد وما درى
وعدا رجال يحلمون بأن يروا شملَ العروبة فى البيان مبعثرا
حرجت صدورهم بأن يجدوا من الـ قرآن موردَ أمة والمصدرا
فتقصدوا أن يطفئوا ذاك الضيا وتعمدوا أن يفصموا تلك العرى

---

(١) هذا أحد بيتين قالهما شكيب فى الشهيد عادل النكدى ، ونشرتهما مجلة الزهراء ، عدد شعبان ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م وليسا فى المراثى الموجودة فى الديوان .

(٢) ديوان الأمير ، ص ٥١ و ١٢٤ .

(٣) جريدة الشباب ، ٩ يونيه ١٩٣٧ . والحمر : جمع حمار ، يريد الحمار الوحشى . والقسور : الأسد .

وتغفلوا قوماً أبت أحلامُهم أن تستبين الرُّشد أو تتدبرا
فما بنور الحق آية ليلهم وأرام عنه النهار المبصرا[1]

فإذا كان هناك من حاول أن يفصم بيانَ الأمة العربية عن بيان القرآن باسم الجديد ، فقد حرص شكيب أن يوثّق — مع الرافعي — تلك العرى بين البيان وجملة القرآن .

ومما يرجح أن احتماء شكيب بحمى الجملة القرآنية — كما وجد المناسبة موائمة لذلك — كان أمراً مقصوداً منه ، وكانت له صلته بمقاومته للحركة الداعية إلى إبعاد الجملة القرآنية عن البيان العربى ، أننا لا نجده يكثر الاحتماء بهذه الجملة القرآنية فى ديوانه الأول « باكورة » المنشور سنة ١٨٨٧ ، بينما يكثر هذا الاحتماء كما رأينا فى ديوانه المنشور سنة ١٩٣٥ — وكل الشواهد التى سبقت منقولة من الديوان ماعدا الأخير منها — وذلك لأن « الباكورة » قد ظهرت قبل أن تظهر روح المقاومة للجملة القرآنية ، وقبل أن تثور معركة القديم والجديد على الوجه الذى ثارت عليه بعد ذلك ! .

(١) من قصائده التى جمعناها ، ولم تنشر فى ديوانه . انظر ملحق الرسالة .

محاولة صنع الملحمة

من الظواهر التى نلاحظها فى ديوان شكيب أنه حاول أن يتشبه بشعراء الملاحم ، فصاغ فى ذلك قصيدة عن « معركة حطين » التى كانت بين صلاح الدين الأيوبى والصليبيين ، والتى كتب الله فيها لصلاح الدين النصر المبين ، وكان شكيب قد زار بحيرة طبرية فى شوال سنة ١٣١٩ هـ — ١٩٠٢ م ، وذهب إلى قرية (حطين) التى دارت فيها المعركة ، وشاهد المكان الذى جلس فيه صلاح الدين ومن حوله ملك الصليبيين ورفاقه وجيشه أسارى ، فثارت فى صدره الذكرى ، ونظم قصيدة بلغت مائة وأربعة وأربعين بيتا ، ونشرتها مجلة المقتطف أولا ، ثم مجلة الفتح بعد سنتين ، ثم نُشرت فى كتاب « ذكرى موقعة حطين » ، ثم نشرت فى الديوان[1] .

ويقول عنها مارون عبود : « وللأمير قصيدة رائعة هى بالملاحم أشبه ، قالها فى وصف وقعة حطين ، وهى أبلغ قصائده ، إن لم تكن خير ما قيل فى موضوع كهذا[2] » .

وفى هذه القصيدة كثير من الأبيات الرائعة ، فشكيب بعد أن يذكر فى الأبيات الأولى منها أسماء مياه وأماكن كثيرة يتخلص إلى الحديث عن أرض المعركة وجوها وذكرياتها المضمخة بالجلال والتقديس ، فهو يتحدث مثلا عن « بحر الجليل » وهو بحيرة طبرية ، والأرض الممتدة منها إلى حيفا تسمى « أرض الجليل » ، تتوسطها بلدة « الناصرة » التى وُلد فيها عيسى عليه السلام .

---

(١) ذكرى موقعة حطين ، ص ١٨ ، وديوان الأمير ، ص ١١٢ ، ورواية الديوان تقول إن شكيب زار طبرية سنة ١٣٢٠ ولكن كتاب « ذكرى موقعة حطين » يذكر أنه زارها فى شوال ١٣١٩ فهل استمر شكيب هناك من شوال هذا إلى أن بدأ عام ١٣٢٠ ؟ .

(٢) رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٣ .

ولذلك يفنّ شكيب فى إيراد الذكريات المتعلقة بالمسيح فى هذا المكان، فيقول فى روعة وبراعة :

بحر الجليل الذى شواطئه فى كل شبر من رحبها أثر
غذا دماء المسيح موردُه وراقه منه ريقه النضر
وبين أمواجه وأربعه كانت تجلى آياته الكبر
كم فيه للكاتبين من سِيَر وكم نبيين فيه تذّكر
عيسى حواريه وصفوته والناس من حول وعظه زمر
والصائدون الألى له اتبعوا هدى ، وذاك الشراع منتشر

وكأن شكيب يريد أن يقول إن التخريب المدمر الذى أقبل به وباء الصليبية الغربية لا يلتئم مع جلال الذكريات التى يثيرها المكان وتتعلق بتاريخ المسيح نبى السلام عليه السلام ، فكيف يحاول هؤلاء أن ينتسبوا إليه ، وهم يخربون بلاداً شهدت خطاه وهداه ؟ .

وكأن شكيب يريد أن يقول إن النكبة بالحروب الصليبية ليست بمقصورة على المسلمين ، بل هى تعم المسيحيين والمسلمين ، ولذلك بدأ بالذكريات المسيحية ، ثم أتى بعد ذلك بذكر الإسلام حيث قال :

وقيل دار الإسلام قد حصرت وحف باقى بلاده الخطر

وفيما بين حديثه عن المسيحية وحديثه عن الإسلام يشعرنا بأن الاعتداء على هذه البلاد التى انبثقت فيها أشعة الهدى وتنزلت عليها رسالات السماء ، اعتداء على أديان الله كلها ، فهى بلاد فيها لموسى وقومه ذكريات :

وقوم موسى لهم بساحتها مركع صدق وأدمع غزر

ومن بعد موسى أنبياء لهم ذكريات :

وكم نبىّ فى ذى البلاد قفا موسى ، وكم مرّ من ههنا الخضر

ويصور شكيب بطولة صلاح الدين وكيف

أقبل فى جحفل له لجب يطلب ثأر الدين الذى وتروا

ويتحدث عن جهاده وعفوه وكرمه ، وعن النصر العظيم الذى كان ، وكيف بقيت ذكرى صلاح الدين خالدة :

والفضل يحيا من بعد صاحبه والذكر يبقى ، ولو عدت غِيَرُ

ويختم شكيب قصيدته ببيت فيه تعريض بقومه ، لأنهم اكتفوا باجترار الذكريات ، والسمر بها ، دون أن يعمل الخلف كما عمل السلف ، فيقول :

ونحن من بعد كل ذاك وذا لم يبق إلا الحـديث والسمر !

* * *

ولشكيب قصيدة أخرى قريبة فى هدفها من قصيدة حطين . فقد زار شكيب الأندلس سنة ١٩٣٠ ، ورأى فيها بقايا مازالت قائمة من ذلك المجد العربى الإسلامى الباذخ الذى كان لقومه يوم كانوا أهلاً له وجدراء به ، وهى قصيدة طويلة النفس أيضاً ، زادت على مئة بيت(١) .

وبعد أن يتحدث شكيب فى أولها عن الذكرى وثورتها وإيقاظها لمشاعر الإنسان ، يرصد لنا فى تركيز وإيجاز « قائمة المفاخر والمآثر » التى كانت لقومه فى الأندلس ، ومع ذلك ذهبت أدراج الرياح ، ولم يبق منها إلا الذكرى .

يقـــول :

وكائنة لم يعرف الدهر أختَها ولا حدَّثت عن مثلها كُتُبُ مخبرِ

يكاد الذى يقرا غريب حديثها يظن خيالا ، أو أحاديث مفتر

يقولون : كانت أمة عربية بأندلس سادت بها جَمَّ أعصر

وقد عمرت أقطار أندلس بهم فكم بلد فخم ، ومصر ممصر

(١) ديوان الأمير ، ص ١٢٢ — ١٢٨ .

وكم عالم يلقى على الجمع درسه وكم واعظ يمرى مدامع محبر
وكم ملك ضخم ، وكم من خليفة هنا كان يجثو عن جبين معفر

ويصف أساطين المسجد ، ويفتن فى تصويرها ، كما وصف المحراب والقبة ، ثم انتقل إلى ذكر قصور قرطبة وعمارتها ، ويعود إلى العلة التى أضاعت كل هذا ، وهى الخلاف :

محا الخلف من أوضاعهم كلَّ نافع وصوح من أعمالهم كل مثمر
ولم يستفيدوا من تقاطع بينهم سوى عيشٍ ذل تحت نقمة موتر

وينتهى شكيب إلى آخر قصيدته وهو مغمور بطوفان الذكرى ، قائلا :

إذا حضرت آثار قومى ، وإن خلوا فإنى منها فى قبيل ومعشر
وأشعر أنى فى بلادى ، كأنما تخاطبنى الأرواح من كل مقبر !

وحينما حاول شكيب فى هاتين القصيدتين أن يصوغ « الملحمة » كان يحاول ذلك عامداً قاصداً فيما يبدو ، وذلك لأنه صديق شوقى ، والمعجب به ، والمعارض لقصائده فى بعض الأحيان ، وهو يقرر أن عظمة شوقى تتجلى فى شعر الملاحم . فلماذا لا يلقى شكيب بدلوه مع شوقى ؟ ولماذا لا يقول الملحمة كما قال شوقى ملاحم ؟ .

يقول شكيب فى كتابه عن شوقى :

« وقد آن لنا الآن أن نصف من شعر شوقي القسم الذى هو فيه الشاعر الفرد ، والأسد الورد ، وهو شعر الملاحم EpipuE أو الشعر التاريخي الذى بذّ فيه الأولين والآخرين ، وسما وحلق فى عيون جميع الناظرين ، وإنى برغم عصبيتى لصديق محمود سامى باشا البارودى ، أقول إنه قد فاته هذا الغرض ، ولم يقيض الله له هذه الفتوحات التى قيضها لشوقى ، والتى ضارع فيها شعراء الإفرنج ، وكفّر عن سيئاته فى المديح ومبالغاته ، إن كان لا بد أن يحسب ذلك عليه من السيئات » (١) .

(١) كتاب « شوقى » ، ص ١٧٨ .

ويعمل شكيب من ملاحم شوقى قصيدته « كبار الحوادث فى وادى النيل » ومطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء   وحداها بمن تقل الرجاء

وأطال شكيب فى التعليق عليها والتمجيد فيها ، حتى استغرق فى ذلك عشرين صفحة من كتابه .

ثم ينتقل شكيب إلى التصريح بأنه صاغ قصيدته فى « معركة حطين » على أنها ملحمة ، فيقول عن نفسه : « ولراقم هذه السطور قصيدة فى صلاح الدين ، هى من شعر الملاحم ، نظمتها إذا أنا فى طبرية سنة ١٩٠٢ » (١) .

ثم أخذ يستعرض القصيدة ويعلق عليها ، ويورد الذكريات التاريخية التى أشارت إليها ، حتى يكاد يفعل معها ما فعل مع قصيدة شوقى ، وكأن هذا إيحاء بأن القصيدتين تجريان فى قرن ، مع أن قصيدة شوقى تسبق قصيدة شكيب بمراحل .

ومما يشبه التناقض أن حديث شكيب عن قصيدة « كبار الحوادث فى وادى النيل » يشعر بأن شكيب يعتبرها أحسن قصائده فى الملاحم ، حتى إنه قال عن طائفة من أبياتها : « فلو قلت إن كل ما قاله شوقى فى باب المديح وباب الرثاء وباب الحكايات لا يوازى هذه الأبيات لم أكن مبالغاً » (٢) .

ولكنه فى موطن ثان يقول : « ولا مراء فى أنه لم يقل شوقى من شعر الملاحم أعظم من قصيدته البائية فى الحرب العثمانية التى أولها :

(بسيفك يعلو الحق والحق أغلب)   فإنها القصيدة الغراء ، واليتيمة العصماء ، والكلمة التى طارت فى الآفاق ، فخلقت فوق المحلقات » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

مدائح للسلطان والدولة

من الظواهر التى نلاحظها فى شعر شكيب أمداحه فى السلطان عبد الحميد وفى الدولة العثمانية ، وهو يبدأ هذا المديح من صغره ، منذ كان تلميذاً فى مدرسة الحكمة ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، حيث يختتم قصيدة أنشدها فى المدرسة بقوله :

كفى عصركم فخراً وعزاً إذا ادعى ... أمير الورى عبد الحميد المعظما
ليجهد فى استرجاع رونق شرقنا ... وتجديد ما من مجده قد تهدما
فلا زال فى عصر الخلافة قائماً ... لما اناد من أمر العباد مقوما
ينث عليه الخافقان بعدله ... ثناء جميلاً بالدعاء مختما[1]

وينتقل شكيب إلى المدرسة السلطانية ؛ ويقول فى السنة نفسها قصيدة أخرى فى المدرسة ، يختمها بأربعة عشر بيتاً فى مدح السلطان ، يبدؤها بقوله :

سلام على السلطان ، أما مراحه ... فنفع ، وأما شغله فالمظائم
سليل بنى عثمان ، أما جداؤه ... فغيث ، وأما عزمه فلهاذم

وينهيها بقوله :

يعيد لنا عز الخلافة عهده ... ويغتبط الإسلام إذ هو سالم
تضىء على الدنيا مطالع شكره ... وتعطر فيه بالدعاء الخواتم[2]

وظل شكيب يمدح السلطان والدولة بعد الباكورة ، ففى ديوانه نجد كثيراً من هذه الأمداح ، حتى إنه يخصص لها القسم الرابع من الديوان ، ويعنونه بعنوان : « فى المدائح السلطانية وشئون السياسة العثمانية » . ومن هذه الأمداح قوله :

---

(١) الباكورة ، ص ١٠ . وينث : ينشر ويذيع .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

يا ملك أمير المؤمنين ، ولا تزل   تُعطَى مناك ، وما تريد يكون
في دولة غــراء عثمانية   متكنفاها النصر والتمكين

وقــوله :

كل يوم له صنائع تترى   في البرايا لباسهن الدوام
يكفل الناس مثلمـا يكفل الغبـــراء غيث له عليها انسجام[1]

وغير ذلك في الديوان كثير .

وشكيب حين يمدح السلطان والدولة كان يمضى على العادة الشائعة في عصره ، وكان يمدح وهو يعتقد أنه يعظم بمدحه خلافة الإسلام وسلطان المسلمين ، ولكنه غالى في مدحه ، حتى أثار عليه كثيراً من نقاده ، وهذا هو الدكتور أمجد الطرابلسي في كتابه « شعراء الحماسة والعروبة في بلاد الشام » يحمل حملة صريحة على أمداح شكيب ، فيذكر أن شكيب كان يمثل الاتجاه الرسمي أو العثماني في شعره السياسي ، ويورد أبياتاً من مدح شكيب في السلطان ، منها قوله :

لحبك ذا شرعي وعرفي ومذهبي   ومدحك ذا فرضي ووترى وواجبي

وأبياتا أخرى منها قوله عن الموقف في حضرة السلطان :

موقف تخشع النواظر فيه   وتسوى الرءوس والأقدام

ثم يعلق على ذلك بقوله : « لست واثقاً أن هذا الشعر يصوِّر إيمان صاحبه حقاً بما يقول ، فهل صحيح أن رجلا كشكيب أرسلان يستوى رأسه وقدماه على عتبة السلطان عبد الحميد ؟ وهل صحيح أن أحساب آل عثمان لا تطاولها أحساب عصبة أخرى ؟ وهل يجوز في شرعنا أن يخاطب خليفة بمثل هذه اللهجة المؤلهة :

لحبك ذا شرعي ، وعرفي ، ومذهبي

ومدحك ذا فرضي ، ووترى ، وواجبي

(١) الديوان ، ص ٩٠ و ٩٦ .

وهل كان يجهل الشاعر مظالمَ عبد الحميد التي لم يكن يجهلها أحد ؟ . لا ، ولكن الشعر الرسمي المبتذل ، الذي لا يستمد معانيه من حقائق العصر الذي يعيش فيه قائله ، بل من معاني شعر المدح والتملق في عصوره الذهبية البعيدة التي كان الشعراء فيها ملكَ أصحاب القصور ، يغلون في مدحهم ، وينطقون بلسانهم ، ليقتاتوا من فتات موائدهم ، دون أن يتحسسوا بوجود الشعب من حولهم »[١] .

وحينما يعلن عبد الحميد الدستور في ٢٤ تموز (يوليه) ١٩٠٨ يصوغ شكيب قصيدة في مدح السلطان ، يذكر فيها أن الدستور نعمة كبرى من السلطان رب العرش ، وأن الخليفة ظل الله في الأرض ، وأن الناس نالوا الحياة بسبب نعمته ، وأن عوارفه وأياديه على الإسلام لا تقبل الحصر[٢] .

ولكن شكيب لم يذكر شيئاً عن ثورة الجيش العثماني من أجل الدستور ، ولا عن ضغط الضباط الأحرار أمثال أنور ونيازي وشوكت لإصدار الدستور ، ويتجاهل شكيب ضغطَ الشعب الذي أدّى إلى غضب الضباط .

ويتمنى الطرابلسي أن يفعل شكيب ما فعله شوقي حين قال في المناسبة نفسها :

بشرى البرية دانيها وقاصيها حاط الخلافةَ بالدستور حاميها

الرأى رأى أمير المؤمنين إذا حارت رجال وضلّت في مراعيها

وإنما هي شورى الله ، جاء بها كتابه الحق يعليها ويغليها

حقنت عند مناداة الجيوش بها دم البرية إرضاء لباريها

فشوقي أشار إلى الدستور وهو « شورى الله » التي جاء بها القرآن الكريم ، ونوه بمكانتها ، وذكر أن الجيش قد نادى بالدستور ، وأن الخليفة أصدره لحقن الدماء[٣] .

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة في بلاد الشام ، ص ١٠ .
(٢) ديوان الأمير ، ص ١٠٢ .
(٣) شعراء الحماسة والعروبة ، ص ٢١ و ٢٢ .

وقد يقال هنا إن شكيب أيضاً قال فى آخر قصيدته :

نهد من ° بالشورى عليكم بمقتضى • وشاورهم فى الأمر • إن تحمل الأمرا

ولكن هذا جاء مقترناً بالمنّ والهبة فأضعف الإشارة ! .

ونلاحظ أن شكيب على الرغم من أمداحه الكثيرة فى الخليفة والدولة ، لم يقل شيئاً من شعره فى انتقاد ما وقع من أخطاء العثمانيين ، ولم يتوجه إليهم فى شعره بنصح أو إرشاد ، مع شيوع الأخطاء وظهور الانحراف ، وربما قيل إن شكيب كان يذكر نصحه وإرشاده فى كتاباته ومراسلاته حينما اتسعت مسافة الخلف بين الترك والعرب ، ولكنه لم يصرح بهذا النصح إلا متأخراً ، وكان الأنسب أن يضمن شعره شيئاً من هذا التوجيه ، ما دام يحشده بهذه الأمداح فى الخليفة والدولة .

ومن الإنصاف أن نستمع إلى دفاع شكيب عن المدح .

يقول فى كتابه عن شوقى : « وقد عاب بعضهم على شوقى قضاءه عمره فى مدح الأمير ومدح السلطان ، والإشادة بذكر ذوى السلطة ، وربما عابونا نحن أيضاً لمثل ذلك ، وغمزوا بالكثيرين الذين وقفوا أشعارهم على مدح الأمراء والملوك ، وزعموا أن فى ذلك دليلا على طلب الزلفى أو التماس الجائزة »[1] .

ويجيب شكيب على هذه المؤاخذة بأن عادة الملوك فى الشرق والغرب جرت باصطفاء شعراء لهم ، يشيدون بذكرهم لبصان وقار الملك وسنام العرش . حتى لو لم يكن الملوك لذلك المدح أهلاً ، لأن الكلام هنا « إنما هو للمقام لا للمقيم ، وأن المقام إنما هو رمز الأمة وعنوان الملة . ثم قد شاءت الأقدار فى أخريات الزمان أن يدخل الضعف على الدول الإسلامية بأجمعها ، وأن تغلظ شوكة الأجانب الغربيين بين

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٢٤ .

أيديها ومن خلفها ، وأن تحيط بكثير منها ، وتاخذ على أيدى ملوك الإسلام ، فلا تبق لهم سوى الرسوم والألقاب ، ويتغلغل نفوذ الأجانب فى هذه الحكومات المغلوبة على أمرها ، فتصير الأمة التى فى مثل هـذا الموقع — وقد أخذ الأجانب بخناقها — تتطلع إلى أميرها الأصلى ، وتعزز من مقامه ، وتضاعف من إجلاله ، بناء على أنه هو رمز استقلالها الوحيد ، فالمبالغة فى إجلال هذا الرمز إنما هى المبالغة فى حفظ الاستقلال نفسه »[١] .

هكذا يقول شكيب ، وقد يكون من حقنا أن نقول له : إن دفاعك هذا مقصور على مدح أمراء الدول المقهورة المغلوبة على أمرها ، فما رأيك فى الأمداح التى قيلت فى الخليفة والدولة ، حين كان الخليفة قوى الركن شديد البأس ، وحين كانت الدولة عزيزة الجانب ؟ .

ثم يرى شكيب أن المدح لمثل الخليفة من قبيل « الصارخة القومية ، والنزعة الإسلامية ، والنضح عن حوض الخلافة ، والذود عن بنيان السلطنة ، وهذا أشبه شىء بالدعاء الذى يقال فى الجوامع نهار الجمعة ، استنزالا من عند الله لنصر سلاطين الزمان »[٢] .

ويقال لشكيب إن الدعاء للخليفة فى خطبة الجمعة — عند من يجيزه — مقصور على طلب التوفيق له من الله ، لا أن تكال له الأمداح الواسعة الفضفاضة .

وإذا كان شكيب يريد اعتبار هـذه الأمداح من قبيل « الدعاء » فهذا اصطلاح له يحتاج إلى من يسلم به ، لأن هناك فرقاً كبيراً بين الدعاء ، وهو رجاء من الله ، والمدح المتضمن الحكم بصفات تحتاج إلى مراجعة .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

ومن العجيب أن يقول شكيب بعد هذا إن « هؤلاء الملوك والأمراء يبرّون براعم ويغمرونهم بالنعم الجسام ، ويحسنون إليهم بأنواع الإحسان ، والنفوس مطبوعة على حب من أحسن إليها [١] ». وبهذا يسوغ شكيب هذا الأمر ، مع أن هناك فرقاً كبيراً بين أن يشكر الإنسان يد من أحسن إليه بقصير أو طويل من الثناء ، يدور حول هذه اليد وحدها ، وأن يضفى الشاعر على الممدوح ألقاباً مزورة وصفات كاذبة ، تتعلق بالحياة والحكم والإصلاح وغير ذلك .

وكأنما أحس شكيب بعد قليل بأن حجته هذه واهية ، ولذلك قال : « وأما أنا فقد كان أكثر فرارى من الشعر خشية أن يظن بى مزاولته تكسباً لا تأدباً ، وذلك لكثرة الشعراء الذين سلكوا تلك الشعاب [٢] » .

وهذا الكلام يتضمن استقباح شكيب لأمداح التكسب ، فكيف نوفق بينه وبين تسويغه مدح الشعراء لمن يعطونهم وقوله فيما سبق إن النفوس مطبوعة على حب من أحسن إليها ؟ .

ويعود شكيب إلى الدفاع عن المدح بمثل ماسبق [٣] ، وكأنه يعاود الدفاع عن نفسه ، لأن له أمداحاً كثيرة فى الخليفة وفى سواه ، وله مراثٍ ، ومن السهل اعتبار المراثى من باب المديح .

وليت شكيب وهو يدافع عن المدائح بهذا الإسهاب وهذه المعاودة ، تذكر أن البارودى إمامه وقدوته فى الشعر هو القائل :

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

الشعر زين المرء مالم يكن ... وسيلة للمدح والذام

قد طالما عز به معشر ... وربما أزرى بأقوام

فاجعله إما شئت فى حكمة ... أو عظة ، أو حسب نام

واهتف به من قبل تسريحه ... فالسهم منسوب إلى الرامى

وشكيب نفسه قد استشهد بهذه الأبيات فى موطن غير بعيد من موطن دفاعه عن المدح[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

التكسب الأدبى بالشعر

لقد كرر شكيب النص على أنه لا يقول الشعر تكسباً ، ولا يمدح تطلباً للعطاء .

وقد نوافق شكيب على أنه لم يتطلب بشعره أو مدحه كسباً مادياً ، فله من يساره وجاه أسرته ما يغنيه ، ولكن شكيب كان يتكسب بشعره تكسباً أدبياً .

فهو يتعرض بالمراسلة أو المساجلة أو المعارضة لطائفة من الشعراء ، كالبارودى وشوقى وفكرى وصبرى ، لينال — وهو فى شبابه — ذلك المجد الأدبى الناشىء عن الاتصال بأعلام البيان وعمالقة الشعر فى عصره .

ومن هؤلاء العمالقة فريق يمدحون الخليفة والدولة ، فلم يكون أقل منهم شأنا ؟ ولم لا يمدح الخليفة والدولة كما مدحوا ؟ .

إنه يتعرض للبارودى منوهاً ومراسلاً ومساجلاً ليسمع منه مثل قوله فى شكيب :

هو ذلك الشهم الذى بلغت به ... مشكاته حدَّ السماك الأرفع
نبراس داجية ، وعقلة شارد ... وخطيب أندية ، وفارس مجمع
أحيا رميم الشعر بعد همودِه ... وأعاد للأيام عهد الأصمعى
كَلِمٌ لها فى السمع أطرب نغمة ... وبحجزة الأسرار أحسن موقع[1]

ومثل قول البارودى فى شكيب :

فتى يسمح الزمان فألقى ... بشكيب ما فاتنى من مرام؟
هو خلٌّ لَبِستُ منه خلالاً ... عبقات كالنَّوْر فى الأكمام
صادق الودِّ لا يخيس بعهد ... وقليل فى الناس رعى الذمام
جمعتنا الآداب قبل التلاقى ... بنسيم الأرواح ، لا الأجسام[2]

(١) ديوان الأمير ، ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦ و ١٧ .

وما يكاد الشيخ محمد عبده يشير على شكيب بإرسال باكورته إلى عبد الله باشا فكرى حتى يسارع شكيب إلى موطن من مواطن التكسب الأدبي. فيرسل الديوان ومعه قصيدة يقول فيها لفكرى باشا :

جعلتُ القول فى سيف ورمح وعفت النظم فى قدٍّ وخصرِ
فإنى عاشق غُرَرَ المعالى ولى نفسٌ فداؤك نفسُ حرٍّ
إذا فكرت يوماً فى كلام يكون بمدح « عبد الله فكرى »[1]

وينال شكيب ما تمنى، فتأتيه قصيدة ثناء من فكرى ، وفيها يقول عن شكيب:

تعلق قلبه من عهد مهد بكسب المجد مجتنباً لخسْرِ
وأولع بالمعالى والمعانى ونظم الشعر ، لا لطلاب وَفْرِ
ولا لصَبَابة فى ورد خد ولا لصُبَابة من خمر ثغر
ولا مستبطنا وعدا لدعد ولا مستبطنا أمراً لعمرو
ولكن لاقتناص شَرودِ معنى يعنٌ ، وحكمة تبدو ، وسر[2]

ويصوغ شكيب فى خليل مطران قصيدة مطلعها :

لك يا خليل من القلوب مكان هو فوق ما بسمائه كيوان
لم يختلف أحد عليك كأنما لك كل أرباب النهى خلان[3]

ويكسب شكيب كسباً أدبياً فتعمق المودة بينه وبين مطران ، ويثنى عليه مطران ، حتى يصدِّر له ديوانه ، ويصفه بأنه إمام المترسلين ، ومالك اللغة ، وصاحب اللآلىء المنظومة فى بحر محشود باللآلىء المنثورة .

ويصرح شكيب عن طموحه إلى المجد ، وتطلعه إلى هذا التكسب الأدبى ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤١ .

فأنا عليك إلى نزولى فى الثرى   أذكى الأنام أسىً ، وأبكى محجر[1]

ويثنى على شكيب أحد أصدقائه — وهو الحاج شافعى عبد الهادى — فيعجب شكيب بالثناء ، ويعده كسباً أدبياً ، ويقول لصديقه فى قصيدة :

أهديتنى غــرر الثنا   ء ، ففزت بالشرف المؤبد

حسبى شهادتك التى   أزهو بها فى كل مشهد

دُرَرٌ بها جيدى غدا   متقلداً عقــداً منضد[2] !

(١) مجلة الشباب ، ٩ يونيه ١٩٣٧ ، وجريدة منبر الشرق ، ١٣ مايو ١٩٥٥ . والأبيات مما جمعناه من شعر شكيب وليس فى ديوانه .

(٢) مجلة الشباب ، ٣٠ يونيه ١٩٣٧ ، وجريدة منبر الشرق ، ٣ يونيه ١٩٥٥ . والأبيات مما جمعناه من شعر شكيب وليس فى ديوانه .

الرثـــاء

وفى شعر شكيب مراث كثيرة بالنسبة إلى حجم شعره ، وإذا كان حافظ إبراهيم قد قال :

إذا تصفحت ديوانى لتقرأه   وجدت أن المراثى نصف ديوانى

فشكيب أحق بهذا القول ، لأن المراثى فى الديوان إذا أضيفت إلى المراثى التى نشرت بعد الديوان تبلغ نصف شعره أو أكثر .

ولا عجب أن يكثر شكيب من الرثاء ، وأن يجيد فيه ، « فقد كان ذا وفاء نادر لصحابه وإخوانه ، فإذا فجعه الدهر فى واحد منهم لجأ إلى القريض يبثه عاطفته ، ويشكو إليه تباريحه ، والواقع أن دموعه الشعرية قد بينت لنا كيف يحافظ الصديق المثالى على مودة صديقه ، إذ يفى له أصدق وفاء فى القرب والنزوح »[1] .

ومن الشعر الرائع لشكيب قوله فى رثائه للشدياق :

للموت حتم ، والمسافة بيننا   نزر ، وما من قادم ببعيد
يتخيل الإنسان أبعدَ مطمح   والموت منه مثل حبل وريد[2]

ومنه قوله فى رثاء الرافعى ، مشيراً إلى أعدائه :

قد يحرقون عليه من حسد ، ومن   بغض ، ولكن يحرقون العنبرا
مازال فى الأدب النزيه مبرزا   حتى إذا شهد السفاهة قصرا

وقوله يصف قلم الرافعى :

من أسرة القصب الضعيف ، وفعله   فى الخطب يهزأ بالحديد معصفرا[3]

---

(1) مجلة الرسالة ، ٢٢ ديسمبر ١٩٤٧ .
(2) الديوان ، ص ٥١ .
(3) جريدة منبر الشرق، ١٣ مايو ١٩٥٥

ولقد كان معاصرو شكيب يستحسنون مراثيه ، ويتناشدونها معجبين بها .
يقول مارون عبود :

« وأول ما أذكره من شعر شكيب هو رثاؤه للبارودي ، وقد كان الشيخ رشيد تقي الدين إمام حلقتنا المكاظية يتبجح بهذه القصيدة ، ويردد مطلعها :

يا ناظريّ ، ألآياً تذرفان دماً أهكذا عهدنا أن نحفظ الذمما ؟

ويطفى رشيد إذ يبلغ هذا البيت ، حتى تخاله الفرات وقد زعزعته رياح الصيف :

فانعوا لنا الشعر والآداب قاطبة معه ، وقولوا لشوقي : إنه يتما

ثم ننتقل إلى قصيدة حافظ إبراهيم في رثاء محمود البارودي أيضاً فنتمنطق بمطلعها :

ردّوا عليّ بياني بعد محمود إني عييت ، وأعيي الشعر مجهودي

فنرى في حافظ رشاقة ، كما رأينا في شكيب متانة ، ونرى في (لآيا) بمطلع قصيدة الأمير ما يذكرنا بالنابغة ، فتعلو كفته على كفة حافظ ، تلك كانت عقليتنا » (1) .

ويذكر أحمد عارف الزين أن مراثي شكيب كانت تُنشد فتشجي وتثير ، وأن الشيخ ديب بيضون كان كالمتخصص في إنشاد المراثي ، وأنه أنشد ذات يوم قصيدة شكيب في المرحوم أحمد باشا الصلح — وهي ليست في الديوان — فأشجى بها سامعيها ، حتى إن شكيب نقده عشر ليرات عثمانية (2) .

---

(1) رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٠ .

(2) مجلة العرفان ، عدد صفر ١٣٦٦ هـ — كانون الأول ١٩٤٦ . وقد ذكر الزين أن شكيب رثى سعد زغلول ، ولكن هذه القصيدة ليست بالديوان أيضا .

المواعـــظ

وفى شعر شكيب كثير من النظم الوعظى ، وقد عجبت حين وجدت صلاح لبكي، يقول

«إن الشعر العربي فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين يكاد يكون خلواً من المواعظ »[1] .

وذلك لأن فى شعر شكيب الكثيرَ من شعر المواعظ ، وفى « الباكورة » التى صدرت فى أواخر القرن التاسع عشر مواعظ متعددة ، نأتى على جانب منها :

يقول شكيب مثلا :

لكن على المرء عرك الدهر طاقته ... ولو تحمل ذو الهمات كل شـــقا
«حب السلامة يثنى عزم صاحبه» ... فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا[2]

ويقول :

تقابلت الأمور فـكل مُرٍّ ... يعاقبه اللذيذُ المســتطاب
ولولا المر لم تشعر بعـــذب ... ولولا العذب لم يشعرك صاب
وكل صعوبة فلها سهول ... وكل سهولة فلها عقــاب
وكل بداية فلها ختام ... وكل جريمة فلها عقــاب
أما لو لم يكن طرفَىْ نقيضٍ ... لمـا قيل الخطاب له جواب
وأفضل ذى شروع من تراه ... يقارن رغب مبدئه الصواب
ومن طلب الصواب ولم يقابل ... وجوه الأمر أعجزه الطلاب

---

(1) لبنان الشاعر ، ص ٦٣ .
(2) الباكورة ، ص ٧٥ .

ومن عدم الصواب وقد نحاه | بأحسن ما يجد فلا يعاب
ومن خاض العباب بقصد ربح | فإن الدر ما ضم العباب
ومن طلب الأمور بغير جد | سيدركها إذا شاب الغراب
ومن حسب الحياة مدى طويلا | يكذب ظنه الأجل القراب
إذا ولى شباب المرء يوماً | فليس يعيد صبوته الخضاب
« ألا ليت الشباب يعود يوماً » | تقول ؛ وإنما ذهب الشباب
فلا يشغل فؤادك فى شباب | عن العمل السماع أو الشراب
ولا يقعدك عن عمل فراغ | ولو لم يعقب العمل اكتساب[1]

ويقول :

وتلقون الألى صلحوا أخيرا | بجنات الإله يتمتعونا
أولئك هم على هدى قويم | وهم عند المعاد المفلحونا
وأما الكافرون بمن براهم | فذرهم فى الضلالة يعمهونا
لئن أنذرتهم أولا سواء | عليهم ، إنهم لا يؤمنونا
ومن كانوا على الإدراك منهم | بآيات الإله يكذبونا
وقالوا : لا كتاب ، وإن هذى | أساطير الأنام الأولينا
وكانوا يسمعون الحق ، لكن | أرادوا أن يكونوا معرضينا
ومن تخذوا المراء لهم حليفا | وكانوا للإله مخادعينا
وقالوا : نحن آمنا . وكانوا | يقولون الذى لا يفعلونا
فسوف يرى انتقامُ الله منهم | بما ظلموا وكانوا يعتدونا
وسوف يحاق من سخروا بحق | بما كانوا به يستهزئونا[2]

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٠ و ٨١ .
(٢) الباكورة ، ص ٨٩ ، وللأبيات بقية فى نفس المتن ، والقصيدة كلها محذوفة من طبعة الديوان .

ويقول عن الموت :

تنبهوا يا عباد الله وادّكروا على الجميع بهذا قد جرى القدر
يفنون طراً بتقدير الحكيم ، ولا يبقى سوى صالح الأعمال يدخر[1]

ومراثي شكيب تتضمن الكثير من المواعظ والحكم[2] .

* * *

ومن المآخذ التي نأخذها على مراثي شكيب ما يقع فيها من تشابه وتكرار في اللفظ والمعنى ، يقول في رثائه لشوقي :

تغدو المعاني العصم شُمْسَ مقادة فيقودها قودَ الغلام لشاته

ويقول مثل هذا في رثائه للرافعي :

وترى المعاني كالشياه مقادة بينا تكون من الجآذر أنفرا

ويقول في رثائه لشوقي :

هيهات يوجد في البرية منهم كفؤ ليرثيه بمثل لغاته

ويقول في رثائه للرافعي :

هيهات يطمع طامع في (المصطفى) إن صال في يوم العراك وهدرا

ويقول في رثائه لشوقي :

ياراحلا ملأ الزمان بدائعا من قبل أن نزل القضا بسكاته

ويقول مثل هذا في رثائه للرافعي :

ملأ الزمان بدائعاً وروائعا بقريحة تحكى الغمام الممطرا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩١ .
(٢) أنظر الباكورة مثلا في ص ٦٠ و ٦٨ و ٧٠ .

وقد تسيطر عليه لغةُ الباحث المؤرخ الراصد وهو يرثى ، كما فعل فى رثائه لأحمد تيمور ، إذ خصص أبياتاً لسرد الكتب التى عُنى بها تيمور ، أو علق عليها ، ويرى هذه الكتب أقل من علم تيمور ، فيقول :

أقام « لسان العرب » مما هوى به ولولاه حتما ما أقيلت عواثره

ولو كان فى عصر المؤلف لم يكن لديه « ابن منظور » بكفء يناظره

ولو أنه وافى « الصحاح » مصححاً غلت فوق عهد « الجوهرى » جواهره

وكان كتاب « العين » قد غاب جملة عن العين لو أن « الخليل » معاصره

ولو كان فى « القاموس » لجّ ما طما وما كان إلا كالرقارق زاخره

ولو أن رب « التاج » عاش بعصره لحل من التاج الذى هو ضافره

ولو شمل « المصباح » يوماً بنقده لخلاه ملقى ليس يزهر زاهره [1]

أما كان يكفى أن يصور شكيب مراده فيقول : إن علم تيمور اللغوى أكثر من علم أصحاب المعجمات فيوجز ويركز فكرته ، ويكون أقرب إلى أسلوب الشاعر ؟ .

---

(١) الديوان ، ص ٨٠ .

الهجاء

وما دمنا قد تعرضنا لمدح شكيب ورثائه — والرثاء لون من المدح — فلنذكر موقفه من الهجاء. إذ نلاحظ أن شعر شكيب يكاد يكون خلوا من الهجاء، وإن تخلله نقد لبعض الأشخاص.

وشكيب يقول: «من أقبح ما قبّح سمعة الشعراء، وجعل الخلق ينظرون إليهم بعين الريبة، أن كثيراً منهم رتعوا في لحوم الناس، وسيّروا المثالب التي قد تكون بلا أصل، أو يكون لها أصل ضعيف، ولكن الناس حفظوها وتدارسوها لبداعة قوالبها خلفاً عن سلف، حتى انتهى الأمر بأن صدقوا فحواها، وصارت في نظرهم وقائع تاريخية»[٢].

وحدّث شكيب عن نفسه في مقدمته الطويلة لكتاب «النقد التحليلي» للغمراوي، فقال:

«كنت مرة في جنيف أزور أحد الشرقيين، فحانت مني التفاتة إلى مجلد مخطوط على منضدته، ففتحته فوجدت فيه أبياتاً شعرية منتخبة، ومن جملتها بيتان قيلا في هجو أحد أمراء الشرق ممن ليس اليوم على عرشه، وفي هذين البيتين بذاءة زائدة، وما راعني إلا أن رأيت اسمي تحتهما.

فغضبت وقلت لصاحب المخطوط: من أنشدك هذين البيتين الساقطين؟ ومن قال لك إنهما من نظمي؟. فقال لي: لا أتذكر من قال لي ذلك، وإنما هكذا سمعت.

قلت له: أنا في حياتي كلها ما هجوت مخلوقاً ولا هجواً بسيطاً، فكيف أنزل إلى قاذورات كهذه؟.

---

(٢) كتاب «شوقي»، ص ٢٧.

وفى الحال ضربت على اسمى الموضوع هناك إفكاً وزوراً » .

ثم يذكر حادثة مماثلة عن قصيدة أخرى ويقول : « إنى كنت ساخطاً على نظمها وعلى شيوعها ، لأنى أعد الهجاء من باب نضح الإناء بما فيه ، وتصوير الإنسان لنفسه ، فالهاجى عندى هو المهجو بعينه ، ولو كان كلامه صحيحا »[1] .

ويعد شكيب من حسنات شوقى أنه لم يلوث شعره بالهجاء ، فقد عصمه الله من ذلك ، ومن مآثره « أنه لم يستمطر عارض خاطره فى تقييد شتماء أو تخليد صلماء » ، ويتفق شكيب بأن شوقى كان عفاً طاهر اللفظ صافى النفس ، تنعكس على مرآة نفسه النقية المحاسن دون القبائح ، وينوه شكيب بقول نصيب الشاعر : « ماقلت بيتا قط تستحى الفتاة الحيية من إنشاده فى ستر أبيها »[2] .

نرى إذن أن شكيب يكره الهجاء ، ولا يرتضيه ، ولذلك لم يقل فيه ! .

---

(١) النقد التحليلى ، ص ج من المقدمة .

(٢) كتاب شوقى ، ص ٢٧ .

الصورة الشعرية

في أثناء الحديث عن شكيب الشاعر تعرضت للكلام عن أغراض شعره ومعانيه التي طرقها ، والمضمون الشعري له صورة يتجلى فيها ، وهذه الصورة تتعلق باللفظ ، وبما يتخذه الشاعر معرضاً لخواطره وأفكاره من أساليب البيان ، وأفانين التشبيه والتمثيل والاستعارة ، وبالموسيقى التي تتمثل في الوزن ، وفي البحر المختار للقصيدة ، وفي القافية وحروفها .

وشكيب يقيم وزناً كبيراً للقالب الذي يعرض فيه المعنى ، ولذلك نجده يورد أبياتاً من رثاء شوقي لأبيه ، ثم يقول معلقاً عليها : « وقد يقال إن هذا معروف ، ليس فيه معنى مبتكر . والجواب على ذلك أن أفصح الكلام هو ما تضمن المعنى المعروف لا المعنى الغامض ، ولكن العبرة في القوالب ، وأني نجد هذه الحقائق في مثل هذه الرقائق »[1] .

وهو يعني بالصورة التي يعرض فيها شعره ، وإذا كان المعنى يأتيه عفواً ، وكانت قصائده تقبل عليه طيعة بلا مجهود ، فإنه يحرص على تهذيبها من سخف اللفظ واضطراب القافية ، ولذلك يقول عن قصائده :

إن تأتني عفواً فكم هذبتها من سخف لفظ أو روى نافر[2]

والألفاظ الشريفة عند شكيب هي الألفاظ المأثورة من الشعر العربي القديم ، ولذلك نجد في شعره كلمات : « العيس ، والحادي ، والسرى ، والظعائن ، والركب ، والتأويب ، والإسآد ، والإنجاد ، والخضارم ، والقنائف » . وهذه الألفاظ العشرة قد وردت في عشرة أبيات من قصيدة له[3] .

وكذلك نجد في مواطن مختلفة من شعره كلمات : « المتالع ، واللوى ، والعقيق ،

---

(1) كتاب « شوقي » ، ص ١٦٠ .
(2) الباكورة ، ص ٤ .
(3) الديوان ، ص ٨ .

والكثبان » ونحوها مما يذكر بجو الصحراء ، ويرسم أمامنا بيئة الخيام والنياق والرمال ، ويسرح بخيالنا إلى عهد كان شعراء العربية فيه يسامرون بيئتهم الخاصة ، ويرددون فى قصائدهم ألفاظاً ترسم ظلالاً لهذه البيئة بمميزاتها وعاداتها وتقاليدها .

ويبدو تأثر شكيب بالصور الشعرية الموروثة عن السابقين حين نجده مثلا يقول قصيدة فى تمجيد العلم ، يلقيها فى حفلة بمدرسة الحكمة وهو فتى فى السادسة عشرة من عمره[1] ، فإذا هو يرسم أمامنا للعلم رَبْعاً تصرم عنه ظلام الجهل ، ويخبرنا أن السعد قد طلع صبحه فى ليل النحس فهزمه ، وأن داجى الأفق أصبح زاهرا ، وقد أينع الذاوى من الروض بعد تصوحه ، وغصون العز تهتز حينما رأت طيور المعارف تحوم فوقها .. إلخ . فيقول :

عِمْ بصباح العلم رغدا وأنعما ... بربع ظلام الجهل عنه تصرما
قد انصاح صبح السعد فى ليل نحسه ... فغادره شيئا فشيئا مهزما
وثاب إليه العلم عَدْواً بعوده ... إليه ، فلا لوم إذا ما تلوما
فأصبح داجى أفقه اليوم زاهراً ... وقد كان زاهى أفقه قبل مظلما
وأينع ذاوى روضه اليوم بعد أن ... تصوح من عصف البوارح فى الحمى
ترنح عطف السعد منه بعيد ما ... رأى لثغور العلم فيه تبسما
وباتت غصون العز تخطر عندما ... رأت فوقها طير المعارف حُوَّما

* * *

وهذا مثال آخر يدل على استمداده صوره الشعرية من صور السابقين ، فكأنه يحيا بينهم ، ويشاطرهم حياة الجزيرة فى عهدها الأول : إنه يرثى « الشدياق » فيصوره أمامنا على أنه فارس سباق فى كل حلبة تضم الأقران المارسين ، وأنه الأول دائما بين أقرانه ، وهو أقوى فارس من فرسان البيان ، وحينما يصول لا يترك مجالا لغيره ، كما أنه إذا قال انقطع غيره من الكلام ، فلا ناطق معه ولا بعده ، يقول :

---

(١) الباكورة ، ص ٥ .

وأصبح مضمار البلاغة خاليا ... لدن غاب عنه اليوم «أحمد فارس»
هو الفارس السباق فى كل حلبة ... تجمع فيها كل قرن ممارس
أجل مجل فى رهان براعة ... وأبتع فرسان البيان المداعس
إذا صال لم يترك مصالا لفارس ... وإن قال لم يترك مقالا لنابس
أقام مناراً هاديا كل حائر ... وأوقد ناراً أمها كل قابس (١)

أمامنا: مضمار الجياد، وحلبة السباق، والفرسان الأقران، والرهان المعقود للفائز، والمجلى الذى يأتى فى السباق أولا، والصائل الذى يغلب مصاله كل مصال، والنار الموقدة ليؤمها الراغب فى قبس منها. هذه كلها أشياء تذكر بالجزيرة والصحراء وحياة القدماء!.

بل نجد شكيب فى قصائده التى قالها فى السنوات الأخيرة من عمره الطويل يأتى إلى الصور الشعرية القديمة، فهو فى رثائه للسيد رشيد رضا أواخر سنة ١٩٣٥ لم ينس شد الراحلة، ولا الإسآد والتأويب — وهما سير الليل وسير النهار — ولا الشهاب الخابى بالليلات الغرابيب — وهى الشديدة السواد — ولا الجبال والأهاضيب، فيقول فيما يقول:

مضى الذى كان فيه منتهى أملى ... ومن نشدت لتعليمى وتهذيبى
ومن عن الأخذ عنه شد راحلتى ... ومن للقياه إسآدى وتأويبى
واهاً على حجة الإسلام حين خبا ... ذاك الشهاب بليلات غرابيب
واهاً على علَم الأعلام حين هوى ... فلا تصادف قلباً غير منخوب
هوى وكل جبال العلم دانية ... عن شأوه، فهى منه كالأهاضيب (٢)

* * *

وأما من ناحية الوزن وموسيقى الشعر فشكيب يصرح بأنه يكثر من استعمال

(١) الديوان، ص ٤٨.
(٢) الديوان، ص ٢٠٢ و ٢٠٣.

بحري « الطويل » « والكامل » فى وزن الشعر ، لسهولة هذين البحرين ، ولذلك يصفهما شكيب بأنهما من « الأبحر الواسعة[1] » ! .

ونلاحظ أن شكيب يختار لكثير من قوافيه حرف الراء[2] ، وهو حرف فيه رنين وذبذبة موسيقية خاصة ، وكذلك حرف الميم واللام والنون والألف الممدودة . وبطول المدى لو نصصنا على مواطن القصائد ، فهى مبثوثة فى الديوان . ولا شك أن رنين حرف القافية ، بما له من صفة فى النطق ، وبما يصحبه من حركة تكيف رنينه ، يعاون على عذوبة الموسيقى التى يمهد لها الوزن ، وينسقها حسن اختيار الألفاظ والقوافى .

وشكيب يحرص على عدم التكرار فى القافية ، وقد تطول قصيدته وتبلغ عشرات الأبيات ، ويأبى أن يكرر قافية ، وله فى الباكورة قصيدة يتغزل فيها بالحسن المعنوى ويفتخر بأصحابه ، وقد بلغت هذه القصيدة مئة وعشرين بيتا ، ولم يتكرر فى قافيتها كلمة واحدة[3] ، ولذلك حق له أن يقول عن قصائده :

رواسخ أطراف البيوت ، وإنها لكالظبيات الباديات شوارد[4]

وقد سبق أن تكلمت عن « جلجلة العبارة » فى شعر شكيب ، حينما تحدثت عن جلجلة العبارة فى نثره ، ومن الواضح أن جلجلة العبارة الشعرية تعاون على أداء الصورة الشعرية واجبها فى التأثير والإيحاء ، متى كانت هذه الجلجلة فى المواطن الملائمة لها ، كقوله فى محاربى طرابلس الغرب ووجوب معاونتهم من قصيدة :

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٦٥

(٢) انظر الباكورة ، ص ٣ و ٤٦ و ٦٣ و ٦٨ و ٧٦ . والديوان ، ص ١٨ و ٢٥ و ٣٨ و ٥٩ و ٦٩ و ٧٨ و ١٠٢ و ١١٣ و ١٢٣ .

(٣) الباكورة ، ص ١٨ .

(٤) الباكورة ، ص ٣٩ .

قد حوصروا براً وبحراً ، وأمطروا ... بحمر المنايا من سواد الغمائم
وقد طالما أرهفت حدَّ يراعتى ... فلما تعالى الخطب عُدْتُ لصارمى
أجل إننا من أمة عربية ... نكافح عنها عاديات الأعاجم
ولو أنصف الأقوام فى حقهم رأوا ... مواساتهم فرضاً على كل آدمى (١)

والملاحظ على شكيب أنه لا يألف الصور الشعرية المركبة التى تتعاون على إبرازها متكافلةً جملةُ أبيات ، بل إن البيت المستقل بمعنى هو الذى يكثر وروده فى شعر شكيب ، وكذلك كان القدماء ، وهذه أبيات لشكيب ، نوردها على سبيل المثال ، لنرى أنه من الممكن تقديم البيت من أبياتها على زميله ، أو تأخيره عنه .

يقول :

مالذات الوشاح جاءت تبختر ... والضواحى بردنها تتعطر
تقتل الصب بالرنو فيردى ... وتلافيـــه بالدنو فينشر
غادة فى خدودها جنة لا ... ـعين ، والثغر المراشف كوثر
تُخجل البدرَ طلعةً حين تبدو ... تفضح البرق مبسما حين تفتر
جردت من قوامها كل رمح ... وانتضت من لحاظها كل أبتر
كلما أسلمت لخـــديه روح ... صاح : يامسلمين ، الله أكبر
ماانثنت أورنت لعمرى إلا ... حاربتنا بأبيض بعد أسمر (٢)

وهذا مثال آخر ، كل بيت فيه مستقل المعنى ، وقابل للتقديم والتأخير ، يقول من قصيدة :

---

(١) الديوان ، ص ١٠٩ .
(٢) الباكورة ، ص ٦٢ .

هي الأحكام يصدرها القضاء فليس لمبرم إلا المضاء
ولا ينبو حسام الموت مهما أتيح له على الخلق انتضاء
لقد عمّ الردى كل البرايا ومات الناس حتى الأنبياء
وأصبحنا رعايا للمنايا علينا من ولايتها لواء
ألسنا الخلق غايتنا زوال وعنصر خلقنا طين وماء[1] ؟

---

(١) الباكورة ، ص ٦٠ .

طريقته فى نظم الشعر

له ينبغى أن نعرف شيئاً عن طريقة شكيب فى نظم الشعر .

ولندعه يحدثنا عن نفسه فيخبرنا بأنه حين نظم قصيدته فى طرابلس الغرب التى مطلعها :

ألا هل لديهم من حديث لقادم   من الغرب يروى فيه غلة هائم

لم يكن متجهاً إلى نظم شىء ، ولكنه ذهب إلى مركز « الهلال الأحمر » فوجده خالياً هادئاً ، فشرع فى النظم . يقول :

« فوجدت المكان خالياً ، وقلت : لأستفيدن من هذا السكون ، وأنظم بضعة أبيات بالأقل ، فلما بدأت بالنظم انبعث بى الشعر ، وانثالت على الأبيات كأنها تنحدر من صبَب ، فما مضت ساعة إلا وهى فى يدى قصيدة تامة[1] » .

وسمعت الحاج أمين الحسينى يقول : إن شكيب كان يرتجل الشعر ، وحدث وهما فى الحجاز أن ألقى الشاعر إبراهيم الغزاوى قصيدة ، فارتجل الأمير رداً عليها .

وفى رحلة لهما ضاع من شكيب « إصبع التلوين » الذى كان يخضب به شاربه ، فحزن عليه ، ثم وجده فسارع إلى خضب شاربه ، فقال الحاج أمين مداعباً : " وعاد الأمير إلى الشباب " ، فارتجل شكيب قصيدة من أربعين بيتاً كان مطلعها :

بشرى لزينب والرباب   عاد الأمير إلى الشباب

وقد نتساءل : أكان شكيب ينظم الشعر بحافز من نفسه يدفعه إليه ، أم كان شكيب يحمل نفسه على صناعة الشعر ؟ .

إن شكيب يحدثنا تارة بأن الشاعر لا يتقدم فى الشعر إلا إذا كان فى نظمه

---

(١) كتاب شوقى ، ص ٤٠ و ٤١ .

« راغباً لا متكلفاً ، ومغرما لا متبرعا[1] » . فنكاد نفهم أنه سيلتزم ما قرره ويبنى ما اعتقده من خير فى النظم لنفسه .

ولكننا نجده فى مكان آخر يقول : « مما لا مرية فيه أننى منذ أيام الشباب قلما نظمت الشعر رغبة فيه » . وبعد أن يعلل ذلك بأنه أراد أن يكون ناثراً ، وأن النثر كان أبداً مرمى آماله ومطمح خياله ، وأنه يفخر بأن يكون كاتباً ويستحى أن يكون شاعراً ، يقول :

« وقلما نظمت الشعر انبعاثاً من نفسى ، وإطاعة لمجرد خواطرى ، فليس لى على هذا الوجه إلا قصائد معدودات ، وكل ما عدا ذلك من شعرى إنما نظمته قياما بواجب ، أو امتثالا لرسم ، أو نزولا عند رغبة ، ولهذا تجد أكثر شعرى مراثى للأصحاب أو للأعلام الذين لا مناص من رثائهم[2] » .

ولما مات محمد بك فريد كان شكيب فى برن من أعمال سويسرة ، ومعه الدكتور عبد الحميد سعيد ، فقال لشكيب : لابد أن ترثيه . فوافق شكيب . وفى اليوم التالى سأله الدكتور وهما ينهضان عن الطعام : هل عملت الرثاء للمرحوم فريد ؟ . فأجاب شكيب : لا . فقال الدكتور : يجب أن تعمله الآن . فقال شكيب : لابد لى من القيلولة بعد الطعام . قال الدكتور : إلا أن البريد سيمشى الآن ، فوالله لا تقيل قبل أن تعمل هذا الرثاء .

فذهب شكيب — كما يقص عن نفسه — وصاغ القصيدة فى نصف ساعة ، حتى دهش الدكتور ، وقال له : اذهب الآن ونم .

ولكن شكيب يعلق على هذه القصيدة تعليقاً يبدو متنائياً عن مدلولها ، إذ يقول : « وحقيقة الحال أن سرعة النظم هى على قدر عمق التأثر ، ودرجة الاقتناع

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠ و ٢١ .

بالموضوع ، وإذا كان الإنسان ملآن من الموضوع انثالت عليه الألفاظ كأنها تتقلع من صبيب ، آخذاً بعضها برقاب بعض ، وإذا كان الإنسان محمولا على الموضوع بغير سائق الشعور أو حادى الاقتناع ، كان فى نظمه أو نثره متمملا متكلفاً ، كأنما يصعد جبلا[١] » .

فهل يكون من حقنا أن نسأل شكيب هنا : لماذا لم تَرْثِ محمد فريد إلا بهذا التكليف والدفع من الدكتور ؟ وكيف تشيد بمرثيتك وقد تكلفتها وحملك على نظمها صديق ؟ .

الظاهر أن شكيب كان يقول الشعر بعقله أكثر مما يندفع إليه بعاطفته ، وكان يحمل نفسه على نظمه حملا فى كثير من الأحيان ، ولا عجب فهو القائل فى رثاء عبد الله نكرى :

وكنتُ مللت الشعر حتى كرهته وأصبح عندى فى عداد المحارم
إلى أن قضت أوصافه برثائه فأصبح عندى اليوم ضربة لازم[٢]

ولقد انصرف شكيب عن الشعر فى أكثر حياته ، فهو لا يقوله إلا نادراً ، والسبب فى هذا قد أشار إليه هو حيث قال : « لأننى طول حياتى لم أحاول أن أكون فى الشعر سباق غايات وطلاع أنجد ، على حين أنى كنت أرى منتهى السعادة فى الدنيا أن أكون من الكتّاب المعدودين[٣] » .

ونحن لا ننسى أن شكيب قد شب وهو طُلَعَة طموح ، ولعله قد حاول فى أول الأمر أن يأتى أولا فى كلٍ من ميدانى الشعر والنثر ، ولكنه تبين أن ذلك عليه عسير ، فهو القائل : « وقلما زاول الإنسان عملين إلا غلب أحدهما عليه ، أو قصّر فى الاثنين[٤] » .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٠ و ٢٣١ .
(٢) ديوان الأمير ، ص ٥٥ .
(٣) كتاب « شوقى » ، ص ٢١ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

وقد استبد به النثر وطغى عليه، وصار فيه علماً، وأصبح " أمير البيان "؛ فليس لزاما عليه أن يستمسك بإمارة الشعر، ويعبر شكيب عن ذلك في قصيدته التي شارك بها في مهرجان شوقي سنة ١٩٢٧؛ فيقول:

قد صار عهدى بالقريض كأنه ... دِمن تقاضتها الرياح عفاءها
أدعو فلا أرضى الذى يأتى به ... والشعر أن تجد النفوس رضاءها
والشعر ما رسم الضمائر ماثلا ... منها الكنائن ، ناجيا أنحاءها
والشعر ما ترك المعانى مثلاً ... فتكاد تلمس بالأكف هباءها
والشعر حيث يقال : من ذا قالها ؟ ... ما الشعر حيث يقال : من ذا قاءها
وهناك نفس مرة ما تأتلى ... تملى علىّ من العلا أهواءها
إن لم تجدنى فى المجاجة أولا ... نكرت على ثلاثها وثناءها

ويقول فى ختام القصيدة مخاطباً شوقى :

لما رأيتك قد نزحت قليبها ... ألقيتُ عنى دلوَها ورشاءها
فاسعد بعرش إمارة الشعر التى ... ألقت إليك لواءها وولاءها[1]

أرأيت ؟ ؟ . لقد كان يروم إمارة للشعر والشعراء ، فلما نالها شوقى انصرف عن الشعر ، ولم يرض لنفسه أن يكون تالياً .

وقد يوهمنا ظاهر هـذا القول أن انصراف شكيب عن الشعر تقرر عنده عام مبايعة شوقى بالإمارة (عام ١٩٢٧م) ، بينما الحقيقة أن شكيب نفسه يحدثنا بأن انصراف نفسه عن الشعر جاء فى وقت مبكر ،وسابق على هـذا العام بقرابة خمسين عاماً ، إذ يقول من قصيدة فى مدح الخديوى توفيق ، خلال زيارته الأولى لمصر سنة ١٨٩٠ :

وإنى إذ أهدى « العزيز » مدائحى ... أبوه بصدق القول غير مفند

---

(١) الديوان ، ص ٤٣ و ٤٤ .

وإلا فما حاولت إدراكَ غاية بشعرى ، ولا نظم القصائد مقصدى[1]

وعلى الرغم من انصراف شكيب عن العكوف على نظم الشعر منذ وقت مبكر ، ظل حفياً بالشعر دارساً له ، فهو ينشر ديوان شقيقه « روض الشقيق » ، ويقدم له ، ويعلق عليه ، وهو يضع كتاباً عن شوقى وشعره يفيض بدلائل العناية بالشعر والشعراء ، وهو يقول الشعر من حين لحين .

وخلاصة الرأى فى شعر شكيب أنه فى مجموعه لا يحقق لأمير البيان مجداً كبيراً ، ولكن شخصية الأمير تلقى على شعرها أضواء من ضخامتها ، فتكسبه قيمة ومكانة .

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٦ .

الباب الخامس

شكيب الناقد

الفصل الأول

آراؤه فى الشعر

الفصل الثانى

آراؤه فى النثر

الفصل الأول

آراؤه فى الشعر

حقيقة الشعر

في سنة ١٩١٢ نشر مصطفى لطفى المنفلوطى كتابه « مختارات المنفلوطى » ، وفيه مقال عنوانه « حقيقة الشعر » للأمير شكيب أرسلان [١] ، وفى هذا المقال تصوير لرأي شكيب فى حقيقة الشعر ومكانته ، ولذلك يستحق التلخيص والتعليق .

يعبر شكيب عن الشعر بأنه قول ثقيل وعبء عقلى باهظ ، لا يحسنه إلا أصحاب « السليقة الفائقة ، والطبيعة الصافية التى لا تتاح إلا للآحاد ، ولا يؤتاها إلا الأفراد ، قائله يكاد يتجرد من عالم المادة بقوة نفسه ، وشفوف حسه ، ويلحق بالملأ النورانى فى مضاء عزمه ، ووري زنده ، وسرعة فكره ، ولو كانت الكهربائية شخصاً لكانت هى الشاعر » .

ثم يذكر شكيب أن القدامى كانوا يحسبون الشعر « قوةً من وراء الطبيعة ، وربما جعلوا له شياطين ، وكان الشعر فى الجاهلية دولة ومُلكا » . وذكر أنهم كانوا يجلون النابغَ من الشعراء إجلالَهم للأمراء والرؤساء ، وإذا جاءهم رسولهم بكلام معجز أحالوه على الشعر ، كأن الشعر هو « الدرجة الثانية التى يمكن أن تنزل عنها الآيات من عتبة الوحى » .

ويرى أن الشعر هبة من الله ، وقوة روحية يفيضها على من يشاء من عباده ، فتحلق به فى سموات الخيال ، فيرى الطبيعة فى أجمل صورها ، ثم يصوّر مشاهدها

---

(١) مختارات المنفلوطى . ص ٨٣ ـ ٨٦ .

وميزاته ، بل انطلق يثبت أنه صاحب قلم قدير طيّع لأنامله ، يستطيع أن يحركه فيرسم لوحات من التعبيرات ، وصورا من البيان ، ومعارض من النثر الفني .

ولنصبر على مطالعة المقدمة كاملة ، فليست بذات طول ، والوقوف عليها مهم. لنرى كيف تسبح الحقائق مغمورة بطوفان هذه الصيغ الرشيقة الجذابة التي تكثر فيها المترادفات وتتكرر المعاني .

يقول شكيب رحمه الله :

« شعر الأخ الأستاذ شبلي بك ملاط لا يمكن وصفه بأحسن من عرضه ، ولا نعته بغير الحث على حفظه ، فإنه لا يبلغ الواصف منه معشار ما يبلغ هو من نفسه ، فهو الشعر الذي يصح أن يقال فيه : عينه فراره[1] ، وسبره استظهاره ، وتعريفه تبليغه ، وتحليته تسويغه ، وروايته رواؤه ، ونعته جلاؤه ، والإرشاد به نفس إنشاده ، والترنم به مجرد إيراده ، فمهما نبهت على محاسنه كان تنبيهه على نفسه أبلغ وأسرع ، ومهما أقمت عليه من البراهين كان برهانه في ذاته أظهر وأسطع .

إنه لعمري هذا السهل الممتنع ، الداني المرتفع ، القريب البعيد ، المعتصم بُقنن الامتناع ، وهو أقرب من حبل الوريد ، وإنه هو النوع المرقص المطرب المعرب عما في نفسك ، بأحسن ما تريد أن تعرب ، لا تكلف ولا تعسف ، ولا تصنع ولا تنطع ، ولا تزيد ولا تعمل ، بل الجمال الذي لا يحتاج إلى تجمل .

وهي الألفاظ على أقدار المعاني ، لا تزيد ولا تنقص ، والأثواب على نسبة القدود ، فلا تطول ولا تقصر ، وهي القوافي لا تجد منها قافية إلا معروفة قبل الوصول إليها ، وترى البيت كله منصباً عليها ، مصدقاً ما خلفها وما بين يديها .

---

(١) يقال : فر الدابة يفرها ، كشف عن أسنانها لينظر ما سنها . وفي المثل : عينه فراره ، وهو مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه ، ومنظره يغني عن أن تفر أسنانه وتخبره .

والحرص على ألا ينقطع منه قسم على طريق الإلقاء وفى أثناء الانتقال ، فكأن هذه الزيادة جُعلت لتملأ الفراغ الواقع بين المدرِك والمدرَك ، حتى لا يصل إلى الذهن إلا كاملا بكل قوته ، ولا يحل فى العقل إلا بجميع حاشيته » .

ويرى شكيب أن للشاعر أن يفتنّ فى الأساليب بحسب اختلاف المطالب ، ويتعرض لموسيقى الألفاظ والعبارات الشعرية ، فيقول : « وللشعر سعة المذهب . والتفنن فى شعوب القول بحسب ما تقتضيه المطالب ، فهو ملك الكلام يتصرف فيه كيف يشاء ، فيه تجسيم المجرد ، وتجريد المجسم ، وتشبيه المجردات بالمحسوسات ، وتلطيف المحسوسات إلى درجة المجردات ، فتارة يجسم المجرد حتى يكاد يحس ويمس ، وتقع عليه الأيدى ، وتنعكس أشعة نوره على العين ، وتهتز دقائقه فتهتز طبلة الأذن ، وطوراً يهفهف[1] به الملموس ، ويهلهل حتى يشف شفوف البلور ، ويسطع من ورائه النور » .

ويرى شكيب أن الكلام لا يحيط بكل الانفعالات مهما كان الإنسان ذلقَ النطق قويّ الأداء ، مبين اللسان ، لأن الألفاظ تتقاصر عن الإحاطة بجميع المعانى : « وأنّى للشاعر أن يتغنى لسانه بكل ما يتغنى به جنانه ؟ وأين الثريا من يد المتناول ؟ فإن اللغة رموز محدودة وإشارات مخصوصة ، وهى تطمع أن تعبر عما فى النفس البشرية ، والنفس البشرية عالم بنفسه » .

ثم يعود ليتحدث عن مكانة الشعراء ، وأنهم أمراء الكلام ،ولهم حق التصرف باللغات ، ويتحدث عن خلود الشعر ، والعناية بروايته منذ القدم ، وأن ذكرى الملوك تذهب وتبقى ذكرى الشعراء ،وأن الشعر يحفظ اللغة ، ويسجل التاريخ ، ويزيل عن القلوب صدأ الكروب ، وأن أبقى الآثار الآدمية هو القول ، وأبقى القول هو الشعر ،

(١) يهفهف : يرقق .

والسماع ، فالإحساس أقوى من الإدراك ، والمشاهدة أقوى من الحكاية ، والصورة أوضح من الكلمة ، فلكى يعوض الشاعر الفرق بين معاناة التجربة والاستماع إلى حديثها ، يعمد إلى لون من المبالغة ، فيعرض الشيء في شعره مضاعفاً ، ويصوّره بألوان ساطعة ، ويحليه بحلية تزيد عن الحقيقة .

٦ — كان شكيب موفقاً حين تحدث عن لزوم تصرف الشاعر في القول بحسب ما تقتضيه المطالب ، بحيث يجسم المجرد إذا أراد تقريبه وتمثيله ، ويجرد المجسم إذا أراد له الدقة والعمق المؤديين إلى إثارة التأمل والبحث .

٧ — كان موفقاً حين ذكر أن الألفاظ مهما كثرت تتقاصر عن الإحاطة بجميع المعانى ، ولذلك قال الكثيرون : إن اللغة عبارة عن رموز وإشارات وليست رسماً كاملا ولا نقلا تاماً ، و « أخذ الأدباء والشعراء ينكرون على اللغة قدرتها على أن تنقل إلينا حقائق الأشياء ، وقالوا إنها لا تعدو أن تكون رموزاً تثير الصور الذهنية التى تلقيناها من الخارج ، أو كوّناها من الجمع بين أشتات من الصور التى تلقيناها من ذلك الخارج ، وعلى هذا الأساس لا تصبح اللغة وسيلة لنقل المعانى المحددة أو الصور المرسومة الأبعاد ، وإنما تصبح وسيلة للإيحاء .

ولما كانت وظيفة الأدب الأولى هى توليد المشاركة الوجدانية بين الكاتب والقارىء أو الشاهد ، فقد قالوا بأن الأدب لا يسعى إلى نقل المعانى والصور المحددة ، وإنما يسعى إلى نشر العدوى ، ونقل حالات نفسية من الكاتب إلى القارىء ، أو على الأصح الإيحاء بها ، وبالتالى لا يسعى الأدب أو الشعر الرمزى إلا إلى أن ينقل وقع الأشياء الخارجية أو الداخلية من نفس إلى نفس »[1] .

(١) محاضرات فى الأدب ومذاهبه ، ص ٧٧ .

٨ — أكثر شكيب مقاله من المترادفات والألفاظ الخطابية مع تكرار المعاني، مع أن الموضوع يحتاج إلى دقة وضبط، لأنه يتحدث عن « حقيقة الشعر »، فالمنتظر أن يعرِّف ويحدد.

•••

والشاعرية في رأى شكيب شروط ذكرها حينما حكم لشوقى بأنه استوفى جميع شروط الشاعرية، وهى « النسج الرقيق المتين، والأسلوب الرشيق الرصين، واللغة العربية الفصحى التى لا تؤتَى من جهة، والمعنى المتناهى فى الدقة، اللابس من اللفظ أجمل حلة، والانسجام المطرد من الأول إلى الآخر فى سكب واحد وسبك متوارد ».

ونلاحظ أن فى الشروط تكراراً، فما الداعى إلى قوله: « اللابس من اللفظ أجمل حلة » بعد أن ذكر قبله قوله: « الأسلوب الرشيق الرصين »؟ وماذا يريد بالانسجام المطرد من الأول إلى الآخر؟ . أيريد أن يكون لكل كلمة مع صاحبتها مقام، أم يريد وحدة الموضوع وتسلسل الفكرة؟ . ليته أوضح!.

ولم يكتف شكيب بالحديث عن شروط الشاعرية فى نثره، بل تحدث عنها فى شعره كما سبق، فقال:

... ...	والشعر أن تجد النفوس رضاءها
والشعر ما رسم الضمائر ماثلا	منها الكنائن، ناجياً أحناءها
والشعر ما ترك المعانى مُثَّلا	فتكاد تلمس بالأكف هباءها
والشعر حيث يقال: من ذا قالها	ما الشعر حيث يقال: من ذاقاها[1]

وهذه الأبيات تذكرنا بمقاله « حقيقة الشعر »، فهناك تحدث عن الطبيعة الصافية، والقوة الروحية، والتغلغل فى أنحاء النفس، وأحناء القلب، والهيام فى أودية الانفعال، وعن مضاعفة الشىء، وتجسيم المجرد، والتفنن فى القول.

---

(١) ديوان الأمير، ص ٤٤.

وهنا يتحدث عن رغبات النفوس ، ونجوى الضمائر ، واستبطان ما فى أعماقها، لنشر ما فى أحنائها ، وتمثيل المعنويات حتى تصير كالمحسات ، وحتى تكاد صغائرها تلمس بالأكف ، فيعجب الناس بمن يحقق هذا ، ويهتفون باسمه . فبين المقامين تشابه وتقارب .

ولكننا نلاحظ أن البيت الأخير من الأبيات السابقة لا يعطى شرطا محددا ، ولعل شكيب اندفع إليه بهوى المقابلة بين كلمتى « قالها » و « قاءها » ، مع ما تحسه من بعد الكلمة الأخيرة عن لغة الشعر ! .

ومن يدرى ، لعلّ هذا هو السر فى أن شكيب حذف هذا البيت من القصيدة حين أوردها فى كتابه عن شوقى[1] .

وإذا كان شكيب فى مقالة « حقيقة الشعر » قد وصف الشعراء بأنهم يكادون يلحقون بالملأ النورانى ، وأنهم كالأمراء والرؤساء فى مكانتهم وجلالة قدرهم ، وأنهم ملوك الكلام ، وأن شعرهم أبقى الآثار ، فلا غرابة إذا رأيناه يوصى الشاعر بأن يجعل الشعر فوق كل شىء ، وفوق كل منحى من مناحى الحياة ، ما دام يريد أن يكون شاعرا عَلَماً ، فيقول شكيب :

« ولا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة أو الاقتصاد أو الصناعة أو الفقه أو شيئا آخر من مناحى الحياة فوق الشعر ، بل ينبغى أن يكون الشعر هو غرضه الأول ، وأن تدور حياته من حوله ، فجميع المشاغل تكون له فضلة ، ويكون الشعر هو العمدة » .

ثم قال شكيب : « إن شوقى كان يفكر فى الشعر قاعداً وقائماً ، وحاضراً وبادياً ، وسائراً وساريا ، وفى المركبة وماشياً ، إلى غير ذلك ... فقد قام نحو الشعر

(١) كتاب « شوقى » : ص ٨٥ .

بالواجب الذى لم أقم به أنا ولا غيرى ممن جعل الشعر فضلة عمله ، ولم يقله إلا عند الضرورة ».

وقد أعطى شوقى نفسه للشعر، فأعطاه الشعر مالم يعط غيره فى هذا العصر»[١].

وهو يتحدث هنا عن الشاعر الذى يريد أن يأتى مجلّيا ، وإلا فهناك شعراء جمعوا بين الشعر وغيره من الأعمال ، وكان شعرهم جيداً ، وإن لم يتصدروا الطليعة بين الشعراء .

• • •

ويقول شكيب : « ومن المعلوم أن صاحب الصنعة إنما يتقدم فيها إذا كان راغباً لا متكلفاً ، ومغرما لا متبرماً ، وكان مجتهداً أن يبدع فيها لأجل الإبداع ، ولأجل سبق غيره من الصناع[٢] » .

ونلاحظ هنا أنه لم يذكر الهبة أو الطبع فى الشعر ، مع أنه قال فى مقالة « حقيقة الشعر » : إن الشعر لا يحسنه إلا أصحاب الطبيعة الصافية ، وقال فيها أيضاً : إن الشعر هبة من الله .

ولو اقتصرنا على الرغبة والمحبة وحدها — دون الموهبة والاستعداد والمعاناة والتمرس والاقتداء والتجربة — لما كفت الرغبة والمحبة وحدها لتخريج شاعر ، فما أكثر الذين يرغبون ويحبون أن يكونوا شعراء ، ثم لا يكونون ، لأنهم حرموا الطبع الشعرى ، واكتفوا بالأمانى ، وإنما هى بضائع النوكى[٣] .

• • •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١.
(٣) النوكى : الحمقى.

ولقد يريد شكيب أن يبدى رأيا فى بعض الشعر، أو يحدث أن يطلب إليه طالب أن يبدى هذا الرأى ، فيأتى حديثه غير محدد، فيه التعميم والتوسع والتعبير بالألفاظ البراقة، والعبارات الطنانة، دون أن تستبين بها معالم واضحة، ويمكن أن نسوق على ذلك أكثر من شاهد :

يقرأ الأمير قصيدة للشاعر محمد حسن النجمى فى مدح الملك عبدالعزيز بن سعود فيقول عنها :

« قرأت شعراً يعتنقه الطبع، ويشرب به الخاطر، ويعرف القارىء أعجازه من صدوره، وتتمثل قافيته من أول كلمة من بيته، يدل على ملكة غير معتادة، وطبع متناه فى الصفاء، ومكانة فى اللغة رفيعة، وتصرف فى القول سلس القياد، ويجول به صاحبه كما أراد، فقلت : والله إنه لعبقرى من يفرى هذا الفرى » . ثم يلحق شكيب هذا الشاعر بأبى تمام[1] .

وكان من الممكن لشكيب — وهو أمير البيان، والمالك لنواصى القول بأكثر من عنان، والجوال بقلمه فى أكثر من ميدان — أن يمد سببَ الحديث على هذا النمط من الأحكام العامة والآراء المبهمة، كأن يزيد مثلا هذه العبارات : « وقرأت شعرا يطعم منه العقل، وتكتحل به العين، ويحيط القارىء بمناهيه من مباديه، ويلمح قاصيه حين يسمع دانيه ... إلخ ». وإذا كان شكيب لم يمد سببَ الحديث هنا على هذه الصورة فقد مدَّه ومده فى موطن آخر .

فقد كتب شكيب بتاريخ ١٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٨ مقدمة لديوان الشاعر شبلى ملاط، فماذا فعل ؟ . إنه لم يحلل الديوان، ولم يفصل القول عنه، ولم يذكر ماله وماعليه، ولم يبين طريقة الشاعر فى شعره، ولا خصائص هذا الشعر

---

(١) مجلة الفتح، عدد ١٤ فبراير ١٩٣٠ .

وأما دخول الآذان بلا استئذان فإن هذا فى هذا العصر شعر ألقيت فى وجهه حجابة السامع ، وتناولته حتى أفهام البلداء تناولَ الأبصار الجادة للبروق اللوامع ، فيكون شعر الأخ اللاط فى وضوحه ونصوعه ، وبروزه وسطوعه ، وتعلق خواتمه بهواديه ، وارتباط أواخره بمباديه ، وبأنه لا يحير قارئاً ولا سامعاً ، ولا يصب لها ذهناً ، ولا يسومهما بقدر الهَبَاءة كَدًا ولا جهداً ، وإن كان يسومهما العلاء فهو علاء دون تصعيد جاهد ، ولا كد ناصب ، وإنما يطير بك فى آفاق المعالى وأنت على مهاد وثير ، ومركب كريش النعام موطأً بالحرير ، وأنت راكب جناح الأثير ، لا تسمع للملاط بيتاً إلا هتفت له : مرحى ، وتظن أنك تسمع بيتاً فإذا بك تسمع آية : « يا هامان ابنِ لى صرحاً » ! .

ولا ينحصر نبوغ اللاط فى المقاصد العالية والمرانى النائية ، والمنازع التى تجد فيها طائر شعره محلقاً دائماً ، وإن كان فى هذا الموطن لا يُشق له غبار ، ولا يدرك له مطار ، وإنما هو مستولٍ على الأمد فى أكثر المواضع .

وإن كان قد ملك ناحية الجزل فما فاته الرقيق ، وإن جال فى مآسد السباع ، فطالما جال فى مراتع الآرام ، لا يرود حتى يصيد ، ولا يجول حتى يصول ، ولا يصول إلا صولة الفحول .

ولعله فاته من مزايا الشعر تقليد ما يقال له « الشعر الجديد » ، وخير له أن لا يحسن هذا النوع الذى يشرب منه الإنسان ولا يروى ، وكأنما قارئه يأكل فى نومه كما يقال .

تعمد أهله أن يأتوا بما لم يأت به الأوائل ، ففاتهم الأوائل والأواخر معاً ، وحاولوا أن يبدعوا ويغربوا ، فما قدروا على شىء سوى الإتيان بالأعجم الذى لا يفهم ولا يفهم ، وما قاربوا الإحسان إلا عند ما استولت عليهم السليقة الأصلية ، ونزع لهم العرق العربى الصحيح ، فرجعوا إلى ما نشأوا ، فهم بين أمرين :

إما أن يقولوا ما يفهمه الناس ، وتستسيغه أذواقهم ، وحينئذ فهو الشعر العربي المطبوع على غرار الشعر الجاهلي أو المخضرم أو المولد ، وليس شيء من هذا بجديد

وإما أن يقولوا ما يخالف أسلوب هؤلاء ، ليقولوا بدعاً ، ويحدثوا غير معهود فحينئذ هو الشعر الذى لا يعرف له قبيل من دبير ، ولا شرق من غرب ، وأنا في شك هل يفهمه أنفس قائليه ؟ وإن تظاهروا بفهمه ! .

إن الفصيح لا يتعلق بقديم وجديد ، وإنما هو ما وافق الذوق البشري ولائم الطبع الإنسانى ، وخاض فى السمع بلا تفكير ، وامتزج بالطبع بلا تطبع وإن هذا مركوز فى فطرة الإنسان منذ وجد الإنسان .

فإن كان الشعر العربى الملائم لذوق هـذه اللغة مرآة صافية نقية ، فيكون فى شعر الأخ اللاط الذى ينادى القارىء كل عبارة منه : أن تحتك معنى سريا وأن هذا الشعر مذ كان كان عبقرياً »[1] ! .

الحمد لله ، لقد انتهت المقدمة ، بل انتهت تلك الجمل المسجوعة المصنوعة المشققة المنمقة ، التى نستطيع أن نجرى القلم عليها فنحذف نصفها ونبقى النصف الآخر ، ومع ذلك لا يضيع من المعنى الذى احتوته شيء ! .

إما أن تكون المجاملة هى التى دفعت بشكيب إلى أن يزخرف تقديم الديوان بهذه الألوان من البديع وما إليه ، وإما أن شكيب حنَّ إلى المقامات التى كان يحفظها ، فأراد أن يضع مقامة على طرازها ، استرواحاً لذكرى ذلك الماضي الأدبى العزيز ، الذى كان يدمن فيـه النظر في المقامات تلاوة وحفظاً ، وإما أن شكيب أراد أن يبرهن للناس أنه — وإن قارب السبعين ، وكتب مترسلا

---

(١) مجلة الكتاب ، عدد يونيه ١٩٥٠ .

فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع ما كتب بلا تحسين ولا تزيين — قادر على أن يصوغ ذلك النثر الفنى المقتضى ثروةً لغوية ، وذاكرة قوية ، وقدرة على تصريف القول لتسلم له هذه الصنعة اللفظية الدالة على البراعة والإتقان .

ومهما يكن من أمر فإنك تستطيع أن تسمى هـذه المقامة الشكيبية السابقة بما شئت من أسماء ، إلا أن تسميها مقدمة فى تحليل ديوان ! .

أشعر الشعراء

إذا كان لشكيب شروط لتمام الشاعرية ، فمن الطبيعي أن يحدثنا عن أشعر الشعراء عنده ، وهو يخبرنا في كتابه عن شوقي بأنه اطلع على شعر البارودي في صدر شبيبته واستفاد منه ، ثم يقول :

« كنا أنا وأخي نسيب رحمه الله نصبو من صبانا إلى طريقة الأولين في الشعر ، ونؤثر شعر الجاهلية والمخضرمين ، والبطن الأول من المولدين ، على شعر أهل الأعصر الأخيرة مهما حلت نكاتهم ، وكثرت الأنواع البديعية في أشعارهم

ثم يذكر طائفة من هؤلاء القدامى ، ويذكر أن المتنبي كان لا يروقه إلا من جهة الأمثال والحكم ، ويرى شعره نازلا في بعض الأحايين عما يجب أن يكون

ثم يقول : « فلما قرأنا شعر محمود سامي سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها في أنفسنا »[1] .

ويذكر أنه حفظ جميع قصائد البارودي الموجودة في كتاب « الوسيلة الأدبية » لا يخرم منها بيتاً ، وكانت هذه القصائد من أقوى عوامل الشعر فيه . ويقرر كما سبق أنه خريج البارودي في الشعر ، وأن البارودي إمامه[2] .

ثم يرتب لنا صفوة الشعراء في رأيه ، ويذكر أشباههم من السابقين ، ويبين وجه الشبه بين كل معاصر وكل سابق ، فيقول :

« أشعر الشعراء عندي هو محمود سامي ، ثم شوقي ، ثم حافظ ، وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر هم السابقون في حلبة الشعر ، الفائقون في إجادته ، هم أشبه بالثلاثة

---

(١) كتاب « شوقي » . ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٠٢ و ١٠٤ .

الماضين : أبى تمام الشعر ، ومتنبيه ، وأبى عبادته ، بل هم اليوم لاتُ الشعر وعُزّاه ومناته ، والذى رجحت لهم على غيرهم بيناته ، وأحب أن أشبه البارودى بأبى تمام فى علو نفسه ، وقوة ملكته ، ومتانة أسلوبه ، وأن أشبه شوقياً بالمتنبى فى دقة معانيه ، وسمو حكمه ، وكثرة جوامع كلمه ، كما أن حافظاً يشبه البحترى فى سلاسة لفظه ، وحسن سبكه ، وتأثيره فى النفس » [١] .

وهذه العبارة منقولة من مقال لشكيب يبين به رأيه فى « أشعر الشعراء » ، وقد كتبه إجابة لسؤال وجهه إليه سليم سركيس صاحب مجلة « سركيس » [٢] سنة ١٩١٠ م ، وفى هذا المقال يوازن شكيب بين شوقى وحافظ ، فيرى لحافظ طلاوة ، ولشوقى إجادة ، ويدفع عن الشاعرين بعض التهم ، فيقول إن عامة شعر حافظ « أطلى من عامة شعر شوقى » وغاية ما يقال فيهما أن جيد شوقى أحسن من جيده ، وأن هذا أعلى وذاك أطلى .

وأما كون أسلوب شوقى ركيكا فهو غير صحيح ، وهذا القول فى حق شوقى هو أشبه بالقول الآخر فى حق حافظ بأنه صانع ماهر ، وأن حيلته أكثر من شعره ، وعندى ألف شاهد — لولا خوف الإطالة لأوردتها — على متانة أسلوب شوقى وتسنمه غارب العربية ، كما أن لى بقدرها على قدرة حافظ الحقيقية ، وأنه شاعر مطبوع الفصاحة فهى سجية لا تلهوق [٣] ، وأن مثل حافظ فى الشعراء قليل . نعم إن شوقى ليس طبقة واحدة ، حتى لا يخاله القارىء نسجاً واحداً ، وهو يذهب مذاهب غريبة أحياناً ، وربما أتى فى كلامه بالتعقيد ، وهذا من وجوه الشبه بينه وبين المتنبى » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٨ و ٨٩ .

(٢) مجلة نصف شهرية ، كانت تصدر بالقاهرة ، بدأت سنة ١٩٠٥ م — ١٣٢٣ هـ واستمرت إلى سنة ١٩٢٦ م — ١٣٤٥ هـ .

(٣) التلهوق : التحسن بما ليس موجودا (القاموس) .

وبعد حديث عن شهرة المتنبي يعود شكيب ليقول إن عيون شعر شوقي «لا يقدر على مثلها حافظ وغيره ، وقد يحلق في سماء الخيال أحياناً حتى يفوق البارودى نفسه ، وهو عندى حامل اللواء ، وأبو الجميع » .

ويدفع شكيب تهمة الركاكة عن شوقى بعبارة أخرى ، ويرى أن « نقاوة اللغة هى الشرط الأول للشاعر والكاتب ، والمعانى وحدها لا تكفى ، ولا ينهض بركاكة اللفظ علو المعنى ، وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم »[1] .

ويتحدث عن عفة شوقى فى شعره ، وعن أخلاقه وصفاء نفسه ، وإغضائه عن حساده بسكوت هو أقتل من الكلام أحياناً .

ويدافع عن معارضة البارودى للقدماء ، ويرى أنه « اختار المعارضة فى بعض المظان ليعلم الناس شأوه مع تقدمه » ، ويقرر أن البارودى يكون مظلوماً إذا قيل عنه إنه لم يلحق متقدميه فى معارضته . « فمحمود سامى قد عارض وفاق من تقدمه وقال فى غير معارضة ، فأتى بالشعر الفحل الذى يعيى على الأوائل فضلا عن الأواخر ، وكل ذى مسكة يقدر أن يميز بين التقليد والتوليد »[2] .

وكأن شكيب خشى أن يفهم قارئوه أنه حين ينوه بالشعراء الثلاثة الأعلام: البارودى وشوقى وحافظ ، يستخف ببقية الشعراء أو يبخسهم حقهم ، ولذلك احترس فقال :

« ولا يجب أن يؤخذ من كلامى هذا فى تفضيل الثالوث الشعرى الاستخفاف بقدر الباقين ، فإن الذين فضلوا حبيباً والمتنبى والبحترى لم يحصروا الشعر فيهم ولا ازدروا سائر الشعراء ، ولكن لسان حالهم يقول :

محاسن أصناف المغنين جمة   وما قصبات السبق إلا لمعبد

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٩٠ .
(٢) المرجع السابق .

ولا بد فى الميادين من مجلٍّ ومصلٍّ وتالٍ ومرتاح إلى السُّكَّيت ، وإنى أرى الكاظمى وصبرى وناصف والمطران وسائر من ورد ذكرهم من الشعراء أشبه بالناشى والنامى والزاهى والمعرّى وأمثالهم ، فليست شاعرية أبى تمام والمتنبى والبحترى بنافية براعة هؤلاء ، بل لهؤلاء مواطن لا يلحقهم فيها أولئك »[١] .

وأعتب على شكيب وضعه المعرّى فى آخر من ذكر ، وإن كانت الواو لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً ، ولكن المتبادر أن المذكور أولا أهم فى نظر ذاكره .

ثم يرى شكيب أن الشهرة لا يجوز أن تكون ميزاناً للفضل ، لأن فى الناس من يغتصب الشهرة ويلصقها بنفسه ، « بينما الآخر قد قنع من الأدب بلذة نفسه ، فلا يترنم بقصائده فى النوادى ، ولا يبتاع من الصحف الألقاب ، ولا يستخدم الكتّاب لإطرائه ، ولا يتم نقصه بالغض من مقام غيره ، وهذه كلها جمل منحوتة من معدن الحقيقة ، وفلذات منقطعة من كبد الصواب ، فإن الشهرة مزلقة ، ولا يصح اتخاذها معياراً ، وقد يقبع فى كسور الخمول من لو اطلعت على حقيقته لأجللته وأحللته أعلى مقام »[٢] .

ويذكر شكيب من هذا الطراز أخاه « نسيب » الذى كان من فحول الشعراء ، وكان يفر من الشهرة فلا يعرفه الكثيرون . ويعود شكيب ليحترس ، فقد يظن ظان بكلامه أنه يحارب حب الشهرة ، وهذا الحب عنده « هو مبعث الهمم ، ومثار كوامن الفضل ، ومظهر **درر القرائح** من أصداف الأدمغة » ، ولكنه يريد أن تكون درجة الشهرة هى درجة الفضل ، أى أن يكون نصيب المرء من شهرته بقدر ما له من مكانته وعبقريته .

ولما كان شكيب قد وصف البارودى بأنه أمير الشعراء ، وبأنه الشاعر الفرد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٢) المرجع السابق .

الأوحد ، وكان ذلك الحكم قبل أن تتجلى عبقرية شوقى ، فقد عاد يذكر أن البارودى قد انطوى ، وأن شوقى قد استولى على المكانة الأولى ، فأصبح « نسيج وحده ، لا يجد الناس عنه عوضاً ، ولا يبتغون به بدلا ، وأصبح آثر فى النفوس من كل شاعر سواه ، ولم ينحصر المجد فى نفسه ، بل تناول وطنه مصر ، فصارت تزهو به على غيرها »[1] .

ثم يتعرض شكيب لنقد الرافعى فى رأى له حول الشعر فى مصر ، فقد قال الرافعى عن شوقى : « انفلت شوقى من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها السائر فى الجو ، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربى فى الشعر ، وهى لم تذكر قديماً فى الأدب إلا بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة ، ولم يستفض لها ذكر بنابغة ولا عبقرى ، وكانت المستجدية من تاريخ الحواضر فى العالم » .

ويرد شكيب على الرافعى قوله ذاكراً أن « البلد الذى نبغ فيه مثل ابن الفارض ، والبها زهير ، وظافر الحداد ، والأبوصيرى صاحب البردة الشريفة فى القديم ؛ ومحمود سامى البارودى ، ومحمود صفوت ، وأحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد محرم ، وإسماعيل صبرى ، وغيرهم فى الحديث ، لا يقال إنه منقوص الحظ من الشعر »[2] .

والحق مع شكيب ، فقد قسا الرافعى فى قوله ، وأسرف فى حكمه . ونلاحظ فى رد شكيب اطلاعه على تاريخ الشعر فى مصر ، وإحاطته بأسماء الشعراء ومكانتهم ، وإنصافه فى الحكم ، ولذلك نراه بعد أن خالف الرافعى هذه المخالفة يعود إلى موافقته على أن شوقى هو وحده الذى وضع تاج الشعر على مفرق مصر ، وموافقته على أن شوقى اجتمع له ما لم يجتمع لسواه[3] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

وإذا كان شكيب قد أبدى رأيه فى إمارة شوقى للشعراء نثراً ، فإنه قد عاد وترجم عنها شعراً ، حيث قال من رثائه لشوقى كما سبق :

ولقد رويتُ الشعر عن آحاده وألفت للسباق فى حلباته
وقضيت فيه صبوتى وصبابتى وقطفت منه خيرَ نواراته
وأثرت فى البيداء بُزْلَ فحوله وأطرت فى الآفاق شُهُبَ بزاته
فرأيت شوقى لم يدع فى عصره قِرْناً يهز قناته لقناته[1]

وإذا وافقنا شكيب على رأيه فى شوقى فإننا نتوقف عند رأى قاله شكيب فى شاعر النيل حافظ إبراهيم، فقد أقيمت حفلة تكريم لحافظ سنة ١٩٠٤، وكتب بعض إخوان شكيب من مصر إليه فى سورية يقترحون عليه إرسال أبيات لتلقى فى الحفل ، ومن جملة ما ذكروا من محاسن حافظ أنه يحب السوريين ، وكان ذلك قبيل عيد الأضحى ، وكان البارودى أحد شعراء هذه الحفلة ، فأرسل شكيب أبياتاً منها قوله يخاطب حافظ :

« فأنت إمام النثر غير مدافَع وأنت أمير الشعر من بعد « أحمد »

وهذا فى رأيى توسع فى الحكم ومبالغة فى الرأى ، فلو أن إمارة حافظ الشعر بعد أحمد احتملت أكثر من قول فى رأيى ، فإن إمامته للنثر بلا مدافَع قولٌ غير مسلَّم، فإن مكانة حافظ في الشعر تفوق مكانته في النثر بمراحل.

ولقد ألقى الأستاذ أحمد الطاهر محاضرات عن حافظ فى معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٥٣ ، وتحدث عن نثره ، فغاية ما قال فيه إنه « من أرفع أساليب النثر »[2] ، وقال إنه ليس بين أيدينا من نثر حافظ شىء يعتد به غير ترجمته لرواية

---

(١) الديوان . ص ٨٣ ، وكتاب « شوقى » . ص ٩٦ . وبزل الفحول : الجمال التى ضعت أبابها .

(٢) محاضرات عن حافظ إبراهيم ، ص ٦٠ .

أسلوب حافظ فى جزء كبير من أول هذا الكتاب فيه شيء
من البؤساء ، وإن من الألفاظ الغريبة على أسماعنا »(١) .

وذكر أن حافظ فى أسلوب بعض رسائله كان « مقلداً للقدماء ، مترسما خطاهما لايخرج عن أسلوب ابن زيدون فى رسائله الجدية والهزلية ، إلا ليدخل فى أسلوب الحريرى، ويتحدث بلسان السروجى ، أو ليطلع علينا بروح بديع الزمان الهمذانى ليس فى هذا النثر شىء من طبع حافظ ولا من روحه ، وما كان حافظ ليكتب نثرا بهذا الأسلوب ، وهو صاحب الشعر اليسر السلس العذب ، ولكنه حمل نفسه على غير سجيتها مقلدا وجامدا ، وأراد أن يطلعك على علمه باللغة وألفاظها الغريبة عليك ، وعلى علمه بالتاريخ العربى القديم » .

وبعد أن يورد الطاهر نموذجا لنثر حافظ يقول : « وما يحسن بنا أن نمضى فى هذا النثر المعقد المجوج » ثم يقول : « وألف حافظ فى صباه كتاب (ليالى سطيح) نحا فيه منحى وأسلوبا مسجوعا لعل أقرب صورة إليه وأقرب أسلوب له حديث عيسى بن هشام ، وهو فيه مقلد للقدامى ، بعيد عن المحدثين ، حريص على اللغة وألفاظها ، أكثر من حرصه على المعانى والصور والأخيلة العالية(٢) » .

ثم يجمل الطاهر رأيه فى نهاية الكتاب عن حافظ بقوله : « وأوفى ما يقال فيه إنه شاعر مصرى بكل ما تحتمل المصرية من معان ، وإنه فى الشعر الحزين من أقوى الشعراء ، وإنه شاعر فحل جزل اللفظ جميل الأسلوب(٣) » .

وقد حرصت على أن أستشهد بباحث درس حافظ إبراهيم وأحبه دون الاقتصار على رأيى ، ليكون ذلك أدل على أن شكيب كان متوسعاً فى حكمه حينما قضى لحافظ بالإمامة فى النثر غير مدافَع .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٣) المرجع السابق .

وربما كان الأفضل فى بحث هذا الرأى أن يرد ضمن آراء شكيب فى الكتابة والكتّاب ، ولكنه جاء هنا لأن شكيب أصدر حكمه شعرا ، ولأن عجز البيت السابق قد تحدث عن إمارة حافظ الثانية : إمارته فى الشعر من بعد أحمد .

ولقد جاء فى هامش الديوان تعليق على كلمة : « من بعد أحمد » . وهذا التعليق يقول : « من شاء يفهم أن حافظاً هو أمير الشعراء بعد المتنبى ، ومن شاء أن يفهم أنه ثان لشوقى [1] » .

ومع ما فى أصل الحكم بإمارة الشعر لحافظ من حاجة إلى نظر ، جاء هذا التعليق فزاده حاجة إلى نظر و نظر .

فلنبدأ بدعوى إمارة حافظ للشعر بعد المتنبى :

لعله من الخير أن أستعين بشكيب نفسه لإبانة الاحتياج إلى هذا النظر ، فهو نفسه يقرر فى موطن آخر أن خليفة المتنبى هو شوقى . يقول : « ومن يا ترى يصح أن يخلف المتنبى اليوم ؟ أولها أحمد ، وآخرها أحمد [2] » ! .

وشكيب فى مقالة « أشعر الشعراء » التى لخصناها سابقاً يجعل حافظ بعد شوقى فى ترتيب الشعراء الأعلام [3] ، فكيف يَخْلُف حافظ المتنبى وشوقى موجود ؟ . وشكيب نفسه قد قرر أن حافظ لم يعل علوّ شوقى فى بعض أبياته ؛ وإذا كان قد حكم لعامة شعر حافظ بأنه أطلى من عامة شعر شوقى ، فقد عاد مباشرة ليقول : « وغاية ما يقال فيهما إن جيد شوقى أحسن من جيده ، [حافظ] وأن هذا [شوقى] أعلى ، وذاك [حافظ] أطلى [4] » .

---

(١) الديوان ، هامش ص ٤١ .
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٧٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٨٨ .
(٤) المرجع السابق .

ويعود ليؤكد سبقَ شوق لحافظ فيقول إن عيون شعر شوقى « لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره ، وقد يحلق فى سماء الخيال أحيانا حتى يفوق البارودى نفسه وهو عندى حامل اللواء وأبو الجميع [1] ».

ويعود ليقول إنه بعد موت البارودى أصبح شوقى « نسيج وحده ، لا يجد الناس عنه عِوَضاً ، ولا يبتغون به بدلا ، وأصبح آثرَ فى النفوس من كل شاعر سواه [2] » .

وأما إذا كان المراد أن إمارة الشعر لحافظ بعد أحمد شوقى ، فمع أن القَدَر قد سبق بالحكم فى ذلك ، إذ مات حافظ قبل أن يخلو عرشُ الإمارة من شوقى ، أرى أن إفراد حافظ بالإمارة بعد شوقى حكمٌ فيه توسع ، والتدليل على ذلك يقتضى بحثا لا يطيقه هذا المجال .

ولا يفوتنى أن أعيب التعليقَ الذى جاء بالهامش ، إذ أنه مبهم محير ، ولظانٍّ أن يظن أن شكيب أراد أن يُرضى شاعرَ النيل — ولا تنسى أن حافظ يحب السوريين — وأن يُرضى الذين اقترحوا عليه تكريمَ حافظ ، وفى الوقت نفسه لا يغضب صديقه وحبيبه شوقى ، فقال هذا البيت ذا الوجهين ، وجاء هذا التعليق فأكد ما فيه من إبهام وتلاعب بالألفاظ .

ويخيل إلىَّ أن شكيب قد اندفع إلى هذا **الحكم** متابعةً لأستاذه وإمامه « البارودى » ، فقد علم أن البارودى قد شارك فى **تكريم** حافظ ، وأسبغ عليه من قبلُ حللَ الثناء ، فليتابع شكيب خطوات أستاذه ، بدليل أنه جاء قبل البيت الذى معنا مباشرة بيت يقول :

وقبلى قد أولاك « سامى » شهادةً ومثلى بمحمود السجية يقتدى

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ .

ومما يدلنا على روح المجاملة والتصنع فى هذه القصيدة أن شكيب لم يقلها ابتداء، بل اقترحها عليه إخوان له ذكَّروه بحب حافظ للسوريين، و « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟.

ولذلك يقول شكيب فى القصيدة :

يقولون لى : شيِّد عن الشام ذكره ألم يك ولى الشامَ شطرَ التودد ؟
فقلت لهم : أثنى عليه بصالح عن العرب طُرًّا ، ذاك أصلى ومحتدى

ومما يدلنا على ذلك أيضا أن شكيب انتهز مناسبة إقامة الحفل فى جو عيد الأضحى — وهو عيد لمن حج وطاف واعتمر وضحى — وتحدث فى القصيدة بعقله وصنعته عن أشياء تتعلق بالحج والكعبة والحطيم وزمزم ، والطائفين والعاكفين والراكعين، والمشاة والركبان على كل ضامر ، فقال — ولم يكن بحاجة إلى ذلك الذى قال — :

حلفتُ بما بين الحطيم وزمزم وأقسمت بالبيت العتيق المشيَّد
وبالطائفين العاكفين بهذى الليالى تراهم من ركوع وسُجَّد
يؤمون مثوى للخليل ومرقدا تلألأ نورا بالنبى محمد
مشاةً وركبانا على كل ضامر ومن فوق قضبان الحديد الممدد
فما فى حديث الحج لين ، وقد غدا يجىء على شرط البخارى بمسند[1]

وهكذا شغل جانباً من القصيدة بما ليس من هدفها فى قليل أو كثير .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠ . والضامر : البعير المهزول من كثرة السير لبعد الشقة.

بين القديم والجـــديد

لقد كان شكيب يحب قديم الشعر ويعتز به ، ولذلك كان طبيعياً أن يقاوم دعوةَ التجديد بما أرادته من تحرر فى اللغة والمعانى والقافية والصُّوَر ، وقد حمل شكيب على الجديد فى أكثر من موطن ، ولعلّ السر فى هذا هو تأثره بأساتذته أساطين الحِفَاظ على اللغة والاعتزاز بها ، أمثال البستانى ، والشدياق ، ومحمد عبده ، والبارودى . كما أن عثمانيته الأولى كانت سببا فى حرصه على القديم ، لأنه كان يرى هذه العثمانية عنوانَ الصبغة الإسلامية ، وقد نشأ معتزاً بالإسلام مدافعاً عنه ، وقد رأى من حوله الكثيرين من أبناء بلده لبنان لا يلتقون مع العثمانية فى دين ولا فى عاطفة : بل هم ينظرون إلى الأتراك على أنهم دخلاء طارئون ، وكان هؤلاء اللبنانيون — من غير العثمانيين — يولون وجوههم شطرَ أوربة بما فيها من تيارات واتجاهات فكرية واجتماعية ، ليأخذوا عنها القدوةَ والمثل . فكان هذا يثير حفيظةَ شكيب ، ويدعوه إلى الإلحاح فى التمسك بالقديم ، والعضِّ بالنواجذ عليه ، والدعوة إليه ، وإلى الوقوف فى جانب القلة من مواطنيه الذين آمنوا باللغة العربية أمّاً رءوماً تستطيع أن تضم تحت جناحيها جميع أبنائها ، حتى ولو اختلفوا فى الدين والاعتقاد .

كما كان يدعوه هذا الوضع إلى الوقوف فى وجه الجديد أكثر من مرة . فقد أخذ فى مقدمته لكتاب « أناتول فرانس فى مباذله » الذى ترجمه ونشره سنة ١٩٢٦ م يمجِّد شأنَ اللغة العربية كما عرفنا ، ويدعو إلى الحفاظ عليها والاعتزاز بها ، حتى تبقى سايمة كريمة ، فيقول :

« لا ينبغى لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البرة أمّاً ، ولا يجعلوا لها من بين اللغات نداً ، وأن يجعلوها قطبَ رحى المثاقفة ، ويعلموا أنها نعم السند يوم المماتنة ، فلا يرتبوا أفكارهم فى لغة قبلها ، ولا يضلوا فى الإبانة عن ذات نفوسهم

سبلها ، حتى إذا صفت لهم مشارعها ، وحنت لهم أجارعها ، وصارت ملكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم ، نازلة منزلة الأدمغة من رءوسهم ، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالت إليه عزائمهم ، وأن يضموا إلى التلاد العربى القديم طريفَ البضائع ، ويضيفوا إلى الإرث المُؤَثَّل الكريم حديثَ البدائع ، مشروطاً فى نقلها إلى خزانة العربية لأجل تمام المقصد واجتناب المحنة أن يكون الأسلوب العربى الأصيل ظلها وماءها ، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها ، وأن تكون لغة الكتاب المنزَّل على أفصح العرب ألفها وباءها ، إذ بدون ذلك تفسد هذه اللغة الشريفة ، ونكون طلبنا المزيد فوقعنا فى النقصان ، وأردنا الانتصار ، فباء قومنا والعياذ بالله بالخذلان[1] » .

وشكيب هنا منصفٌ فى دعوته ، معتدل فى طريقته ، فهو يطالب أولا بإعزاز اللغة العربية ، لأنه لا قومية بغير لغة ، ويطالب أبناء هذه اللغة بأن يتكلموا بها ، ويرتبوا أفكارهم على طريقتها ، لا على طريقة لغة غيرها ، حتى يكونوا أصلاء فى قوميتهم وفى لغتهم .

ثم هو يبيح — بل يستحسن — بعد ذلك أن نستمد من آداب غيرنا فى الشرق والغرب طريفَ البضائع وحديث البدائع . بشرط أن ننقل ما نستعيره إلى لغتنا وأسلوبنا ، وأن نهضمه بعقولنا وقلوبنا ، وأن نحيله زاداً جديداً ، فيه انتفاع بمواد من هنا ومن هناك ، ولكنه بعد ذلك زاد عربىُّ الصبغة ، عربى الصيغة ، عربى اللسان والبيان .

ثم ينتقل شكيب خطوة فى التصريح عن تأييده القديم ، وتفنيده الجديد ، فنراه فى تقديمه لديوان أخيه نسيب الذى نشره سنة ١٩٣٥ يقول :

---

(١) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٦ . والمثاقفة : المجالسة . والمماتنة : المباراة . والعاملى : القديم .

«لم يكن نسيب أرسلان يعرف شيئاً من الأسلوب الشعرى الجديد الذي يترنم بعضهم بجماله ، ويكدون خواطرهم للنسج على منواله ، بل ربما كان إذا قرأه لم يفهمه ، وإذا تأمل فيه لم ينحل لديه معجمه ، لأنه مباين لأساليب العرب التي تألفت منها لغتهم ، وانطبعت عليها بلاغتهم ، أيام كانت لغتهم فى عنجهية أمرها ، ومقتبل عمرها ، ومهز بيضها ، ومجر سمرها ، وأيام اعترف أساطين الحكمة وسلاطين البلاغة من أمم الأعاجم أن هذا هو الدور الذى بلغ به العرب الذروة العليا من فيض القرائح ، ونبل الخواطر ، وتمام الشاعرية ، واستفحال العبقرية .

وهؤلاء الغربيون — وهم مقتدى الشرقيين فى كل شىء — لم نسمع أنهم نبذوا شعر (هومير) لتقادم مدته ، ولا حقروا (فرجيل) لعدم جدته ، ولا عدلوا عن (غوته) و (شكسبير) لأنهما ليسا من أهل القرن الأخير ، بل هؤلاء وأمثالهم ممن غبروا إلى اليوم عندهم أحياء ، تتجاوب بصدى أقوالهم الأحياء ، وهم فى أوربة أوتاد الأدب الذين بهم علت سرادقاته ، وأعلام البيان الذين منهم ظهرت آياته . وعنهم روت رواته .

فالأدب الأوربى إلى هذه الساعة أدب أثينة وروما ، وجميع ما بسق من فروعه وشماريخه هو مشتق من تلك الأرومة .

فأين إذن الأدب الجديد الذى يدّعون وجوده ؟ وأين الأسلوب الأدبى الطريف الذى قد أجادوا توليده ؟ . إن الجواب على هذا لمعجز ، وإن الخوض فيه لحرج [1] » .

ثم يزداد شكيب صراحةً فى مهاجمة الجديد والسخرية به ، فنراه فى كتابه عن شوقى الذى نشره سنة ١٩٣٦ يورد بيتى شوقى :

« هومير » أحدث من قرون بعده شعراً ، وإن لم تخل من آحاد

---

(١) روض الشقيق ، ص ٤ و ٥ .

والشعر في حيث النفوس تلذه لا في الجديد ، ولا القديم العادي

ثم يسارع شكيب إلى تأييد شوقي في رأيه ، ويتوسع في مقاومة الجديد ، فيقول فيما يقول :

« لو كانت القدمة مما يهجن الشعر لوجب أن يكون (هومير) منبوذاً ، فإنه أقدم شاعر ، ونحن لم نزل نقول لهؤلاء الذين لا يفتأون يتكلمون في القديم والجديد من الشعر ، ويزعمون أن لكل عصر « مدرسة » على قولهم في الشعر : إن هذه « المدرسة » تكون في العلم ، وتكون في الصناعة ، وتكون في الزراعة ، وتكون في كل شيء إلا في الشعر ، فإن مدرسته هي القلب ، وإن طريقته هي النفس ، وإن النفس البشرية لم تتغير ولن تتغير ، فهي هي في أذواقها ومشاربها ، ومواردها في الحياة ومصادرها .

فإذا كان العلم يتغير بظهور حقائق جديدة ، وبروز أسرار كونية كانت حتى اليوم خافية ، فإن العلم شيء والشعر شيء آخر .

وما سمعنا — يا ليت شعري — أن الإنجليز زهدوا في شعر (شكسبير) لكونه عاش قبل هذه الأيام بثلاثمائة سنة ، ولا أن الألمان عابوا (غوته) لقدم عهده ومجيئه قبل اليوم بمائة وخمسين سنة ، ولم يزل (غوته) هو عند الألمان سيد الشعراء ، ولم يزل شكسبير عند الإنكليز أكبر الشعراء .

وشكسبير ، وغوته ، وملتون ، وكورنيل ، وراسين ، ودانتي ، وكل هؤلاء لم يعرفوا شيئاً من أوضاع العصر الحاضر ، ببداهة كونهم قد سبقوه بأعصر ، وهم على كل حال متقدمون لا محدَثون .

وكم من مرة نقول لهم : ليس الشعر بكيمياء ، ولا طب ولا جغرافية ولا طبيعيات ، وإنما هو تأثرات نفسية وانطباعات فكرية لا غير .

هذا من جهة الشعر على العموم ، وأما من جهة الشعر العربي الذي تريدون أن

نفرنجوه ، فالشعر العربى لا يكون شعراً إلا إذا وافق ذوق العرب ، ولاءم مشارب أنفسهم ، وجانس مذاهب لغتهم ، واتصل بمناحى حياتهم ، نظمه قديم أومتوسط أو محدث ، كلهم على حد سواء .

فإذا باين الشعر العربى أساليبَ العرب فى بيانها وطرقها فى التعبير عن خوالج نفسها لم يتأثر به قارئ ، ولا تسوَّغه سامع من العرب ، وربما لم يفهموه أصلا ، على حد ما قال الأستاذ محب الدين الخطيب : إن الواحد من هؤلاء « يظل يومه يسطو على منظومات الإفرنج ، يستل منها معانيها الغريبة عن الأذواق العربية ، فيصوغها بألفاظ وتراكيب يلعن بعضها بعضاً ، فلا يفهم منها القارئ العربى إلا بقدر ما أفهم أنا من الصينى » . وأنا أيضاً معترف بأنى لا أفهم هذه اللغة التى يكتبون بها[(1)] » .

ويحسن أن نقف قليلا أمام هذا النص ، فشكيب ينكر وجود المدارس فى الأدب ، ويقصرها على العلم ، ولست أدرى كيف يجيز وجود المدارس فى العلوم ولا يجيزها فى الآداب ، وشكيب نفسه كأنما اندفع بغير وعى إلى إجازتها حين قال : إن مدرسة الشعر هى القلب ، وأن طريقته هى النفس .

فهذه النفس البشرية بعيدة الأغوار ، سحيقة الأعماق ، متكاثرة الألوان بتكاثر أصحابها ، وصدق القرآن حين قال : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . فالنفس البشرية — ممثَّلة فى أفرادها العديدين — عالم رحيب وسيع ، ولله در الشاعر حين خاطب الإنسانَ صاحبَ النفس البشرية بقوله :

وتزعم أنك جرمٌ صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

ومادامت النفوس مختلفة المشارب متعددة المنازع ، فلم لا تفترق ، وتتباين مذاهبها ، وتتقارب مسالكها أو تتباعد ، وتتآلف طباعها أو تتخالف ، وتتدانى أو تتنافر ؟ .

---

(1) كتاب شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

ولم لا يكون اختلافها فى مجال الأدب أوضحَ من اختلافها فى غيره ، لأن للذوق دخلا كبيراً فى مجال الأدب ، والأذواق متباينة . حتى قيل من قديم : « لولا اختلاف الأذواق ماراجت الأسواق » ! . وشكيب كأنه يرد على نفسه بنفسه حين قال فى موطن آخر : « وليس الشعر والأدب ميكانيكيات وموارد يستوى فيها العربى والعجمى[1] » .

وكيف نقصر وصف « المدرسة » على نطاق العلم ، والعلم هو إدراك حقيقة وكشف مجهول ، فإذا تحقق الإدراك والكشف ، فقد استوى كل مدرك وكاشف مع غيره فى أصل هذا العلم ، ولن يستطيع فريق من العلماء أن يشذوا ويقولوا إن الأرض ثابتة غير متحركة ، بعد أن أثبت العلم أنها تدور ! .

وإذا كان شكيب ينكر على المجددين تهاونهم باللغة ، أو خروجهم على قواعدها ، أو مسخهم لها عن طريق خلطها بسواها على غير هدى أو بصيرة ، فنحن معه على « طول الخط » ، إذ لابد من رعاية حق اللغة كاملاً فى هذا المجال ، مع تذكر أن اللغة كائن حى ينمو ويزيد ، ويقبل التطعيم فى حدود وبقيود .

وأما إذا كان شكيب ينكر على المجددين أن يسلكوا طرقاً فى أداء أفكارهم غير الطرق الموروثة ، أو يحدثوا تشبيهات أو استعارات أو معانى أو صوراً بيانية غير ما كان مألوفاً ، فلست معه ، فما دامت الحياة تتجدد ، فمن حق الأديب أن يتجدد معها ، فالشاعر القديم كان يريد أن يعرض فى قصيدة أمراً ، فيقدم بين يديه غزلاً أو نسيباً ، فماذا على شاعر اليوم لو أنه اختصر الطريق فلم يتغزل ولم ينسب ، ودخل مباشرة فى الموضوع ؟ .

ولقد كان الشاعر القديم يستنبئ الدِّمنَ ، ويقف على الآثار ، ويبكى الطلول ، ويستوقف الرفاق ، ويستبكى معه الصحاب ، فماذا على شاعر اليوم لو أنه لم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

يفعل شيئاً من ذلك ، وعبّر عن عواطفه ومشاعره بطريقة أخرى فى أسلوب عربى مبين ، يرعى للغة ولأصولها حقوقها كاملة ؟ ! . .

على أنه يجب أن أنبه نفسى وأذكّرها بأنى لا أبحث هنا موضوع القديم والجديد ، ولا أؤرخ له ، ولا أتابع مراحله وأطواره ، ولكنى أعرض رأى شكيب ، فلأعد إليه ، لأراه يواصل زمجرته الراعدة فى وجوه الداعين للجديد ، فيتحدام أن يضارعوا أمراء البيان وفرسان الكلام من السابقين الذين حفظوا على اللغة جلالها ، وعلى الأدب العربى روعته ، فيقول فى رثائه للرافعى :

من ذا يضارع فى البيان عصابةً ... قد أوضحوا نهجَ البلاغة نيّرا

هم ذلك السلف الذين لسانُهم ... تنحط عنه جميعُ ألسنةِ الورى

من ذا يطاول فى البلاغة أحمدا ... وصحابَه ، وأبا تراب حيدرا ؟

وأبو تراب حيدر : هو الإمام على بن أبى طالب صاحب « نهج البلاغة » .

ثم يندد شكيب بتفكير المجددين وأعمالهم ، وبنوّه بالقديم وخلود حلاوته ، فيقول :

زعم الذين نَحَوُا الجديد بأنه ... عصر تحتم أن يخالف أعصرا

حسبوا التدنى فى البيان تقدما ... رأوا الركاكةَ بالثقافة أجدرا

عمدوا إلى التغيير حتى يحدثوا ... حدثاً يبلغهم مراداً مضمرا

واستظهروا بمقالة تلخيصها ... أن القديم مضى ، وولى مدبرا

قد فاتهم أن الحلاوة سرمد ... ومذاق طعم الشهد لن يتغيرا

كم من قديم لا يزال رواؤه ... متألقاً يحكى الصباح المسفرا

مهما تقادم جوهر فى عتقه ... فهو الثمين ، وليس يبرح جوهرا

من حاد عن حب الجمال تعنتا ... يتبدل الأدنى ، ويبغى الأحقرا

لغة قلَوْا أسلوبَها ، وتخيروا ... عنها كلاماً مثل أحلام الكرى

وهكذا مضى شكيب يهاجم الجديد ، ويحض على القديم .

وكما عارض شكيب دعوة « الجديد » عارض تحليل الشعر العربى ، ومقارنته بالشعر الأوربى . ومن العجيب أن شكيب صرح بهذه المعارضة فى كتابه عن شوقى الذى يورد فيه نماذج من شعر شوقى ويعلق عليها ، ويستطرد فى تعليقه ذات اليمين وذات الشمال ، ويترك الموضوع أحياناً ليدخل فى موضوع جديد يتعلق به أو بغيره ، وبعد قليل من الوقت أو طويل يعود إلى الموضوع الأصلى .

يقول شكيب :

« فأما أسلوب التحليل الذى درج عليه بعض أدباء هذه الحقبة الأخيرة من هذا العصر يذهبون فيه مذاهب الإفرنج ، لا فى المعنى فقط ، بل باللفظ تقريباً ، ويورد الواحد منهم البيت ، فيأخذ بتشريحه من وجهه ، ومن قفاه ، ومن أسفله ، ومن أعلاه ، ويشير إلى ما هنا من عاطفة جريئة ، وما هناك من ابتسامة بريئة ، ويستعمل فى الوصف تلك الألفاظ الأوربية التى ليس فيها من العربى إلا الحروف ، بحيث إن كثيراً من العرب لا يفهمون منها قليلا ولا كثيراً ، فلسنا من هذا الأمر فى قبيل ولا دبير .

وإننا لا نحب أن نخلط العربى بالأعجمى ، ولا أن نخاطب العرب إلا بما يعقلون ويشعرون ، وما تسيغه أذواقهم ، فإن لكل أمة أدباً ، ولكل قوم مشرباً ، وإن الخلط بين شعبان ورمضان إظهارا لسعة العلم ، وتزيداً بما ليس من مقتضى الواقع ، ليس بطريقتنا ، وإننا نؤثر على ذلك أن نكتب مثل هذه الفصول التحليلية بلغة أوربية ، كما يفعل المستشرقون الأوربيون إذا أخذوا كتاباً عربياً فشرعوا فى تحليله .

نعم نؤثر الكتابة بلغة أوربية فى هذا الموضوع ، على أن نباشر هذا التحليل بجمل أوربية فى حروف عربية ، يمشى فيها القارىء مرحلة وكأنه واقف مكانه لعدم ألفته بهذه الألفاظ المترجمة ، وبهذه الأعلام التى هى غريبة عن قومه [1] » .

(١) كتاب شوقى ، ص ١٣٦ .

ثم يرى أن هذه الكتابة لا تُرْوِى شاربا ، لأنها وضع للشىء فى غير محله ، ويرى أنه لا بأس « أن يورد الكاتب فى تحليله لبيت من شاعر عربى معنى قد توارد عليه مع شاعر أجنبى ، أو ملاحظة ظهر فيها شىء من الموافقات أو المفارقات بين أدبنا وأدبهم » ، وأما أننا كلما أردنا وصف بيت لطرفة أو قصيدة للأعشى أقحمنا أسماء فيكتور هوغو ، والفرد ديموسيه ، ولامرتين ، وغوته ، وشكسبير ، فهذا تنطع وتحذلق ، وتجب مراعاة الذوق العربى ، وأن نستشهد بأدباء العرب ، لأن العربى كما « يعاف طعام الأمم الأجنبية وشرابهم فإنه لا يسوّغ بالسهولة أشعارهم وآدابهم[1] » .

هذا رأى شكيب فى أسلوب التحليل ، ويخيل إلىّ كأنه قد خلط بين أسلوب التحليل وأسلوب الموازنة ، لأن التحليل لا يستلزم ولا يستدعى أن توجد ألفاظ غربية أو أسماء أوربية فى التحليل ؛ ولكن عماد التحليل أن يفصّل الناقد مدلول كل كلمة ، ومدى تناسب كل لفظة مع أختها ، وأن يبين ما فى النص من سر التركيب وطريقة التأليف ، وأن يتحدث عن كل ما يتعلق بالنص الأدبى ، من ناحية اللغة ، والأسلوب ، والجرس ، والمعنى ، والظلال التى تحيط بهذا المعنى ... إلخ .

بل إن الموازنة قد تتم دون إيراد هذه الأسماء الأوربية التى ذكر شكيب طائفةً منها ، فقد أوازنُ بين أديبين أو شاعرين عربيين ، ولا أحتاج إلى مصطلحات غربية ولا أسماء أجنبية .

ولست أرى بأساً فى أن نوازن بين أدب عربى وأدب غربى ، كما لا أرى بأساً فى أن نوازن بين أديب عربى وأديب أوربى ، متى توافرت شروط الموازنة .

---

(١) المرجع السابق .

ولا أنكر أن بعض المتعالين بثقافتهم الأجنبية قد يسمجون فيتحذلقون ويتنطعون — كما يعبر شكيب — ويقحمون كلمات أجنبية وأعلاما أوربية في كلام عربي لهم ، أو يسمونه عربياً ، ولكن هذا لاينفي إحسان طائفة من الأدباء والنقاد حينما يحاولون نقل الروائع من لغة أجنبية إلى لغتهم ، أو حينما يحاولون إطلاع القارئين بالعربية على تيارات فكرية ، ومذاهب أدبية ، وصور بيانية في لغة أخرى ، وليست اللغة القوية قمقما مغلقاً على ما ورثه أبناؤها من تراثها ، ولكن اللغة القوية تلتقي ، وتتقبل ، وتهضم ، وتستفيد ، دون أن تفقد أصالتها وجلالتها واحتفاظها بصبغتها ومكانتها .

ولعلّ هذا هو الذى كان ، ولكن ليس من نطاق البحث أن نفصل كيف كان ! .

وهناك ما يسمى بالآداب العالمية ، وهى تلك الآثار الإنسانية التى يمكن أن تُقرأ فى أكثر من لغة ، دون أن تفقد جوهرها وثمرها ، فكيف يقال إن العرب كما يعافون طعام غيرهم من الأمم يعافون أشعارهم وآدابهم ؟ وكيف وقد أثّرت الترجمةُ إلى العربية عن اليونانية والفارسية والهندية فى القديم ، وعن الإنجليزية والفرنسية وغيرهما فى الحديث ، أكبرَ الآثار ؟ .

ومادام شكيب يناهض الجديدَ بالقوة التى رأيناها ، ويعترض على أسلوب التحليل بالشدة التى شهدناها ، فلن يكون غريباً أن يكره طريقة « الشعر الحر » ، فنراه يقول عن شوقى إنه « قد يتحدى الإفرنج فى شعره ، فلا يبالى مثلا بأمر القوافى التى يكررها كثيراً بالمعنى الواحد ، كما لاحظته فى همزيته الشهيرة ، ولا يعبأ بتجوزات أخرى أعرفها له ، وأخشى أن يتمادى به احتقارُ القيود الشعرية إلى أن ينظم أخيراً بدون قافية نظير شعراء الإنجليز[١] » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

وما دام شكيب يخشى هذا من شوقى ، فهو إذن يكرهه ويأباه .

وشكيب الذى يقول هذا لا يغيب عنه أن الوزن قيد ، وأن القافية قيد آخر ، وأن هذين القيدين — مع لزوم المحافظة عليهما عند شكيب وأقرانه — يسلبان الشاعر حرية التصرف ، ويجعلانه أسير نطاق غير متحرر ، ولذلك نرى شكيب يتحدث عن قصيدة شوقى التى مطلعها :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحّم عوده

ثم يخبرنا بأن أخاه نسيب قد عارض هذه القصيدة بقصيدة مطلعها :

مضناك عصاه تجلده هل أنت بعطفك منجده

ثم يعلق على عمل الشاعرين فى القصيدتين قائلا :

« إن هناك صنعة تعمدها الشاعران اللذان قيدهما هذا الوزن ، فأصبحا له أسيرين ، يسخّران له المعانى ، ويجران القوافى . ولا جرم أن الوزن والقافية طالما حكما على الشاعر ، وسلباه حريةَ التصرف فى إبراز معانيه كيف شاء ، ولهذا كان أطول الشعراء باعاً وأعلاهم درجة من تراه حراً وهو مقيد[1] » .

بل إن شكيب يقرر أن بعض البحور الشعرية أشد ثقلاً وتقييداً من بعض البحور الأخرى ، ولذلك يقول عن البحر الذى اتبعه شكيب ونسيب فى قصيدة « مضناه » السابقة .

« ولكن بحراً كهذا الذى نظما عليه — وإن كان مُرْقصاً يعجب القارئ بمقاطعه ، ويلذ بخَبَبَه — ترى الشاعر فيه راسفاً فى قيد ثقيل يمنعه أن يجرى جريَه المعتاد[2] » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
(٢) المرجع السابق .

وشكيب فى موطن آخر ينصح لشوق بأن يحسن اختيار البحور التى يملك فيها حريته ، وأن يتجنب « الأبحر التى فى ركوبها خطر » ، ويقرر شكيب أنه يختار البحور السهلة فى شعره ، ويقول : « ولى نُدْحة فى الطويل والكامل وأشباههما عن هذه الأوزان المرجاء ، وغنى بركوب تلك الأبحر الواسعة عن هذه الخلج الموجاء[١] » .

وخلاصة الرأى عند شكيب هنا هو أنه لا يرتضى الشعر الحر ، بل يطالب بالمحافظة على الوزن والقافية ، لأنهما عماد موسيقية الشعر وانتظامه واتساقه ورتابته ، وهو فى الوقت نفسه يدرك ما فيهما من تقييد وتحديد ، وينصح بالتخفف من وطأة هذه القيود باختيار أوسع البحور وأسهلها .

وأريد أن أقول : إذا كان الأصل المحمود — عند أصحاب عمود الشعر — أن تكون القصيدة كلها على قافية واحدة ، فما هناك من بأس أن تأتى القصيدة مقطوعات ، وكل مقطوعة منها على قافية ، ويكون هذا نوعاً من التخفيف الذى يبيحه شكيب .

وكذلك ينبغى أن نتذكر أن المسرحية الشعرية تضطر الشاعر إلى التنويع فى القافية ، وربما ترك التزامها فى بعض المواقف من المسرحية ؛ مع التزامه الوزن ؛ وما أظن شكيب يغاضب فى ذلك ، فقد قرأ عن غير شك مسرحيات شوقى الشعرية ، ورأى تصرفَه المحدود فى تنويع القافية ، ولم يعب عليه ذلك .

وهذ يذكِّرنا بملاحظة نبديها على حديث شكيب عن شوقى ، إذ أنه لم يتعرض فى كتابه عن شوقى لمسرحياته ببحث أو تعليق ، فما سر ذلك ؟ .

لعلّ إعجابه بقصائد شوقى فى الإسلام والأخلاق والاجتماع وغير ذلك من أغراض شعر شوقى قد استبد بعنايته ، فشغله عن تخصيص مسرحياته بحديث ! .

＊＊＊

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ . والندحة : ما اتسع من الأرض ، والكثرة ، والسعة .

ومن الإنصاف لشكيب أن نقول إنه على الرغم من مقاومته للجديد وللتحليل الشعرى وللشعر الحر ، كان يرى أن الشعر يحسن ويجود إذا ارتبط بالحياة وتفاعل مع الأحداث ، وأغلب تعليقاته فى كتابه عن شوقى تدور حول شوقيات جاءت فى مناسبات وأحداث قومية ودينية ، وشكيب يجعل من حسنات ديوان شقيقه أنه قال فى الشعر الاجتماعى ، فيقول شكيب فى تقديمه له :

« وأنا منبه القارىء إلى ما فيه من قصائد اجتماعية قد ندر النظم فيها ، وأبيات سياسية أبية ، ثبتت أوتادها ، وشردت قوافيها ، وذلك مثل قصائده فى إعلان الدستور العثمانى ، وفى الحرب الطرابلسية ، وفى الخلافة الإسلامية ، وفى غير ذلك من مقامات الكلام السنية التى تتعذر فيها الإجادة لوعورة مسالكها ، وندورة من غلب على ممالكها [1] » :

* * *

وشكيب يفرق بين « النظم » « والشعر » ، فالنظم عنده وزن ، والشعر شعور ، ولذلك يورد قولَ أحد الكتّاب الفرنسيين فى أناتول فرانس : « كان شاعراً حتى فى النظم » ، ويعلق على ذلك بقوله :

« بعض الناثرين يكونون شعراء فى نثرهم ، ومنهم أناتول فرانس ، والكاتب يريد أن يقول إن المترجَم [أناتول] كان شاعراً فى نظمه أيضاً ، وقد يجد القارىء هذا التعبير غريباً ، إذ كيف يكون المرء ناظما ولا يكون شاعراً ؟ . والجواب : إن كثيرين ينظمون ، وليسوا فى الحقيقة بشعراء ، بل كما قال واحد : (فقل أنا وزان وما أنا شاعر) [2] » .

وهذه تفرقة صحيحة ، لأن بعض الكلام الموزون لا يفترق عن الكلام المنثور إلا بالوزن وحده ، بينما الشعر الحق هو ما حوى شعوراً وانفعالا .

---

(١) روض الشقيق ، ص ٣ و ٤ .

(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ١٤ .

طريقة تأليف الشعر

ونكيب يتحدث عن طريقة تأليف الشاعر للشعر : متى ؟ وكيف ؟ . فيقول في ذلك كلاما جميلا ، يعرف قيمته من عانى تأليف الشعر ، بل من عانى تأليف هذا أيضاً . يقول :

« ومن أهم ما يغفل عنه الناس ، وهو من أحق الحقائق أن نفوس الأدباء لها أوقاتُ صفاء وأوقات كدر ، وأنها في أوقات الصفاء قد تبرم قوانين ، وتخلق معاني لا تتأتى لها في جميع الأحايين . وربما لاح في فكر الأديب خاطر في إحدى السويعات لو استرسل لأتى فيه بالعجائب ، على حين أنه إذا نشده في وقت آخر ، وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له في ساعة الصفاء ، لوجد زنده فيه صَلْدا ، ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه ، ويطمع أن يقتنص تلك الشوارد التي كانت بين يديه فإذا هي الآن لا تطيعه ، ومنها ما ذهب غير معاود ، ومنها ما مَضَى غير مقْرِن .

ولذلك كان يجب على الأديب شفافِ الطبع أنه إذا عنَّ له في سويعات الصفاء معنى مبتكر أو خاطر شريف ، ووجد هذا الموضوع منثالا ، عليه أن يسرع إلى قيد أوابده ، ويأخذ القلم فيحرره ، وإذا كان شعراً نظمه ، وإذا كان نثراً دبجه ، حتى لا يفوته فيما بعد .

فإن الأفكار من جملة حظوظ الدنيا ، تهبُّ أحيانا وتركد أحيانا ، فإذا هبت مرة وجب اغتنامها ، ولم يجز إهمالها على نية أن يعاد إليها مرة أخرى ، وإن الأفكار نظير الأقدار ، ليس في مقدور الكاتب أو الشاعر أن يجيدها كل حين ، وقد تفيض على الرءوس أشعةً إذا ولت تعذر استردادها .

فالأديب اللبيب هو الذى يقنص الشاردة لأول سنوحها ، ولا يدعها تذهب على أمل أنه يصطادها فيما بعد ، فإنها إذا شردت قد تفوت ، والفلاة طويلة عريضة فلا يحيط بها الصائد ، ولاتطوى له كيف يشاء [1] » .

وهذا الكلام له علاقة بموضوع الإلهام عند الأديب أو الشاعر ، إذ هناك لحظات تمر بالإنسان يبلغ انفعاله فيها بالفكرة حداً عاليا ، وحينئذ ينبغى له أن ينتهز الفرصة فيتلقى عن نفسه وقلبه أضواء هذا الانفعال الذى يشبه الاشتعال ، لأنه لو أهمله أو أجّله برد وجمد ، وإذا جاء بعد هذا ليؤلف أو ينظم ، كان كمن يحكى قصة سمع حوادثها ، أو رأى هذه الحوادث منذ حين ، ولكنه حين يكون فى غمار القصة وهى تقع ، ويصورها وهى قائمة بجوها وأحداثها ، يكون أقرب إلى الصدق وأقوى على التأثير [2] .

* * *

ولشكيب كلمة لها قيمتها فى مدلول النص الشعرى ، فهو يقرر أن الإنسان كلما اتسعت ثقافته أو تجاربه اتسع نطاق فهمه لمدلول ذلك النص ، وربما نظم الإنسان شيئا وأراد منه معنى ، فإذا اتسع نطاق الثقافة عنده ، ألقى من ثقافته على نظمه ما يجعل نطاقَ مدلوله أوسع وأفسح ، بل قد ينظم الشاعر شيئا يريد به معنى ، ويأتى القارىء الواسع الثقافة ، الدقيق الملاحظة ، العميق الإحساس ، فيفهم من نظم الشاعر أكثرَ من المعنى الذى أراده الشاعر بشعره ، وكم من نصوص فهمنا منها معانى تحتملها ألفاظها ولا تتأبى عليها أساليبها ، ومع ذلك لم يُرِدْها أصحابها يوم قالوها . وإذا كان السابقون قد قالوا : « المعنى فى بطن الشاعر » فيمكننا أن نقول : « المعنى فى عقل السامع أو إدراك القارىء » ! .

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٢١ و ٢٢ .

(٢) هناك أيضا من يقول إن الانفعال المستمد فى هدوء قد يؤدى إلى التمكن والتجويد .

فلنستمع إلى شكيب يقول :

« إن كان لك فى الشعر فانظمه شاباً ، وطالعه شيخاً ، لأنك تنظمه شاباً أحسن منك شيخاً ، وتفهمه شيخاً أكثر منك شاباً .

وكأى من بيت كنت أحفظه من أربعين سنة ، ولا أجد فيه شيئاً يأخذ بعقلي والآن أراني أسكر عند تلاوته ، فالبيت فى نفسه لم يتغير ، ولكن تجلت فيه معان جديدة ، بازدياد العقل وازدياد التجربة [1] » .

نعم ، فنحن نقرأ ما نقرأ بأنظارنا وعقولنا وإدراكنا وعواطفنا ، لا بأنظار الذين كتبوا أو عقولهم أو إدراكهم أو عواطفهم .

(١) جريدة الشورى ، عدد ٨ يناير ١٩٣٠ . مقال (سوانح وأفكار) .

الشعر الجاهلى

فى سنة ١٩٢٦ أصدر الدكتور طه حسين كتابه «فى الشعر الجاهلى»، فأثار به الخواطرَ، لما تضمنه الكتاب من حديث عن القرآن والتاريخ والأدب، وقد ذهب الدكتور طه فى كتابه إلى أن الشعر المسمَّى بالجاهلى الموجود بين أيدينا مصنوع منتَحل، وأن الشعر الجاهلى الحقيق قد ضاع وقضى عليه عصرُ الإسلام[1] وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة، وعاد صاحبه فعدَّل فيه، وأظهره بعنوان «فى الأدب الجاهلى»[2].

وليس من منهج البحث هنا أن نتعرض لقضايا هذا الكتاب، ولكن شكيب كان له بمناسبة هذا الكتاب حديث عن الشعر الجاهلى من ناحية صحته وانتحاله، فإن الأستاذ محمد أحمد الغمراوى كان قد أعدَّ كتاباً فى الرد على الدكتور طه بعنوان «النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى»، ونشره سنة ١٩٢٩، وكتب الأمير شكيب له مقدمةً طويلة بلغت خمساً وخمسين صفحة من الحجم الكبير، وأبدى فيها رأيه فى موضوع الشعر الجاهلى من ناحية الصحة والانتحال، ولذلك جعل عنوان المقدمة: «الشعر الجاهلى: أمنحول أم صحيح النسبة». وقد كتب شكيب هذه المقدمة خلالَ شهر نوفمبر ١٩٢٨، كما نفهم ذلك من خلال حديثه، إذ يورد عبارة نفهم منها أنه يكتب سطوره فى العاشر من نوفمبر ١٩٢٨[3].

وقد بدأ شكيب بذكر مقطوعات شعرية ليست له، ولكنه تمثل بها أو رددها، فنسبها بعضُ الناس إليه، وسجلوها على أنها له، وحاول هو أن يتعقبها ويكذب

---

(١) فى الشعر الجاهلى، ص ٧ و ٢٤ وغيرها.

(٢) فى الأدب الجاهلى، ص ٥.

(٣) النقد التحليلى: المقدمة، ص (يا).

نسبتها إليه ، ثم يعلل تلك النسبة بأنها ناشئة عن خطأ فى الرواية ، أو عدم تثبت فى النقل ، أو العمل بمجرد الظن ، أو التدليس والتزوير من الأعداء والحساد .

ثم يعقب على ذلك بتساؤله عن مصير شعره الذى قاله فعلا ، ويبلغ مئات القصائد ، ونثره الذى يملأ الألوف والألوف من الصفحات : أيلزم من نسبة بعض القصائد إليه زورا ، أن يكون كل شعره ونثره أدباً منحولاً له ، ومصنوعاً عليه ، وأنه ليس هو بصاحبه ؟ .

وقد أراد شكيب من هذا الحديث أن يمهد لدخوله موضوع الشعر الجاهلى ، فهو يستشهد للماضى البعيد بشىء معاصر قريب ، ليكون ذلك أدعى إلى الرضا والقبول .

ثم يذكر أن طه حسين بمنطقه فى كتابه فى الشعر الجاهلى جدير بأن ينكر كلَّ الشعر المنسوب إلى الأمير ، ما دام بعض الناس قد ألصق به فى بعض الأحيان شعراً لسواه .

ويرى شكيب أن الدكتور طه فى حكمه على الشعر الجاهلى مقلد لمرغليوث وغيره من الأوربيين ، بسائق عقيدة سخيفة هى أن الأوربى لا يخطىء أبداً ، وإذا كان الغربى قد بذَّ الشرق فى العلوم المادية ، فإنه لم يبذه فى العلوم الأدبية والعقلية ، فليس المستشرقون أعلمَ بالأدب العربى من العرب ، وكيف يميز مرغليوث الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلى الأصلى ، وهناك « جهابذة العربية وصيارف اللغة الذين يعرفون فى لحظة صحيحها من بهرجها »[1] لمرانهم ووقفهم أنفسَهم على خدمة هذه اللغة ، فكيف يكون مرغليوث مثلهم ، فضلا عن أن يكون أحسن منهم ؟ .

ثم يشير شكيب إلى أن أئمة العربية أخلصوا الخدمةَ لها ، فضبطوها وهذبوها ،

---

(١) المرجع السابق ، ص (و) .

وعرفوا الصحيح من العليل فيها ، ونصوا على ما ثبت أو ترجح أنه وضع بعد الجاهلية ، وهو قليل جداً بالنسبة إلى الكثير الثابت .

وإذا كان شكيب قد عاب على المستشرقين أموراً ، فإنه يحمد لهم أموراً إذ نراه ينصفهم ويعطيهم حقه ، فهو يقول عنهم : « ولا ننكر ما عندهم من علوم واسعة ، وآراء صائبة ، ونظرات دقيقة ، ولمحات عامة ، وطرق فى البحث جليلة ؛ وأن منهم مؤلفين عظاماً ، ومنقبين دهاة ، ولكننا لا نتردد فى القول إننا لم نجد منهم واحداً — إذا رجعت إلى المسألة العربية — نقدر أن نعده عالما ، وأن نقرنه إلى علماء هذه الأمة الحاضرين فضلا ، عن الغابرين »[1] .

ثم يمضى شكيب مقرراً أن الأفرنجى « لا يكاد يصل علمه بحادثة أو حادثتين أو ثلاث حتى يجعل منها قاعدة ، ويبنى على ذلك حكماً ، ويسجله إسجالا ، ويرخى بعد ذلك عنان تصوراته ، حتى لا تعرف نفسك أفى منام أنت أم يقظة »[2] .

ويقول إن كتب المستشرقين عن العرب وبلادهم مشحونة خاطا وخبطا ، والنادر ما كان قليلا ، ويضرب أمثلة على التحريف والخلط من كتاب « الأناجيل » لرينان وغيره ، ثم يقول إن فى هذه الأمثلة « ما يكفى أن يأخذ منه الشرقيون أمثلة كافية مقنعة ، وحججاً راوية مشبعة ، بحيث ينتهون عن هذا المرض : مرض تلقى أقوال الأوربيين قضايا مسلمة ، حتى فيما يهرفون فيه بدون معرفة »[3] .

ولذلك لا يليق بنا أن نسلم للأوربى بكل ما يقول ، أو نعجب بكل ما يفعل ، وإذا كنا قد أخذنا عن الغربيين الكيمياء والطبيعيات والهندسة والطب والاقتصاد والعلوم الاجتماعية فليس بلازم أن نأخذ عنهم العربية .

---

(١) المرجع السابق ، ص (ز) .
(٢) المرجع السابق ، ص (ط) .
(٣) المرجع السابق ، ص (يب) .

ذكر شكيب كلَّ هذا ليهدم أولا فكرةَ الاعتزاز الدائم بما يكتبه المستشرقون ، فإذا هدمها فقد أدخل الوهن على حديث الدكتور طه، لأنه ناقل عن مرغليوث وإخوانه ، ويكون هذا تمهيداً ثانياً منه للدخول على بيان رأيه فى انتحال الشعر الجاهلى وعدم انتحاله .

ويدخل شكيب بعد هذا كله صميمَ الموضوع : بعد خمس عشرة صفحة قضاها فى التمهيد .

ذكر شكيب أن من يزعمون انتحال الشعر الجاهلى يعللون ذلك بأن الإسلام أراد أن يطمس كلَّ ما تقدمه . ويجيب شكيب بأن إعلاء كلمة الإسلام لا يستلزم تعفية كل أثر من آثار الديانات التى سبقته ، بل يزيد فى فضله أن يعلم الناس أنه قد سبقته أديان عريقة ، وجاء هو فما زال يقوَى حتى قضى على هذه الأديان فى جزيرة العرب .

ومما ينهض دليلا على عظمة ما صنعه الإسلام للعرب تذكيرهم بالبيئة السابقة الذليلة ، وبضدها تتميز الأشياء .

ثم يذكر شكيب برهاناً ثانياً على بطلان القول بأن الإسلام تعمد طمسَ ذكر الأديان السابقة ، على حين أن القرآن المجيد الذى هو مشرق الإسلام وينبوع الإيمان ملآن بذكر هذه الأديان السابقة وأخبارها وسيرها .

ثم يصول فى التعليق فيقول : « والحاصل : لا يكاد الإنسان يجد فى العربى على سعته كلاماً يكيل به مقدارَ حماقة أولئك القائلين إن الإسلام زوّر على شعراء الجاهلية شعراً لم يقولوه ، ورفع من بين أيدى الناس الشعر الذى قالوه ، وذلك ليمحو ذكرَ كلِّ ملة جاءت قبله ، وأثر كل عقيدة سبقته ، عند ما يكون القرآن شمس الإسلام من أوّله إلى آخره لا تكاد تخلو منه صفحة من أذكار هاتيك الملل والنحل ،

لا بل من أخبار الوثنية نفسها التي ذكر القرآن أصنامها كاللات و العزى ومناة الثالثة الأخرى، وغيرها من الأصنام (١)".

ويلتفت شكيب الالتفاتة بارعة حين يذكر أن الشعر الجاهلي الموجود بين أيدينا، والذي يقال إنه مصنوع، لا نجد فيه تأييداً للإسلام ولا موافقة له، فلماذا صنعه الصانعون ومحوا ما قبله ؟. وما الجدوى من محو شعر مخالف، وصنع صورة منه بعد محوه ؟

إن الشعر الجاهلي الموجود بين أيدينا نستطيع أن نأخذ منه أوضاع الجاهلية، ونستطيع أن نجد شواهد كثيرة على أن الشعر المناهض للاسلام قد بقي، بل رواه المسلمون، حتى نقلوا إلينا قول الأخطل:

ولست بصائم رمضانَ عمري ... ولست بآكل لحمَ الأضاحي
ولست بقائل ما عشت يوماً ... قُبَيْلَ الصبح: حيّ على الفلاح

وقول الآخر:

لعبت هاشمُ بالدِّين، وما ... نبأ جاء، ولا وحي نزلْ
ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزعَ الخزرج من وقع الأسَلْ

وأورد غير ذلك من الأمثلة، وقال إننا نجد كتب السيرة « مشحونة بتلك الأقوال التي يدل استقصاء المسلمين شواردَها على أن قضية الحذف والطمس التي يتشدق بها بعض المستشرقين ومن تابعهم من مرضى القلوب من الشرقيين لم يكن المسلمون منها في وِرد ولا صَدَر » (٢).

ويشير شكيب إلى أن طريقة كَمّ الأفواه وتقييد الأقلام إنما عُرفت في الدول

(١) المرجع السابق، ص (ﻳﺰ).
(٢) المرجع السابق، ص (ﻄﻂ).

المتمدينة . ولكن سكان المضارب والقبائل الرُّحَّل لم يكن فوقهم من يقول لهم : قولوا هـذا الشعر واتركوا غيره ، وفى العربى عزةٌ تأبى عليـه أن يستبد به فى فكره مستبد .

ثم يتساءل شكيب متحدياً عن الوقت الذى تمت فيه عملية الانتحال للشعر الجاهلى : متى صدر الأمر بذلك ؟ ولمن ؟ وممن ؟ ومن الذى بدأ الانتحال ؟ ومن الذين اشتركوا فيه ؟ وأين ؟ وكيف ؟ ! . ثم يقول : « مَنْ تلك العصابة التى تولت كِبْرَ هذا التزوير العبقرى » ؟ [1] .

وينتهى شكيب إلى الحكم ببطلان القول بانتحال الشعر الجاهلى على الصورة التى رسمها الدكتور طه ، ويقول إن المصنوع منه نزر ضئيل ، وقد نبه عليه العلماء من زمن بعيد ، فلا معنى للشك بلا برهان ، وما كان يقيناً لا يزول بشك أو احتمال .

وأرى أن شكيب — على الرغم من إسهابه وتكراره فى مقاله — قد أورد أدلة قوية على رأيه ، وهذه الأدلة تثبت أولا دقة فهمه ، وسعة اطلاعه ، إذ أورد الكثير من الوقائع والحوادث والنصوص ، وكان شكيب فى مناقشته موضوعياً ، لم يسب ولم يشتم ، على الرغم من أن الموضوع يتعلق بأكثر من ناحية من نواحى الدين الذى يعتز به شكيب ويغار عليه .

وقد سبق لشكيب أن تعرض لموضوع الشعر الجاهلى فى مقال عنوانه : « التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم » ، ونشره الرافعى فى كتابه « تحت راية القرآن » [2] . وهـذا المقال مذيل بتاريخ كتابته وهو « رومة فى ٨ مارس سنة ١٩٢٦ » ، ولكن مقدمة شكيب لكتاب النقـد التحليلى أوسع بكثير من هذا

(١) المرجع السابق ، ص (كو) .

(٢) تحت راية القرآن ، ص ٩٣ — ١٠٣ .

المقال ، لأنها تقع فى أضعاف صفحاته ، وهى كلها حول موضوع الشعر الذى يهمنا الآن ، ولذلك كانت أولى بالتقديم ، وإن كانت متأخرة فى الزمن .

وأما مقال « التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم » فهو — فوق صغره بالنسبة إلى المقدمة — يتحدث عن أمور كثيرة جاء بها موضوع الشعر الجاهلي

وهو فى المقال يقرر خطأ من قال إن السلف فى صدر الإسلام وضعوا رقابة (سانسورا) على الشعر الجاهلى ، لأن هذه دعوى مبنية على الافتراض بلا دليل . والواقع يناهضها من كل الجهات [1] .

وذكر شكيب طائفة من الأدلة لا تخرج عما فصله وحلله فى مقدمته لكتاب « النقد التحليلى » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

الفصل الثانى

آراء شكيب فى النثر

بين القديم والجديد

فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٢٣ والشهور الأولى من عام ١٩٢٤ ثارت مناقشة أدبية حول تجدد اللغة وأساليبها بين شكيب أرسلان وخليل السكاكينى ، وقد نشرت هذه المناقشة جريدةُ « السياسة » فى خلال المدة السابقة ، ثم جمعها السكاكينى فى كتابه « مطالعات فى اللغة والأدب » الذى طُبع سنة ١٩٢٥ . ومن حسن الحظ أن السكاكينى كان أميناً فى نقل هذه المناقشة ، لأنه لم يقتصر على إيراد كلامه وآرائه ، بل ذكر كلام شكيب وآراءه كذلك ، ولم يذكر كلامَ مناظره تلخيصاً ، بل ذكره بنصه ، فعاون ذلك على إعطائنا صورة كاملة وواضحة لأطوار المناقشة ومراحلها ، ولآراء شكيب فى مسائل كثيرة تتعلق بالنثر ، ولذلك ينبغى استعراضُ المناقشة لتصورها ، ثم يكون الحكم عليها .

بدأت المناقشة بأن نشر خليل السكاكينى فى عدد ٢٦ سبتمبر ١٩٢٣ من جريدة « السياسة » المصرية مقالا بعنوان « تطور اللغة فى ألفاظها وأساليبها»[١] . ذكر فيه أن اللغة تتطور فى ألفاظها وأساليبها تطوراً مستمرا فى تؤدة وخفاء ، فلكل عصر — بل لكل إقليم فى كل عصر — لغتُه وأسلوبه ، وضرب أمثلةً على اختلاف اللهجات وبعض الكلمات بين مصر وسورية وفلسطين ، تدل على تطور الألفاظ .

---

(١) مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ٩٤ ـ ٩٩ .

ثم قال إن هناك مذهبين بشأن الأسلوب ، هما المذهب القديم والمذهب الجديد ، ومن خصائص المذهب القديم الولوع بتكرار الكلام فى غير مواطن التكرار ، والإسراف فى استعمال المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها ، واستشهد على ذلك بثلاث عبارات من بيان سياسى كتبه شكيب ، دون أن يذكر السكاكينى اسمه . وقال : إن سبب هذا الترادف إما قلة البضاعة ونزارة المادة الفكرية ، حتى يحسب أصحاب هذا المذهب أن اللغة هى كل شىء ، وإما متابعة لما قال به بعض العرب من الترادف لضرورة ، وإما تقليد للشدياق فى كتابه « الساق على الساق » ، مع أن الشدياق كان يقصد جعلَ كتابه فى المترادفات ككتاب « الألفاظ الكتابية » للهمذانى .

ويقرر السكاكينى أن « هذا النوع من الكتابة غير طبيعى وغير عربى ، أو على الأقل لا يستمرئه ذوقُ هذا العصر[1] » .

ثم يختم حديثه بأن الكلام إما مساواة ، وهى مقبولة مطلقاً ، وإما إيجاز ، وإما إطناب ، ولكل منهما مواطن وشروط ، وأن العرب يميلون إلى الإيجاز ، ويكرهون التطويل الممل ، وأن عصرنا تتغلب فيه لغة « التلغرافات » ، بل تتغلب فيه روح الاقتصاد ، فإذا لم يقتصد الكاتب فى كتابته لم يجد من يقرؤه ، « بل نحن فى عصر المعنى فيه الأول ، واللفظ المحل الثانى ، وبعبارة أخرى إذا لم يرتكز الأدب فيه على العلم فلا قيمة له[2] » .

* * *

كانت هذه المقالة هى الشرارة الأولى فى معركة المناقشة ، وطالع شكيب المقالة بعد فترة من صدورها ، لأنه كان فى (لوزان) ، « والسياسة » تصدر فى القاهرة ، وعرف أنه المقصود بنقد السكاكينى ، لأن الكلام المستشهد به كلامه . وفى عدد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٩ .

٧ نوفبر ١٩٢٣ من « السياسة » ظهر ردُّ شكيب على السكاكيني ، وكان ردًا مسهبًا استغرق أكثر من عشرين صفحة من كتاب « مطالعات[١] » ، بينما كان مقال السكاكيني فى أقل من ست صفحات ، وقد قرر شكيب فى أول المقال أن كل عصر من عصور العربية « لا يخلو من ديباجة خاصة » ، وأن كل إقليم له أسلوبه ولهجته ومنزعه ، وهو يتداول طائفة خاصة من الألفاظ ، ثم يذكر شكيب أن السكاكيني أصاب فى أشياء وأخطأ فى أشياء .

وعلل انتقال بعضِ الأقاليم من استعمال لفظ إلى استعمال لفظ آخر بأن الإقليم كان مخطئاً فى الاستعمال الأول ، ثم عرفَ الصوابَ فرجع إليه ، كما كان بعض المصريين مثلا يجمع كلمة « خصم » على « أخصام » ، ولما عرف هذا البعض أن الصواب هو « خصوم » اتجه إلى استعماله ، « فأنت ترى أن السبب فى ذلك التطور هو متابعة القاعدة واعتقاد تنكب الخطأ[٢] » .

ثم ذكر السبب فى التكرار أو الترادف الواقع فى النداء الذى استشهد به السكاكيني ، وهو أنه قد « وجهه إلى الأمة العربية قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، وخاصيها وعاميها ، مراعياً حالة من يخاطبهم ، وضرورة تمكين المعانى من نفوسهم ، وتحريك عواطف حميتهم ، مما هو فى كل لغة وفى كل منطق وفى كل أدب موطن التكرار الأكبر ، ومحل التأكيد الألزم ، إذ كانت المناشير العامة والرسائل الموجهة إلى الجماهير دائماً على هذا النسق[٣] » .

والحق مع شكيب فى أن التكرار له مواطن ، وإن كان السكاكيني — كما نفهم من كلامه — لا ينكر هذا ، ولكنه يعيب التكرار فى غير مواطنه[٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠ — ١٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٣ و ١٠٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

وبعد أن يعرّض شكيب بالسكاكيني في عبارات شديدة يتعرض لموضوع المذهب القديم والمذهب الجديد ، فيقول :

« إنني لا أعلم مذاهب جديدة إلا في العلم والفن ، وأما في الأدب واللغة فلا أعرف إلا مذهباً واحداً ، هو مذهب العرب ، وهو الذي يريد [أي السكاكيني] أن يسميه بالمذهب القديم ، وهو الذي يجتهد كل كاتب في العربية أن يحتذي مثاله ، ويقرب منه ما استطاع ، لأنه هو المثل الأعلى والغاية القصوى .

وإذا أراد الكاتب المصري أن يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة ، استنفد جميع مُنّته في إلباس هذه المعاني الجديدة حُلَلَ الأساليب العربية القديمة التي هي أصل اللغة ، والطراز المنسوج على منواله .

وقصارى الأديب العربي اليوم أن يتمكن من إفراغ الموضوع المصري في قالب عربي ، بحيث لا يخرج باللغة عن أسلوبها ، ولا يهجن لهجتها ، ولا يجعلها لغة ثانية ، إذ كان التباعد عن الفصاحة ، والحرمان من حظها ، هما على مقدار التجانف عن أسلوب العرب عند ما كانوا عرباً ، لم تخامر لغتهم العجمة ، ولم تفسد منهم السليقة .

وإن القمة العليا من ذلك هي لغة الجاهلية وصدر الإسلام ، ثم ما يليه نوعاً عند ما كانت العربية في عنجهيتها ، والفصاحة في إبان سورتها .

فأما المذهب الجديد الذي أشار إليه في الأدب والإنشاء العربي فلا نعلمه في المذاهب ، ولاوصل إلينا خبره ، فحبذا لو أتانا صاحبنا بتعريف المذهب الجديد هذا ، ودلنا على أمثلة منه وكتب مؤلَّفة فيه ، وأخبرنا من هم أساطين هذا المذهب وحملة أعلامه ، فإننا نقر بكوننا لا نعرف في العربي إلا مذهباً واحداً ، كلما قرب إلى نسق الأولين كان أقربَ إلى الفصاحة ، وأما في العلوم والفنون فذاك موضوع آخر ، كل يوم نحن منها في شيء جديد ، فلا يجوز أن نخلط هذا بذاك »[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ و ١٠٥ .

واستشهد على مثل هـذه المحافظة بحال اللغة الفرنسية التى يصونها أهلوها .

ثم نقل شكيب عن « صبح الأعشى » للقلقشندى أن الإطناب « هو الإشباع فى القول ، وترديد الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد ، وقد وقع الكثير منه فى القرآن الكريم للتأكيد » ، كما وقع فى كلام العرب للتأكيد ، وأن بعضهم ذكر أن الإطناب أرجح ، لأن البيان يستلزم إيضاح العبارة ، وإيضاحها يستلزم مرادفة الألفاظ ، حتى يحاط بكل المعنى دون لَبْسٍ أو إبهام .

وبعد أن يذكر الأقوال الواردة فى التفاضل بين الإيجاز والإطناب والمساواة ؛ يخلص إلى تسويغ الإطناب فى منشوره السابق ، لأنه للناس كلهم ، وأما الإيجاز فيكون للخاصة ، ويقول :

« إذن ليست هناك مسألة تطويل ممل وإيجاز مخل ، بل مسألة الإيجاز فى محل الإيجاز ، والإطناب فى محل الإطناب ، فإذا خوطب الحكماء والعظماء والملوك **بالكلام** المشبع المبسوط المؤكد كان ذلك خللا بأصول الكتابة ، ومنافياً للذوق السليم ، كما أنه إذا خوطبت الجماهير التى لا تجد فيها خاصياً إلا كان بجانبه ألف عامى ، بدقائق من البلاغة وإشارات وكنايات تقتضى إعمال الفكر ، ولا يدرك الجمهور مغزاها ، كان ذلك مخالفاً لآداب الكتابة ، وفات الغرض المقصود من الخطاب ، نعم كان العرب يميلون إلى الإيجاز ، ولكن كانوا يميلون أكثر من ذلك إلى وضع الشيء فى محله »[1] .

ويعود شكيب فيطيل النقل عن « صبح الأعشى » ، ويورد شواهد عربية تدل على استعمال المترادف وإبراز المعنى الواحد بصور مختلفة ، فينقل نصوصاً قالها أبو هلال العسكرى وشهاب الدين الحلبى وأبو طالب وعثمان بن عفان وزياد بن أبيه وعبد الملك بن مروان والحجاج وأبو بكر وعمر وعلى وآخرون .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

واستغرق فى الاستشهاد نحوَ سبع صفحات من الكتاب طال بها المقام وإن كانت هذه النصوص تدل على سعة الاطلاع وحسن الاختيار لموضوع الاستشهاد .

وما كاد شكيب يترك الاستشهاد ليحدثنا قليلا بأن « الاقتصاد فى غير موضعه هو تبذير وإفراط » ، وأن لغة « التلغرافات » لا تصلح للتفصيل والإحاطة ، وأن الغربيين أيضاً يطيلون ، حتى يعود إلى الاستشهاد مرة أخرى ، فينقل عبارات فيها مترادفات للجاحظ ، وعلى بن الجهم ، وبديع الزمان ، والخوارزمى ، وابن خلدون ، والصابى ، وعلى بن حمزة .

ويستغرق فى هذا الاستشهاد ثلاثَ صفحات أخرى ، وكان يكفي ما قدم من شواهد ، مع التذكير بمواطن الباقى ، ما دام مناظره لا ينكر ورودها ، ولكن شكيب يعتذر عن التطويل ، إذ أنه قد قصده للإقناع ، ويختم مقاله بعبارة لا ينسى فيها التعريض فيقول :

« وماذا عسى الإنسان أن يستشهد مما ليس له نهاية ، وأرجو الأستاذ المنتقد ألا يؤاخذنى على الإطناب ، لأنه ضرورى لإيجاد صورة تامة فى الذهن ، ولإقناع من كان مكتفياً برأيه ، وأن يتغمد « قلة بضاعتى ونزارة مادتى الفكرية » بوفرة بضاعته وغزارة مادته ، وفوق كل ذى علم عليم » .

* * *

وفى عدد ٢٢ نوفبر سنة ١٩٢٣ من « السياسة » كتب **السكاكيني** رده الأول على شكيب[1] ؛ وبدأه بتلخيص مقاله الأول ؛ ثم قال إن شكيب وهو ذلك « الكاتب الكبير الذى نعرف فضله ؛ وإن كنا ننكر عليه مذهبه ؛ غضب جداً » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ ـ ١٢٨ .

ويدلل السكاكيني على صحة انتقاده بأنه لم يردّ عليه أحد من الكتّاب حتى ردّ شكيب ليدافع عن نفسه . ورأى أن هذا دليل غير مسلّم ، فعدم الرد لا يستلزم صحة ما قيل :

ثم يعبر السكاكيني بطريقة غير مباشرة عن اعتزازه بنفسه فيقول : « إن جريدة السياسة — ومكانُها فى الصحافة الراقية مكانها — قد شرفتنى فجعلت مقالى فى صدر صفحة الأدب ، وهو المكان المعد لرسائل الأستاذ طه حسين [١] » ! . ويظهر أنه أراد أن يدافع عن نفسه أمام تعريض الأمير به .

ثم قال السكاكيني : إن شكيب لم يغضب إلا لأنه — أى السكاكيني — استشهد بأقواله فى التكرار والترادف ، وهما الأمران اللذان أصر عليهما شكيب حتى فى رده على السكاكيني ، مما يؤكد « أن الأمير من أصحاب المذهب القديم ، وأنه لا يزال مولعاً بالمترادفات على غير حاجة إليها » [٢] .

ثم أورد السكاكيني كثيراً من المترادفات الواردة فى رد شكيب ، وانتقل بعد هذا إلى أمر له أهميته ، وهو مصير المترادفات حين الترجمة إلى لغة أخرى ، فقال :

« ما قول الأمير أعزه الله لو شئنا أن نترجم عباراته هذه إلى لغة أجنبية ، ولم يكن فيها من المترادفات ما فى اللغة العربية ؟ أفلا نضطر إلى تكراره اللفظ بعينه فى غير مواطن تكراره ، فنقع فى عيب حاولَ الأمير أن يتجنبه بذكر مرادف اللفظ ، وإن لم يكن فرق فى الحقيقة بين تكرار اللفظ بعينه وتكرار بمرادفه » [٣] .

ثم ينتقل إلى نقد شكيب لأنه اعتذر عن التكرار والترادف فى منشوره بأنه موجَّه إلى الأمة ، فيسائله عن حكمة الترادف فى رده الأدبى الذى لا يقرؤه إلا من يهمه :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

« أما كان الأولى بأدبه وعلمه أن يلزم نفسه قاعدة « خير الكلام ما قل ودل »؟ ولكنه يظهر أنه لم يراع هذه القاعدة لا فى منشوره الذى « طبعت منه ألوف وألوف من النسخ ليوزع على ملايين وملايين من الأمة العربية فى المدر والوبر ، أو « الأمة العربية جمعاء فى آفاق الأرض ومناكبها ، ومشارق الأرض ومغاربها ، أو « الأمة العربية قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، وخاصيها وعاميها » . نعم لم يراع هذه القاعدة لا فى منشوره ذاك ، ولا فى ردّه هذا .

إذا كان لكل مقام مقال فما باله — أعزه الله — يجعل المقال الواحد لكل مقام ؟ . ولست أظن أن كاتباً كبيراً مثله يتعذر عليه أن يتنكب هذا الأسلوب من الكتابة ، لولا أنه ألفه ، واتخذه مذهباً فى كل ما يكتب ، سواء أكان منشوراً تقرؤه الأمة العربية جمعاء فى المدر والوبر ، وفى آفاق الأرض ومناكبها . . . إلخ ، أم رداً ينشر فى صفحة الأدب ، ولا يقرؤه إلا من يهمه أمره وقليل ما هم .

فصار إذا أمسك القلم انهالت عليه المترادفات كأنه يتناولها عن حبل ذراعه ، فلا يتركها حتى يجىء على آخرها ، وليس هذا أسلوب الأمير ، ولكنه أسلوب قديم أكل عليه الدهر وشرب ، ولعله يتصل بعصر الكهان ، وليس الأمير فيه إلا مقلداً » [١] .

ويؤكد السكاكينى أنه لم ينتقد لأجل الانتقاد ، بل ليشرح مذهباً جديداً يؤمن به ، وقال إن الشواهد التى أوردها شكيب — بعد أن أجهد نفسه فى التنقيب عليها — « لم تزد على أن للإيجاز مقاماً وللاطناب مقاماً ، وقد سبقتُ فقلت فى رسالتى تلك إن للإيجاز والإطناب مواطن وشرائط نص عليها البيانيون ، أمسكت عنها تأدباً مع الأمير ، ولو فرضنا أنها تعنى ما يريد فأرجو أن أنبه من الأمير غيرَ غافل أننا نتكلم عن مذهب جديد ، لا مذهب قديم » [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٤ و ١٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

ويرى السكاكيني أن التكرار يكون لزيادة التأكيد ، ويقول لشكيب :

« إن العامة ياسيدى الأمير لا تفهم منشورك ، أكثرت فيه من الترادفات أم أقللت . إذا أردت أن تخاطب الجمهور فلا إخالك تنكر عليّ أنه يجب أن تخاطبه بلغة مفهومة ، تتجنب فيها مثل قولك : (الشقص الأوفر) إلا إذا كان قصدك أن تنوّمه لا أن تُفهمه »[1] .

وإذا كان شكيب قد أتى بفيض من الشواهد على الإطناب ، فالسكاكيني لا يعجز — كما قال — عن أن يورد أضعافَ أضعاف هذه الشواهد . مما لا ترادف فيه ولا تكرار ، من كلام من يُوثَق بعربيته ، ثم يختم السكاكيني ردّه بقوله :

« كان الأولى بالأمير أن يقول إنه قد ورد فى بعض أقوال العرب المنقولة إلينا على ذمة راويها شيءٌ من الترادف ، لا أن هذا أسلوب العرب »[2] .

* * *

وفى عدد ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ من « السياسة » كتب شكيب ردّه الثانى[3] ، وذكر أنه كان يظن بعد إيراده النصوص التى أوردها أنه لا محل للمناكرة والمكابرة ، ثم يتندر على قول السكاكيني عن نفسه إنه (صاحب مذهب) ، ثم يقول عن السكاكيني إنه : « أنكر جواز استعمال المترادف مطلقاً ، فأوردنا له نطفة من بحر من كلام الأئمة الذى فيه ما فيه من المترادف ، وزعم أن للاطناب مواطن غير المواطن التى أطلنا فيها ، فأوردنا له النصوص والشواهد التى هى مثل فلق الصبح على كون الإطناب مألوفاً فى المناشير العامة — التى هى فى موضوع منشورنا إلى الأمة العربية — فكيف تكون تلك الشواهد فى واد ومسألتنا فى واد ؟ . ورحم الله القائل :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٣) مساجلات فى اللغة والأدب ، ص ١٢٩ — ١٤٣

وليس يصح فى الأفهـام شىء   إذا احتاج النهار إلى دليل »[1]

وغضب شكيب لأن السكاكينى قال عمن استشهد شكيب بإطنابهم . « مَن يسميهم بلغاء وفصحاء » مع أن فيهم اسم الرسول والخلفاء وأعـلام الخطباء والكتّاب ، وفسر شكيب هذه الكلمة بأن مراد السكاكينى منها أنه لا يسميهم بلغاء ولا فصحاء ، وهذا التفسير من شكيب تفسير خَطِر ، وخطورته تكمن فى ذكر اسم الرسول والخلفاء بين المستشهَد بكلامهم !.

ثم يقول شكيب مخاطبا السكاكينى : « تحرير القضية أنك أنت تنكر المترادف مطلقاً ، وأنا أقول : بل له مواضع ، وقد جاء فى كلام أهل اللسان المقتدى بهم فى البيان ، ولا ينشأ من ذلك كما يُفهم بالبديهة أننى أنكر بدائع الإيجاز ، أو أوجب الإطناب فى كل مكان ، حتى تورد لى شواهد على مالم تسبق لى دعوى بإنكاره[2] » .

ثم يقول : « إن الطبيعة البشرية فى هذا العصر وفى كل عصر واحدة ، تميل إلى الإيجاز فى محل الإيجاز ، وتهتف بالمترادف فى محل التأكيد ، وأن الذى قرره من ذلك علماء الأدب هو المنطق المعقول الملازم للبشرية ، الذى ليس فيه قديم وجديد ، لأن العقل ليس فيه قديم وجديد[3] » .

ثم يرد شكيب على مسألة صعوبة الترجمة للمترادف فيقول : « وأما أنه لو أراد الإنسان ترجمة المترادف إلى لغـة أجنبية لازم تكرار اللفظ بعينه فليس بوارد ، لأن كل لغة لها روح ، ولا يقال إن هذا الفرنساوى ليس بفصيح لأننا عند ما ترجمناه إلى العربى بنصه لم يكن له طعم ، ولا أن هذا العربى غير بليغ .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٠ و ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

أفلا ترى أننا عند ما جعلناه فرنساوياً ظهرت فيه كلمات مكررة ، فمن البديهيات أن معيار فصاحة اللغة لا يكون إلا فى نفس اللغة .

خذ فيكتور هوغو وترجمه إلى العربية ، فماذا تجد فيه مما يستحق كل هذا الإعجاب ، مع أنه فى لغته هو السنام الأعلى [1] » ؟ .

ثم أخذ شكيب على السكاكينى أنه هو أيضاً أكثر من المترادفات فى مقالته ، وأنه كرر جملة : « ولا حاجة إليها ولا فائدة فيها » ثمانىَ مرات فى مقالة قصيرة .

ثم يعاود شكيب إيرادَ أمثلة للترادف من كتّاب معاصرين ، ويقول خاتماً ردّه بهذه العبارة التى لم تخل من حدة :

« لا أظن القارىء البصير يحتاج إلى تبيُّن ما فى هذه الجمل البديعة من المترادفات التى تزيد المعنى توضيحاً ، وصبغة القول تلويناً ، والتى لولاها لم يتم التأثير المطلوب فى النفس ، ولكن قاعدة الأستاذ السكاكينى تحظر كل هذا ، وتعده « غير عربى » وإذا حاججته بكلام السلف الذين ورد فى كلامهم مثله قال لك « غير طبيعى ، أولا يستمرئه العصر » ، وإذا قلت له إن هذا أسلوب الروائى الروسى إيفان ترجنيف ، ولا شك أنه أسلوب عصرى أوربى لا تقدر أن تقول فيه شيئاً ، أجابك : إلا أن هذا ليس مذهبى ، وجفّ القلم . ومن هنا تعلم أن صاحبنا ليس فى القديم ولا الجديد [2] » .

***

وفى عدد يناير عام ١٩٢٤ من « السياسة » كتب السكاكينى ردّه الثانى على

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٥ و ١٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

شكيب[1] ، وأشار فى أوله إلى تطويل الأمير فى رده ، وقرر أن التكرار لا يكون إلا لزيادة التأكيد التى لا تقتضيها إلا المعانى التى يراد شدتها وعظم تأثر النفس بها وأن المناشير العامة يجب أن تكون بلغة مفهومة لا غريب فيها ، وقال إن المناقشة لم تتقدم ، ولذلك يكون الجدال عقيما ، ثم لاحظ ما يلى :

١ — أقلع شكيب فى رده عن المترادفات ، وهذا فى رأى السكاكينى اعتراف من شكيب بأن مذهبه ليس طبيعياً ولا عربياً ، ولا يستمرئه ذوق العصر ، وتمنى من شكيب ألا يعود إلى المترادف .

٢ — كان الأمير فى رده الأول يستشهد من « صبح الأعشى » وأقوال القدماء ، فجعل فى رده الثانى يستشهد بكلام المعاصرين ، وهذا دليل على أنه تجدد .

٣ — الأمير أكثر من كلمات التعريض واستعداء القراء ، وليس هذا من لب الموضوع فى شىء .

٤ — شكيب يعظم شأن القدماء ، ويقول إنهم أساطين اللغة وسلاطين البلاغة ، وهو يقلدهم ، فكأنه يريد أن يحشر نفسه معهم فى هذه الأوصاف .

٥ — شكيب حاول إثارة القراء حينما ذكر اسم الرسول وأسماء الخلفاء ، وكأن شكيب يريد أن يقول للقراء عن السكاكينى : « هذا هو الذى ينتقص فضل السلف الصالح فارجموه » .

٦ — على الرغم من إقلاع الأمير **فى أكثر رده الماضى** عن المترادفات أراد أن يظهر بمظهر المحافظين ، **فأتى بجمل فيها ترادف** .

ثم يختم رده بقوله : « إذا كان هذا مذهبك أيها الأمير ، ولا إخال أحداً

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٤ — ٤٠٩ .

يفرك عليه ، فقد انقطع الجدال ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وصار يحق لى الآن أن أقول : لك مذهبك ولى مذهبي ، وإنهما لمختلفان جدا ، ومن المستحيل أن أقنعك ، ومن المستحيل أن تقنعنى ، وما أحرانى أن أقف هنا ، وأترك بقية تعليقاتى على ردك [١] » .

وفى عدد ٦ مارس ١٩٢٤ من « السياسة » كتب شكيب مقالاً بعنوان « العربى شرط لازم فى القديم والجديد » [٢] . وبدأه بأنه لاينكر الأسلوب الجديد : « أنا لم أقل فى وقت من الأوقات إنه لايوجد أسلوب جديد ، وإنه يحرم على الناس التجدد ، وإنه إن جاز فى شيء فلا يجوز فى البيان ، وإنما قلت إن لكل لغة أسلوباً أصلياً ، أو نصاباً معروفاً لا بد من المحافظة عليه ، وليس هذا خاصاً بالعرب وحدهم .

وإن اللغة العربية يمكنها أن تسع المعانى الجديدة،ومن المواضيع العصرية كان مايعن للكاتب ، ويتوخاه المؤلف ، مع مراعاة ديباجتها الأصلية التى إن خرج البيان عنها كان عند العرب مستهجنا .

وقال فى موضوع التجدد : إن العقل البشرى هو بنفسه لايتغير ، بل المعلومات هى التى تتغير ، فأما الميزان الذى هو الراجع إليه الحكم بأن هذا صحيح وهذا فاسد ، وأن هذا أصح من هذا ، فإذا كان قابلاً للتغيير فقد بطلت جميع الأحكام » [٣] .

وقال إن هناك أموراً استحسنها الناس ، وسيظلون يستحسنونها دائماً : « وذلك أن هناك ذوقاً خُلق فى فطرة الإنسان لا يزول إلا بزوال هذه الفطرة ، أو استئناف فطرة ثانيـة مباينة للفطرة الأولى ، وليس المراد من ذلك حظر التجدد فى الطرق والأساليب والزيادة والنقصان ، ومراعاة المكان والزمان ، والتلون بصبغة الألوان المختلفة . كلا . إن التجدد فى هذه العوارض هو مما لم يخل منه زمان ، ولا قال بمنعه

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٨ و ١٤٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٠ ـ ١٦٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

عاقل ، كما أن هـذا لا يمنع القول بوجود مبادىء ثابتة راهنة لا تقبل التغيير ولا التبديل[1] » .

كما يرى شكيب أن الأدب يجب أن يرتبط بالحياة وأحداثها ، وأن تكون المعانى حضارية مع بداوة الألفاظ ، وأن كل عصر له أسلوب ، وكل قديم فى الأصل جديد ، وكل جديد سيعود قديماً ، ولـكن اللغة ليست فوضى ، بل يجب التزام قواعدها وضوابطها .

ثم لا يقلع شكيب عن عادته فى هـذه المناقشة وهى كثرة الاستشهاد ، فيورد « نتفة من الشواهد على الترادف » ، ويذكر فيها كلمات للزمخشرى وابن الأثير ، وكلمات لأحمد زكى وطه حسين وغيرهما ، بل يستشهد بأن البيان الصادر عن الوفد الفلسطينى الذى يرجح أن السكاكينى كاتبُه فيه ترادف .

ثم يعرض شكيب بالسكاكينى حين يذكر أنه لم يقرأ له شيئاً من النثر ليحاكمه إلى نفسه من نفس كلامه ، وكل ما قرأه له هو سطور معدودة « تجنب فيها جهد الطاقة استعمال المترادف ، ولـكن الأسلوب العربى غلبه كما مرّ بك من كلامه»[2] .

ثم يستمر شكيب فى التعريض بالسكاكينى ليختم بذلك مقاله .

• • •

وفى عدد ١٩ مارس ١٩٢٤ من « السياسة » نشر السكاكينى ردَّه الثالث والأخير على شكيب[3] ، وقد قال فيه إن انصراف السابقين إلى الصناعة اللفظية — ومنها الإطناب والترادف — كان مرضاً اشتد فى زمن الزمخشرى وابن الأثير وغيرهما ، ثم سرت عدوى هذا المرض إلى زماننا ، « فلم يسلم منها أحد : من أكبر

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٣ — ١٦٨ .

كاتب مثل الأمير شكيب إلى كاتب هذه السطور » ولكن وطأة المرض خفت ، ، قال الكتّاب إلى الإيجاز ، وبقى شكيب يكثر من المترادفات ، سواء أكانت كتابته منشوراً إلى العامة أم رسالة فى الأدب .

ويرى أن الاستدلال على حسن الإطناب بأن هناك من يطنب لا يجدى ، إذ « من العجب أن تقول للمريض : أنت مريض ، فيقول لك : وأنت مريض وكل الناس مرضى ، كأن مرض غيره يعزيه ، أو ينفى المرض عنه »[١] .

ثم ينتقل السكاكينى إلى ذكر بقيـة الفروق بين المذهب القديم والمذهب الجديد ، ومنها أن أصحاب المذهب الجديد يميلون فى « الاستعارة » إلى استعارة « اللازم المعنوى » دون استعارة الجزء ، أو التصريح بالذات ، فيقولون : « نطقت الحال بكذا » ولا يقولون : « نطقت لسان الحال » ، وهم يريدون بذلك الإيجاز والاختصار .

ثم يقول : « بل يخيل إلىّ أن أصحاب المذهب الجديد يميلون إلى الإقلال من الاستعارات ، وقد يفضى بهم الأمر إما إلى العدول عنها بتاتاً ، وإما إلى استعمالها فى الشعر دون غيره ، فيكون للشعر لغة ولغيره لغة أخرى »[٢] .

ويختم مقاله بقوله : « أكثر العرب من الاستعارات يوم كانوا أهل خيام وأحلام ، فكانت لغتهم شعرية ، لا يستعملونها إلا فى بيان تأثيراتهم ، فكانوا يتلاعبون بالألفاظ للمبالغة فى بيان تلك التأثرات ، وأما اليوم وهم يحاولون أن يجعلوها لغةَ العلم والفلسفة والسياسة والاجتماع فلا بد أن تتطور ، فتراعى النسبة بين اللفظ والمعنى ، وبعبارة أخرى لا بد أن يقصد بها تقرير حقائق بألفاظ محدودة موضوعة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

لاتقبل الزيادة والنقصان ، ولا بد أن تتغلب هذه اللغة على لغة الشعر، لأنها أعم ولغة الشعر أخص ، هذا إذا لم تتغير حدود الشعر »[1] .

وبهذا انتهت تلك المناقشة المهمة التى أخالف السكاكيني في وصفها بأنها « عقيمة » لأنها فى الواقع قيمة عظيمة ، إذ كشفت لنا عن آراء رجلين لهما مكانتهما الأدبية فى موضوع القديم والجديد ، وعلى الرغم من حدة الخلاف بين الرجلين ألاحظ أنهما اتفقا فى جملة أمور ، منها :

١ — للإطناب مواقف ، وللإيجاز مواقف .

٢ — التكرار يكون للتأكيد .

٣ — المعانى الجديدة مطلوبة ، ولا بأس بها .

٤ — كل عصر له أسلوب أدبى يتميز به من غيره .

ولم تكن هذه الأمور واضحة أولَ الأمر فى كلام شكيب ، ولكن مرور الأفكار على محك المناقشة جعله يصرح بها بعد أن كان يجمجم ، وهذا كسب كبير بالنسبة لشكيب ، إذ أن تكراره مع إلحاحه فى نصرة القديم دون تحديد لموطن النصرة فى هذا القديم ، يبدو كالكلَف فى مرآة أدبه الكبير .

وإذا كان المتناظران قد اتفقا فى أمور ، فمن الطبيعى أن يختلفا فى أمور ، ومنها :

١ — السكاكيني يقصر التكرار والترادف على موطن زيادة التأكيد .

وشكيب يرى أنهما يأتيان فى مواطن أخرى كالفتوح والمناشير العامة ، ومخاطبة الجماهير .

٢ — شكيب يرى الإبقاء على التكرار والترادف فى مواطنهما، و السكاكيني.

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

يقول إننا فى عصر السرعة، فيجب أن تتخلص من التكرار والترادف، وأن نجعل لغتنا لغة علم وفلسفة وسياسة واجتماع .

٣ — السكاكينى يرى أنه لابد من تطور اللغة ، ومراعاة النسبة بين اللفظ والمعنى ، وأن يقصد باللغة تقرير الحقائق بألفاظ محدودة موضوعة لاتقبل الزيادة والنقصان ، وشكيب يرى أن اللغة بيان ، وأن البيان يستلزم التوسع ، حتى يحيط السامع أو القارىء بجميع الموضوع .

٤ — شكيب يرى أنه لايجوز التجديد فى البيان ، والسكاكينى يدعو إلى التجديد ، ويبدو أن مراد شكيب أنه لايجوز الخروج على قواعد اللغة وضوابطها ، وإلا فقدت اللغة شخصيتها ، ولكن السكاكينى يرى أن التجديد يكون فى الأسلوب ، وفى طريقة الأداء ، وفى التناسب بين اللفظ والمعنى .

وهناك بعض الفروق المتعلقة بطريقة كل من الكاتبين فى المناقشة ، فالسكاكيني يختصر ويوجز ، بينما يطيل شكيب ويسهب ، والمناقشة استغرقت من كتاب « مطالعات فى اللغة والأدب » خمسا وسبعين صفحة ، وعدد الصفحات التى استغرقها كلام شكيب ضعف عدد الصفحات التى استغرقها السكاكينى .

ومن الملاحَظ على شكيب أنه تعرض للرسالة التى رُوى أن أبا بكر الصديق بعث بها عن طريق أبى عبيدة بن الجراح إلى على بن أبى طالب حينما تأخر على عن بيعة أبى بكر ، ونقل شكيب أجزاء من هذه الرسالة ، ولكنه لم يتحدث عن الاختلاف الوارد فى أمر هذه الرسالة « فمنهم من أكد نسبتها إلى أبى بكر ، وأفرد لها المؤلفات ، ومنهم من زعم أن فضلاء الشيعة وضعوها ، ومنهم من زعم أن فضلاء السنة وضعوها ، ولتحقيق هذا الموضوع مكان آخر[١] » .

---

(١) أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ص ٦٥ .

وإذا كان شكيب قد فاته الإشارة إلى الشك فى أمر هذه الرسالة، فقد فات السكاكينى كذلك أن يشير إليه فى رده عليه .

ومن الفروق التى نلاحظها فى هذه المناقشة أن السكاكينى كان أرق فى الخطاب، وأهدأ فى النقاش، وأرعى لحرمة الأمير شكيب، بينما كان شكيب قاسياً ولاذعاً فى أكثر من عبارة .

نجد فى كلام السكاكينى أمثال الكلمات الآتية عن الأمير شكيب وكتابته: « رسالة لكاتب كبير — ذلك الكاتب الكبير الذى نعرف فضله، وإن كنا ننكر عليه مذهبه — أقوال كاتب كبير يوثق به — للاطناب شروط ومواطن أمسكت عن ذكرها تأدباً مع الأمير — ليسمح لى الأمير أن أتجرأ على فضله — للأمير أن يسعنى بحلمه — تشرفت أن أكون مناظرك — أكبر كاتب مثل الأمير شكيب أرسلان [1] » .

يقول السكاكينى كل هذا ولكننا نجد الأمير عنيفاً فى تعريضه بالسكاكينى وحملته عليه، فهو يقول إنه كان ينوى تجاهل نقد السكاكينى، ثم يصفه بالخطأ، وأنه يضع نفسه فى غير موضعها، وأنه يمضى فى غلوائه، ويخشى أن يتمادى فى وهمه، ويخشى أن يصل وهمه إلى غيره، ولذلك سيبين له مناهج اللغة فى الإيجاز والإطناب والمساواة [2]، ويصفه بالجرأة [3]، ويصفه بالمناكرة والمكابرة [4] .

ويسخر من السكاكينى بقوله : « صاحبنا أصبح صاحب مذهب، ولا غرو فلكل زمان أبطال، ولكل دولة رجال [5] » .

---

(١) انظر مطالعات فى اللغة والأدب، ص ٩٧ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٤٧ و ١٦٣ على التوالى .

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٤ .

(٣) ص ١١١

(٤) ص ١٢٩ .

(٥) المرجع السابق .

ويتندر على السكاكيني قائلا : « لا بل والله كنت غافلا عن أنك صاحب مذهب ، ولم يخطر ببالي أن أسلوب الجاحظ صار قديما باليًا ، وأن مثلي ومثلك صرنا مجدِّدين في اللغة [1] » . ولا يزيل معنى التندر هنا ذكر شكيب كلمة « مثلي » وهو يعني بها نفسه ، فذلك ستر ظاهري للتندر ، كما لا يزيله أن يقول شكيب بعد ذلك : « لا تحمل كلامي هذا محمل التهكم » . فلعل هذا القول يؤكد قصد التهكم أكثر مما ينفيه .

ويقول شكيب هذه الكلمات القاسية : « فاربع على ظلعك [2] ، ولا تركب غير سرجك — كان الأولى أن أمسك القلم عن مناظرته — هذا المراء الذي لا يليق بأديب مثله — أخذ اللغة بالجسارة والقوة [3] » .

تمنيتُ أن يترك شكيب هذا العنف في المناقشة ، لأن موضوعية البحث تقتضيه من جهة ، وهدوء السكاكيني في حواره يقتضيه من جهة أخرى .

وقد يخطر بالبال أن يتساءل عن مصير القضية ، فأقول إن الزمن قد حكم فيها ، ورجَّح جانبَ السكاكيني على جانب شكيب من الناحية الواقعية العملية ، فقد قل الذين يُكثرون من التكرار والمترادفات ، وانتصر مذهب الاعتزاز بالفكرة والمعنى عند الكثيرين ، وإن كانت قصة القديم والجديد لم تتم فصولا .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٢) على ظلعك : أي إنك ضعيف فانته عمالا تطيقه ، ويقال : ارق على ظلعك ، أي تكلف ما تطيق . ويقال : ارقأ على ظلعك ، أي أصلح أمرك أولا .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٠ و ١٣٢ و ١٣٣ .

شدة العبارة والمبالغة

وشدة شكيب فى عبارته حين المناقشة غير مقصورة على مناقشة السكاكيني فقد تحدث شكيب عن طه حسين ، ووصفه بالتهجم على أمجاد العروبة ، ثم قال ساخراً ومجرّحاً :

« ولكن طه حسين أذنه صماء عن الفحشاء ... فلا يحب أن يسمع هذا اللغو الذى هو مدح العرب ... وسبحان من جمع بين عمى البصائر وعمى الأبصار ، وأولهما أشد وأدهى .

يعلم الله أننا كنا نحب أن لا نستعمل لهذه الطائفة مثل هذه الألفاظ ، ولكن وقاحتهم على الوطن والدين واللغة والأخلاق والصيانة والقومية وما أشبه ذلك تجاوزت حدها[1] » .

***

ويتعرض شكيب للتفرقة بين النقد الأوربى والنقد العربى ، فى مقال له عن كتاب «المساواة» لـ « مَىّ زيادة » ، فيقول إن النقد الأوربى لا يقتصر على الاستحسان وذكر المحاسن ، بل ينص على الأخطاء أيضاً ، وأما النقد العربى « فتراه كله عبارة عن تقريظ وتمجيد ، وأسجاع يكثر فيها ذكر الغرر والدرر ، والروائع والبدائع ، والفرائد والخرائد ، والكواكب والكواعب ، والمآثر والمفاخر ، مع جملة : كم ترك الأول للآخر ، إلى غير ذلك مما ليس فى الحقيقة بنقد ، بل هو محض ثناء وإطراء[2] » .

وهذا الكلام صحيح ، وليت شكيب تقيد به وهو يكتب عبارات المديح والثناء

---

(١) مجلة الزهراء ، جمادى الأولى ١٣٤٥ هـ – ١٩٢٦ – مقال لشكيب بعنوان « حضارة العرب وفلسفتهم » . ٣/٢٩٠ – ٢٩٦

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى – عدد كانون الأول ١٩٢٤ .

الفضفاضة ، كمقدمته لديوان شبلى ملاط ، وكلمته عن شعر النجفى ، وقد ذكرناها في آرائه عن الشعر .

ثم يذكر شكيب فى مقاله السابق أن النقد العربى قد ينتقل من المدح إلى شدة الذم والقدح « فلا توسط عندنا فى الأمر » ، ثم يقول عن طريقته فى النقد :

« وأما الطريقة التى نحن سائرون عليها اليوم فهى طريقة النقد الحديثة التى سبق للعرب على أسلوبها شىء قليل ، وهى التى تنوه بالحسنات . ولا تغفل عن الهنات ، وهى طريقة التصفح بدون صفح ، ولكن بدون تعنت ، والاستقراء بغير ضعف ولكن بغير تشدد[١] » .

وليت شكيب التزم طريقته هذه ، لأننا نراه أحياناً يبالغ فى القدح أو المدح ، وينسى التوسط ؛ فهو مثلا يقول عن الشقاق بين المسلمين : « وإن كان الشقاق عاماً فلا شك أن تسعة أعشاره عند المسلمين ، والعشر الواحد عند سائر الأمم بأجمعها[٢] » . ولعله أراد بذلك تجسيم خطر الشقاق عند قومه ، ولكن العبارة صارخة المبالغة .

ويقول شكيب عن كتاب « إعجاز القرآن » للرافعى :

« ولقد رأينا أجمع ما كتب فى هذا المقام كلام الأستاذ الكبير مفخرة العرب ، وحجة الأواخر على الأوائل فى علو طبقة الإنشاء ووفرة الأدب ، السيد مصطفى صادق الرافعى فى كتابه (إعجاز القرآن) فإنه جمع فأوعى . وأصاب الحزّ وطبّق المَفْصِل[٣] » .

ويقول عن الكتاب أيضاً : « ولو كان هذا الكتاب خطّاً محجوباً فى بيت ،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) كتاب « شوقى » ، ص ١٩٠ .

(٣) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٧٤ . وقوله : أصاب الحز وطبق المفصل : معناه أن توفيق قد صاحبه . وفى أمثال العرب : « إنك لتكثر الحز وتخطىء المفاصل » . والحز : القطع والتأثير والمفاصل : الأوصال ، جمع مفصل ؛ يضرب لمن يجتهد فى السعى ثم لا يظفر بالمراد . مجمع الأمثال للميدانى ، ج ١ ص ٥٧ .

حرامٌ إخراجه للناس منه ، لاستحق أن يُحَجّ إليه ، ولو عُكف على غير كتاب الله في نواشيء الأسحار لكان جديراً بأن يُعتكَف عليه »[1] .

والعبارتان شبيهتان بكلمات المجاملة التي يكتبها الأدباء في مجال التقديم للكتب أو التقريظ العام للمؤلفات ، فليس فيها تفصيل ولا تحديد ، وليس معنى هذا أني أغض من قيمة كتاب الرافعي ، فهو كتاب جليل ، ولكني أتكلم عن طريقة شكيب في النقد .

ومما يتصل بمبالغة شكيب في أحكامه ، وفي الصفات التي يطلقها على أصدقائه أو أحبائه ، أن يلقب أحمد زكي باشا بلقب « الأستاذ الأكبر[2] » ، وأن يلقب يعقوب صروف باللقب نفسه[3] ؛ فما قيمة أفعل التفضيل هذه المحلاة بأداة التعريف ؟ . وفوق هذا نذكر أن العادة جرت في مصر منذ عشرات السنين على إطلاق لقب « الأستاذ الأكبر » على شيخ الجامع الأزهر الشريف .

ولقد كتب شكيب مقدمةً لكتاب صديقه عبد القادر المغربي — وهو كتاب البيِّنات — وأثنت مجلة « العرفان » على هذه المقدمة قائلة : « بقطع النظر عن المبالغة التي جاءت فيها ، والمبالغة — ولا سيما في الإطراء — خُلُق من أخلاق الشرقيين يصعب التنكب عنه[4] » .

---

(١) حياة الرافعي ، ص ٥٣ . وانظر رسائل الرافعي ، ص ١١ .
(٢) جريدة الشورى ، عدد ١٢ إبريل ١٩٢٨ .
(٣) الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ، ص ١٢٨ .
(٤) مجلة العرفان ، عدد آب وأيلول ١٩٢٩ .

واجب المؤرخ

يبدى شكيب رأيه فى واجب المؤرخ ، فيوفق إلى كلمة حق وصدق حين يقول : « ولعمرى حسن جدا أن يدقق المؤرخ فى كل رأى يطلع عليه ، وأن لا يقبله بالغاً ما بلغ من الشهرة إلا بعد تمحيص تطمئن به نفسه ، وتحقيق يصل به إلى برد اليقين ؛ ولكن قبيح جداً ، ومضر بالعلم جدا ، ومغرٍ بالمتعلمين ، أن تدور جهود اجتهادات الباحث حول نقطة الإتيان ببدع ، والسبق إلى رأى لم يقل به أحد ، أو تقوية رأى ضعيف [1] » .

وإذا كان شكيب قد صدق ووُفّق فى كلامه هذا ، فإنه قد نسى تطبيقه أحياناً ، فهو فى كتابه (تاريخ غزوات العرب) ينقل عن المستشرق « رينو » هذه العبارة عن طارق بن زياد : « وقد روى أحد مؤرخى العرب أنه لأجل أن يلقى الرعب فى القلوب أمر مرةً بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا فى يده ، وجعل من لحومهم شواء أطعم منه عسكره [2] » .

وتوقعت أن ينقد شكيب هذا الخبر لمخالفته الإسلام ، فإن لحم الإنسان يحرم فى الطعام ، ووجدت بالفعل تعليقاً طويلا لشكيب ، ولكنه لم يكن فى نقد الخبر أو تمحيصه ، بل كان عن نسب طارق ، وذكر أن راوى الخبر السابق هو « ابن القوطية » فى كتابه « فتح المسلمين للأندلس » ، ثم انتقل إلى الحديث عن كلمة « القوطية » ، وترجمة ابن القوطية ، وترَكَ الخبر البشع بلا نقد ! ! .

وفى موطن ثان من الكتاب ينقل شكيب عن « رينو » هذه العبارة فى حق المسلمين الفاتحين للأندلس : « فأما البلاد التى لم تخضع لهم إلا بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم التى تصحب الفتوحات ، وكان يضرب عليها ضعفُ جزية البلاد

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١١ سنة ١٩٣١ — ص ٤٤٩ .

(٢) تاريخ غزوات العرب ، ص ٣٠ .

الخاضعة بلا قتال ، وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها ، وربما جعلوا من هذه الناحية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للمسيحيين أضمن سبب للثقة بهم [١] » .

نقل هذا وتركه بلا تعليق ، مع أن هـذا التصرف لا يسهل تصديقه ، لمخالفته المشهور عن سماحة العرب المسلمين وعدالتهم .

والحير من أمر شكيب أنه فى مواطن أخرى ينقد ماهو أخف من ذلك غلوا وغرابة ، فهو يقول فى بحثه عن « الترك » :

« فلما دخل الأتراك إلى بلاد البلقان التى يقولون لها (الروملى) بدأ هؤلاء البوغوميل [٢] يدخلون الإسلام ، وهذا قبل أن يفتح السلطان محمد الفاتح ممالك بوسنة ، ولكن عندما دخل السلطان بجيوشه أسلم سائر البوغوميل اختياراً من تلقاء أنفسهم ، فمؤرخو الإفرنج يزعمون أنه لما دخل السلطان إلى بوسنة خيّر الناس بين الإسلام والنصرانية ، وأن الذى أسلم بقيت له أملاكه ، ومن لم يقبل الإسلام جرده الأتراك من ثروته ، وكل هذا من أكاذيب المؤرخين الأوربيين ، والحقيقة هى ما ذكرنا... [٣] » . ثم أخذ شكيب يفند ذلك بحرارة .

ألا يفتح هذا الدفاع البابَ أمام ناقدى شكيب ليقولوا إن حبه القديم للترك قد عاوده ، حتى بعد أن كان من حكام الترك مع العرب ما كان ؟ ! . .

ونعود مرة أخرى إلى كتاب « تاريخ غزوات العرب » لنجد شكيب يظل ساكتاً عن تفنيد التهم الموجهة من الأوربيين إلى العرب ، ومنها الاتهام بالسلب والنهب ، ويتكرر ذلك عشرات المرات ، حتى نبلغ الصفحة السابعة والأربعين بعد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٢) طائفة من أهل بوسنة كانت مسيحية ، لكنها لا تعتقد ألوهية عيسى . تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق .

المائتين من الكتاب ، فإذا هو يتذكر بعد اللّتَيّا والتى[1] أن ينقد ، فيعلق على اتهام من هذا القبيل بقوله :

« لا نريد أن ننفى عن هذه الفئة من مغيرة العرب حبَّ النهب والكسب ، ولكنا نؤكد أن أكثر هذه الروايات هى من وضع أولئك المؤرخين المتعصبين الذين كان جُلُّهم أو كلهم رهباناً أو قسيسين ، وناهيك بعداوة الدين ، وحسبك دليلاً على ذلك أن هذه الفئة من رجال الكنيسة هى التى بقيت مدة قرون فى أوربة تؤكد لشعوبها الجاهلة أن المسلمين وثنيون ، وأنهم يعبدون محمداً ، وأن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) تماثيلَ من ذهب وفضة ، وما أشبه ذلك من الخرافات التى كانت تلك الشعوب تصدقها وتنقلها فى كتبها ، فكيف نقدر بعد هذا أن نتلقى بدون احتياط روايات المؤرخين الكنسيين عن وقائع عصائب العرب[2] » .

ليت شكيب سارع بهذا الاحتياط من أول الطريق ، وليته بدأ بنقد هذه المفتريات فى طليعة ورودها حتى لا يقلق القارئ ، وليته توسع فى نقد هذه المفتريات ، ففيها أشياء تتطلب التوسع فى النقد ، وشكيب من عادته أن يطيل ، وقد أطال مثلا فى تفنيد التهم الموجهة إلى « الدروز » فى حوادث العراك بين المسيحيين والدروز سنة ١٨٦٠ ، وكان تفنيده حاراً قوياً استغرق جملة صفحات[3] .

ومن العجيب أن شكيب فى « تاريخ غزوات العرب » يستمر فى الترجمة عن

---

(١) فى أمثال العرب : « بعد اللتيا والتى » وهما : الداهية الكبيرة والداهية الصغيرة ، وكنى عن الكبيرة بلفظ التصغير تشبيها بالحية ، فإنها إذا كثر سمها صغرت ، لأن السم يأكل جسدها ، وقيل إن الأصل فى المثل أن رجلا تزوج امرأة قصيرة أتعبته ، وكان يعبر عنها بالتصغير فتزوج طويلة ، فتضاعف بلاؤه منها ، فطلقها وقال : « بعد اللتيا والتى لا أتزوج أبداً » فجرى ذلك على الداهية . وقيل : إن العرب تصغر الشيء العظيم . مجمع الأمثال للميدانى ، ج ١ ص ٩٢ .

(٢) تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٤٧ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٣٠٢ — ٣٠٧ . ومن شواهد إطالته الدفاع عن « الدروز » مقال له بعنوان « آل معروف فى الذروة من العروبة ، ولا يمكن أن يكونوا عضدا الأفرنج على العرب » ، وقد استغرق المقال اثنى عشرة صفحة من كتاب « عروة الاتحاد » . ص ٢٥ — ٣٦ . وانظر أيضا جريدة الشورى ، عدد أول أكتوبر ١٩٢٥ م .

« رينو » مع التعليق أحياناً ، وأغلب تعليقاته إيرادُ نصوص من كتب تتعلق بالأندلس وبالعرب فى أوربة ، ثم يقول فى الصفحة الثالثة والأربعين بعد المائتين : « انتهى كتاب رينو ببعض اختصار وتصرف » .

إذن كان هناك اختصار وتصرف ، ومع تساؤلنا عن مدى مواءمة الاختصار والحذف لتصوير الحقيقة كاملة — نقول : ما دام هناك اختصار وتصرف ، فلماذا لم يختصر شكيب العبارات القاسية التى وصف بها « رينو » العربَ والمسلمين ؟. ولماذا لم يرد عليها وينقدها ، ما دام قد أوردها ؟ .

* * *

وشكيب يعطى أهمية خاصة لتراجم الرجال وصلتها بمؤلفات هؤلاء الرجال وأقوالهم ، وينصح بأن نتخذ هذه الآثار الفكرية نبراساً نهتدى به إلى حقائق أحوالهم ، لأنها مرآتهم وقطع من قلوبهم وعقولهم ، ولذلك يقول :

« يقولون إن تراجم الرجال فيها كذب كثير وطمس للحقائق . وأنا أقول إنها برغم ما فيها من الكذب لا تزال أقربَ إلى حقيقة أحوالهم ، وأحسن وسيلة للتعريف عنهم ، ومع ذلك فإن شككتَ فى الروايات المأثورة عنهم فابحث عن كلماتهم ، وتآليفهم نفسها ، وأنعم النظر فيها ، فإنها تحل لك كثيراً مما يشكل عليك من أمرهم فى الكتب المؤلفة عنهم » (١) .

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٤ مارس ١٩٣١ — مقال « خواطر » .

التردد فى الحكم

وشكيب يتردد فى الحكم أحياناً ، حتى يصعب عليك أن تحدد موقفه بالنسبة إلى الموضوع الذى يتحدث عنه ، ومن أمثلة ذلك أنه يذكر كثرة القرود فى اليمن ، حتى تندر البعض على اليمنيين بأن أباهم قرد ، ثم يقول :

« فمن هنا يظن أن مذهب داروين كان ملحوظاً فى الغابرين ، وكان خاطر أبوة القرد لابن آدم وارداً ، إلا أن ما كان يقال فى الماضى مزاحاً صار اليوم جداً بحتاً وحقيقة علمية ، أقول حقيقة علمية بحسب رأى بعضهم ، وإلا فليس بصحيح أن الجمهور كلهم فى أوربة تلقوا هذا الرأى بالتسليم ، بل العلماء فى أوربة لا يزالون فيه مختلفين ، وقد كثر فى السنين الأخيرة العلماء القائلون بنقضه ، والأكثرون على عدم الجزم ، لعدم كفاية دلائله ، ولوفرة نواقضه ونواقصه ، ومن العلماء من يقف موقفاً وسطاً فى النظرية الداروينية ، فيحكم بصحة بعضها ، ويرد البعض الآخر مما ليس هنا موضعه »(١) .

وهكذا تردد شكيب بين رأى ورأى ورأى ، ولم نعرف له فى الموضوع رأياً .

ذكر أولا أن نظرية داروين كانت لها بذور فى الماضين السابقين ، وأن النظرية بعد أن كان مزاحاً صارت جداً بحتاً وحقيقة علمية ، ثم عاد ليقول إن ذلك بحسب رأى بعضهم ، ثم عاد ليقول إن العلماء ما زالوا مختلفين فى الموضوع ، ثم عاد ليقول إن هناك من يقف موقفاً وسطاً ، فبعض النظرية صحيح ، والبعض الآخر مردود ! .

ولكن ما رأى شكيب ؟ . . . لم يذكر شيئاً .

وفوق أن هذا الكلام كان استطراداً غير لازم ، نذكر أن شكيب رجل متدين ، ورجال الدين يهاجمون نظرية داروين بعنف ، فلماذا لم يعارضها شكيب ، واكتفى بسرد الآراء المتباينة ؟ .

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ٢٦٢ .

مكانة الأدب

وشكيب يرفع مكانة الأدب إلى قمة عالية ، ولقد ألقى محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين بالإسكندرية مساء ٢١ يوليه سنة ١٩٣٩ قبيل سفره إلى أوربة بعنوان « تأثير الأدب فى الأمم » ، وقد طالعتُ نصّ هذه المحاضرة بخط الأمير شكيب وهى فى ثمان عشرة صفحة متوسطة الحجم ، أعارنيها الأستاذ أحمد محمد نعمان، وفيها يرى شكيب أن الأمم لا تنهض إلا بالعلم ، وأن العلم فنون ، وأهم فن منها هو الأدب ، وهو المرحلة الأولى فى طريق نجاح الأمم ، لأنه « ثقاف النفس وصقال الهمة ، ومثار كوامن العزائم ، وهو المشتمل على نواحى الحياة الروحية كلها » .

وينوّه بجلال قيمة العلوم المادية ، ولكنه فى الوقت نفسه يرى أن الملكة الأدبية هى التى تؤدى إلى البحث العلمى ، ويتحدث عن مكانة الآداب والأشعار، وما قام به الشعراء من إثارة العزائم وحفز الهمم ، ويتحدث عن مكانة الأدب والشعر عند العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأن الأدب القرآنى هو الذى هذب الأدب العربى وأبقاه . . . إلخ .

ومما يتصل بتقدير شكيب للأدب تقديره للقلم الذى يخط الكلمة ، فهو يقول : « خروج رجال السياسة من رواق طابة الحكمة ، وصف حملة الأقلام ، فى الأعم الأغلب ، أقرب إلى السلامة من خروجهم من طبقة أخرى » ، ثم يقول بعد أن يتحدث عن تقسيم الأوربيين العلوم فروعاً وأفناناً : « ومع هذا فلا تزال ترى لرجال القلم المزية الكبرى على غيرهم ، لأن العلم بلا قلم أشبه بطائر أحص الجناح ، صاحبه عاجز عن الرقىّ .

وإن القلم فى كف العالم هو أداة التقدم وجناح النجاح ، ولهذا نجد أكثر رجال السياسة والإدارة فى أوربة — ولا سيما فى فرنسة — هم من حملة الأقلام

وكتّاب الصحف ورقاة المنابر ، ويندر أن يوجد فيهم نابغة أو رجل مشهور إلا وقد سبق له كتابة أو مؤازرة فى إحدى الجرائد ، وذلك أن ثمرات العلم لا تُعرف إلا على أسَلات الأقلام » [١] .

ويرى أن بث الثقافة هو سبيل التفاهم والوحدة ، فيقول : « ما من بوتقة لسبك الشعوب خير من الثقافة » [٢] . ويقول : « رابطة الفكر أقوى من رابطة الدم » [٣] .

ولكن شكيب الذى يجل الأدبَ ويرفع قدره ، والذى يعرف للكلمة قوتها وفضلها ، والذى يُشيد بالثقافة والمعرفة ، يكره الأدب المكشوف وينفر منه ، وهاهو ذا يعلق على نفور السيد رشيد رضا من الأسلوب المصرح بالمجون أو الشهوات ، فيقول تعليقاً على كلام السيد :

« الأستاذ المترجم مصيب إلى الغاية فى استهجانه التصريحَ بالسوءات والألفاظ التى تنبو عنها الأسماع ، وما إلى ذلك من التخيلات الشعرية المخالفة للآداب الاجتماعية ، وهو مذهب شريف لم نجد ذا ذوق سليم وعقل قويم ينازع فيه ، وإنما حاد عنه كثير من أدباء العرب وشعرائهم ، وأورثوا الأدب العربى موضعَ ضعفٍ ومجالَ انتقاد بحق ، بحيث إننا نقرأ كثيراً فى كتب الأجانب من تقبيح هذا الأسلوب الممجوج الذى يكثر فى كتب العرب ، ولا نقدر إلا أن نوافق على هذا » [٤] .

وهذا القول ليس بغريب من تلميذ الشيخ محمد عبده ، والمعجَب بجمال الدين الأفغانى ، والذى رأى نفسه أهلاً لأن يكون صاحبَ دعوة وخادم رسالة ، يعِزُّ بها قومَه العرب وإخوته المسلمين .

---

(١) مجلة المقتبس ، المجلد الأول سنة ١٣٢٤هـ — ١٩٠٦م ، ص ٥٧٥ . وأسلة القلم : طرفه .

(٢) جريدة الشورى ، ٥ فبراير ١٩٣٠ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١١٦ .

ولذلك يعود شكيب إلى هذا الموضوع ليعالجه فى ضوء الدين والفقه . فيذكر أن البعض قال بمطالعة كل قارىء كلَّ شىء مهما كان مثيراً ، والبعض يقول بمنع كل شىء من هذا القبيل المثير عن الفتيات ، والبعض يقول بالتوسط فى المنع ، وباطلاع الشابة على ما يجب علمه من حقائق الحياة بقدر ، ويميل شكيب إلى الرأى الوسط الأخير ، ويقول عنه :

« ويظهر أن فقهاءنا أميلُ إلى هذا المشرب عند مايقولون : (لاحياء فى الدين) ، ويشرحون بعض ما لا بد من معرفته من القواعد ، وهذه الطريقة هى عندى ألفَ مرة أقلُّ خطراً على أخلاق الأوانس من قراءة القصص المغطاة أفاعيها بالأزهار ، والتى لا تزيد النفوس إلا التطاماً ، لا بل الطريقة الفقهية هى أسلم عاقبة من الجميع ، لأنها تبرز فى القالب الذى يزيد الحشمة والانقباض فى أثناء تقرير الحقيقة ، وما الآفة إلا خلابة القول وسحر البيان [1] » .

ولأن شكيب يكره الأدب المكشوف ، ويخاف خطره وأثره ، نراه يوصى بكتمان الأمور الذاتية والآراء الشخصية التى فيها تبذل أو تحلل ، فحينما يصف أناتول فرانس مراودةَ امرأة لشاب ، يعلق شكيب قائلا :

« أخطأ الأستاذ فرانس بإذنه لكاتبه (بروسون) بقيد أوابده وضبط شوارده ، فقد يكون سبق لسانه فى مجلس خاص مرتفع الحشمة بعيد التكلف إلى حكاية مثل هذه لمجرد الإحماض ، فلم يكن يجوز لبروسون أن يأثرها عنه على أنها من آدابه التى يوصى بها [2] » .

---

(١) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، هامش ص ١٧١ . والإحماض : رعى الحمض (بفتح فسكون) ، وهو نبت فيه ملوحة تتفكه به الإبل وتشرب عليه ، يقولون : الخلة (بضم الخاء) خبز الإبل والحمض فاكهتها . وفى أمثلة العرب : من أخل أحمض . ومن المجاز . أحمض القوم : أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث ، وكان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يقول لأصحابه : أحمضوا ، فيأخذون فى الأشعار وأيام العرب . الأساس ج ١ ص ١٩٨ .

ويسرد أناتول فرانس قصة مكشوفة له مع المرأة ، فيعلق شكيب على ذلك بقوله :

« قد يكون أراد الترويح عن قلبه بإحماضات يتبذل بها فى مجالس خلصانه ، فلم يكن يحسن بمن كان حافظ سره ، وقد أفاد من بره ، أن يصوره صغيراً بعد أن عرفه الناس كبيرا[1] .

ولعل كراهية شكيب للأدب المكشوف كانت بعض الأسباب التى صرفته عن قراءة الروايات المطبوعة على الطريقة الأوربية ، والتى تفيض عادة بالحديث عن الحب والمرأة والصلات الغرامية والمغامرات العاطفية ، حتى قال : « أكره الروايات لاسيما بالعربى ، وما قرأت فى حياتى رواية عربيــة على النمط الأوربى ، لأننى شديد الولوع بالتاريخ »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، هامش ص ١٨٧ .

(٢) الكتاب الذهبى ليوبيل المقتطف الفضى ، ص ١٢٨ .

أدوات الأديب

وأخيراً يذكر شكيب أن الأديب لا يصح أن يسمَّى أديباً إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان . يقول فى كتابه عن « شوقى » :

« الأديب لا يصح أن يسمى أديباً إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان ، وإلا فإنه يبقى متأخراً فى صفوف المتأدبين ، مهما سمت معانيه ، وزهت تصوراته ، وأثر كلامه ، ونفذت طعناته ، وذلك أن الناس أجمعوا على أن الفصاحة واللحن لا يجتمعان ، وأن من نقص حظه من النحو نقص حظه من الأدب ، وليس هذا منحصراً فى العرب ، بل هو عند الإفرنج أيضاً ، فليس عندهم لمنقوص النحو مكانة أدبية تذكر .

وقال أناتول فرانس — وهو من أعظم أدباء أوربة — : « لا يقول الكاتب قولا سديداً إلا بنحو متين ولغة صحيحة » . وقال بوالو : « أعلى الكتَّاب كعباً إذا حرم الرسوخ فى اللغة فليس بكاتب » ، فمهما نبغ شوقى فى الشعر ، وفاق أقرانه فى سعة التخيل ولطف التأثر ، فإنه يكون منقوصَ البهاء لو آنس الناس فيه ضعفاً من جهة العربية »[1] .

وفى المقال المنشور لشكيب فى جريدة « المؤيد » يوم الاثنين ٩ فبراير سنة ١٩١٢ يتحدث عن حدود الأدب ، ويرتضى قولَ السابقين إنه « الأخذ من كل علم بطرف » ، ويذهب مع ابن خلدون إلى أن الأدب لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود ثمرته وهى إجادة المنظوم والمنثور ، وقد تتحصل الملكة بذلك من مطالعة المجموع المختار من أشعار العرب وسجعهم ، ومسائل اللغة والنحو ، مع ذكر بعض أيام العرب .

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٥٥ .

ثم يقول شكيب : « ولو كان ابن خلدون اليوم لاشترط في استكمال أداة الأدب حفظ أيام الناس ، لا أيام العرب وحدهم ، ومعرفة مجمل تواريخ العالم ، والضرب بسهم في كل علم عصرى ، بحيث يمكن الإنسان اليوم أن يسمى أديباً ، وأن يكتب ما يفهمه الناس ، ويفهم ما يكتبونه .

وقد أشار ابن خلدون بقوله : « وما عساه أن تحصل به الملكة » إلى كون جمع كلام العرب لا يستلزم دائماً الاضطلاع بالأدب ، بل هناك استعداد فطرى يضعه الله في صدر الإنسان ، وسر في سويداء فؤاده وعلقة قلبه ، لا يعلمه إلا الذى أودعه ، وإنما يزكو على المطالعة ، ويربو بارتياد الأشكال الملائمة ، فمن أودع الخالق فيه هذا السر استفاد من حفظ الأشعار والأيام والأنساب وما أشبه ذلك ، وربى منها ملكة طائلة وبلغة كافية .

وأما من لم يقيض لهذا الأمر ، ولا نفحه الله بشيء من هذه النعمة ، فإنه يقف من دون عتبة الأدب ، ويبقى أجنبيا عن أهله ، ولو نزف مناقع الأدب كلها ، وتتبع مواقع الحكمة بأجمعها ، ومهما أبعد الإنسان النجعة في مسارح الطلب ، وتنوق في ضروب الاختيار ، وكان لم يوهب طبعاً صافياً ، ولا قريحة سمحة ، ولا بصراً نافذاً ، ولا زنداً في التحصيل وارياً ، فإنه يمكث في هذه الغاية قاعداً ، ويبقى طائره أحص الجناح ، ويقع على زمكه كلما حاول الطيران .

ومن هذا الطريق وجد من طالع لباب الآداب ، واشتمل على خزائن العلوم ، وأحاط بشذاذ الأخبار ، وأقتاد أوابد المعارف ؛ لا بل شوهد من قضى حياته في تدريس متون البلاغة والدلالة على طرق البيان ، ولم يهده الله إلى سلوك سبلها في كتابته ، ولذلك قال الإمام الجاحظ — وهو في الأدب المنارة العالية التى يهتدى بها في الليل ، والصخرة المتينة التى ينحط عنها السيل — : إن الطبيعة إذا كان فيها قبول فالكتب تشحذ وترهف ، ومعناه أنها إذا كان رشحها رشح الحجر فمطالعة

الكتب لا تنبط منها معيناً ، وأنه إذا كان ضرع القريحة بكيئاً فلا يستدر من حسن الرعى ولا نضارة المنتجع لبناً .

وبعد أن يسلم السائل بأن الاستعداد الغريزى هو الشرط الأول فى الأدب ، إن أراد أن ينزل على حكمنا فى الارتياد ، قلنا له : ذكر ابن خلدون أن أصول كتب الأدب هى أربعة دواوين : هى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى ، ودل غيره على غير هذه الكتب أيضاً ، وأطال صاحب المثل السائر فى الإيضاح »[1] .

ثم يقول : « ولا يُعَدُّ الأديب أديباً متحققاً بعد هذا كله حتى يحفظ كثيراً من كتاب الله ، ومن أحاديث رسوله عليه الصلاة والسلام حفظاً تنهض به الملكة أن يحسن منه الاقتباس ، ويجيد أمامه توطئة الاستشهاد ، وماذا أقول بنهج البلاغة وعليه مسحة الكلام النبوى ولألاء النور العلوى ؟ . وشرط على من شاء أن يكون أديباً وعانى هذا الشوق المبرح أن يقيم العربية ، فإنه لا ينجو به فى مأزق الكتابة ومعترك الفصاحة مثل مطية قوية من النحو ، وأهم من ذلك علم اللغة »[2] .

---

(١) رسائل الرافعى ، ص ٨ و ٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ و ١١ .

خلاصة الآراء

ونستطيع أن نلخص آراء شكيب عن النثر والكتابة فى الأمور التالية :

١ — يؤيد شكيب التكرار والترادف فى مواطن التأكيد والتأثير ومخاطبة الجموع .

٢ — يحارب نزعة الخروج على قواعد اللغة وضوابطها .

٣ — يعتبر أدبَ القدماء الفحول مثالا يُحْتَذَى فى الكتابة .

٤ — يدعو إلى حضارة المعانى مع بداوة الألفاظ ، ويؤيد اتصال الأدب بأحداث الحياة .

٥ — كل عصر له أسلوب ، ولكن هناك أصولا ثابتة لا تقبل التطور أو التجدد .

٦ — يجب على الباحث أو المؤرخ ألا يقبل رأياً أو خبراً إلا بعد تمحيصه .

٧ — يمكن استخلاص الكثير من حقائق حياة الرجال عن طريق النظر فى كلامهم ومؤلفاتهم .

٨ — الأدب له مكانة سامية ، وهو المرحلة الأولى فى طريق نجاح الأمم .

٩ — الأدب المكشوف له خطره وأثره السيء ، ولا داعى لنشر المباذل الشخصية المثيرة على الناس .

١٠ — لا يستحق الأديب لقب الأديب إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان .

١١ — الأدب هو الأخذ من كل علم بطرف ، مع مطالعة الأساليب

المختارة لتحصيل الملكة ، والاستعداد الفطرى الغريزى هو الشرط الأول فى الأديب ، ويعاون على تكوينه قراءةُ أمهات الكتب المشهورة ، مع حفظ الكثير من القرآن والحديث ، والعناية بالنحو واللغة : « فإنه لا يريش خوافي اليراع ، وينهض به فى جو البيان ، ولا يعين على التغلغل فى أحناء النفس ، وإبراز دقائق الخواطر رافلة فى المطارف اللائقة بها من الألفاظ ،مثل النظر فى اللغة ، والتأمل فى وجوه اشتقاق الكلمات بعضها من بعض ، وسبيل هذا من هذا ، ولمح معنى من آخر ، ومن شاء أن يقرأ تاريخ النفس البشرية فعليه باللغة »[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١ .

الباب السادس

شكيب اللغوى

- عنايته باللغة
- مساجلاته اللغوية
- بين شكيب واليازجى
- بين شكيب ورشيد
- المعاجم ليست كل شىء
- شكيب وشوقى
- شكيب ومَىّ
- ملاحظات لغوية
- تعريب الأعلام
- العامى الفصيح

عنايته باللغـــة

لاح لنا من خـلال الحديث السابق عن شكيب أنه كان حَفِيًّا باللغة حريصاً عليها ، يدافع عن ألفاظها وأساليبها ، ويدعو إلى التقيد بقيودها وضوابطها ، ولقد كان شكيب عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق رَدَحًا طويلا من الزمن [١] ، وهذه العضوية تتضمن شهادةً لشكيب بأنه أهل للقيام مقامَ الحراسـة للغة والذود عنها ، بل رأينا حكومة دمشق تختاره رئيساً لهذا المجمع ، ولولا الظروف السياسية التى دعت بشكيب إلى التخلى عن هذه الرياسة ، لنهض بأعبائها وتبعاتها .

ولقد كان شكيب صاحبَ باعٍ طويل فى اللغة ، حتى قال عنه خليل مطران :

« ملكَ اللغةَ من أول أمره ، ولا أتغالى إذا قلت إنه جمع معجمها فى صدره ، بَلْهَ ما استظهره من أساليب بلغائها ، ورواه من روائع فحول شـعرائها ، وفى أثناء وروده تلك المواردَ من فُصُحِ العربية كان يرى وجوهَ الانطباق بين المصطلحات القديمة والمصطلحات الحديثـة ، ويتبين كيف تصرف المتقدمون فيما وصل إليهم من الأصول ، ليفرِّعوا عليها المعانى الجديدةَ التى تعلق بها تصرفاً لم ينافى سلامةَ القول ، ولم ينابذ مقتضى البلاغة على تحول الأحوال وتعدد العهود [٢] » .

وقال فيه إسعاف النشاشيبي : « وقول الأمير — مدَّ الله فى عمره — فى الأدب واللغة هو القول [٣] » .

وقد التفت شكيب إلى العناية باللغة منذ صغره ، وها هو ذا السيد محمد رشيد رضا يذكر فى ترجمته لنفسه بأنه قد بكر فى طلب العلم ، وهو أكبر من شكيب

---

(١) نجد اسم شكيب بين أعضاء المجمع منذ سنة ١٩٢٢ . انظر مجلة للمجمع العلمى العربى المجلد الثانى ، ص ٣٦٢ .

(٢) ديوان الأمير ، ص (د ، هـ) .

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٣ ، ص ٣٩٩ .

بأربعة أعوام تقريباً ، ومع ذلك يذكر أن شكيب قد سبقه في طلب العلم، ومعنى هذا أن تبكير شكيب فى طلب العلم كان أوضح من تبكير رشيد وأكثر

ويذكر السيد رشيد أن شكيب فى المرحلة الأولى من طلبه العلم كان يستعين بكتاب « لسان العرب » ويراجعه عند الاشتباه .

يقول السيد رشيد مخاطباً شكيب : « وإنى لأعلم يا أخى سعة اطلاعك فى اللغة ، وكثرة مراجعتك لكتبها فى مظنة الخطأ ، بل أقول إنك كنت أول من نبهنى إلى مراجعتها عند الكتابة فى أول عهدى بمعرفتك ، إذ كنتُ قد زرت بيروت فى أول عهدى بطلب العلم — وأنت سبقتنى فى الطلب — فاجتمعت بك فى فندق (كوكب الشرق) ، ورأيت معك فى حجرتك (لسانَ العرب) ، ولم أكن رأيته من قبل ، ورأيتك تراجع فيه وأنت تكتب بعض المكتوبات»[1]

ولسان العرب هو أوسع معجم مطبوع فى المكتبة العربية ، ومن القليل النادر أن يجرؤ على المراجعة فيه متعلم قبل المرحلة الجامعية من الدراسة .

ولقد ساعد شكيب على النبوغ اللغوى ذاكرتُه القوية التى تعى فى سرعة ، ولا تضيع ولو بعد حين . يقول مارون عبود متحدثاً عن دراسته فى مدرسة الحكمة :

« وينقضى عامى الأول فى مدرسة الحكمة ، فأتتلمذ فى عامى الثانى والأخير للشيخ سعيد الشرتونى ، ونأتى على ذكر أسلافنا الذين أخرجهم معقلُ الضاد ، حتى إذا جاء ذكرُ شكيب انفتحت حدقتا شيخنا سعيد وقال : المير شكيب قُفَنَة .

فقلت : وما معنى قُفَنَة ؟ . فأجاب شيخنا الجليل : أى يحفظ كلَّ ما يسمع ولا ينساه[2] ، فكأنما يضعه فى صندوق ويقفل عليه . ثم طَفِقَ يطرى ثروة شكيب اللغوية كل الإطراء »[3] .

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ٦٠٤ .

(٢) فى القاموس : « القفنة كهمزة : الحافظ لكل ما يسمع » .

(٣) رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٢ . وكلمة المير : هى الأمير فى لهجة أهل لبنان .

وكان لشكيب فى ميدان اللغة أساتذة أولهم عبد الله البستاني صاحب معجم « البستان » وصاحب المساجلات اللغوية الدالة على تمكنه من مفردات اللغة وعلمه بسرائرها ، وقد كان شكيب تلميذاً له فى مدرسة الحكمة ، وثانى الأساتذة هو سعيد الخورى الشرتونى صاحب معجم « أقرب الموارد » والذى صاحبه شكيب وتلقى عنه ، وتعلم منه الحرصَ على اللغة والبحثَ عن شواردها وأوابدها ، وهناك أستاذ ثالث لشكيب فى اللغة ، وإن لم يره شكيب ولم يجتمع به ، وهو أحمد فارس الشدياق ، فقد قرأ له شكيب الكثيرَ من لغوياته التى زادته حباً للغة قومه ووطنه .

واستطاع شكيب بثقافته اللغوية المبكرة التى أخذ يزيد فيها على الأيام أن يدخل فى مناقشات لغوية سنعرف جوانبَ منها بعد قليل ، فكانت له مناقشات مع السيد رشيد رضا فى الرسائل المتبادلة بينهما ، وكانت له مناقشات مع إبراهيم اليازجى بمناسبة نقد اليازجى لرواية أحمد شوقى « عذراء الهند » ، وقد سجل شكيب تفاصيلَ لهذه المناقشة فى كتابه عن شوقى . وكانت له مناقشات مع شوقى ، فهو يخطّئه فى كثير من الأحيان ، ويتحدث عن ذلك فى الكتاب المذكور كما عرفنا ، وكانت له مناقشات مع الشيخ عبد القادر المغربى فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق .

وإذا كنا قد عرفنا أن شكيب قد امتدت يده وهو فى المرحلة الأولى من طلب العلم إلى « لسان العرب » ، ينظر فيه ويستنبئه ويستشهد به ، فإنه من السهل علينا أن نتصور شكيب وهو يفزع إلى المعجم كلما اشتبه فى كلمة ، أو أراد أن يعرف معنًى للفظ غريب ، حتى إن شكيب نفسه قد أشار إلى ذلك فى رسالة خطية منه بين يدىَّ أرسلها إلى السيد رشيد رضا بتاريخ ٢٧ مايو ١٩٣١م ، وفيها يذكر أن أعداءه يقولون عنه : « لا يقدر أن يكتب إلا إذا كان محاطاً بكتب اللغة » . ويقرر شكيب أنه مسرور بهذا الطعن ، « وأى شرف أعظم من هذا ؟ . وياليتنى أقدر أن أبحث عن كل لفظة » . ثم يقول : « والخلاصة أن المراجعة فى كتب اللغة هى سعادة لمن يقدر عليها » .

ويخيل إلىّ أن مصاحبة شكيب لكتب اللغة أينما حل وحيثما نزل كانت أحد الأسباب التى جعلته يحتفظ بلغته السليمة وبيانه النقى، على الرغم من ترحاله وانتقاله، واختلاطه بهؤلاء وهؤلاء من أصحاب اللغات المخالفة للغته، فهو على الرغم من اغترابه عشرات السنين، وبعده عن وطنه العربى، وإقامته فى أوربة، واختلاطه المباشر بالأتراك والفرنسيس والألمان وغيرهم، وسماعه أكثر من لغة، وتحدثه بأكثر من لغة، ظل قوياً متيناً فى لغته العربية، لا تناله هُجْنة ولا لُكْنة، لا فى كلامه ولا فى كتابته.

ويبدو واضحاً من استشهادات شكيب اللغوية فى كتاباته خلال اغترابه أنه كان يفزع إلى المعجمات العربية، يستنبئها ويستشيرها، ويمحص عبارته عن طريقها.

* * *

وشكيب يؤمن بوجوب الحرص على اللغة، ويرى أن الكاتب لا يكون كاتباً إلا إذا رعى لها حقَّها، ولذلك يعجبه قول أناتول فرانس: « لا يقول الكاتب قولا سديداً إلا بنحو متين ولغة صحيحة». وقول بوالو الفرنسى: «أعلى الكتَّاب كعبا إذا حُرِم الرسوخَ فى اللغة فليس بكاتب[1] ».

وحين يستشهد شكيب بكلام لمثل هذين يريد أن يؤكد رأيه، فيقول لنا إن غيرته على اللغة أمر لا يعاب، لأن الذين تقدموا وتمدنوا وتحضروا يغارون عليها ويعنون بها.

ويقول شكيب أيضاً: « الأديب لا يصح أن يسمى أديباً إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان، وإلا فإنه يبقى متأخراً فى صفوف المتأدبين، مهما سمت معانيه، وزهت تصوراته، وأثر كلامه، ونفذت طعناته[2] ».

---

(١) كتاب شوقى، ص ٥٥.

(٢) المرجع السابق، وقد سبق الاستشهاد بهذا

ولما كرر شكيب الدعوةَ إلى العناية باللغة والنحو خشى أن يفهم قام أنه يريد اقتصار الأديب على الاشتغال بأمر الألفاظ وإعرابها ، دون بقية المعارف العمرانية والعلوم المفيدة ، فينتهز فرصة إيراد قصة عن السيوطى جاء فيها أن إعراب « زيد قائم » فيه مائة وثلاثة عشر بحثاً ، فيقول : « وماسبقنا الأوربيون فى المعارف العمرانية والوسائل المادية إلا بكثرة اشتغالنا بزيد قائم إلى الحد الذى يخرج عن اللزوم ، بينما كانوا يقضون أوقاتهم بالعلوم الرياضية ، والتجارب الطبيعية المفيدة ، وهكذا تفوّقوا وتغلبوا علينا[1] » .

وإنما هو يطالب بنقاوة اللغة وسلامة التركيب مع صحة الإعراب ، لأن المعنى إذا جاء فى ركيك اللفظ نالت من علوه الركاكة فعابته . يقول :

« ولولا متانة لغة شوقى لما عُدَّ شاعراً أصلا ، لأن نقاوة اللغة هى الشرط الأول للكاتب ، والمعانى وحدها لا تكفى ، ولا ينهض بركاكة اللفظ علوُّ المعنى ، وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم[2] » .

• • •

وتبدو غيرةُ شكيب على اللغة العربية واضحةً فى كثير من المواقف ، فهو يطرب حين يجد أهلها يؤثرونها فى مواطن كانوا يُهملونها فيها ، وما يكاد يسمع أن سفيراً مصرياً ألقى خطاباً بالعربية عند تقديم أوراقه إلى رئيس دولة غير عربية حتى يفرح بذلك ، ويعبر عن فرحه بقوله :

« إن صحَّ كونُ سيف الله باشا سفير الدولة المصرية فى برلين — عندما قدَّم أوراق اعتماده لحضرة المارشال هيندنبورغ رئيس الجمهورية الألمانية — ألقى خطاباً باللغة العربية ، فتكون يداً تُذكر لمصر منضمةً إلى ما سلف لها من الأيادى

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٢٦ .
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٩٠ .

التى لا تُمد ولا تحصى على لهجة الضاد فى الأرض ، فهذه فى العهد الجديد — لا فى العهد القديم عندما كان ملوك أوربة يراسلون خلفاء العرب — أول مرة استعملت فيها اللغةُ العربية كلغة رسمية فى مقامات دول أوربة العظمى .

وحقيق بالدولة الألمانية التى فى أمتها أحسن المستشرقين أن تُملى قدر اللغة العربية ، وترضاها لغةً رسمية فى المفاوضات لدولة مصر ، وللدول العربية التى لابد بحول الله أن تكون ذاتَ علاقات مع ألمانية فى المستقبل ، كدولة اليمن ودولة نجد ودولة الريف ، بل ودولة سورية ودولة العراق ، فإن اللغات هى أعظم عوامل الاستقلال للأمم[1] » .

وهو يسر حين يجد شخصاً يصحح خطأ ، أو يتكلم كلاماً مضبوطاً ، وذلك يقول فى كتابه « الارتسامات اللطاف » :

«ومررتُ ببسانية فى الفَرْع [قرية فى الحجاز] يديرها شاب لا يتجاوز العشرين، فأخذت أحادثه وأسائله عن (الفرع) ، فقال لى : سقى الله الفرع ، فيها من فضول الله مالا يحصى .

أعجبنى جداً كلامه ، وقوله : (سقى الله الفرع) هذه العبارة الشعرية ، ثم قوله : (فضول الله) . لو كان من أهل بلادنا الشامية لقال : أفضال الله ، فجمع فضلاً على أفضال ، وهو خطأ ، وصوابه : فضول ، كما قال الشاب الفرعى الثقفى[2] » .

• • •

ويرى شكيب وجوبَ تحفيظ الطلاب ما يمكن تحفيظه من مفردات اللغة ، ويرى أن حفظ « المقامات » يحقق للأديب — بما حوته من مفردات — ثروةً لغوية ، فيقول : « ومقامات الحريرى هى من المنثور الذى حفظُه يساعد الأديب

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٢ يوليه ١٩٢٥ .

(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ٢٦٧ . والسانية : الساقية .

كثيراً على حفظ مفردات اللغة » . ويقول : « وإنى أرى مفيداً جداً تحفيظ طلبة الأدب من مقامات البديع ورسائله ، وقد كنت من عهد حداثتى كثيرَ المطالعة رسائل بديع الزمان الهمذانى وأبى بكر الخوارزمى ، أتلو تلك الرسائلَ المرة بعد المرة ، إلى أن استظهرت كثيراً منها[1] » .

وإذا كان حفظ المفردات من المعجم عملا مسئما قليلَ الثمر إلا إذا صحبه استعمال لهذه المفردات فى عبارات ، وكان حفظ المقامات قريباً من حفظ المفردات ، لأن عمادها هو سرد هذه المفردات فى عبارات مصنوعة ، فإننا نجد شكيب لا يقتصر على المطالبة بهذا ، بل لعلّه أحسَّ فى نفسه بقلة الجدوى من وراء هذه المطالبة ، فأراد أن يسلك سبيلا أخرى فى إشاعة هذه المفردات بين القراء ، وفى إحياء ما يمكنه إحياؤه من مهجور اللغة أو مجهولها ، فكأنه أخذ على نفسه عهداً أن يطعِّم كتابتَه بنصيب من هذا الغريب ، وقد يخف هذا النصيب تارة ، ويثقل تارة أخرى ، فتراه يتعمد إيراد المفرداتِ اللغوية الغريبة فى مقدمات الكثير من كتبه ، وإذا كنا عند دراستنا للسجع عنده قد رأيناه يعتبر « السجع » أمراً « رسميا » فى المقدمات ، فإننا نراه وكأنه يعتبر إيرادَ هذه المفردات أمراً « رسميا » آخر ، لا فى المقدمات وحدها ، بل فيها وفى مواطن كثيرة من كتاباته .

نراه فى تقديمه لكتاب « حاضر العالم الإسلامى » يقول :

« الحمد لوليِّه ، والصلاة على نبيه ، والسلام على كل هادٍ إلى سَوِيِّه ، وبعد ، فإن الأوربيين الذين يغورون فى كل أمر ، ويختتلون كل سر ، ويوسعون كلَّ قضية درسا ، ولا يسامون فى أطراف الأرض بحثاً ولا فحصاً ، يذهبون إلى أن فى العالم الإسلامى حركةً شديدة وغلياناً عظيما ، وأن آسية وأفريقية ماخضتان بحوادث خطيرة يكون من الجهل تجاهلها ، ومن الخُرْق الاستخفاف بها ، ومنهم من يغلو

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ١٢٢ و ١٢٣ .

فى تقدير هذه الحركة وتوسيع دائرتها، فيرى الإسلام من أقصاه إلى أقصاه متحسحساً للقيام ، والشرق من أوله إلى آخره متحفزاً للصراع ، ويجد العالم القديم كله مستوفزاً يريد أن يقتفى أثر اليابان ليسترد مجداً سالفاً ، ويستجد عزاً آنفاً ، ويُشحط عنا كل غريب ، ويكشف كل مغير .

وأن الشرقيين — لا سيما المسلمين منهم — يأبون إلا استرجاع أملاكهم المغصوبة بأصبارها ، وإحراز حقوقهم المهضومة بجذافيرها ، كما أن نفراً نراهم بالعكس يقولون إن الإسلام جسمٌ متفككُ الأجزاء ، متقطع الأوصال ، عاجز عن الصراع ، فاقدٌ لأسباب الدفاع[1] » .

فنراه هنا قد استعمل كلمة « يختتلون » بمعنى : يتسمعون للسر ، وكلمة « ما خضتان » بمعنى : حاملتان ، وكلمة « متحسحساً » بمعنى : متحركا ، وكلمة « مستوفزاً » بمعنى : متهيئاً للوثوب ، وكلمة « يُشحِط » بمعنى : يبعِد ، وكلمة « بأصبارها » بمعنى : بجميع أجزائها .

ونجده فى مقدمته لكتاب « الدرة اليتيمة » يذكر كلمات : « الإيجاف ، والإيغال ، وأثَّت العلائق ، والعارض المغدق ، وصنابير الأقلام ، وأنابيب اليراع ، وتعادل المنتَين ، وثوبه الأبلق ، وعقبة عنود لدى التصعيد ، ومصاقع الخطباء ، وتترشف من أسآر مشاربهم ، وحماطة قلبه[2] » .

وفى مقدمته لديوان « روض الشقيق » يذكر الكلمات : « الفرُار ، الفريدة المعطال ، لا يرنُّ له حجل ، الندّ والالطيم ، المنجهية ، الشماريخ ، الشنشنة[3] » .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص (و) .

(٢) الدرة اليتيمة ، ص ٤ — ٩ .

(٣) روض الشقيق ، ص ٣ — ١١ .

وفى مقدمة كتابه « تاريخ غزوات العرب » يذكر الكلمات : « مداحض القدم ، الضَّرَم ، لهاميم العرب ، تنباع ، تستوفز ، شأو ، الغابر ، لينثلوا من كنائنها ، الطوائح [1] » .

ونراه فى كتاب أناتول فرانس فى مباذله — وهو كتاب مترجَم عن الفرنسيّة — يتعمد الإكثارَ من المفردات اللغوية ، ففى المقدمة يورد هذه الكلمات : « الأشكَ ، الألحن ، الألكن ، أثّت العلائق ، الذليقة ، الثقاف ، بنائقه ، صُبَّابة ، المنجهية ، السُّهم ، القُذَّة ، المعطن ، تأثل ، المثافنة ، المماتنة ، المشارع ، الأجارع ، العُذُملى م- خايُطى [2] » .

ولا يكتفى شكيب بالإكثار من هذه المفردات فى مقدمة هذا الكتاب وحدها ، بل يورد مزيداً منها خلالَ الكتاب ، فنجد فى الصفحة الثامنة عشر كلمات : « الشنشنة ، والمنمنة ، وديمومة » .

وفى الصفحة الرابعة والتسعين نجد كلمات : « يكرثهم ، عُدَوَاء ، شأوه ، منتدح ، مشاده » .

وفى صفحة (٣٠١) نجد كلمات : « مغنى ، الفراهة ، الشَّمَام » .

وفى صفحة (٣٠٢) كلمة : « تَفَحَّل » .

وهكذا لو ذهبنا نحصى المفردات اللغوية فى هذا الكتاب لوجدناها أكثر من مثلها فى الكتب الأخرى ، مع أن الكتاب مترجم كما ذكرنا ؛ وكأن شكيب أراد أن يتشبه بأناتول فرانس فى حرصه على مأثور اللغة ، أو أن يقول : إذا كان للفرنسية من يحيى مفرداتها ، فللعربية من يحيى مفرداتها كذلك ! .

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ٤ — ٦ .

(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٣ — ٧ .

وكما تعود شكيب إيرادَ المفردات اللغوية في نثره ، تعود إيرادها في شعره، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك حين الحديث عن شكيب الشاعر .

ولا يقتصر هذا الإيراد على الكتب والقصائد ، بل يشمل مقالات شكيب في الصحف ، فهو مثلا يقول في بعض مقالاته بالشورى : « بعد أن اسبطر رواق الأمن[1] » . ويقول : « ليقيم به شهرا أو شَيْعَ شهر[2] » ، ويقول : « وأنت قد رقيت هذه الشناخيبَ الضاربة في السماء »[3] .

وقد يكرر الكلمة الغريبة في الشعر بعد النثر لإشاعتها ، كـكلمة « شناخيب » الماضية ، إذ ذكرها في رثائه للرافعي ، في قوله :

لا غرو أن يرقى شناخيبَ الذرى مَنْ كان مِنْ ذاك النِّجار تحدرا[4]

ولذلك يقول محمد كرد على :

« وكان الأمير أثابه الله منذ وَعَى على نفسه مُولَعًا بإحياء غريب اللغة ، وما برح استحضارُ الفُصَح المنسية من الأمور الطبيعية فيه ، ساعده على التبرز في ذلك جودةُ ذاكرته ، وتتخلل هذه الألفاظ مقالاته العلمية والسياسية ، وحواشيه وترجماته في الكتب التاريخية والاجتماعية ، وهذه طريقة مفيدة في الاحتفاظ بتراث الأجداد وإحياء الموات ، أو ما هو من قبيله[5] » .

* * *

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٢٦ فبراير ١٩٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، عدد ١٤ أكتوبر ١٩٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، عدد ٤ نوفبر ١٩٢٦ .

(٤) مجلة الشباب ، عدد ٩ يونيه ١٩٣٧ . والشناخيب : جمع شنخوب (بضم الشين) وهو أعلى الجبل ، والنجار : الأصل .

(٥) مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٦ ، ص ٣٢٠ .

وقد تكونت لشكيب على مر الزمن وطول البحث و تكرار المراجعة ثقافة لغوية واسعة ، حتى غدا فسيح الاطلاع على معانى الكلمات و أسرار اللغة ولهذا شواهد كثيرة ، منها أن أحمد زكى باشا كتب يقول : إن كلمة « الجوالي » مفردها « جالية ، » ولكنها لا تستعمل إلا بصيغة الجمع ، وإنه قد أكثر التنقيب فلم يجد لمفردها أثرا ، وإن هذا المفرد ميتٌ من أيام العباسيين إلى يومه . فيأتى شكيب ويقدم له شاهداً على استعمال المفرد من كلام أبى إسحاق الصابى[1] .

ودارت مناقشة حول اسم بلدة « دَارِين » من بلاد البحرين على صفحات جريدة الشورى ، اشترك فيها الأساتذة محمد أمين بك واصف وعبد العزيز الثعالبي ، ومحمود بك رشاد وأحمد زكى باشا وخير الدين الزركلى ، فاشترك شكيب فى المناقشة ، وصحح بعض المعلومات ، وتلطف وهو يفعل ذلك ، إذ قال للمحرر : « اطلعت على مادار فى جريدتكم الغراء بشأن (دارين) ، وتأملت فى أقوال أولئك الفحول الذين دَرَوْا ما جهله غيرهم ، وما كل الناس بدارين ، ولقد تضوَّع عَرْفُ كلامهم الدارى حتى نشقناه من ساحل (مرسين) حيث هذا العاجز من المُرْسين » . ثم أخذ يورد المعلومات التى تدل على خبرته اللغوية ودرايته بالتاريخ[2] .

ونراه يكتب فى مجلة المجمع العلمى العربى مقالا بعنوان « مطالعات لغوية » يستغرق خمسَ عشرة صفحة ، وفيـــه شواهد على مطالعاته اللغوية الواسعة ، ومنه قوله :

« وأما المخابرة بمعنى (المطالعة أو المفاوضة) فهى خطأ محض ، وقد كنت أوَّل من أرسل إلى الشام فى أيام ولاية فيصل بن على بإلغاء جملة (قلم المخابرات) ، وأشرت عليهم بأن يقولوا (ديوان الرسائل) .

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ١٦ يوليه ١٩٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، عدد ١٦ إبريل ١٩٢٥ .

وأما ما جاء من استفتاء الأستاذ أحمد رضا للمجمع العلمي من جهة تصحيح (المخابرة) قياساً لها على (المبادلة) من البدل ، فلو حضرت هذه المذاكرة لكنت في جهة المنع ، لأن هذا القياس يبعد بنا كثيراً ، واللغة عمدتها السماع لا القياس فلهذا أنا على رأي سعادة الأخ عارف بك نكد في بحثه المتعلق باقتراح العلامة الشيخ عبد القادر المغربي الوارد في الجزء العاشر من المجلد الثامن من مجلة المجمع .

وأقول : أعفونا من (خَابَرَ) فإن (طَالَعَ) و (راسل) و (راجع) و (خاطب) و (فاوض) وغيرها تغنينا عنها .

وفي لسان العرب : (نابأت الرجلَ : أنبأته وأنبأني) فالمنابأة إذاً صحيحة ، وهي في المعنى المقصود من (المخابرة) من الخبر ، فلنستعمل المنابأة بالأقل »[1] .

وشكيب يُبدي براعته في تفسيراته اللغوية بما له من ثقافة واسعة في هذا المجال ، ومن نماذج تفسيراته اللغوية ما يشرحه قوله :

« عند ما قصدنا ميدانَ القتال على ترعة السويس ، نزلنا من معان لجبال الشراة إلى مكان في أول صحراء التيه ، يقال له (الغَرَنْدَل) بفتح الغين والراء معاً ، فسكون النون ففتح الدال ، ولما وصلنا إليه وجدته بابَ وادٍ ضيق تنبع منه مويهات في أماكن متعددة ، فأقمنا هناك يومين ، وصادفنا بعض شبان من أدباء الوطن متحيرين في تفسير كلمة غرندل ، هذا يقول : أصلها (قارون ذل) ، والثاني يقول : (غار الذل) وهلم جرا .

فقلت : لا والله إن هو إلا (غار الندى) ، والبدو من عادتهم تسكين أوائل كثير من الكلم ، فسكنوا نون الندى ، فصارت (غارندا) ، وألحقوا بها اللام كما يجري ذلك أحياناً على ألسنة العامة في كلمات أواخرها لينة ، فكأنهم يريدون أن يتوكأوا على حرف جامد ، فجعلوا غارندا (غرندل) .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٩ ، ص ٧٤ وما بعدها .

ووجه كون هذا المحل هو غار الندى كونه أشبه بغار ، وفيه موبهات وأنداء تسيل من هنا ومن هناك ، وإذا حفر الإنسان فى الرمل قليلا وصل إلى الماء ، فهو فى الحقيقة (غار ندى) ، واللام عصا للتوكؤ لا غير ، وحروف اللين جوفاء خوارة ، فكأنهم أرادوا أن يقووها بحرف صحيح » [1] .

ويمضى شكيب فى ألوان كتابته من تأليف إلى نظم إلى مراسلة ، دون أن ينسى نصيبَ اللغة من عنايته ورعايته ، بل لعله كان يعطيها أحيانًا أكثر مما تستحق بالنسبة إلى موطن الكلام ، لا بالنسبة إلى ذاتها ، فهى فى ذاتها أهل لكل رعاية وعناية .

نراه فى « الارتسامات اللطاف » إذا عرضت له لفظةٌ فيها غرابة تتبعها بالتفسير والتحقيق والتعليق وإيراد الأقوال فيها والشواهد عليها ، فتمر عليه مثلا كلمة « المواجن » وهى بمعنى سيل الماء ، فيتناولها بالبحث والتعليق ، ويتتبع مصادرها ، والتغييرات التى دخلت عليها ، ويستغرق فى ذلك صفحة ونصف [2] .

ثم تمر كلمة « المطوّف » فيبحثها من ناحية اللزوم ، والتعدى ، والاشتقاق ، والمعنى ، وكذلك فعل مع كلمة « المزوّر » ، ويستغرق فى ذلك صفحة [3] .

ثم ترد كلمة « المثناة » فى أحد النصوص ، فيتناولها بالتحقيق اللغوى من جهة أصلها ونطقها ، وما دخل عليها من تحريف أو تحوير ، ويشغل فى ذلك أكثر من صفحتين [4] .

وحينما تحدث عن معادن الحجاز تناول عشرات من الأسماء والألفاظ بالشرح اللغوى عن طريق الرجوع إلى كتب اللغة [5] .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ٤ — عدد ٦ .

(٢) الارتسامات ، ص ٣٠ .

(٣) الارتسامات ، ص ٧١ .

(٤) الارتسامات ، ص ١٢٨ . والمثناة : اسم مزرعة فى الطائف .

(٥) الارتسامات ، من ص ٢٢٩ إلى ص ٢٤٧ .

وأحياناً يقطع شكيب تسلسل حديثه ليشير إلى أمر لغوي ، كأن يقول مثلا « صارت الأمنية ما هى عليه الآن بحول الله ، ثم بابن سعود » ، وهنا يفتح قوساً ويقول « وإخواننا النجديون لا يجيزون فى مقام كهذا إلا استعمال ثم ، وينكرون استعمال الواو ، فنحن لا نقول لهم إلا ثم » ، ثم يعود إلى حديثه [١] .

* * *

وهو يدقق فى استعمال الكلمات وفى تحديد معانيها ، يتثبت من ذلك لنفسه أولا حين يكتب ، ويراجع غيره فيما يشتبه عليه ، أو لا يقره إذا استعمل غيره شيئاً من ذلك ، ويصحح ما يقع فيه غيره من أخطاء .

وكان شكيب إذا سمع مذياعَ أية دولة يخطىء فى اللغة العربية ينبرى له بالرد السريع الصحيح ، كى يرجع المذيعُ إلى القواعد الصحيحة ، كما ذكر ذلك الدكتور الطيب الناصر [٢] .

ونجد شكيب يقول عن السيد رشيد رضا :

« كنت دائماً إذا وجدت فى كلام السيد لفظةً لا أجد لها أصلا فى اللغة ، أعترض عليه فيها ، وأسأله عن الوجه الذى عنده فى هذه اللفظة ، وكان هو يفعل وهى كذلك ، وسنورد جُلَّ ما وقع بيننا من المطارحات اللغوية ، لأن فيها فوائد لطلاب العربية » [٣] .

وأثبتُ هنا نص رسالة من « شكيب » إلى « رشيد » كنموذج للمناقشات اللغوية التى كانت تدور بينهما فى هذه الرسائل :

---

(١) الارتسامات ، ص ٧٤ .
(٢) ذكرى الأمير ، ص ٨١ .
(٣) كتاب السيد رشيد ، هامش ص ٣٤٦ .

« لوزان فى ٩ أغسطس ١٩٣١

سيدى الأخ الأستاذ أيده الله :

تناولت كتابك رقم ٢٤ يوليو وهو الذى فيه الكلام على أغلاطى اللغوية والبيانية وغيرها ، وقد شكرتك على ذلك كثيراً ، ولم يسرنى كتابٌ منك أكثر من هذا الكتاب ، فإننا قوم مهنتنا الكتابة ، وبقدر ما نبعد عن الخطأ ، ويقل تعرضنا للانتقاد يكون سرورنا ، وهذا بديهى .

إلا أنى مضطر أن أراجعك فى أشياء ، لا لأنه يصعب علىَّ الاعتراف بالخطأ ، لا سيما إذا نبهتَ عليه أنت ، بل لأنه يجوز أن تكون أنت غيرَ متذكر بسبب كثرة أشغالك ، ولذلك ينبغى تذكيرك . ومن باب التمثيل أقول لك : إنك خطَّأتنى فى استعمال « الفيلق » بالتذكير ، وذكرتَ ذلك فى حاشية أحد الكتب التى طبعتها عندك ، وقد كنتَ تقدر أن تقول إنه يجوز فيها التذكير مراعاة للفظ ، أو تأويلا لها بجيش ، مما له نظائر كثيرة فى كلامهم ، فلم تفعل ، بل جزمت بالخطأ ، وهذا الجزم هو الذى اضطرنى إلى أن آتى لك بشاهد من ابن الأبار القضاعى :

وأوطئُ الفيلق الجرار أرضَهمُ حتى يطأطئُ رأساً كلُّ مَنْ رَأَسَا

وما كنتُ ممن يجهل أن ابن الأبار وأمثاله مولدون ، وأنه لا يؤخذ كلامُهم حجةً فى اللغة ، بل لا يؤخذ بكلام من هو أعلى منهم فى اللغة ، ولا بكلام المتنبى ، ولا بكلام أبى تمام ، ولا بكلام أبي نواس ، ولا بكلام هذه الطبقة كلِّها ، مع رسوخهم فى اللغة ، ولقد علمت هذا وأنا ابن ١٤ سنة ، فلا يخفى علىَّ وأنا ابن إحدى وستين ، فقولك لى : « لاتفاق علماء اللغة على أن المولدين لا يحتج بعربيتهم فلا يجعل شاهداً على أن الكلمة العربية . (وتريد أن تقول إن الكلمة عربية فوضعت أل سهواً) وأنا عندما كتبت لمثلك أن كلمة الفيلق مؤنثة مثلا ، فإنما أعنى بذلك الاستعمال الحر الفصيح . . . إلخ » .

هذا قد استغربته لأنى منتظر منك فوائد جديدة ، لا ذكر شىء أعرفه منذ الصغر . ولعلك تقول لى : فإذا كنت تعرف هذا من الصغر فلماذا تستشهد بكلام المولدين ؟ فأجيبك بأن كلام المولدين إن لم يصلح حجة ككلام الجاهليين والمخضرمين ، فإنه يصح الاستئناس به ، ولاسيما إذا كان هناك أصل من نفس اللغة ، وكان المولد من أمثال المتنبى وأبى تمام الذين كانت إحاطتهم باللغة موصوفة ، فهؤلاء لا ينطقون بالكلمة إن لم يعرفوا لها أصلا ، وكذلك ابن الأبَّار القضاعى الحافظ الشهير ، لاشك أنه يُستأنس بكلامه ، وتطمئن النفس إلى استعماله ، ومثله أبوالبركات الأنبارى رأس النحاة وأمير علماء اللغة فى وقته ، إن لم يتخذ كلامه حجة ككلام امرىء القيس،أو على بن أبى طالب،أو الأخطل،أو جرير مثلاً ، فلا يجوز أن يهمل ويزدرى به .

ولقد رأينا كثيراً من المؤلفين فى مباحثهم اللغوية يستشهدون بكلام الأئمة من المولدين ،أو يجرون مجراهم ، وذلك كما قالوا (مشاهير) مثلا ، لكثرة ورودها فى كلام الأئمة . ولو كان ابن الأبار والأنبارى استعملا لفظة (جاوب) بمعنى أجاب ولم يكن لها أصل من اللغة ، لكنَّا نقول إنهما أيضاً قد غلطا ، ولكن (لسان العرب) يقول : « والتجاوب » : التحاور ، وتجاوب القوم جاوب بعضهم بعضاً ، واستعمله بعض الشعراء فى الطير فقال جحدر :

ومما زادنى فاهتجت شوقاً غِناء حمامتين تجاوبان

تجاوبتا بلحنٍ أعجمىٍّ على غصنين من غَرْبٍ وبانِ

ثم نعود إلى (التحاور) الذى فسَّر به « التجاوب » فنراه يقول فى مادة (حور) ما يلى :

« كلمته فما رجع إلىَّ حَواراً وحِواراً ومحاورة وحَويراً ومَحُورة بضم الحاء بوزن مشورة أى جواباً . وأحار عليه جوابه ردَّه ، وأحرت له جواباً وما أحار

بكلمة ، والاسم من المحاورة الحَوِير ، تقول سمعت حويرهما وحوارهما ، والمحاورة المجاوبة والتحاور التجاوب » .

ثم يذكر حديثاً لعلى (رض) فيه : « يرجع إليكما ابناكما بحور مابعثتما به » ويقول فى تفسيره : « أى بجواب » . وبالاختصار نجد هنا المجاوبة والتجاوب والجواب نظير المحاورة والتحاور والحوار ، فكلها صحيحة فصيحة ، وغاية ما يقال إن : (أجاب) أشيع فى الاستعمال من (جاوب) ، وإن جاوب يقتضى أخذاً ورداً بين المتجاوبين .

ولقد أنصفتَ فى قولك إنك إنما تبغى الاستعمال الحر الأصلى فى اللغة أو الفصيح أو الأفصح ، وإذا كان مرادك الأفصح فلا كلام لى ، ولكن يا سيدى هذا الأفصح أرجوك أن تقول لى مَنْ تقيد به ؟ . هذا كلام الأئمة كلهم ، تجد فيه من العدول عن الأفصح ومن استعمال الضعيف ما لا يحصى ، وأنت — وإنك لا شك من الأئمة — لك فى (المنار) استعمالات كثيرة من هذا القبيل ، منها ما هو ليس من العربى الأصلى الحر ، ومنها ما لا يصح إلا بتأويل ، وما ألومك على ذلك ولا ألوم الأئمة ، وذلك لأن مقصدهم التفهيم ، ولكل عصر ألفاظ غالبة عليه ، فلم يكن لهم مندوحة عن الاستعمالات التى هى أقرب إلى فهم الناس .

ومؤخراً كتبتَ لى تقول لى : « بنونة لم يستلم الكتب » ، وهذا اصطلاح عامى فى هذا الموضع ، وإن صح فلا بد من تأويل بعيد ، والأصح فيه : « لم يتسلم الكتب » . ولكنك جريت هنا مجرى الجمهور من أبناء هذا العصر . وأنا إنما أذكرك بذلك لتعلم أنى مثلك قد أتابع الناس أحياناً ، لا جهلاً بل مراعاة لفهمهم .

ولقد قرأت فى حياتى (درة الغواص) وشرحها للخفاجى وشرحها للآلوسى ، وقرأت كثيراً من المباحث التى فى معناها ، وقرأت مناقشات أحمد فارس ، وإبراهيم اليازجى ، أى (سلوان الشجى فى الرد على إبراهيم اليازجى) ، وقرأت (لغة الجرائد)

لإبراهيم المذكور ، وغير ذلك ، وكنت كثيراً ما أشافه البستاني والشرتوني في هذه الأمور : ما يجوز وما لا يجوز ، وما يمكن تأويله وما لا وجه له ، فلست بدون بضاعة في هذا الباب ، ولكني لا أدعي مع ذلك أني سالم من الخطأ حتى في اللغة التي أكثر ما أشتغل بها .

وما أراجعك فيما تقوله استصعاباً لنقدك إياي ، بل أنا والله شاكر لك جداً هذا النقد الذي معناه حب الكمال لي ما أمكن ، ولكني أراجعك حتى أذكرك وأنبهك إلى ما قد تكون أشغالك أذهبته عن بالك ، أو لست منه على بيّنة .

قلت لي مرة إن استعمال « فضلا عن كذا » تحسبه مولداً ، وأنا أراه كذلك ، ولكني رأيته في كلام المنشئين الكبار الأولين وقيدته ، وأظن أني رأيته في كلام الجاحظ ، وحسبنا أن نقتدي بهؤلاء .

ولقد ساءني كون وقتك لم يتسع للإتيان بأمثلة من أغلاطي اللغوية والبيانية ، فحبذا لو تيسر لك ذلك ، فيكون لك الفضل العظيم فيه .

أما استعمالي (رأساً) بمعنى تواً فهو فاشٍ ، ولا يصعب تأويله ، لأن « رأس كل شيء أوله » في اللغة ، فقولنا : « ذهب رأساً » أي أولا . فأي شيء في هذا ؟ .

وأما العياء فالمتنبي — الذي كان يعرف معنى العياء — يقول : « عياء به مات المحبون من قبل » . وأنت مصيب في قولك إنه المرض الذي يُعيي الأطباء ، وهو ما كان مرضي بمكة ، لولا أن الله سلم ، فقد كانوا خافوا كثيراً ، وأقروا لي بذلك بعد أن شفيت ، وقالوا لي : إني قبل صعودي إلى الطائف كنت أشفيت .

« ونحو كذا » بدلا من « نحو من كذا » قالوا فيه إنه خطأ كما تقول ، وقرأت أنا ذلك ، ولكني أنا أعلم جيداً أنهم يقولون : « زهاء مائة » أي قدر مائة ، ولا يقولون زهاء من مائة ، وقد فسروا الزهاء بالقدر ، وماذا عليَّ أن أجري « نحواً » مجرى زهاء والمعنى واحد ؟ . وقد ورد في مستدرك التاج : « والنحو المثل والمقدار » .

وأما « صدر منه » بدلا من « صدر عنه » ، فلعمري هذا عائد للمعنى ، فإن كان المراد الإتيان بذنب ، وقلنا : « الذنب الذى صدر منه » بمعنى برز منه ، أفترى ذلك غلطا ؟ .

التقديم والتأخير فى المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل قد نقع فيه من العجلة وعدم اتساع الوقت للمراجعة ، وأرى منه كثيراً فى كلام الكبار الذين لا يقدرون أن يراجعوا من ضيق وقتهم ، وحبذا لو جئتنى ببعض جُمل من كلامى لأتجنب الوقوع .

والعطف فى غير موضعه فى كلامى أريد له مثالا ، ومتى عطفتُ أنا فى ابتداء الكلام ؟ ، ومتى تركتُ العطف حيث يجب ؟ ، كل هذا ممكن بسبب العجلة ، لكن يتضح لى أكثر لو أتيتنى بشاهد ، ومثله جواب الشرط فى موضع جواب القسم ، ويجوز من كثرة العجلة أن تبقى كلمات فى المحبرة ، على حين أنا أظن أنى أثبتها ، ثم إنى لا أتنبه لها إلا فيما بعد ، وقد وقع لى ذلك مراراً .

وأما رسالة « لماذا تأخر المسلمون » فبنونة كان غائباً ، ولما جاء تسلمها ، وقريباً يبعث إليك بالثمن ، أى عن ١٥٠ نسخة ، ولذلك أرجو أن تبعث له بخمسين نسخة من (الارتسامات) أو بإحدى وخمسين ؛ الواحدة له هدية والخمسون للبيع .

والزاهرى يرى عدم وصول الكتب إلى أصحابها بالجزائر وتلمسان ناشئاً عن عدم صحة العناوين ، لهذا كتبت إلى السيد عبد الرحمن عاصم ليصحح جيداً العناوين، ويبعث بالرسالة والارتسامات طروداً صغيرة ، كل طرد ٢٠ نسخة ، وليجرب بطرد إلى الزاهرى والمدنى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

١ — الملك فيصل تغدى عندى أمس هو وجميع حاشيته ، وعاد عصر النهار إلى برن »[1] .

* * *

---

(١) هذه حاشية وضعها شكيب فى أعلى الرسالة .

وكان شكيب يدقق فى تمييز لفظ على لفظ ، أو تفضيل كلمة على كلمة ، لضبط أو نكتة ، ومن أمثلة ذلك قوله : « ومنذ ذلك الوقت (أقول : منذ ، ولا أقول : مذ ، لأنى سمعت شوقى يستحلى الأولى على الثانية ، ويقول : منذ أخف على القلب من مذ) كنت تكتب الأوابد السائرة . . . [١] » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله :

« إن لفظ الجزية كلمة شرعية ، ولها مكان معلوم من الشرع ، فلا تقال لما يأخذه الإمام من المسلمين ، لا بل ثقلت على العرب جميعاً فى صدر الإسلام ، فالذين لم يكونوا أسلموا منهم مثل نصارى بنى تغلب مثلا عندما ضربها عليهم سيدنا عمر أجابوا بأنهم لا يؤدون جزيةً . قيل : فلما أنذرهم بالبطش بهم أو يدفعوها قالوا : إنا نؤديها ، ولكن لا على أنها جزية ، بل على أنها إتاوة ، قال : فأجابهم سيدنا عمر رضى الله عنه : هاتوها وسموها كما شئتم .

فأنت ترى أن الجزية ثقيلة اللفظ ، وأن استعمالها ألغى من عهد بعيد ، ولا نزال نقرأ فى الجرائد المصرية : الجزية ، الجزية ، للمال الذى كانت مصر تؤديه للدولة العثمانية ، وهو استعمال بغير محله ، لأن الخليفة لا يأخذ الجزية من أمته ، وكان الأولى أن يقال : خراج مصر ، أو بالأقل : إتاوة مصر [٢] » .

وقد علق أحمد زكى باشا على هذا الكلام فقال فيما قال : « ولقد كان للشمم العربى مكانه فى صدر الإسلام ، فأبى بعض الذين حقت عليهم (الجزية) أن يقبلوا التعبير بها ، واختاروا لفظ (الإتاوة) على ما شرحه الأمير شكيب ، بيض الله وجهه وأعلى رأسه [٣] » .

---

(١) الشورى ، عدد ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ . وهو يوجه الخطاب إلى أحمد زكى باشا .
(٢) المرجع السابق ، عدد ٢٥ يونيه ١٩٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، عدد ١٦ يوليه ١٩٢٥ .

ولكنى ألاحظ هنا أن عمر رضى الله عنه حين قال لنصارى تغلب ما قال لم يرد أن يغير اسم الجزية . بل أراد أن يظهر عدم اهتمامه بالشكليات ، وكأنه أراد أن يقول : سموها فى كلامكم كما تشاءون ، فإنها جزية على كل حال، والمهم هو الدفع .

وذلك لأن القرآن الكريم يقول فى شأن المطلوب منهم الجزية : « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » . وقد قال الراغب الأصفهانى : « والجزية ما يؤخذ من أهل الذمة ، وتسميتها بذلك للاجتزاء بها فى حقن دمهم »[1] .

ومادة (الجزاء) فيها معنى الغناء والكفاية والمقابلة ، وأصل المادة (وهو الجيم والزاى والياء) يدل على « قيام الشىء مقام غيره ومكافأته إياه[2] » .

والجزية تؤخذ فى مقابل حماية أهليها من العدوان الخارجى ، وتحقيق الأمن الداخلى لهم ، فليس فيها غضاضة ، مادام أهلها قد ارتضوا البقاء على وضعهم .

ثم إن شكيب على حق حين ينادى بالإقلاع عن استعمال كلمة « الجزية » بمعنى الخراج ، لأن المسلم يتأذى من استعمال كلمة « الجزية » معه ، إذ معنى ذلك أنه غير مُسْلِم .

---

(١) مفردات القرآن ، ص ٩١ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ، ج ١ ص ٤٥٥

بين شكيب واليازجي

عرفنا أن شكيب عُني باللغة منذ نعومة أظفاره ، وأنه كان يرجع إلى المعجم الأكبر « لسان العرب » وهو فى المرحلة الأولى من طلب العلم ، وأنه قد تكونت له ثقافة لغوية واسعة فى سن مبكرة ، فلا عجب بعد هذا إذا رأيناه يشارك فى المناقشات اللغوية ، وكأنه أراد أن يرضى طموح نفسه ، فاختار للمساجلة اللغوية الأولى عَلَماً من أعلام اللغة وهو إبراهيم اليازجي الذى قيل فيه إنه « لغوى مدقق من الدرجة الأولى ، وصحافى مجدد ، فهو موئل اللغة الحصين ، ورقيب الإنشاء فى عصره »[1] . بل يصفه شكيب نفسه بقوله : « من أبصر جهابذة اللغة وأفرس فرسان الإنشاء »[2] . ويقول عنه أيضاً : « كان من علماء اللغة المعدودين ، ومن كبار الكتاب ، وأمتنهم تركيباً ، وأحسنهم نسق عبارة »[3] .

وسبب المساجلة أن اليازجي نقد رواية أحمد شوقى « عذراء الهند » فى مجلة « البيان » سنة ١٨٩٨ م ، وكان عمر شكيب حينئذ سبعة وعشرين عاماً ، وعمر اليازجي فوق الخمسين ، وشهرته أوسع من شهرة « شكيب » ، وفى اللغة بخاصة .

وشوقى صديق لشكيب وحبيب إليه وعزيز عليه ، فانتضى قلمه ، وردَّ على اليازجي نقده بمقال نشره فى عدد ٢٥ يناير سنة ١٨٩٨ م من جريدة الأهرام ،

---

(١) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٧٥٩ .
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٥٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

جعلوه بمعنى المأوى ، ولأن أصله من المبيت ، فسواء بات الإنسان فى مأوى من الشعر أو من الحجر ، فيصح أن يقال لمأواه هذا (بيت) .

وكذلك (الشباك) الذى كان من قصب أيام لم يكن الحديد مبذولا ، بقى يقال له الشباك بعد أن سخر الله الحديد للناطقين بالضاد وألانوا منه القضبان .

وكذلك (الناقوس) كان خشبة فى أيام الجاهلية ، فصار فى أيام المدنية نحاساً ، وبقى يقال له (ناقوس) ، ونطق به الفصحاء » .

ومضى شكيب يسرد له كلمات من هذا القبيل ، وذكره شكيب بأنه هو نفسه قد استعمل الكثير منه ، وضرب له الأمثال على ذلك ، ثم قال إننا لو جارينا اليازجى فى تحجيره واسع اللغة « لما كان فى لغات العالم أضيق من العربية »[1] .

ويأخذ اليازجى على شوقى قوله : « جنى ظلك » لأن الجنى هو الثمر ، والظل لا يثمر ، ويرد شكيب بأنه لا مانع من هذا التوسع ، لأنه « لا غراس بلا ظل ، وأن الظل غير مانع من الجنى »[2] . ويذكره شكيب بقولهم : ظل الله ، وظل الأمن ، وظل العدل ، وظلال مجردة كثيرة ممتدة فى الكلام العربى ليس لما تضاف إليه أدنى حجم .

ويأخذ اليازجى على شوقى قوله : « الرأى العام » ويقترح بدلها كلمة « أهواء النفوس » ، ويرد شكيب بأن كلمة « الرأى العام » مترجمة عن لغات الإفرنج ، ولا يوجد فى العربية ما يسد مسدها بالتمام ، ومع هذا فاتصاف الرأى بالعام كاتصاف البلاء بالعام ، وشاعر الجاهلية يقول :

ياليت شعرى عنك والأمر عَمَمْ ما فعل اليوم أُوَيْسٌ بالغنم ؟

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٥٧ .

(٢) المرجع السابق .

« فإن كان يقال : أمر عَمَم ، فلماذا لا يقال : رأى عام ! وأى إثم فيها ؟[١] »

ويذكِّر شكيب اليازجى بأنه — أى اليازجى — يدعو إلى وجوب الوضع فى اللغة قضاء لحاجة العصر ، ووفاء بالمعانى الحديثة التى لم تكن عند العرب ، فكيف يتفق هذا وتحجيره فى اللغة ؟ .

ويسلم شكيب لليازجى ببعض نقده ، كأخذه على شوقى استعمال كلمة « برهة » بمعنى هنيهة ، مع أن البرهة هى الزمان الطويل كما يقول القاموس ، ويقول شكيب عن هذا الاستعمال إنه « استرسال إلى اصطلاح العامة ، أو عدم تحقيق » .

ومثل هذه كلمات أخرى اعترف شكيب بأن شوقى قد أخطأ فيها ، وأن اليازجى مصيب فى نقدها ، وهذا إنصاف من شكيب فى الحكم واعتدال فى القول .

وبعد أن يستوفى شكيب الردَّ على مآخذ اليازجى يقول : « هذا ما عنَّ لى إيراده من محاكمة هذين الفاضلين ، لا أقصد به تهضمَ جانب أحد منهما ، ولا الاستطالة على أحد ، فإننى أول من أقر بعجزه ، ولى من مودة كل منهما ما يكفل تصحيح دعواى هذه[٢] » .

ويوجز شطرى حكمه بقوله : « وبالجملة فلا أبرئ (البيان) من التشديد فى مؤاخذة شوقى بك ، والتحجير فى الواسع ، كما لا أبرئ شاعرنا الشهير من النزوع إلى أبعد مذاهب الشعر أحياناً فى كتاباته ، ومن تسلط التأمل على مخيلته إلى حد الذهول الذى يحمله أن يقع فى فرطات منشؤها السهو[٣] » .

والذى يبدو أن اليازجى فى نقده يحكِّم كتب اللغة ، وينسى المجاز والتوسع ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ . والبيان مجلة اليازجى .

وشكيب يحكم كتب اللغة ويضيف إليها عنصر المجاز والتوسع . والحق في هذا إلى جانب شكيب .

***

وغضب اليازجى من نقد شكيب ، وقامت قيامته — كما يعبر شكيب — لأنه لم يكن يطيق اعتراضاً عليه من أحد ، وكان يهزأ بالمتقدمين ويخطئهم فى اللغة ، حتى خطأ بعض أصحاب المعلقات فى تأنيثه كلمة « ضوضاء » ، إذ يراها مذكرة .

وعبر اليازجى عن غضبه بنشره مقالا فى « البيان » فاض بالحدة وألفاظ الوقيعة ، وخرج — كما يقول شكيب — عن المناظرة إلى المهاترة[1] ، وعاد شكيب إلى الرد مقتصرا على المسائل اللغوية ، تاركا ما هو خارج عنها ، وأخذ يعزز آراءه السابقة ، ويقرر أن المجاز يقع لأقل ملابسة . وأن المجاز هو فصاحة اللغة العربية وبيانها ، وهو « ما أريد به غير المعنى الموضوع فى الأصل ، وهو من جاز أى انتقل ، كأنما يريدون به الانتقال من مقصد إلى آخر »[2] . وبهذا الانتقال اللازم يتسع رحاب اللغة وينفسح مداها .

كما يقرر أنه لا عبث فى اللغة العربية « أكثر من التحجير فى الواسع ، والقطع بعدم جواز هذا ، وعدم ورود ذاك ، ظناً بأن اللغة قد انتهت عند الذى طالعناه »[3] .

ثم يختم شكيب رده بقوله : « هذا ، وأما الشخصيات فلا شغل لنا بها ، والله المسئول أن يبصرنا ذنوبنا ، ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا[4] » .

وكانت هذه المناقشة سبباً فى انقطاع ما بين الاثنين من وُدّ قديم موروث ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

ومات اليازجى سنة ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦م ، وليس بينه وبين شكيب صلة ، ولكن شكيب رثاه بجيد الشعر ، ومنه قوله :

يا راحلاً شكَتِ الأقلامُ غربتَه ... وليس بعدك منها غير منكسرِ

نهجت فى بلغاء الأرض واردةً ... بالحق لولاك لم تُسفر ولم تَنِرِ

إليك حقّك لا ظُلْم ولا سَرَفٌ ... لا ينكر الشمسَ إلا فاقدُ البصر

وإن يؤاخذك نقّادٌ ببادرة ... فليس يُرْجَم إلا مثمرُ الشجر

وقد يعاب الذى فى البدر من كَلَفٍ ... وليس يسلب معنى الحُسن فى القمر[1]

---

(١) ديوان الأمير ، ص ٦٠ . وكتاب شوقى ، ص ٧٧ .

المعاجم ليست كل شيء

سبق لشكيب كلمة لها قيمتها وخطرها ، وهي التي يشير فيها إلى أن أكبر العبث في شأن اللغة العربية هو أن نظن أنها انتهت عند الذي طالعناه منها في كتب اللغة المعروفة لنا .

وهذا المعنى قد جلاه شكيب في أكثر من موضع ، وحق له أن يفعل ذلك لأن الوهم قد سيطر على كثيرين فحسبوا أن الكلمة إذا لم ترِد في أحد المعاجم فهي ليست بعربية ، حتى ولو وُجدت في كلام عربي ابن عربي من سلالة أعراب أقحاح .

فنرى شكيب في وقت مبكر من عمره — سنة ١٨٩٩ م — يكتب في مجلة « المشرق » مقالا بعنوان « فوائد لغوية »[1] ، وفيه يؤكد أن كتب اللغة ليست هي كل شيء في تعريفنا بمفردات اللغة ، ويورد شكيب اعتراضَ بعض الناس عليه لاستعماله كلمة « النوادى » بدل الأندية ، لأن النوادى لم تَرِدْ في المعاجم ، وأجاب شكيب أولا بأن القياس هو « النوادى » ، إذ يُجمع فاعل على فواعل لغير العاقل ، ثم أجاب ثانياً بأن الكلمة وردت في مقدمة القاموس ، وفي بيت جاهلي لمعاذ الخزاعي :

ولستُ بِرِعْديد إذا راعَ معضلٌ ولا في نوادى القوم بالضيق الممسك

ويصحح شكيب استعمال كلمة « استأسر » بمعنى أسر ، لأنها جاءت في حديث عبد الرحمن وصفوان نقلا عن المطرزى ، وفي كلام ابن الأثير صاحب التاريخ وهو علم في اللغة .

ويصحح استعمال « احتمى » بمعنى طلب الحماية ، وإن كان أصلها بمعنى امتنع عن الطعام حِمْيَةً ، لأنها وردت في كلام فحول الكتاب والشعراء ، واستعملها ابن الأثير ، وابن هانىء الذى « كان يحمل من اللغة أمراً عظيما » .

---

(١) مجلة المشرق ، السنة الثانية ، ص ١٠٦٥ — ١٠٦٧ .

ويصحح استعمال كلمات أخرى لم ترد فى المعاجم ، ولكنها وردت فى كلام من يوثق بهم ، مثل كلمة « بارحٌ » بمعنى برح ، والنوال بمعنى النَّيل ، وعدو ألدّ .

ثم يختم قائلا : « تلك اعتراضات فيها وفى أجوبتها مجالٌ واسع للقول ، والعربية بحر لا ساحل له ، وقد أخطأ كلُّ مَنْ ظنّ احتكارَ علمها ، أو التبحر فى فقهها ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ويعود شكيب إلى هذا الموضوع مرة ثانية . فقد كتب الشيخ عبد القادر المغربى سنة ١٩٢٤م مقالا فى مجلة المجمع العلمى العربى عن الكلمات والتراكيب التى يمكن أخذها من كتاب « نشوار المحاضرة » للقاضى أبى عبد الله المحسن التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ .

فعلق شكيب على هذا بمقال مؤيِّد سنة ١٩٢٥ جاء فيه :

« وطالما حدثتنى نفسى بمراجعة كتب الخراج وتاريخ الإدارة فى أيام العباسيين والدول التى بعدهم والتى فى عصرهم ، مثل الدولة الفاطمية بمصر والدولة الأموية بالأندلس ، والدول التى تداولت المغرب كالمرابطين والموحدين وبنى مرين والسعديين وبنى حفص فى تونس ، والدولة المصرية فى أيام المماليك ؛ ودول اليمن ، وغير ذلك ، واستقصاء جميع الألفاظ التى كانت تستعملها تلك الدول فى المواضيع الإدارية والمالية والحربية ، والاعتيام[1] منها لمثالها أو لما يقاربها من أوضاع العصر الحاضر ، تخلصاً من العُجْمة والركاكة ، فجاء صنيع الأستاذ المغربى فاتحةً لهذا العمل بما قطفه من (نشوار المحاضرة) .

وفى نيتى عندما تصل إلىَّ بعض كُتبى التى طلبتها من دار (الشويفات) إلى (مَرْسين) لتشاطرنى هذه الغربة المتطاولة أن أنضد طاقةً ثانية من أزاهر تاريخ الوزراء للصابى الذى عهدتُ فيه كثيراً من هذه الأوضاع ، ومن رسائل أبى إسحاق

(١) الاعتيام : الأخذ . وفى القاموس : اعتام : أخذ .

الصابى الأول رئيس كتاب الديوان ببغداد ، فقد عثرت فيهما على ألفاظ هى الأصل لاصطلاحات تركية جارية اليوم ، أذكر منها قوله : (ساعده فى السفر إلى المكان الفلانى) مما جعله الأتراك تدريجاً بمعنى أذن فى مقام التعظيم ، إذ الإذن من الرئيس للمرءوس فى السفر يُعَدُّ مساعدة ، فانتهى الأمر بأن الأتراك صاروا يعبرون عن مجرد الإذن بالمساعدة كما هو معروف »[١] .

وعاد شكيب إلى هذا الموضوع مرة ثالثة ، فكتب فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٢٨ م مقالا نشره فى مجلة المجمع بعنوان « مطالعات لغوية » ، ذكر فيه شواهدَ كثيرة على استعمال ألفاظ كثيرة ، وأخذ هذه الشواهد من كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ، وشعر ابن هانىء الأندلسى ، ورحلة ابن جبير ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى [٢] .

وعاد مرة رابعة فكتب مقالا عنوانه « آراء وأفكار — تاريخ بعض الألفاظ » ، وذكر فيه شواهدَ من رحلة ابن جبير ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومقامات الهمذانى ، ويتيمة الدهر للثعالبى [٣] .

وعاد مرة خامسة فكتب سنة ١٩٣٠ م مقالا عنوانه : « ليس للغة قاموس يحيط بها » وقال فيه : « يظن بعض الناس أن كل كلمة لم ترد فى قاموس الفيروزابادى ، وفى صحاح الجوهرى ، وفى لسان العرب ، ليست من اللغة ، وأن استعمالها يكون خطأ . ويتهجمون على الكاتب الذى يكون قد استعملها بالتجهيل والتنديد .

ويتوسع بعضهم فى الأمور فيضيف إلى هذه المعاجم الثلاثة مخصَّصَ ابن سيده ، وأساس البلاغة ، والمصباح ، وتاج العروس ، فإذا كانت اللفظة لم ترد فى هذه المعاجم السبعة فهى عنده ليست من كلام العرب فى قليل ولا كثير .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٥ — ص ٣٧ .
(٢) المرجع السابق ، مجلد ٩ ، ص ٥٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

وقد غلب هذا الوهم على أكثر الناس ، ونسوا أن مؤلفى هذه الكتب بشر مثلنا ، وأنه لا يمكن أن تكون تآليفهم أحاطت بكل شىء ، فلم تدع شاردةً ولا واردة ، وإنما نقل بعضهم عن بعض ، وقلد الآخر الأول حتى فى الخطأ ، ونسوا أنه من المأثور أنه لا يحيط بلسان العرب إلا نبىّ » (١) .

ثم يحكم شكيب بعربية الكلمة إذا وردت فى كلام علىّ بن أبى طالب ، أو الجاحظ ، أو ابن المقفع ، أو كُتاب وشعراء متأخرين من الثِّقات الأثبات الذين ينزلون ما يقولون منزلةَ ما يروون (٢) .

ثم يورد شكيب مجموعة من الألفاظ التى لم ترد فى المعاجم ، ولكنها وردت فى كتب أخرى مثل (الدرة اليتيمة) لابن المقفع ، و(الطبقات) لابن سعد ، و(نوادر الحمقى والمغفلين) لابن الجوزى ، (وتاريخ الوزراء) للصابى ، ورسائل بديع الزمان الهمذانى ، وهذه هى المجموعة :

١ — وإن رأيت نفسك تصاغرت الدنيا (أى رأتها صغيرة) .

٢ — استركَبَ ، بمعنى طلب الركوب .

٣ — رَاكَمَ ، بمعنى ركم بعضه فوق بعض .

٤ — استشركَ ، بمعنى طلب الاشتراك .

٥ — عيالات ، جمع عيل .

٦ — عديد ، بمعنى كثير .

٧ — النوادى ، جمع النادى .

٨ — قوّده ، بمعنى جعله قائداً .

٩ — التحصيل ، بمعنى الإدراك فى الأشخاص .

---

(١) المرجع السابق ، مجلد ١١ ، ص ٧١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١٨ .

١٠ — استفقَهَ ، بمعنى استوعب أو استفهم .

١١ — المائق ، بمعنى الأحمق .

١٢ — خَطَبَهم ، بمعنى خَطَبَ فيهم خطبة .

١٣ — تقلَّقَ ، بمعنى تكلف القلق .

١٤ — إشهار ، بمعنى تنديد .

١٥ — التبخيل ، بمعنى الحمل على البخل .

١٦ — التركاض ، بمعنى قوة الركض .

١٧ — دَبَّره ، أي دبر أمورَه ، أو كان مستشاراً عنده [١]

* * *

ثم عاد مرة سادسة إلى الموضوع ، فكتب سنة ١٩٣١ م مقالا بعنوان : « الكلمات غير القاموسية » ، وخلاصته ما يلي :

١ — الكلمات التي وردت في كلام فصحاء العرب ، ولم تدونها المعاجم ، مثل (تبدَّى) بمعنى ظهر ، تُقبل بشرط أن توثَّق من جهة الرواية ، ولا بأس من جعلها درجاتٍ من جهة الصحة والحسن والضعف .

٢ — الكلمات التي وردت في كلام فصحاء الإسلاميين الذين يُحتج بأقوالهم ، مثل (أقصَّ) بمعنى قصَّ ، تدوَّن في المعاجم ، مع الإشارة إلى أنها ليست جاهلية .

٣ — الكلمات التي اصطلح عليها أهل العلوم والصناعات ، ولا يعرفها أهلُ اللسان ، مثل : ميزانية ، وكمية ، وذاتية ، تدخل في المعجم إذا لم يكن لها لفظ عربي قديم .

٤ — الكلمات التي ولَّدها العرب الإسلاميون من مادة عربية مثل « خابر »

---

(١) المرجع السابق .

و « تفرَّجَ » و « احتار » نرد منها ما لا تدعو إليه ضرورة ، ونقبل منها ما نحتاج إليه ، مثل : تفرَّج ، وتنزَّهَ ، وتطوَّرَ .

٥ — الكلمات المولَّدة بالتعريب ، مثل : فيلم ، وأتوموبيل ، مما لا نجد فى لغتنا ما يسد مسدَّه من لفظ قديم ، أو لفظ نشتقه ونصطلح عليه ، نقبله بلا مراء .

٦ — الأساليب والتراكيب ذوات المعانى الأعجمية ، مثل : ذرَّ فى عينه الرمادَ ، وساد الأمن فى البلاد ، وعاش ستة عشر ربيعاً ، لا نسد عليها البابَ وإن كانت غير مستحسنة ، ويشترط فى قبولها انطباقها على الذوق العربى ، وعدم مخالفتها للقواعد[1] .

ثم عاد مرة سابعة إلى الموضوع ، فكتب كلمة سنة ١٩٣٢ بعنوان « من العنت أن نرفض كل كلمة لم ينص عليها القاموس » ، وأكد فيها أن كلمات كثيرة جدا لم تذكرها المعاجم ، أو لم تذكرها أغلبُ المعاجم ، وأنه تتبع هذه الكلمات فقيَّد منها جملةً صالحة فى بعض كُنَّاشاته[2] ، ويقرر أنه « لا يجب أن نخطِّئ كلَّ لفظة لم ترد فى المعاجم المشهورة ، إذا كانت قد جاءت بصورة لا تحتمل التحريف ولا التصحيف فى كلام العرب الأولين أو المخضرمين[3] » .

❊ ❊ ❊

لقد أوردتُ ذكر هذه المقالات مرتبةً حسب زمنها ، ومنها رأينا أن شكيب — منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وقبيل أن يبدأ القرن العشرين — أخذ يتحدث عن الكلمات غير القاموسية ، ويدعو إلى تتبع هذه الكلمات فى مظانِّها من كتب

---

(١) المرجع السابق ، مجلد ١٢ ، صفحة ٢٦٦ .

(٢) الكناشات : الأصول التى تنشعب منها الفروع (القاموس) .

(٣) المرجع السابق ، مجلد ١٣ ، ص ٣٩١ .

السابقين للانتفاع بها . ولعله كان عجباً لبعض الناس أن يتجه شكيب هذا الاتجاه وهو ربيب عبد الله البستانى اللغوى المحقق المدقق ، وسعيد الشرتونى اللغوى المحقق المدقق ، وهو أليف (لسان العرب) وغيره من كتب اللغة منذ حداثة الصبا .

ولكن لاعجب ، فشكيب قد دخل مدرسة الحياة ، وعالج الكتابة فى شئون كثيرة ، وقرأ كتباً عربية جمة ، فيها مفردات كثيرة غير مقيدة فى كتب اللغة المعروفة ، وتعلم لغات أخرى طالع فيها كتباً كثيرة ، واتصل بالحياة المدنية بما فيها من مخترعات ومنشئات وأدوات ، واتصل بالحضارة الحديثة وما استتبعت من تعبيرات وأساليب ، ورأى أن لغته العربية العزيزة الغالية تتسع مسافة البعد بينها وبين الاستعمال الواسع النطاق فى مجالات التعليم والثقافة والمدنية والحضارة والتأليف .

فكان من لوازم غيرته عليها ، وشواهد حبه لها ، أن يدعو فى تكرار وإلحاح إلى تحصينها وتقويتها بهذه الكلمات غير القاموسية التى تعتبر بنات صلب للعربية .

ثم نشهد نزعة التطور والتجديد عند شكيب تتجلى حين يقترح ضم الكلمات المصطلح عليها عند أهل العلوم والصناعات إلى المعجم إذا لم يكن لها لفظ عربى قديم ، ويقترح قبول الكلمات المولدة التى نحتاج إليها ، ويقترح قبول الكلمات المعربة التى لا مقابل لها فى العربية ، ويوافق على أن نقبل من التراكيب الأعجمية ما لا يتأبى على الذوق العربى ، وما لا يخالف قواعد العربية .

إن هذه المقالات التى بكّر بها شكيب منذ حين طويل مع قلة من أقرانه كانت البواكير الطيبة التى تفتحت فيما بعد عن الجهود الطيبة التى بذلها أعضاء المجامع اللغوية فى تطعيم اللغة بالكلمات غير القاموسية ، والكلمات المولدة الصالحة ، والكلمات المعربة التى نحتاج إليها .

ومن الإنصاف ألا نستخف بالخطوات الأولى التى عبّدت الطريق لمن ساروا عليها خفافاً بعد تعبيدها وتيسير الخطوات عليها .

بين شكيب ورشيد

كانت بين شكيب ورشيد رضا مراسلات دامت سنوات عدة ، وقد سجل شكيب أكثر رسائل رشيد فى كتابه « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » ، كما طالعتُ أكثر الرسائل المخطوطة التى بعث بها شكيب إلى رشيد ، وفى هذه المراسلات مناقشات لغوية كثيرة . وقد بدأت هذه المناقشات فى سنة ١٩٢٣ [١] واستمرت إلى سنة ١٩٣٥ حيث تُوفى رشيد فى هذا العام . وقد سبق أن عرضنا نص رسالة من رسائل شكيب إلى رشيد فيها مناقشة لغوية .

وبضيق المجال عن التعرض لكل مسألة لغوية تناقش فيها شكيب ورشيد ، وحسبنا أن نكوِّن فكرةً عامة عن هذه المناقشات .

بدأت المناقشة بأن سأل شكيب أخاه رشيد عن استعماله كلمات « الدعاية » و « القداسة » و « الإعدام » ، فرد عليه بأن كلمة « الدعاية » وردت فى كتاب النبى لهرقل : « أدعوك بدعاية الإسلام » وأن كلمة « القداسة » سرت إليه من استعمال المعاصرين ، وأن كلمة « الإعدام » بمعنى القتل لا الإفناء ، ومعناها فى أصل اللغة إفقاد الشىء ، وقد ورد : لا أعدمنى الله فضله .

وعلق شكيب على الإجابة بأن كلمة « دعاية » تستعمل فى مقابلة « بروباغندا » الإفرنجية ، وذكر قول من قال إن كلمة « دعاية » فى كتاب النبى حدث فيها خطأ نسخ ، وأصلها « دعاوة » لا يجوز غير ذلك ، لأن الفعل واوى ، ولكن شكيب يقرر أنه لو كان هناك خطأ فى النسخ لأصلحه العلماء ، ويذكر طائفةً من الألفاظ المماثلة لدعاية تأتى بالياء والواو ، مثل : سناية وسناوة ، ونقاية ونقاوة ، ونفاية ونفاوة ، وجباية وجباوة . . إلخ [٢] .

---

(١) كتاب السيد رشيد ، ص ٣٠٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٥ و ٣٤٦ .

وفى رسالة لرشيد بتاريخ ١٨ صفر ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٣ م يأخذ على شكيب طائفةً من المآخذ اللغوية فى كتابه « رواية آخر بنى سراج » منها أنه يصف الله تعالى بصفة « الزعيم » ، مع أن هذه الصفة لم ترد فى القرآن الكريم ولا فى السنة النبوية ، ومنها أنه استعمل « الصلاة » بمعنى الدعاء لرجاء المسلمين رجوعَ غرناطة إليهم ، مع أن لها معنى شرعياً غلب عليها ، وهو العبادة المعروفة ، ويرجح رشيد أن شكيب ترجمها حرفياً عن تعبير إفرنجى[1] .

ورد شكيب على هذه الملاحظات فى رسالة خطية بين يدىّ بتاريخ ٢٨ أيلول سنة ١٩٢٨ فيقول عن كلمة الزعيم : « ليس كل ما يُسند إلى الله تعالى يجب أن يكون من جملة الأسماء الحسنى ، فقد تكون صفات مختلفة فى اللفظ ، متفقة فى المعنى » .

ويقول عن كلمة الصلاة : « هى ترجمة حرفية بلا نزاع ، ولكنى لا أجد فيها خطأ ، لأن الصلاة هى أيضاً بمعنى الدعاء ، وأصلها الحرارة فى الدعاء ، وتؤول بأنها الصلاة التى يدعى فيها برجوع غرناطة إلى الإسلام » .

وتمضى المساجلات اللغوية بين شكيب ورشيد تعمر بها رسائلهما ، ويلفت نظرنا أن نجد شكيب يقول لصاحبه فى رسالة بتاريخ ٢ ذى الحجة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م : « ليس بشرط أن لا نستعمل لفظة عربية إلا كما استعملوها قبل الإسلام ، فقد أوجد الإسلام ألفاظاً فقهية ، وأوجدت الحكمةُ ألفاظاً فلسفية ، وأوجدت الكيمياء ألفاظاً صناعية » .

وفى الرسالة نفسها يقول : « أما (فضلا عن كذا) فعلى فرض أنها لم ترد فى كتب المتقدمين فلا أجد منها مانعاً ، لأن المولدين أحدثوا اصطلاحات كثيرة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٧ .

لم تكن عند الجاهلية ولا فى صدر الإسلام ، ولا بأس بها ، بل لا غنى عنها ، وما دامت لا تخالف قواعدَ اللغة والنحو ، فما المانع » ؟ .

ويستشهد شكيب فى الرسالة ذاتها على صحة كلمة « مهول » بقول بديع الزمان الهمذانى : « أراكَ على شفا خطر مهول ، بما أودعت لفظك من فُضُول » ويقول : « إن بديع الزمان ينزّل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ولا حاجة بى إلى شاهد آخر » .

ويحسن أن نلاحظ هنا ميلَ شكيب إلى التوسع فى اللغة ، وإلى الاستشهاد بكلام المولدين ، وإلى مخالفة الاقتصار على كتب اللغة فى تسويغ الاستعمال للكلمة ، وهذا يتفق مع كتاباته فى مجلة المجمع العلمى العربى وغيرها ، مما يدل على أن الفكرة كانت واضحة فى ذهن شكيب ، ولم تكن خطرةً عابرة أو لفتة سريعة ، فهو يُبدىء فيها ويعيد ، ويُلح فى الدعوة إليها إلحاحاً ظاهراً ، ولا شك أنها فكرة تزيد فى ثروة اللغة ، وتمكنها من أداء وظيفتها فى مناحى الحياة .

وفى رسالة من شكيب إلى رشيد تاريخها ١٣ ربيع الثانى ١٣٥٠ — ١٩٣١ م نراه يشكر لرشيد أنه نبهه إلى أغلاطه وموضع الانتقاد فى كلامه ، ثم يقول : « أنا كنت ولا أزال من المشددين فى اللغة ، المانعين التوسع فى الاستعمالات المخالفة لأصول اللغة ولكلام الجاهلية ، فإن إطلاق العنان يوصلنا إلى حل القواعد والأوضاع ، فتذهب اللغة ، ولا يفهم الآخِر الأول » .

وقد يشم شامٌّ من هذا الكلام رائحةَ العدول عن فكرة التوسع فى اللغة التى أطال عنها شكيب الحديث ، ولكنه يعود فيستدرك ويقول : « إن لكل شىء حداً ، فإذا أردنا أن نجارى بعضَ المتحذلقين فى تشديداتهم ، ولم نجوِّز إلا كلام البادية قبل الإسلام ، ضاق نطاقُ اللغة إلى حد أنها عادت لا تفى إلا بحاجات بعض قبائل رُحَّل » .

ويرى شكيب أن النطق بالشاذ أو اللغة الضعيفة ليس غلطاً ، بل يقال

إن الأكثرين نطقوا بغير ذلك . ويقول إن اللغة فيها « رُخَص يجب أن تؤتى ولا يكون مخطئاً من أتاها » ، وإن اللغة بعد الإسلام اتسعت كثيراً ، والكُتّاب والخطباء كتبوا أو تلفظوا بأشياء ليست في متون اللغة ، فإما « أن يكون فات أئمة اللغة ضبطها وتقييدها ، وهذا ممكن لأنهم ليسوا بمعصومين ، وإما أن يكون أولئك الفصحاء أخذوها بالقياس على غيرها ، فإن قولنا إن اللغة لا يصح فيها القياس ليس عاما » .

ويرى أن اللغة فيها باب التأويل والتضمين وهو يجيز التوسع ، والتوسع موجود من أول الزمان ، ويشير إلى تنطع المتنطعين في تحجير الواسع ، ويورد أمثلة على ذلك .

* * *

إن شكيب يتحدث عن اللغة حديث المجدد الواعي البصير بمطالب الحياة وحاجات العصر ، وإذا كان قد تشدد وهو يناقش خليل سكاكيني في قضية القديم والجديد مما يتعلق بضوابط اللغة وقواعدها ، فإنه هنا يتوسع ويُعتبر في طليعة المجددين .

ويقول شكيب في كتابه عن رشيد وهو يعرض المناقشة بينهما في المسائل اللغوية : « لو نقضنا كلامَ المؤلفين من بعد الإسلام[1] إلى اليوم لوجدنا فيه مالا يُحصى من الاستعمالات التي لم يكن يعرفها العرب ، ليس في الأمور العلمية والفنية والمواضيع الفلسفية فحسب ، بل في الأمور المعتادة الاجتماعية أيضاً ، فقد استعمل العرب بعد الإسلام جُمَلا وألفاظاً لا يأخذها الإحصاء ، لو نُشر عرب الجاهلية اليوم وأُلقيت على أسماعهم لم يفهموها ولا عرفوا المراد منها .

حتى إنهم قالوا إن بدوياً سئل عن القلم فلم يفهم معناه ، فقيل له : ماذا تصور

---

(١) يقصد : منذ ظهور الإسلام وبدئه .

من كلمة القلم ؟ . فقال : أتصور أنه شيء يقطع أو يقلم ، ولا أقدر أن أفهم شيئاً وراء ذلك .

وبقى العرب بعد الإسلام بكثير يتحامَوْن كثيراً من الاصطلاحات . قال سيبويه فى باب الجموع : اعلم أنه ليس كل مصدر يجمع كالأشغال والعقول والحلوم والألباب . ألا ترى أنك لا تجمع الفكر والعلم والنظر اه .

فتأمل الآن لغة عربية لا يجوز فيها جمعُ العلم والفكر والنظر ، والحال أنه لايكاد الكاتب ينمق بضعة أسطار حتى يضطر إلى ذكر العلوم والأفكار والأنظار ، وهى مستفيضة فى النظم والنثر »[1] .

ويبدو لنا شكيب فى المناقشات اللغوية بينه وبين رشيد حريصاً على إجازة تعبيرات يقع فيها الخلاف أو يمنعها كثيرون ، فهو يجيز قوله : « وما هو ذلك القصر » ورشيد يمنع ، ويوجب قوله : « ما ذلك القصر » .

وشكيب يقول : « ولذلك فإن بقاء آبائه » ورشيد يوجب أن تحذف الفاء ، وشكيب يجيز قوله : « فضلا عن كذا » فى حالتى الإثبات والنفى ، ورشيد يمنع ذلك فى مقام الإثبات[2] . وشكيب يبيح استعمال (جاوب) بمعنى أجاب ، ورشيد يمنع ؛ وشكيب يستعمل كلمة (الفيلق) مذكرة لشيوع تذكيرها ، ورشيد يقول إن الوارد فيها هو التأنيث ، لأنها فى الأصل بمعنى الداهية ، ثم أطلقت على كتيبة الجيش[3] .

ولذلك يبدو رشيد فى المناقشات أكثرَ تحفظاً من شكيب ، مع أن شكيب مشهورٌ منذ حداثة سنه بالغيرة على اللغة والدفاع عنها كما رأينا ، وقد يتطرق إلى

---

(١) كتاب السيد رشيد ، هامش ص ٣٩٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨٨ و ٣٩٣ .
(١) كتاب السيد رشيد ، ص ٦٠٤ و ٦١٣ .

نفس بعض الناس الظن بأن قلم شكيب يسبق إلى مالا يرتضيه أو يشتهيه ، فإذا عارضه أحد حاولَ التسويغَ والتصحيح ، بالتنقيب عن الآراء المجيزة ، أو اللجوء إلى التأويل ببراعة[1] ، وقد يكون فى ذلك فوائد ، ولكنّ له — من جهة أخرى — قيمتَه فى تصور العوامل النفسية التى تدفع بشكيب إلى المناقشة .

ولعلّ هذا يلقى ضوءاً على السر فى قول شكيب وهو يناقش رشيد : « ولا مراء فى أن المولدين ليسوا بحجة فى اللغة ، ولكن الاستظهار بكلامهم ممكن فيما يقع فيه الخلاف »[2] .

بل إن السيد رشيد يفصح أكثر من ذلك عن هذه الناحية حين يقول لشكيب فى رسالة تاريخها ٢٤ يوليه ١٩٣١ :

« إننى أجد فى كلامك كثيراً من هذه الألفاظ المخالفة فى اعتقادى للصحيح ، أو للفصيح ، فلا أغيِّرها ولا أذكرها لك . لأننى أعلم أن ذكرها يفتح باباً للمناقشة لا أجد له فراغاً من وقتى ، وإن كان لا يخلو من فائدة .

ومنه ما أغيره فتقرأ أنت التغيير ولا تشعر به ، لأن ما أغيره به لا تشك فى صحته وفى كونه مما تستعمله ، وأن الذى غيرته — أى تركته — لم يجْرِ به قلمك إلا بتأثير قراءتك له فى الصحف أو فى كتب المتأخرين »[3] .

وأرى أن من واجب المشتغلين بالبحوث اللغوية أن يستوعبوا مراجعةَ هذه المناقشات ، ففيها فوائد كثيرة ، وفيها مواطن تثير الفكر وتدعو إلى التدبر ، ولعلى أستطيع فى فرصة أخرى تقديمَ كل الرسائل التى بعث بها شكيب إلى رشيد ، والتى تفوز فيها اللغة بنصيب كبير .

---

(١) انظر مثلا المرجع السابق ، ص ٣٨٣ و ٤٠٦ ، وجريدة الشورى ، عددى ١٣ و ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧ م

(٢) كتاب السيد رشيد هامش ص ٦١٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١٤ .

شكيب وشوقى

والعجيب أننا نرى شكيب الذى صاح فينا صيحاته المتكررة من أجل التوسع فى اللغة ، والأخذ بأقوال الإسلاميين والمولَّدين ، واصطلاحات أهل العلوم والصناعات ، وتطعيم كتب اللغة بالمفردات والتراكيب الواردة فى كتب الأدب والتاريخ والرحلات والخراج وغيره ، نراه كالمناقض لنفسه ، وكالخارج على فكرته ورأيه ، حين يتناول شوقى بالتخطئة فى الكتاب الذى وضعه بوحى وفاته للشاعر الكبير .

فشكيب فى هذا الكتاب يخطِّىء شوقى لأنه استعمل كلمة (الفخيم) ، ويقول إن الموجود هو (الفخم) ، وإن (الفخيم) لغة دواوين . ويخطئه فى استعماله كلمة (المحتار) لأنه لا يوجد فعل مطاوعة من (حَارَ) ، وإن استعمل ذلك بعض الأعلام كعبد الغنى النابلسى وابن عابدين . ويخطئه فى استعماله (أطَار) ، اسماً بمعنى (طار) إذ لم يرد . ويخطئه فى استعمال (الأميال) جمعاً لمَيْل بفتح الميم ، لأنها جمع لمِيل بكسر الميم . ويخطئه فى استعمال (القنبلة) بمعنى القذيفة المعروفة ، ويقول إن الصواب هو (قنبرة) . ويخطئه فى استعمال (الزهور) جمعاً لزهر ، والصواب الأزهار ، ويخطئه فى قوله (تثب الحزون) لأن وثب لا يتعدى إلا بحرف . .[1] إلخ .

والأعجب من هذا أن شكيب يعلق على قول شوقى :

صُوَرٌ لم تكن حقاً ، وحلم فُجِعَ الصبحُ فيه لما تبدَّى

بقوله : « يظهر أن شوقى هو ممن يجيز استعمال (تبدَّى) بمعنى بدا ، أى ظهر ،

---

(١) كتاب « شوقى » ص ١٠٩ و ١١٥ و ١١٧ و ٢٣٠ و ٢٢٦ و ٢٨٤ و ٢٣٣ على التوالى .

إذ لا يخفى وقوع الاختلاف فيه ، ومن الناس من يذهب إلى أن تبدّى لا تفيد إلا معنى الدخول فى البداوة » [١] .

ومعنى هذا أن شكيب يعتبر هذا الاستعمالَ مأخذاً لغوياً يؤاخذ عليه شوقى ، مع أن شكيب نفسه قد نادى بقبول هذه الكلمة [٢] ، كما رأينا من قبل ، فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ .

إن شكيب نفسه قد أجاز استعمال الضعيف فى اللغة إذ قال : « أنا على مذهب أن اللغات المرجوحة لا يجوز هجرها ، وأنها تُؤتى التعبيرَ سعةً هى عين الصاعة لها ، وكما أنه فى الشرع (يحب الله أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه) كذلك فى اللغة يحسن أن نأتى باللغات الضعيفة فى بعض الأحايين لنثبت أنها موجودة . وإن كان المشهور خلافها » [٣] .

من حقنا أن نتساءل هنا : أين التوسع ، والتأويل ، والتضمين ، وقبول كلام المولدين وغيرهم ؟ . أنسىَ شكيب خطتَه ، أم تنكر لرأيه ، أم عدل عنه ، أم أراد أن يظهر بمظهر الناقد لأمير الشعراء ، وكفى ؟ .

مهما يكن السبب فإن الذى لا شكَّ فيه أن نقده لشوقى لا يتلاقى مع رأيه فى التوسع اللغوى الذى أسهب فى شرحه وأفاض .

---

(١) كتاب « شوقى » ص ١٥٨ .
(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٢ صفحة ٢٦٦ .
(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٦٢٠ و ٦٢١ .

شكيب « ومى »

كذلك نقد شكيب الكاتبة «مى زيادة» فى كتابها « المساواة » ، إذ كتب عن ذلك مقالاً نشره فى مجلة المجمع العلمى العربى ، وعلى الرغم من أنه وصف « مى » فى هذا المقال بأنها « سيدة المنشئات » أخذ عليها ما عدَّه أخطاء لغوية وقعت فيها .

استعملت « مى » كلمة (النورونية) ، والصواب – كما يذكر شكيب – هو النورية أو النورانية . واستعملت كلمة (أرعبت) والصواب (رعبت) . واستعملت (أخطر) بمعنى أنذر ، وإنما معناها : أذكر بالبال ، وبمعانٍ أخرى من الخطر أى القَدْر . واستعملت (رَضَخَ) بمعنى خضع ، والصواب أنها بمعنى أعطى أو كسر النوى ، وقالت : « وتظاهروا بحيازها » والصواب بحيازتها ، وقالت (أغاظَ) والصواب غاظ ، وقالت (إناطة) والصواب نوط . . . إلخ[1] .

° ° °

على أنه يعجبنى قول شكيب : « وللكلمات والألفاظ أحياناً أعمار كالآراء والأفكار »[2] . وقوله : « الألفاظ والكلمات كالنبات ، منه شىء ينبت فى وقت من الأوقات ، ثم ينمو ، ثم يزهو ، ثم يدخل فى طور الكمال ، ثم يعسو [ييبس] ، ثم يصوِّح ، ثم يذهب هشيماً تذروه الرياح »[3] .وقوله : «وهكذا الألفاظ مثل سائر الأشياء ، تحيا وتموت بآجال مقدرة »[4] .

إن شكيب بهذه الكلمات يصور ظاهرةً لغوية لها قيمتها .

° ° °

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٤ ص ٥٣٨ .
(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، هامش ص ٧٧ .
(٣) جريدة الشورى ، عدد ١٢ نوفمبر ١٩٣٠ .
(٤) الارتسامات اللطاف ، ص ٣١ .

ملاحظات لغوية

أورد فيما يلي بعض ملاحظاتي اللغوية على تعبير شكيب ، وإنما أوردها لأنه لغوي مدقق أولا ، ولأنه نقد غيره في مثلها ثانيا :

١ — يقول شكيب : « كدت معه أرد الكتاب معتذراً عن إجابة الطلب الذي طلبه مترجم الكتاب »[١] . والصواب أن يقول : « عن عدم إجابة الطلب » لأن الاعتذار ليس عن الإجابة ، بل عن عدمها .

٢ — ويقول : « وليست السيادة قاصرة على آل البيت »[٢] ويقول : « ولعل زحفة موسى عليها كانت قاصرة على غارات سريعة »[٣] . ويقول: «ولم نجعله قاصراً على سورية والعراق »[٤] . ويقول : « وكانت الثورة الأرناؤوطية في بداية الأمر قاصرة على الأرناؤوط المسلمين »[٥] . ويقول: «وليست زيارة الأمير فيصل السعود لأوربا بقاصرة في حسن التأثير على الأوربيين »[٦] .

والصواب أن يقول : مقصورة ، ومقصور ، لأنه اسم مفعول من قصره على كذا ، بمعنى حبسه عليه لا يتعداه ، وأما القاصر — كما في القاموس — فهو صفة للماء البعيد عن الكلأ ، وامرأة قاصرة الطرف : لا تمتد عينها إلى غير بعلها .

والعجيب أن شكيب حينما أراد تسويغ هذا الاستعمال قال : « وأكثر

---

(١) كتاب السيد رشيد ، هامش ص ٣٣٧

(٢) مجلة الفتح ، عدد ٢ المحرم ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .

(٣) تاريخ غزوات العرب ، ص ٣٦ .

(٤) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٦٣٦ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٣٥١ .

(٦) مجلة الفتح ، عدد ٢٧ المحرم ١٣٥١ — ١٩٣٢ م .

ما تستعمله الجرائد المصرية ، فتراها تكتب مثلاً : كانت الحفلة قاصرة على الأهل والأصحاب »[1] .

فهل تعتبر الجرائد مرجعاً فى الاستعمال اللغوى أيضاً ؟ .

والعجيب أن شكيب قد استعمل كلمة (مقصورة) بدل (قاصرة) فى قوله : « ولنحذر أن نظن براعته مقصورة على تنسيق الألفاظ »[2] .

٣ — يقول شكيب : « ولما بنى السلطان أورخان مدرسته فى بلدة أزنيق انتدبه — يعنى المولى داود القيصرى — للتدريس بها »[3] . والصواب أن يقول: ندب ، بمعنى دعا ، لأن انتدب معناها استجاب ، ففى الأساس : « وندب لكذا وإلى كذا فانتدب له » . وفيه : « وتكلم فانتدب له فلان أى عارضه »[4] ، وفى القاموس : « ندبه إلى الأمر كنصره دعاه وحثه ووجهه » . وفى الحديث : « انتدب الله لمن يخرج فى سبيله » أى أجابه إلى غفرانه ، ويقال : ندبته فانتدب ، أى بعثته ودعوته فأجاب[5] .

٤ — يقول شكيب فى كتاب أناتول فرانس : « إن هذا الهازل العظيم كلما توغل فى حب الطبيعة وعشق الإنسانية تقرب إلى المسائل الاجتماعية . أنجبه الشعب فأراد أن يبقى من الشعب »[6] . ويقول : « فهو عندى أعظم عبقرى أنجبته فرنسة »[7] . ويقول : « أنجبت أفريقية الإسلامية اجتماعياً من الطبقة الأولى فى شخص

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٩ ص ٧٥ .
(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٤٠ .
(٣) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١١٥ .
(٤) أساس البلاغة ، ج ٢ ص ٤٣١ .
(٥) النهاية لابن الأثير ، ج ٢ ص ١٣٤ .
(٦) أناتول فرانس ، ص ٣٨ .
(٧) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

ابن خلدون »[1] . ويقول عن شوقي : « وجدير بالشاعر الذي أنجبه هذا الوادي أن يكون له منه خطاب شهير »[2] .

فاستعمل شكيب في هذه العبارات كلمة (أنجب) متعدية بنفسها ، وهذا لم يرد في كتب اللغة ، فإذا راجعنا اللسان ، والقاموس ، والنهاية ، في مادة (نجب) لا نجد هذه التعدية ، والذي نجده : أنجب الرجل ، أو أنجبت المرأة ، إذا وَلَدَا ولداً نجيباً ، أو ضد ذلك ، وفي الأساس : « وأنجب به والده » فعدّاه بالباء ، واستشهد له بقول الأعشى :

أنجب أيامَ والداه به إذ نجلاه فنعم ما نجلا[3]

٥ — يقول شكيب في كتاب تاريخ غزوات العرب : « هل هم الذين أشار إليهم صاحب نفح الطيب في أوائل الجزء الأول عند ذكر الأمم التي عمرت الأندلس وسماهم البشتولقات أم لا » . ويقول أيضا : « هل فرنسة وسائر ممالك أوربة التي لمّا تخضع لهذا الشعب الجديد تقدر أن تحتفظ بأعز ما يحتفظ به الإنسان من دين ووطن وأوضاع أم لا » . ويقول : « وهل كان المغيرون كلهم من العرب أم كانوا من أمم شتى » . ويقول : « وهل بقي في البلاد منها آثار أم لا » . ويقول : « ولا أعلم هل معتقد ذلك فعلا أم يحاول إنكار وجود آثار للعرب[4] » .

وأكثر علماء النحو على أن (هل) لا يؤتى معها بمعادل ، فلا يقال مثل ما قاله شكيب من عبارات ، وفي كتاب شرح السعد في البلاغة ، جاء هذا النص : « هل يتنبه أم لا : أم هذه منقطعة على ما مرّ تحقيقه . فما قيل : الصواب أيتنبه أم لا ،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص (ج)

(٢) كتاب « شوقي » ، ص ٣٣٤ .

(٣) أساس البلاغة ، ج ٢ ص ٤٢١ .

(٤) كتاب تاريخ غزوات العرب ، ص ١٣٥ و ١٧٥ و ٢٧٨ على التوالي .

ليس بصواب ، على أن أم المتصلة تجيء مع هل على قلة كما فى الرضى[١] » .

وفى الكتاب أيضاً عند الكلام على (أم) :

« تقرر فى كتب النحو أن (هل) لا يؤتى لها بمعادل ، على أن ابن مالك جوز وقوعها موقع الهمزة ، فيؤتى لها بمعادل[٢] » .

وكان الأجدر بشكيب أن يتبع الأصل ، وأن يتابع جمهرة النحاة ! .

٦ — يقول شكيب عن مدينة طلوزة : « ودخلت فيها النصرانية بواسطة القديس سيرنيه[٣] » . ويقول : « حتى إذا ما تمكن هؤلاء بواسطتهم من سرادهم قابوالهم ظهر المجن[٤] » . ويقول عن الخديوى : « تعرض لى إذ أنا بجنيف بواسطة بعض الأصحاب »[٥] .

والصواب أن يقول « الوساطة » مكان « الواسطة » ، لأن الواسطة — كما يقول القاموس — هى مقدم الكور ، وجاء أيضا فى القاموس : « توسط بينهم : عمل الوساطة ، وأخذ الوسط بين الجيد والردىء » .

والعجيب هنا أن شكيب قد عاب على السيد رشيد استعماله كلمة « الواسطة » ، ورد عليه رشيد معتذرا بأنه جارى فى استعمالها العلماء ، ثم يذكر شكيب بأنه رآها فى كلامه أيضا ، فكيف يعيب شكيب ما يفعله[٦] ؟

---

(١) شرح السعد ، ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(٣) تاريخ غزوات العرب ، ص ١٣ .

(٤) جريدة الشورى ، عدد ١٣ أغسطس ١٩٣٠ .

(٥) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٦٥٧ . وكررها فى هوامش ص ٩٥٩ و ٦٦٠ و ٦٦٢ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٠٣ و ٤٠٤ .

٧ — ويقول شكيب : « فأنا أقول إن الوجوه الثلاثة متوفرة[١] » ، ويقول : « حتى يتوفر لكل معنى نديدُه من اللفظ[٢] » .

والصواب أن يقول : « متوافرة » و « يتوافر » ، وذلك لأن معنى « توفر على فلان » هو رعى حرماته ، وتوفر على كذا إذا كان مصروفَ الهمة إليه[٣] وأما التوافر ففيه معنى الوجود والكثرة ، وفى الأساس : « وكان ذلك وأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متوافرون[٤] » .

٨ — يقول شكيب : « فمع الأسف نقول : إن المسألة ليست بسيطة ، وإنها إلى حد هذه الساعة لا تزال فى دور الخطورة القصوى[٥] » . ويقول : « لكنى لم أجد ضروريا مخاطبة رئيس حكومة إيطالية فى قضية بسيطة كهذه[٦] » . ويقول : « ليس بحادث بسيط لا يستوجب الاعتناء[٧] » .

فهو يستعمل كلمة « بسيطة » بمعنى قليلة و « بسيط » بمعنى قليل ، وهذا خطأ ، لأن البسيطة كلمة فيها معنى الاتساع والعظم والانتشار ، وفى القاموس أن البسيط والبسيطة الأرض الواسعة ، والقِدر العظيمة ، والبسيط المنبسط بلسانه ، والبسيط الوجه المتهلل ، والبسيط اليدين المسماح ، والبسطة فى العلم التوسع فيه ، وفى الجسم الطول والكمال .

---

(١) تحت راية القرآن ، ص ٣٤ .
(٢) الدرة اليتيمة ، ص ٣ .
(٣) أساس البلاغة ، ج ٢ ص ٥١٩ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) مجلة الفتح ، السنة الخامسة — العدد ٢٢٠
(٦) المرجع السابق ، السنة السادسة ، العدد ٢٩٦ .
(٧) الارتسامات اللطاف ، ص ٨٣ .

تعريب الأعلام

كتب شكيب سنة ١٨٩٨ مقالا فى مجلة (المشرق) تحدث فيه عن الاضطراب فى تعريب الأعلام العربية المكتوبة بحروف أجنبية ، ثم قال :

« وقد كنتُ فى أول عهد المعاناة عرَّبت تاريخاً لبلاد الجزائر وأخبار المرحوم عبد القادر ، فوجدت فيه كثيراً من الأعلام . من أسماء قبائل وأماكن لم أدر تماماً ما حقيقة أصلها ، فقيدتها كلَّها فى فهرس معى ، وعرضته على حضرة العلامة الشريف السيد محمد مرتضى الحسنى الجزائرى ابن أخى المرحوم الأمير عبد القادر ، وأحد علماء المغرب فى المشرق ، لحقق فى ألفاظها ، وهكذا أمكننى ردُّها إلى أصلها ، لأنه إن أمكنت معرفة الأعلام المشهورة مثل (أوران) بأنها (وهران) ، فكيف تمكن — بدون موقِّف — معرفةُ (أين مدهى) بأنها (عين ماضى) وهلم جرا »[1] .

فلنلاحظ هنا أن شكيب قد كتب هذا المقال سنة ١٨٩٨ ، وأنه بدأ الترجمةَ — كما أشار — فى أول عهد المعاناة ، أى قبل كتابة المقال بسنوات ، وهذا يدل على تبكير شكيب إلى العناية باللغة وما يتصل بها من ترجمة أعلام وتحقيق .

وبعد أن يتحدث شكيب فى المقال المذكور عن خطأ الذين يعرِّبون الأعلامَ المكتوبة بحروف لاتينية ، ويضرب على ذلك أمثلة ، يقترح وضعَ معجم لهذه الأعلام فيقول :

« وأنجع علاج لهذا الداء تأليفُ معجم للأعلام ، يجمع أكثر ما يمكن جمعه من اسم رجل ومدينة وجبل ونهر وغير ذلك مشاراً إلى كلٍّ بعلامته فى محله ، لئلا يقع الوهم فيه والخلط بينه وبين غيره .

---

(١) مجلة المشرق ، المجلد الأول ، ص ٨٧٣ .

ولا يستغنى مع ذلك الكاتب أو المترجم عن علم العربية ومعرفة التاريخ فقد يخلط في ضعفه بين العَلَم والصفة، كما رأيته في أحد التواريخ الحديثة". ثم يقول: " تمس الحاجة إذن إلى معجم تلك صفته، ضناً بشأن العلم والعلماء ووفاء مع الكتابة والكتّاب، وتخلصا من أخذ أسمائنا عن لسان الإفرنجي الذي انتفى منه الحاء والخاء والقاف والعين، وتمكنت العداوة بينه وبين كثير من الحروف "(١)، وقد كان من وراء هذه العدواة أن اشتد تحريف الإفرنج لهذه الأعلام تحريفا فظيعا، حتى يقول شكيب:" وتحريف الإفرنج أسماءالعرب بحر لا يلجج فيه (٢)".

ويظهر أن معاناة شكيب منذ صغره ترجمةَ هذه الأعلام مع النظر فيها قد أكسبته خبرة واسعة بالأماكن والمواقع والأسماء والأشخاص والبلدان والقرى، ولذلك كان الكتاب والمؤلفون وأصحاب المجلات يستفتونه في ذلك، ويتخذوه حجة، وهذا هو الأب لويس شيخو اليسوعي ينشر سنة ١٩٢٧ كتاب " تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، فيستنجد فيه بخبرة شكيب في هذه الناحية، ويستجيب شكيب فيفيدنا الكثير (٣).

وشكيب يطلعنا في كتاباته على شواهد لبراعته في رد الأسماء العربية التي حرَّفها الإفرنج إلى أصلها العربي، ففي سنة ١٩٢٧ دُعي لمشاهدة الحفلات التي أقيمت في روسية لمناسبة مرور عشر سنوات على قيام جمهورية السوفيت، وهناك اجتمعت بالمسيو سادول الشيوعي الفرنسي، ودار بينهما حديث، فقال له شكيب: إن اسمك يا أخي لا يظهر لي أنه فرنسي، فهل تدري ما أصله ؟. قال سادول: قيل لي في أنقرة إنه اسم تركي.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) تاريخ غزوات العرب، ص ٦٧.

(٣) انظر مثلا، ص ٤٧و ٥٢، ٥٦، ١٠٠، ١١٠، من الكتاب المذكور.

قال شكيب : هو فى الحقيقة اسم عربى أصله « سعد الله » ، والأتراك يلفظون هذا المركَّب بحال الرفع ، أى هكذا (سعدو الله) ، ثم يحذفون نصفَ الاسم للتخفيف ، فيصير (سعدول) ، وعندهم من هذا القبيل أسماء أخرى يختصرونها ، مثال ذلك (ويسل) منحوتة من (أويس القرنى) ، و (زنيل) منحوتة من (زين العابدين) ، فأنت اسمك منحوت بدون شك من (سعد الله) .

فقال سادول : ولعل اسمى عربى من أجل أنى من بلاد كانت عربية .

فسأله شكيب : من أى بلد من بلاد فرنسة ؟ .

فأجاب سادول : ولاية تولوز فى الجنوب .

فهتف شكيب : هى طلوزتنا أصلحك الله ، وقد أقمنا هناك .

فقال سادول: عدة قرون ، ولكم آثار باقية ، وكثير من أسماء أماكننا لايزال عربيا ، وكثير من وجوه سكان بلادنا عليه سيماء العرب ، كاللون والعيون .

وعقَّب شكيب على المحادثة قائلا : « وهناك دخلنا فى التاريخ مع ابن عمنا سعدول أو سعد الله ، ولم نخرج منه إلا بعد ساعة[1] » .

* * *

وقد وقع فى يد شكيب رسالةُ تقويم باللغة الفرنسية مطبوعة فى باريس تحت عنوان (تقويم النصائح الحسنة) Al manack De Bon Conceils .

فكتب عنها مقالا قال فى أوله : « ولفظة (الماناك) هذه بمعنى التقويم هى بدون شك عربية ، وبعضهم يذهب إلى أنها (المناخ) بناء على أن التقويم يتضمن حوادث الجو والهواء ، وسمعت الأستاذ الأكبر الطيب الذكر صاحب الفضل على الشرق والشرقيين الدكتور فانديك الأمريكى يقول : إن أصلها (المنهاج) وهو كتاب فى علم التقويم لأحد علماء العرب[2] » .

---

(١) مجلة الزهراء ، المجلد الرابع ، ص ٢٠١ .

(٢) جريدة الشورى ، عدد ١٤ يناير ١٩٢٦ .

وفى كتاب تاريخ غزوات العرب يمر على شكيب اسم zoton فيقول : إن المؤرخين يسمونه تارة (زاتون) ، وطوراً (زادو) Zaddo ، وأحياناً (زاد) Zaad . ولعل أصله سعدون أو سعد ، وفى تاريخ الملك لويس الحليم ورد أن (سعدون) وقع أسيراً فى سربونة[1] .

ويذكر أن أهل سرقسطة يقولون كلمة (رابال) وهى فى الأصل عربية ، لأن أصلها (الربَض) ، وأن أناساً من ثقيف وهذيل يقلبون الضاد لاماً ، وأنه ذكر ذلك فى رحلته الحجازية المسماة بالارتسامات اللطاف[2] .

ويرى شكيب أن كلمة (ترسانة) أصلها عربى هو (دار صنعة) أو (دار صناعة)، لأن العرب كانوا يطلقون هذا الاسمَ على المعامل التى كانت تبنى فيها المراكب البحرية ، فأخذ الافرنج الكلمةَ ونطقوها هكذا (دارسنا) بحسب صعوبة إخراجهم لحرف العين كما لا يخفى ، ثم قلبوها إلى (آرسنا) ، وأضافوا إليها حرف اللام المستعمل عندهم فى النسبة والمقامات الظرفية ، فصارت (أرسنال) . وجاء الترك فحرفوا الكلمة إلى (ترسانة) ، فقالوا عن دار الصناعة التى فى خليج استانبول (ترسانة عامرة)[3] .

ويقول الأستاذ ساطع الحصرى :

« وكلمة (آرسينال) ، « ترسانة » التى يستعملها الأوربيون للدلالة على المصانع والمخازن الحربية والبحرية كذلك ، محرّفة من كلمة عربية هى دار الصناعة ، وشكل هذه الكلمة فى الأسبانية لا يترك مجالا للشك فى هذا الأصل العربى : دارسانا Darsana »[4] .

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ١٣٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤ .
(٣) المرجع السابق ، هامش ص ١٣٩ .
(٤) المحاضرة الافتتاحية ، ص ٦ .

ويستبد التحليلُ اللغوى بشكيب أحياناً كثيرة ، فنراه مثلا يعلق على كلمة (الصقالبة) فيذكر أن الصقالبة يقال لهم السلاف ، ومعنى السلاف : الشرفاء ، وانقلب المعنى فجاء من السلاف لفظة اسكلاف بمعنى عبد ، والعرب قلبوا الفاء باء ، ولفظوا الإسكلافون إصقلابون ، والصقلاب هو الرجل الأبيض أو الأحمر .. إلخ[1] .

ومن مظاهر ملاحظته الدقيقة فى مجال التعريب للأعلام قوله :

« قد ضبطنا (الأولنب) بالنون ، لأن من عادة العرب أن لا يأتوا قبل الباء إلا بالنون ، بخلاف الإفرنج الذين يقولون Olympe و Tombouctou ، فيجعلون الميم قبل الباء ، ويكتبونها : تمبكتو ، ويقولون AMBIC أى الأنبيق ، ويكتبونها أمبيق[2] » .

* * *

ويرى شكيب أننا إذا عربنا كلمة فيها حرف صائت (U, Eu, ou,o) يجب أن نضع فوق مقابله العربى ما يشير إلى جهة نطقه ، فنضع واواً إذا كان مائلا إلى الواو ، وياء إذا كان مائلا إلى الياء ، وألفاً إذا كان مائلا إلى الألف ؛ ثم يقول : « وبدون هذه الإشارات يبقى التعريب ناقصاً جداً ، وهو شَيْن لاحقٌ بالعربية »[3] .

وهو يحث على الترجمة ، ويطالب باستمرار الاستفادة منها ، لأن اللغة العربية استفادت قديما من الترجمة فوائد كثيرة ، ويقول : « وكذلك يكون من تمام محاسن هذه اللغة أن تكون حاوية من آداب الأجانب الحاضرين وفنونهم وعقائل نظمهم ونثرهم ما إن لم يكف ذوى الإخصاء مئونة درس هذه الآداب فى لغتها الأصلية كان كافياً لسواد السواد الأعظم مئونة المشاركة بها فى اللغة العربية نفسها » .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١ و ٢ .

(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، هامش ص ٢٦٨ .

(٣) مجلة الزهراء ، عدد صفر ١٣٤٤ — ١٩٢٥ م ص ٨٨ .

ولكنه يشترط على ناشئة العرب أن لا « يعدلوا بهذه الأم العربية البرّة أمّا، ولا يجعلوا لها من بين اللغات نداً» ، فيجملوها أولا ، ويحسنوها قبل كل شيء ، ثم يستزيدوا ما أرادوا . وأن يجمعوا بين التليد والطريف ، وينقلوا البدائع بشرط أن يكون الأسلوب العربي الأصيل ظلها وماءها ، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها ، وأن تكون لغة الكتاب المنزّل على أفصح العرب ألفها وباءها ، إذ بدون ذلك تفسد هذه اللغة الشريفة »[١] .

(١) أناتول فرانس في مباذله ، ص ٦ .

العامي الفصيح

لشكيب كتاب مخطوط عنوانه « القول الفصل في رد العامي إلى الأصل » يرد عنه حديث عند الكلام عن كتب شكيب وآثاره ، وليس بغريب أن أن يعنى شكيب بتتبع ملامح الفصحى بين جنبات العامية ، وقد كانت هذه العناية منذ وقت مبكر في حياته ، فنحن نراه يعلق في مجلة المجمع العلمي العربي على اقتراح الشيخ عبد القادر المغربي باستعمال كلمة (نَغَشَ) الواردة في كتاب (نشوار المحاضرة) بمعنى تحرك الشيء حركة اضطراب ، فيقول :

« إن نغش هذه تستعمل كثيراً في حركة القلب ، وجاء في اللغة : نغش إليه بمعنى مال إليه [1] ، والعامة عندنا في جبل لبنان تقول : صار القلب ينغنش ، يضيفون إليها النون كعادتهم في ألفاظ كثيرة يضاعفونها ، وذلك في معنى حركة القلب من الحب .

وأحياناً يقلبون النون ميماً ، كما هو شأنهم في كلمات عديدة ، فيقولون (ينَغمِش) و (نَغمَش) ، ويقولون عن المرأة الحسناء ، أو التي فيها جذب لمحب (نِغشَة) ، كأنهم لحظوا في ذلك حركة القلب عند رؤيتها ، أو حركتها هي التي ينغش لها القلب » [2] .

ويتحدث عن كلمة (استهتر) بمعنى اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل ، ويلاحظ أن العامة في جبل لبنان نقلوها إلى معنى الاستخفاف ، ويقولون : ما زال يستهتر بهذه المسألة حتى كبرت ، أو : لا تستهتر بهذا الأمر تندم ، وما أشبه ذلك .

ويذكر شكيب وجه المناسبة ، وهو أن كل من يتبع هواه ولا يبالي ، يصير

---

(١) في القاموس : « وهو ينغش إليه : يميل » .

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٥ ـ الجزء الأول ، كانون الثاني ١٩٢٥ .

مستخفاً بما يقوله الناس وبما يحدث ، فالاستهتار بمعنى الاستخفاف أصله الاستهتار بمعنى اتباع الهوى [١] .

ويذهب شكيب لزيارة بلدة « قلعة جندل » بلبنان فيقول له الخورى هناك: « لنا معتوب عليك ، وهو أنك لما جئت لم تعلم حتى صرت على مقربة من القرية فلو علمنا من قبل لكان استقبالنا لك أحفل » : فقال له شكيب : « ما أرى بقى من أهل القرية أحد لم يخرج للاستقبال ، بارك الله فى همتكم » .

ثم يعلق شكيب بأن الخورى قال (معتوب) بمعنى (عَتب) ، أي جاء بالمصدر على وزن اسم المفعول ، وهو وارد فى اللغة ، ومنه مصادر معدودة ، ثم قال شكيب : « سبحان الله ، حتى العامة تنطق بألفاظ لها أصل أصيل فى اللغة » [٢] .

ويستعمل شكيب كلمة (الزيطة) فى إحدى مقالاته ، ويقول عند الاستعمال: « الزيطة من العامى الفصيح » [٣] .

وفى كتاب « أناتول فرانس فى مباذله » أورد شكيب كلمات و تعبيرات نص على أنها من العامى الفصيح ، منها (الكَسْع) بمعنى ضرب دبر الإنسان بصدر القدم ، و (الخَرْمَشة) بمعنى إفساد السطور ، و (الهَفَّاف) بمعنى الشفاف الرقيق ، و (تَمنفَصَ) بمعنى زها وتكبر ، و (السخام) بمعنى سواد القدر ، و (أشحطه) بمعنى أبعده ، و (خباص مخرفش) بمعنى الذى يخلط الأشياء ، و (المراح) بمعنى مأوى البهائم — والعامة تفتح الميم المضمومة فيه — و (هدهدة) بمعنى تحريك الصبى لينام [٤] .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الشورى ، عدد ٢٦ نوفمبر ١٩٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، عدد ٨ إبريل ١٩٢٦ .
(٤) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٤٤ و ١١٠ و ١٣٤ و ١٥٣ و ١٥٥ و ١٢٩ و ١٩١ و ٢٠١ و ٢٨٣ ، على التوالى .

وينبغى أن نتذكر هنا أن شكيب الذى يُعنى برد العامى إلى الفصيح ، ويدعو إلى استعمال هذا العامى بعد رده ، هو نفسه الذى يحرص على استعمال الغريب النادر ، فهو يجمع بين الطرفين ، وكأنه يريد أن يُثبت قدرته فى المجالين ، وأن يبيِّن تبريزه فى الميدانين .

إن شكيب الذى تقبع هذا العامى الفصيح المأنوس فى الاستعمال عند العامة هو نفسه الذى يأتى فى الكتاب ذاته بالمجهول للعامة ولكثير من الخاصة ، فيستعمل (المَنّ المِتْيَح) للذى يعرض فى كل شىء وقلبُه كثير التنقل . و (عَدّان) [١] بمعنى عهد ، و (أتْو) بمعنى طريق ، و (جَرَاهِيَة) بمعنى جابة . و (المُنْفَهِق) المتسع ، و (انتِجَاف) بمعنى إسراع ، و (الخُرْثِىّ) لأثاث البيت ، و (وَافِه البِيْعَة) بمعنى قَيِّم البيعة ، و (البِعَاع) بمعنى الثقل ، و (المَاجّ) بمعنى الشيخ الذى لا يقدر أن يُمسك ريقَه من الكِبَر ، و (المَجْمَجَة) بمعنى التخليط فى الخط ، و (سُبْرُوتة) بمعنى صعلوكة ، و (المُسْطِل) بمعنى الذى يتكلم بكلام لا نظام له ، و (الخَرُوط) — بفتح فضم — بمعنى من يركب رأسه بدون معرفة ، و (البَزَاعَة) بمعنى الكَيْس والظَّرْف ، و (المُسَرْهَد) الذى يتنعم ويتغذى ، و (البَرَهْرَهَة) للمرأة الشديدة البياض ، و (لَثْلَثَ فى كلامه) بمعنى لم يبينه أو تردد فيه ، و (القَهْقَاه) للحسن القيام على المال ، و (الهِبْلَاع) للمفرط فى الأكل ، و (السَّرِيس) للعاجز عن الباه ، و (تَفَخَّلَ) بمعنى لبس أحسن ثيابه [٢] .

ويلاحظ شكيب أن الناس فى جبل لبنان يقولون (قندى) بمعنى ضعف

---

(١) بفتح العين وكسرها (القاموس) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ و ٢٧ و ٥٥ و ٨٠ و ٨١ و ٨٢ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠٤ و ١١٠ و ١١٩ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٧٠ و ١٨٥ و ١٩٣ و ٢٠٢ و ٢١٩ و ٢٢٤ و ٢٥٣ و ٣٠٢ . على التوالى .

واستخذى ، ويبحث شكيب عن اللفظة لمشروع كتابه في ردّ العامى إلى الأصل الفصيح ، فلا يجد (قندى) بعينها ، ولكنه يجد (قندلَ) بمعنى ارتقى[1] .

ويعْنَى بتتبع ما أدخلته العامة على الفصيح عند استعمالها له من تغيير ، فكلمة (مرسح) في رأيه مقلوبة من (مسرح) ، ثم يعدّل رأيه فيقول إن (المرسح) تحريف من كلمة (المرزح) ، وهو ما اطمأن من الأرض ، وبعبارة أخرى : الساحة ، وحرّفها العامة مرسحا ، كما يحرفون كثيرا من الزاى إلى السين ، ومن السين إلى الزاى[2] .

وتبرع الأمير شكيب بجانب من المال لمنكوبى بلدة (الصلت) في شرق الأردن ، بمناسبة زلزال أضرَّ بها ، فأعلنت جريدة الشورى النبأ ، وكتبت اسمَ البلدة بالسين والطاء (السلط) حسب الشائع ، فكتب شكيب خطابا إلى صاحب الشورى بعنوان : (الصلت لا السلط ، ولا ندفع إلا على هـذا الشرط) . وقال في خطابه : « إياكم أن تكتبوها السلط » . ثم يقول : « والعامة — لا بل الخاصة أحيانا — لا يزالون يحرقون قلوبنا بتحريف الكَلِم عن مواضعه ، وبكتابتها بالسين والطاء ، وفى ذلك من ربكم بلاء » . كما يقول : « ولكنى متعجب من الأستاذ خفير اللغة إسعاف أفندى النشاشيبى كيف لا ينضم إلينا نحن الاثنين[3] في هـذا المأتم الذى ليس زلزالُ الصلت بأصدع منه للقلوب ، وأن لا يكون له صوت في هذه المناحة .

ولا أعفى الأستاذ السكاكينى [خليل السكاكينى] نفسَه من مشاطرتنا هذه القيامة

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٤ — العدد ٦ .

(٢) أناتول فرانس في مباذله ، ص ١٠٧ .

(٣) يقصد نفسه وأحمد زكى باشا الذى شارك شكيب في القول بأنها (الصلت) لا (السلط) ، واستشهد زكى باشا على ذلك بمعجم البلدان ، وأضاف شكيب الاستشهاد بتاريخ أبى الفداء ، وبشعر المتنبى . انظر المقال نفسه .

مهما يكن من حبه للتجدد ، وشنآنه لكل قديم ، فإن الانفلات من كل قيد لا ينبغي أن يصل إلى قُدس أقداس اللغة والعياذ بالله [١] » .

إن شكيب يبالغ فى تصوير الأمر ، فيصف تحريف كلمة (الصلت) بأنه بلاء ، وأنه مأتم ، وأن زلزال الصلت ليس بأصدع منه للقلوب ، وبأن التحريف استحق مناحة وصفها بقوله « هذه القيامة » ، وقال إن الموضوع يتعلق بقدس أقداس اللغة ! .

ولابد أن معترضين عترضوا على مبالغة شكيب ، ولذلك عاد يخفف حدة المبالغة ويقول إنه أراد بهذه المباحثة اللغوية الإحماض والمداعبة لزكى باشا [٢] .

• • •

وقد أسهم شكيب منذ زمن متقدم فى وضع المصطلحات والكلمات العربية فى مقابل الكلمات الأفرنجية ، وفى اقتراح استعمال كلمات لمعان تحتاج إليها . وإحصاء هذه المصطلحات والكلمات يحتاج إلى مجال واسع ، وحسبى أن أثبت هنا طائفة منها :

استعمل شكيب كلمة (الصُّنْبور) لترجمة كلمة بايب (Pipe) ، و (الدَّرَّاعة) الجاكت ، و (البَنِيقَة) لمكان القبة (الياقة) ، و (بيوت الزَّرَاجين) للبارات (Bars) [٣] .

واستعمل (الظهير) فى مقابلة (الفرمان العثمانى) [٤] ، و (تذكرة النفوس) لجواز السفر أو البطاقة الشخصية [٥] ، و (المَغْنَى) للفيلا ، و (الناموس) للسكرتير [٦] ، و (الهاتف) للتليفون [٧] .

---

(١) الشورى ، عدد ١٥ سبتمبر ١٩٢٧ .
(٢) المرجع السابق ، عدد ١٣ أكتوبر ١٩٢٧ .
(٣) أناتول فرانس ، ص ١٩٠ و ١٣٤ و ١٣٠ و ٩٨ .
(٤) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٢٠ .
(٥) منبر الشرق ، عدد ٢٧ فبراير ١٩٥٣ نقلا عن رسالة من شكيب للغاياتى تاريخها ٢١ مايو سنة ١٩١٩ .
(٦) الأمير شكيب ، ص ٢٠١ .
(٧) أناتول فرانس ، ص ١٨٣

وليس معنى هذا أنى أجزم بأن شكيب هو أول من دعا إلى استعمال هذه الكلمات فى هذه المواطن ، فقد يكون سابقاً فى بعضها ، وقد يكون غيره شاركه أو سبقه فى الدعوة إليها ، وتحديد هذا كله يحتاج إلى بحث مستقل .

لا شك أن شكيب قد خدم اللغة العربية ، ودافع عنها ، ودعا إلى توسيع نطاقها ، وأحيا الكثير من مفرداتها ، ولو أن باحثاً عكف على استيعاب الجهود اللغوية لشكيب ، منذ التفت إليها حتى ترك الدنيا ، لوجد بين يديه مادة ضخمة تصلح أساساً كاملا لبحث لغوى كبير متشعب الجهات .

« تم الجزء الأول بحمد الله تعالى »

فهرس الجزء الأول

« ملاحظة : المصادر والمراجع ستأتى فى الجزء الثانى »